

بقلم

المهتدي بالله عبد القادر بن إسماعيل الإبراهيمي

تنقيح

نخبة من طلبة العلم

الجزء الأول

مكتبة دار الحنفاء



الجزء الأول

بقلم :

المهتدي بالله عبد القادر بن إسماعيل الإبراهيمي

تنقيح :

نخبة من طلبة العلم

مكتبة دار الحنفاء

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـــ - ٢٠٠٩ م

إهداء

إلى المسلمين الغرباء الذين وقفوا صامدين بفضل الله ومَنِّـــهِ وكرمه أمام كل الشبهات ... حنفاء ، مائلين مـــن الـــشرك إلى التوحيد ، ومن المتشابه إلى المحكم ، ومن أقوال الرجال إلى نصوص الوحي والتتريل ... ثبتنا الله وإياهم على الإســـلام إلى الممـــات ، وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته ... حيث لا نخاف فرقة ولا نتوقع إزالة ...

وإلى الذين تركوا المحكم فأغرقتهم أمواج الشبهات ... وإلى اللذين أطاعوا سادهم وكبراؤهم فأضلوهم السبيل ... ســـائلاً الله عز وجل أن يردهم إلى الحق المبين ، وإلى صراطه المستقيم ...

إنه على كل شيء قدير ... هو نعم المولى ونعم النصير ...

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قال الله عز وجل في كتابه الكريم :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ۝ ﴾ (النساء: ١)

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ۝ ﴾ (لقمان: ٣٣)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا** ۝ ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** ۝ ﴾ (النساء: ١٧٤-١٧٥)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ۝ ﴾ (الأنفال: ٢٩)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ۝ ﴾ (الحديد: ٢٨)

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ۝ ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ۝ ﴾ (يوسف: ١٠٨)



المقدمة

الحمد لله على توفيقه ، وإحسانه ، وإعانته ، وامتنانه ، وكرمه ، وخفيِّ لطفه ، وجليِّ فضله ، وسعَة رحمته ، فقد خصَّ المؤمنين الموحدين بما أنعم عليهم من هدايتهم لطاعته ، وإرشادهم لإفراده بجمال ذاته ، وجلال أفعاله ، وحكمة خلقه وأمره ، وكمال صفاته ، وباهر قدرته وعلمه ، فوحَّدوه في عبادته كما نزَّهوه في صفاته ، ووالوا الناس في ذلك وعادوا عليه ، فادَّخرَ لهم نعيماً مقيماً في جنَّته ، فرحين بما آتاهم الله من فضله وسعَة خزائنه ، وأعدَّ للكافرين جزاءً على تعطيلهم وشركهم ناراً بعدله وقسطه ، فنسأله سبحانه مزيداً من توفيقه وامتنانه ، فإنه جواد كريم رحيم بالمؤمنين من عباده ، ولا يخيب من إليه توجه بدعائه .

والصلاة والسلام على رسولنا وحبيبنا وإمامنا محمد بن عبد الله الذي اختاره الله لنبوته ، وختم به قافلة رسله ، واصطفاه لخلته ، بلَّغ به توحيدَهُ وشرعَهُ ، وأنزل عليه وحيَهُ وكلامَهُ ، وأقام به على الناس حجَّتَهُ ، فالسعيد من اتبعَهُ ووقَّرَهُ ، والشقي من أعرضَ عنهُ وخالفَ منهجهُ ، فصلاة ربي وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، وسار على دربه ، وبعد ،

فإن الصراع بين المسلمين وبين شياطين الجن والإنس ، صراع قديم حديث ، يحشد فيه إبليس جنوده من الجن والإنس في ذلك ، بالشهوات تارة ، وبالشبهات تارة أخرى . ولتمييع حدود الإسلام وتضييع حقيقته وطمس معالمه خرج علينا أولياء الشيطان بشبهة مفادها أن مرتكب الشرك الأكبر جاهلاً أو متأولاً هو مسلم ما دام يتلفظ بالشهادتين لكي يحصروا الإسلام في التلفظ بالشهادتين فقط . فظنوا الإسلام مجرد ألفاظ مجردة عن المعاني الحقيقية ، وكأن السيوف التي جُرِدَتْ ، والأوطان التي هُجِرَتْ ، والحروب التي أضرمت ، والأعناق التي ضربت ، والجنة التي خلقت ، والنار التي أججت ، إنما كانت لألفاظ خاوية من المعاني ، أو ألفاظٍ دون عمل بمقتضاها .

ولإثبات هذا المعتقد الفاسد أتوا بشبهات عديدة داحضة ، ومن ثم تمادوا في غيِّهم وباطلهم فعدوا من ظن النقص بالله عز وجل من المؤمنين الموحدين العارفين بالله سبحانه وتعالى إن كان جاهلاً أو متأولاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – وعدوا الإيمان بكمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله من مكملات الإيمان لا من أصله وأساسه . واستندوا في هذا التأصيل الفاسد إلى شبهات كثيرة لم ينج منها إلا من وفقه الله عز وجل وهداه .

وأشهر شبهاتهم التي يدندنون حولها كثيراً ، ويعتبرونها من أقوى أدلتهم على معتقدهم الباطل ، والتي ما سلم منها إلا القليل القليل ممن رحمهم الله عز وجل ولطف بهم ، هو فهمهم الفاسد لحديث الرجل الموحد من بني إسرائيل الذي أوصى أولاده بحرقه بعد موته خشية من الله وخوفاً وليس شكاً في قدرة الله وفي علمه كما زعموا ، وفهمهم الفاسد لقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الوارد في حديث دعاء النبي صلى الله عليه

وآله وسلم لأهل البقيع . حيث قالوا عن الرجل الموحد من بني إسرائيل أنه ظن أنه سيخفى مكانه على علم الله عز وجل إذا تفرق رماده في البر والبحر ، وأنه شك في قدرة الله على إحيائه من هذا الرماد المتفرق في البر والبحر ، وأنه مع هذا الشك في كمال علم الله عز وجل وكمال قدرته سبحانه وتعالى بقي مسلماً موحداً ، ورموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالجهل بأن الله عليم بذات الصدور – عليهم من الله ما يستحقون – وزعموا أن هذا الجهل حول كمال علم الله عز وجل لا يخرج المرء من الإسلام .

وجعلوا هذا الفهم الفاسد أساساً لعقيدتهم في إعذار من عبد غير الله جاهلاً إن كان يتلفظ بالشهادتين . لأن من عذر الشاك في قدرة الله وفي علمه – سبحانه وتعالى – بالجهل أو التأويل لا غرابة أنه سيعذر من عبد غير الله – سبحانه وتعالى – بالجهل أو التأويل .

وللأسف فإن شر هاتين الشبهتين وخصوصاً الأولى منها قد راجت ونخرت في عظم كثير من المنتسبين للتوحيد حتى أهلكتهم ، وانتشر وباء الفهم الفاسد لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى بين من يدَّعون أنهم لا يعذرون من وقع في الشرك الأكبر جاهلاً ، فتجد من لا يعذر من عبد غير الله بالجهل والتأويل أصبح يعذر من جهل كمال صفات الله عز وجل أو من ظن النقص في صفات الله عز وجل . وعمَّت المحنة حتى أصَّل بعض من يظنهم الناس علماء التوحيد أصولاً فاسدة تتعلق بهذه المسألة ، فاختلط الحابل بالنابل و لم يسلم من هذه الفتنة إلا من رحمه الله عز وجل .

فلما كان ما كان استعنت بملك الملوك جل جلاله في دحض هاتين الشبهتين ونسفهما من قواعدهما بالأدلة القاطعة والتأصيل الشرعي والفهم الصحيح على نهج الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ، مضيفاً إليهما دحض شبهات أخرى في نفس الباب ، ولقد أسميت هذه الرسالة بفضل الله عز وجل : « **توفيق اللطيف المنَّان في بيان أن الشَّاك في الله ليس من أهل الإيمان وأن الموالي له في الحكم سيَّان** » . وقد جعلتها جزئين ؛ فالجزء الأول هو أصل الرسالة . وأما الجزء الثاني فخصصته لكشف الشبهات المثارة حول بعض الأقوال التي نسبت إلى أهل العلم والتي استدل بها المغرضون في ادعائهم أنهم بالسلف مقتدون وأنهم على نهجهم سائرون ، وأنى لهم أن يكونوا كذلك .

ولقد يسر الله سبحانه وتعالى لهذه الرسالة نخبة من طلبة العلم راجعوها وأفادوا تعليقات قيمة ، وإضافات مهمة هي مبثوثة في ثنايا هذه الرسالة فجزاهم الله عن الإسلام خيراً ، وهدانا وإياهم إلى الحق دائماً وأبداً ، ظاهراً وباطناً . فأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد فما كان في هذه الرسالة من صواب فمن الله وحده ؛ منَّ به على من شاء من عباده ، وما كان فيها من خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء .

كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، هادياً خلقه إلى طريقه القويم ، وصراطه المستقيم ، وأن يفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، ويهدي به التائهين ، فهو لطيف لما يشاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، له الملك وله الحمد ، وله الحكم وله الأمر ، وهو على كل شيء قدير .

وكتبه راجي رحمة الملك الحق ، العبد المهتدي بالله ، عبد القادر بن إسماعيل الإبراهيمي غفر الله له .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباب الأول

المقدمات الممهدات لكشف شبهات المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين

المقدمة الأولى : المخرج المنجي عند حلول الفتن والشبهات هو الرجوع إلى كتاب الله عز وجل وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا إلى أقوال الرجال المجردة

مما لا يخفى على المستبصر في هذا الزمان أن الإسلام عاد غريباً كما بدأ غريباً أول مرة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ** » [(١)] .

ومن أعظم الفتن في زماننا هذا وفي كل زمان فتنة الاختلاف في الدين ، الذي من أهم أسباب وقوعه تقديم الدنيا على الدين أو اتباع العلماء على غير بصيرة من الله عز وجل أو الاستماع للمنافقين الهادمين للدين باسم الدين .

أخرج أبو داوود في سننه في كتاب السنة ، باب لزوم السنة عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيِّ عَائِذَ اللَّهِ : أَنَّ يَزِيدَ بْنَ عُمَيْرَةَ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَخْبَرَهُ قَالَ : كَانَ لاَ يَجْلِسُ مَجْلِسًا لِلذِّكْرِ حِينَ يَجْلِسُ إِلاَّ قَالَ : (**اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ**) ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَوْمًا : (**إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ . فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ : مَا لِلنَّاسِ لاَ يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ، مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلاَلَةٌ . وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ**). قَالَ : قُلْتُ لِمُعَاذٍ : مَا يُدْرِينِي رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلاَلَةِ ، وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ ؟ قَالَ : (**بَلَى ، اجْتَنِبْ مِنْ كَلاَمِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا مَا هَذِهِ ، وَلاَ يُثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ ، فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا**) [(٢)] .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستعيذ من هذه الفتنة في افتتاح صلاته إذا قام من الليل كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ : سَأَلْتُ عَائِشَةَ

[(١)] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً وأنه يأرز بين المسجدين ، ط. المطبعة العامرة (٩٠/١) ، طبعة المكنز (ص ٨٦ ، حديث رقم ٣٨٩) .

[(٢)] سنن أبي داوود ، كتاب السنة / باب لزوم السنة ، ط. المكنز (حديث رقم ٤٦١١ ، ص ٩٠٧-٩٠٨) ، ط. دار الأرقم بن أبي الأرقم (حديث رقم : ٤٦١١ ، ص ١٠٥٤-١٠٥٥) ، صحيح سنن أبي داوود باختصار السند للألباني ، ص ٨٧٢ ، وقال عنه : (صحيح الإسناد موقوف) .

أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَفْتَتِحُ صَلاَتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ : كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاَتَهُ : « **اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** » [1] .

فنسأل الله عز وجل أن يرحمنا برحمته ، وأن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه . اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك ، ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۞** ﴾ (آل عمران: ٨)

ولما كان الاختلاف واقعاً [2] وجب عليك معرفة قاعدة النجاة من الفتن والشبهات ، وهو أن الله سبحانه وتعالى أمرنا عند التنازع والاختلاف في أي شيء أن نرده إلى كتابه وإلى سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله عز وجل : ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ (النساء: ٥٩) وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ (الشورى: ١٠)

و لم يأمرنا أبداً بالرجوع إلى عالم بعينه ، لأن العلماء ليسوا حجة في دين الله عز وجل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما اتباعه من باب أنه ينقل عن الله عز وجل وليس لأنه يطاع لذاته ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۞** ﴾ (النجم: ٣-٤) ، لـــذا كانت طـــاعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم طاعة لله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ (النساء: ٨٠) .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـــ) : (فإن تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته وطاعته تابع لتعظيم مرسله سبحانه وإجلاله ومحبته وطاعته ، فمحال أن تثبت المحبة والطاعة والتعظيم والإجلال للرسول صلى الله عليه وسلم دون مرسله ، بل إنما يثبت ذلك له تبعاً لمحبة الله وتعظيمه وإجلاله ، ولهذا كانت طاعة الرسول طاعة الله ، فمن يطع الرسول فقط أطاع الله) [3] .

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها / باب الدعاء في صلاة الليل ، ط. المطبعة العامرة (١٨٥/٢) ، ط. المكتر (حديث رقم ١٨٤٧ ، ص ٣٦١) .

[2] قال الحسن البصري في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُم** ﴾ (هود: ١١٨-١١٩) : (الناس مختلفون على أديان شتى ﴿ **إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ** ﴾ فمن رحم ربك غير مختلف ، فقيل له : لذلك خلقهم ، قال : خلق هؤلاء لجنته ، وخلق هؤلاء لناره ، وخلق هؤلاء لرحمته ، وخلق هؤلاء لعذابه . وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش) . (تفسير ابن كثير ج٤ ، ص٣٦٢) .

[3] جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام ، ص ٣٩٥ .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (ومنها قوله : ﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ** ﴾ (النساء:٥٩) ، نكرة في سياق الشرط تعم كلَّ ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين دقِّه وجلِّه، جليِّه وخفيِّه، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا لم يأمر بالردِّ إليه ، إذ من الممتنع أن يأمر تَعَالَى بالردِّ عند التزاع إلى من لا يوجد عنده فصل التزاع .

ومنها؛ أن الناس أجمعوا أن الردَّ إلى الله سبحانه هو الردُّ إلى كتابه، والردَّ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الردُّ إليه نفسه في حياته ، وإلى سنته بعد وفاته .

ومنها؛ أنه جعل هذا الردَّ من موجبات الإيمان ولوازمه ، فإذا انتفى هذا الردُّ انتفى الإيمان ضرورة انتفاء الملزوم لانتفاء لازمه ، ولا سيَّمَا التلازم بين هذين الأمرين ، فإنه من الطرفين وكل منهما ينتفي بانتفاء الآخر ، ثم أخبرهم أن هذا الردَّ خير لهم وأن عاقبته أحسن عاقبة ، ثم أخبر سبحانه أن من تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول فقد حكَّم الطاغوت وتحاكم إليه ، **والطاغوت ؛ كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله ، أو يعبدونه من دون الله ، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله ، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله** ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت ، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته ، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ، ولا قصدوا قصدهم ، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا) [(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فإذا تنازع المسلمون في مسألة وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأي القولين دل عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه) [(٢)] . وقال في موضع آخر : (جماع الفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغي وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه ، وبه حصل الفرقان والهدى والعلم والإيمان ، فيصدق بأنه حق وصدق ، **وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه فإن وافقه فهو حق وإن خالفه فهو باطل**) [(٣)] .

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠-٢٠٤هـ) : (ومن تنازع بعد الرسول صلى الله عليه وسلم رد الأمر إلى قضاء الله ، ثم قضاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاءً

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (١/٤٩-٥٠) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٠/١٢) .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/١٣٥-١٣٦) .

نصاً ولا في أحدهما ردوه قياساً على أحدهما) [١] . وقال في موضع آخر : (وأنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، **وأن ما سواهما تبع لهما**) [٢] .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي القرطبي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (فإن قال قائل : فما وجه قوله تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ (النحل:٤٣) ؟

قيل له وبالله التوفيق : إنه تَعَالَى أمرنا أن نسأل أهل العلم عما حَكَم به الله تَعَالَى في هذه المسألة ، وما رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، و لم يأمرنا أن نسألهم عن شريعة جديدة يحدثونها لنا من آرائهم ، وقد بيَّن ذلك عليه السلام بقوله : « **فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ** » [٣]) [٤].

والعدول عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أقوال الرجال المجردة مؤدَّاهُ إلى الضلال حتماً ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« **تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ** » [٥] .

فطريق النجاة في الدنيا والآخرة هو التمسك بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم . أخرج أبو داود في سننه في كتاب السنة / باب في لزوم السنة عَنْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَمْرٍو السُّلَمِيُّ وَحُجْرُ بْنُ حُجْرٍ قَالاَ : أَتَيْنَا الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ ، وَهُوَ مِمَّنْ نَزَلَ فيه : ﴿ **وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ (التوبة: ٩٢) فَسَلَّمْنَا وَقُلْنَا : أَتَيْنَاكَ زَائِرِينَ ، وَعَائِدِينَ ، وَمُقْتَبِسِينَ ، فَقَالَ الْعِرْبَاضُ : (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ :

« **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ** ») [٦] .

---

[١] الرسالة للإمام الشافعي ، ص ٨١ .

[٢] الرسالة للإمام الشافعي ، ص ٣٩ .

[٣] صحيح البخاري ، كتاب الحج / باب الخطبة أيام منى ، ط. المكتر (حديث رقم ١٧٤١ ، ص٤٤٨) ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٢) .

[٤] الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٢٩٥/٦-٢٩٦) .

[٥] الموطأ برواية أبي مصعب الزهري ، كتاب الجامع / باب النهي عن القول بالقدر (٧٠/٢) ، حديث رقم ١٨٧٤ .

[٦] سنن أبي داوود ، كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، ط. المكتر (حديث رقم : ٤٦٠٧ ، ص ٩٠٧) ، ط. دار الأرقم بن أبي الأرقم (ص ١٠٥٣ ، حديث رقم : ٤٦٠٧) ، صحيح سنن أبي داوود باختصار السند للألباني ، ص ٨٧١ ، وقال عنه (صحيح) ، ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج .

المقدمة الثانية : أهل الهدى والفرقان يردون المتشابه إلى المحكم بخلاف أهل الزيغ والضلال

اعلم هداك الله أن أهل الهدى يقررون المسائل بالمحكم من الكتاب والسنة ويحملون المتشابه على المحكم ، والجزئي على الكلي ، بخلاف أهل الزيغ والضلال ، وقد بين الله عز وجل ذلك في كتابه العزيز فقال :

﴿ **هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ (آل عمران: ٧)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (يُخبر تعالى أنَّ في القرآن آيات محكمات هُنَّ أمُّ الكتاب؛ أي بَيِّنات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رَدَّ ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحَكَّم مُحْكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عَكَس انعكس . ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالى ﴿ **هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ أي أصله الذي يُرجع إليه عند الاشتباه ، ﴿ **وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئا آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد)[١] ... إلى أن قال : (ولهذا قال الله تَعَالَى : ﴿ **فَأَمَّا الَّذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ **فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ** ﴾ **أي إنما يأخذون بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرِّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه** ، فأما المُحْكَم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجةٌ عليهم ، ولهذا قال الله تَعَالَى : ﴿ **ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ** ﴾ **أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم** ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ** ﴾ (الزخرف: ٥٩) وبقوله: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران: ٥٩) وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله ، وعبد ، ورسول من رسل الله . وقوله : ﴿ **وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ أي: تحريفه على ما يريدون)[٢] .

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (فمعنى الكلام إذا ﴿ **فَأَمَّا الَّذينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ عن الحق وحيف عنه فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه واحتمل صرف صارفه في

---

[١] تفسير ابن كثير (٢/٦-٧) .

[٢] تفسير ابن كثير (٢/٨) .

وجوه التأويلات – باحتماله المعاني المختلفة – إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره احتجاجاً بـه على باطله الذي مال إليه قلبه دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من آي كتابه) [١] .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (وأهل السنة يأخذون بالمحكم ، ويردون ما تشابه إليه ، وهذه طريقة الراسخين في العلم كما وصفهم الله عز وجل في كتابه ، وهذا الموضع مما زل فيه أقدام كثير من أهل الضلالات ، أما أهل السنة فليس لهم مذهب إلا اتباع الحق يدورون معه كيفما دار) [٢].

فشبه أهل الزيغ والضلال أحد ثلاثة لا غير :

الأول : الاحتجاج بغير الكتاب والسنة من أقوال الرجال ، والتي هي ليست حجة في دين الله عز وجل كما أشرنا إليه في المقدمة السابقة .

الثاني : الاحتجاج بنص صريح واضح الدلالة ولكن غير صحيح ، بأن يكون حديثاً موضوعاً ونحوه.

الثالث : الاحتجاج بنص صحيح من الكتاب والسنة ولكن غير صريح ، أي غير محكم الدلالة فيما احتجوا عليه ، والنصوص الصحيحة من الكتاب والسنة التي يحتجون بها على باطلهم على ضربين :

الأول : أن تكون نصوصاً محتملة غير محكمة الدلالة وغير صريحة فيما احتجوا عليه ، فأهل الهدى والفرقان يرجعونها إلى المحكم كي يعرفوا المراد منها ، لكن أهل الزيغ يحرفونها على ما يريدون ابتغاء الفتنة والإضلال .

الثاني : أن تكون نصوصاً لا تحتمل نهائياً الوجه المستدل عليه لا من قريب ولا من بعيد ، ولكن يستدلون بها على باطلهم عن طريق تحريف الكلم عن مواضعه .

فهذه هي أنواع شبهات المشركين لا غير ، وما نريد الإشارة إليه هنا احتجاجهم بالنصوص الصحيحة من الكتاب والسنة والتي تحتمل وجوهاً متعددة ولكنهم يصرفونها على باطلهم بدلاً من إرجاعها للمحكم .

فأهل الهدى والفرقان يترلون قضايا الأعيان على مقتضى القواعد الكلية ، ويردون المتشابه إلى المحكم ، فإذا تقررت قاعدة كلية وجاء ما يصادمها في الظاهر[٣] من قضايا الأعيان أو الأدلة الجزئية فيجب حملها على مقتضى القواعد الكلية لتأتلف النصوص وليجمع بينها .

---

[١] تفسير الطبري (١٩٧/٦) .

[٢] البداية والنهاية لابن كثير (٣٦/٨) .

[٣] إذ أنه لا تعارض ولا تصادم ولا تناقض في الحقيقة بين آيات الله أو الآيات والأحاديث الصحيحة ، قال تعالى : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء: ٨٢)

قال الإمام أبو إسحق الشاطبي الأندلسي (ت: ٧٩٠هـ) : (قضايا الأعيان جزئية ، والقواعد المطردة كليات ، ولا تنهض الجزئيات أن تنقض الكليات . ولذلك **تبقى أحكام الكليات جارية في الجزئيات**)[1] .

وأنصار المتشابه وأهله فرقتان : أحدهم : عدو خارجي ظاهر يستعمل المتشابه للطعن أو التشكيك في صحة الإسلام بالكلية ، والآخر ؛ عدو داخلي مستخف يستعمل المتشابه للطعن أو التشكيك في بعض مسائله الأصلية والمصيرية ، وهؤلاء أخطر وأشد ضرراً من الفرقة الأولى . ولا عجب أن يجادلنا هذا العدو الداخلي من المشركين بفهم سقيم لكتاب الله أو لسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم انتصاراً للباطل ، فهذا قد أخبرنا به النبي صلى الله عليه وآهل وسلم أنه كائن ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **سيأتي على أمتي زمان تكثر فيه القراء ، ويقل الفقهاء ، ويقبض العلم ، ويكثر الهرج** » ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ **قال** : « **القتل بينكم ، ثم يأتي بعد ذلك زمان يقرأ القرآن رجال لا يجاوز تراقيهم ، ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المنافق الكافر المشرك بالله المؤمن بمثل ما يقول** »[2] .

ومثال على المتشابه الذي يستدل به أهل الزيغ والضلال محاولتهم نقض الأصل المحكم حول عصمة الأنبياء من الكفر ، فذهبوا واستدلوا بقول الله سبحانه وتعالى عن يونس عليه السلام : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) وهذا ظاهره بل أحد معانيه يعني الشك في قدرة الله سبحانه وتعالى ، ولكن لما كانت القاعدة العامة أن الأنبياء معصومون من الكفر وجب تأويل هذه الآية على مقتضى القاعدة الأصلية ، لذا فالعلماء قالوا في تأويل هذه الآية أن (قَدَرَ) هنا بمعنى (قَدَّرَ) من التقدير أو (ضَيَّقَ) من التضييق ، وليس من القدرة .

ومثال آخر على المتشابه أورده الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) حيث قال : (وقال تعالى : ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۞** ﴾ (يونس: ٩٤) ، وَقد أشكلت هذَه الآية عَلى كَثير من الناس ، وأورد اليهوَد والنصارى علىَ المسلمين فيها إيراداً ، وقالوا : كان في شك فأمر أن يسألنا ؛ وليس فيها بحمد الله إشكال ، **وإنما أُتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم** ، وإلا فالآية من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلاً ، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط ، بل ولا على إمكانه ، قال تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء: ٢٢) ، وقوله: ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۞** ﴾ (الإسراء: ٤٢) ، وقوله : ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ**

---

[1] الموافقات للشاطبي (٤/٨-٩) .

[2] أخرجه الحاكم في مستدركه (٤/٦٢٥) ، حديث رقم ٨٤٧٨ ، وقال عنه : (هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه).

لَهَا وَارِدُونَ ﴿﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آَلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿﴾ ﴾ (الأنبياء: ٩٨-٩٩) ، وقوله : ﴿ **قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿﴾** ﴾ (الزخرف: ٨١) ، وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ (الزمر: ٦٥) ونظائره ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك و لم يسأل) [1] .

ومثل هذه الآيات والأحاديث يوردها العلماء في كتب يسمونها مشكل القرآن أو مشكل الحديث ، فيذكرون المعاني الصحيحة أو تأويلات عدة للآيات والأحاديث التي قد تفهم خطئًا من قبل البعض .

ولو لاحظت سبب الإشكال الرئيسي لوجدته في سوء الفهم ، وقلة المعرفة بمعاني اللغة العربية ، ولو نظرت جيداً لوجدت أن الإشكالات التي كانت تحصل عند الصحابة كانت قليلة لأنهم كانوا أهل فصاحة وبيان ، ولا تجد المؤلفات التي ألفت في مشكل القرآن الكريم ومشكل الحديث النبوي الشريف إلا بعد عهد الصحابة والتابعين ، لأنه لا إشكال في الحقيقة في كلام الله عز وجل ، ولا في كلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، بل الإشكال في فهم البشر لهذين المصدرين العظيمين وهما الكتاب والسنة .

ومثال ذلك أن المصاحف في عهد الصحابة كانت غير منقوطة ولا مشكَّلة ، وكانوا يقرءون القرآن الكريم بسهولة ويسر ، ومرَّ زمن فاحتاج الناس إلى التنقيط ، ومرَّ زمن آخر حتى احتاج الناس إلى التشكيل .

وقل مثل هذا في شهادة الإسلام « **لا إله إلا الله محمد رسول الله** » ، فإنه آل بنا الأمر إلى أن صار أبو جهل يعلم معناها أفضل من مشركي زماننا من المنتسبين إلى الإسلام زوراً وبهتاناً والله المستعان . فلقد كان المشركين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يفهمون أنها تعني خلع الأنداد من دون الله ، وأنها كلمة تكرهها ملوكهم لأنها تنزع سلطة التشريع منهم وتثبتها لله سبحانه وتعالى ، وأنها تعني الرغبة عن دين الشرك والبراءة من المشركين ، لكن مع مرور الأيام أصبحت كلمة جوفاء بالنسبة لكثير من البشر واقتصروا من معناها على أنه لا خالق ولا رازق إلا الله ، كما قال الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) رحمه الله وهو يتحدث عن مشركي زمانه قبل ثلاثة قرون من الزمان تقريباً : (فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني ، والحاذق منهم يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق إلا الله ، ولا يدبر الأمر إلا الله ، **فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعاني « لا إله إلا الله »**) [2] .

---

[1] أحكام أهل الذمة لابن القيم (٥/١) .

[2] كشف الشبهات ، ص ٢٧-٢٨ .

أقول بحول الله تعالى : فسوء الفهم هو أصل الضلال ، كما أن حسن الفهم مفتاح العلم ، وكما قال الشاعر:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآَفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

إذا تبين لك هذا ، فاعلم أن المنهج الصحيح والسليم لدينك وإيمانك وتوحيدك يا عبد الله ، هو **التمسك بالمحكم حتى يظهر لك معنى النص الذي أشكل عليك** ، ومن فضل الله عز وجل أنه ليس من الواجب على كل موحد أن يعرف كل شبهة والرد عليها بالتفصيل ، بل يكفي معرفة الباطل بالجملة لأن كل ما خالف الحق فهو باطل ، وإن لم تعرف الرد عليه بالتفصيل ، فعليك بالاجتهاد أولاً في معرفة الحق من مسائل التوحيد بأدلته لتعرف أن كل ما يخالفه باطل كما قال تعالى : ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَل** ﴾ (يونس:٣٢) ، وأن لا تنقض التوحيد بسبب فهم خاطئ لبعض النصوص الشرعية ، **لأنك متى أتيت بتأويل مناقض لأصل الدين خرجت من الدين ولم تعذر بذلك** [١] . وفي سلفنا الصالح عبرة ، فهذا معاوية رضي الله عنه لما أشكلت عليه الآية حول نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام لجأ إلى الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما وسأله عن معنى هذه الآية حيث قال له : لقد ضربتني أمواج

---

[١] اعلم أن التأويل إذا ناقض أصل الدين يكون صاحبه كافراً ولا خلاف . فمعظم طوائف الكفر لهم تأويلات ، حتى إبليس لما استكبر عن طاعة الله وأبى السجود لآدم عليه السلام أتى بتأويل ، ولهذا لم يتردد المسلمون في تكفير طوائف الضلال من القرامطة والحلولية والمجسمة ونحوهم وكل هؤلاء أصحاب تأويل ، فالضابط أنه إذا تأول الإنسان أي آية أو حديث ونقض بذلك أصل الدين يكفر بذلك ولا يعذر بسوء فهمه ، حتى ولو خصص ذلك التأويل في تلك الحادثة العينية و لم يعممها فالحكم سيان . بل وأيضا يجب على كل مسلم أن يتبرأ من هؤلاء حتى يصح إسلامه ، فتنبه .

قال أبو بطين النجدي في الانتصار (ص ٤٤-٤٥) : (قال الشيخ موفق الدين أبو محمد بن قدامة رحمه الله لما أنجز كلامه في مسألة : هل كل مجتهد مصيب ؟ ورجح قول الجمهور: إنه ليس كل مجتهد مصيباً ، بل الحق في قول واحد من أقوال المجتهدين قال : وزعم الجاحظ أن مخالف ملة الإسلام إذا نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم . إلى أن قال : **أما ما ذهب إليه الجاحظ فباطل يقينا ، وكفر بالله ، ورد عليه وعلى رسوله**) . اهـ

قال محمد ابن الوزير اليماني (٧٧٥-٨٤٠هـ) في العواصم والقواصم (٢٩٠/٨) : (وحينئذ لا يعذر بتأويله كتأويلات الباطنية للأسماء الحسنى وصفات الكمال وتأويلات غلاة أهل البدع المخرجات من الإسلام) اهـ .

قال موفق الدين بن قدامة المقدسي (٥٤١-٦٢٠هـ) في ذم التأويل (ص٤٢) : (ومن وجه آخر هو أن اللفظة إذا احتملت معاني فحملها على أحدها من غير تعيين احتمل أن يحمل على غير مراد الله تعالى منها فيصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ويسلب عنه صفة وصف الله بها قُدسه ورضيها لنفسه فيجمع بين الخطأ من هذين الوجهين وبين كونه **قال على الله ما لم يعلم** وتكلف ما لا حاجة إليه ورغبته عن طريق رسول الله وصحابته وسلفه الصالح وركوبه طريق جهنم وأصحابه من الزنادقة الضلال) . اهـ

القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك . قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية فقال : أو يظن نبي الله أن لا يُقْدَرَ عليه ؟ قال : (هذا من القَدْرْ لا من القدرة) [1] .

وهذا الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) رحمه الله في بداية كتابه كشف الشبهات قرَّر التوحيد ومن ثم وضح قاعدة مهمة في الرد المجمل على جميع شبهات المشركين فتأملها جيداً حيث قال :

(واعلم أنه سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداءً كما قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ (الأنعام: ١١٢) ، وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج ، كما قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ (غافر: ٨٣)

إذا عرفت ذلك ، وعرفت أن الطريق إلى الله لا بد له من أعداءَ قاعدينَ عليه ، أهلَ فصاحةٍ وعلمٍ وحُججٍ ، **فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير لك سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين** ، الذين قال إمَامُهُم ومُقَدَّمُهُم لربك عز وجل : ﴿ **لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۞** ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧) .

ولكن إذا أقبلت على الله ، وأصغيت إلى حجج الله وبيناته ، فلا تخف ولا تحزن : ﴿ **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۞** ﴾ (النساء: ٧٦) ، والعامي من الموحدين يغلب ألفاً من علماء هؤلاء المشركين ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۞** ﴾ (الصافات: ١٧٣) ، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان ، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان . **وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح** ، وقد منَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعله : ﴿ **تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۞** ﴾ (النحل: ٨٩) فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها، كما قال تعالى : ﴿ **وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۞** ﴾ (الفرقان: ٣٣) .

قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة .

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا فنقول : جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ، ومفصل .

---

[1] روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما جمع من أهل التفسير منهم الإمام النسفي وفخر الدين الرازي في تفسيرهما لقوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٨)

أما المجمل فهو **الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها** ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ (آل عمران: ٧) ، وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ** »[1] .

مثال ذلك إذا قال لك بعض المشركين : ﴿ **أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ۞ ﴾ (يونس: ٦٢) ، أو إن الشفاعة حق ، أو إن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلاماً للنبي صلى الله عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره ، فجاوبه بقولك : إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ، وما ذكرته لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم : ﴿ **هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ** ﴾ (يونس: ١٨) هذا أمر مُحْكَمٌ بَيِّنٌ ، لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكن **أقطع أن كلام الله لا يتناقض ، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا يخالف كلام الله عز وجل ، وهذا جواب جيد سديد ، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى** ، **فلا تستهونه** فإنه كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ (فصلت: ٣٥)

وأما الجواب المفصَّل : فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه ، منها ...)[2] وبدأ يذكر شبه المشركين واحدة واحدةً ويدحضها بالتفصيل .

وفي الصفحات القادمة سنحاول بإذن الله تعالى بيان القاعدة المحكمة حول صفات الله عز وجل التي هي من أصل التوحيد وأساسه ، بالأدلة من الكتاب والسنة ، ومن ثم نرد على الشبهات المثارة حولها بالتفصيل لتستبين بذلك سبيل المشركين ونرجو بذلك من الله العلي القدير أن يهدي من ضل ويثبت الموحدين ويزيدهم إيماناً ، إنه على كل شيء قدير .

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب العلم / باب باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن ، ط. المطبعة العامرة (٨/٥٦-٥٧) ، ط. المكتز (ص ١٣٧٥ ، حديث رقم ٦٩٤٦) .

[2] كشف الشبهات ، ص ٣٠-٣٤ .

المقدمة الثالثة : الفرق بين صفات الله التي يعذر الإنسان فيها بالجهل أو التأويل وصفات الله التي لا يعذر الإنسان فيها بالجهل والتأويل [١]

اعلم وفَّقك الله لمرضاته ، وأرشدك لطاعته ، وهداك إلى صراطه المستقيم أن هذه المسألة من أهم المسائل ، وبه يظهر حقيقة التوحيد ، وبه يفرق بين الموحدين والمشركين .

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يدرك كنهه أحد ، وإنما عرفناه بصفاته ، وصفاته عز وجل كثيرة . والناس متفاوتون في معرفة صفات الله عز وجل ، لكن هناك حد أدنى في المعرفة يشترك فيه كل الموحدين ، ولا يكونون موحدين إلا بتلك المعرفة . فكما أن التوحيد أصل الدين وأساسه فإن معرفة الله سبحانه وتعالى هي أصل التوحيد وأساسه . فإن كل مكلف يجب عليه أن يعرف الله سبحانه وتعالى معرفة تخرجه عن حد الجهل به سبحانه حتى لا يكون ممن يعبد غير الله وهو لا يدري .

إذاً فما هي أقل حد من المعرفة التي يجب أن تتوفر عند الشخص لكي يكون عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه سبحانه ويعتبر أنه قد عرف الله عز وجل ؟

أو بمعنى آخر ما هو أقل حد يجب على المرء معرفته من صفات الله عز وجل لكي يكون موحداً ؟

أو بمعنى آخر ما الفرق بين صفات الله التي يعذر الإنسان فيها بالجهل أو التأويل وصفات الله التي لا يعذر الإنسان فيها بالجهل أو التأويل ؟

أو هل الجهل بالصفة جهل بالموصوف دائماً ؟ فكلها أسئلة تصب في مصب واحد .

فالجواب : أنه إذا كانت هذه الصفة مما لا يتصور الموصوف إلا بها كان جهل تلك الصفة جهلاً بالموصوف . فإن هناك صفات لله تعالى لا يسع المؤمن الموحد جهلها ، بل لا يكون مؤمناً موحداً ولا عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل به سبحانه إلا بمعرفة هذه الصفات معرفة يقينية لا شك فيها بوجه من الوجوه ، **وهي الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية ولا يتصور إلا بها** ، بمعنى آخر من عرف أن الله هو رب العالمين فإنه بذلك يكون قد عرف الله عز وجل المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل به سبحانه .

والدليل على ذلك فاتحة دعوة الأنبياء ، فهم كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله بوصفه أنه رب العالمين قبل أن يبينوا تفاصيل صفاته وأسمائه الكثيرة ، ويبينون لهم أن الله سبحانه وتعالى اختارهم لكي يبلغوا للناس رسالة التوحيد والتي هي عبادة رب العالمين وحده لا شريك له ، قال الله عز وجل عن أول رسول له إلى البشرية وهو نوح عليه السلام : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا**

---

[١] وللتوسع حول هذه المسألة انظر رسالتنا المسماة (منجدة الغارقين ومذكرة الموحدين بصفات الله سبحانه وتعالى التي هي من أصل الدين) حيث تم التوسع حول هذا الموضوع بإشراف نخبة من طلبة العلم جزاهم الله خيراً .

لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿﴾ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴿﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾﴾ (الأعراف: ٥٩-٦١) .

وقال سبحانه عن هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾﴾ (الأعراف: ٦٥-٦٧) .

وموسى عليه السلام لما كلمه الله تبارك وتعالى ، عرَّف الله نفسه أول ما عرَّف أنه ربُّ العالمين ، قال الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾﴾ (القصص: ٣٠)

وانظر إلى فاتحة دعوة موسى عليه السلام لفرعون كيف كانت : ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾﴾ (الأعراف: ١٠٤)

وانظر ما الذي أمر الله عيسى عليه السلام بتبليغه للناس ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿﴾﴾ (المائدة: ١١٦-١١٧) .

وإن الله عز وجل لما أشهد البشرية على التوحيد أشهدهم على الإقرار بربوبيته المقتضية لعبادته وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣) .

إذاً فما هي هذه الصفات التي لا تتحقق معرفة الله سبحانه و تعالى إلا بها ؟ وما معنى كلمة الرب التي أشهد الله سبحانه وتعالى خلقه عليها ، والتي تكررت كذلك في حوارات الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ؟ وما هي الصفات التي يكون مفهوم ربوبية الله عز وجل قائماً عليها ولا يتحقق إلا بها ؟

فصل : معاني كلمة الرب في اللغة

اعلم بداية أنه لا يقال « الرب » مطلقاً أي بدون إضافة إلا لله عز وجل ، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة ، فيقال مثلاً رب الأسرة ، ورب الإبل . وكلمة الرب في اللغة تصرف على ثلاث معاني رئيسية : أحدها : المالك ، والثاني : المصلح المربي ، والثالث : السيد المطاع .

وقد جمع الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) بين هذه المعاني الثلاث فقال : (فربنا جل ثناؤه : **السيد** الذي لا شبه له ولا مثل في مثل سؤدده ، **والمصلح** أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، **والمالك** الذي له الخلق والأمر) [1] .

وسنلقي الضوء على هذه المعاني الثلاث وما تتضمنه من صفات بحول الله تعالى .

المعنى الأول لكلمة الرب وهو المالك :

يقال رب الدابة ، ورب الدار بمعنى مالكه ، فكل من ملك شيئًا فهو رَبُّهُ ، فالرب المالك ، ويقال إنه لَمَرْبُوبٌ بَيِّنُ الرُّبُوبَةِ أَي لَمَمْلُوكٌ ؛ والعِبادُ مَرْبُوبونَ للَّهِ عزَّ وجلَّ أَي مَمْلُوكونَ .

ولما كان الله عز وجل رب كل شيء بمعنى أن كل شيء هو ملكه تضمن ذلك **صفة الخلق** [2] . وهو أن الله خالق كل شيء ، وأن كل شيء سوى الله مخلوق . قال تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ۝ ﴾ (الرعد: ١٦) ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ** ۝ ﴾ (الطور: ٣٥-٣٦) .

ويلزم من صفة الخلق **صفتي العلم والقدرة** أي أن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ، فإن كمال القدرة والعلم يرتبطان بصفة الخلق ارتباطاً وثيقاً . إذ لا يتصور ممن خلق كل شيء أن يجهل ما خلق ، ولا يتصور ممن خلق العالمين من العدم إلى الوجود أن يعجزه شيء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال تعالى : ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ۝ ﴾ (الملك: ١٣-١٤)

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ۝ ﴾ (الطلاق: ١٢)

---

[1] تفسير الطبري (١٤٢/١) .

[2] وكون الله عز وجل هو الخالق وما سواه مخلوق يلزم منه أنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، أو واجب الوجود بنفسه ، ومعناه أنه لم يوجده أحد وأنه لا يقبل العدم ، وأما غيره فيسمى ممكن الوجود لاحتياجه إلى من يوجده ولقبوله العدم . لذا كان الله سبحانه وتعالى ﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ (الحديد:٣) فهو أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝** ﴾ (البقرة: ١٦٤)

قال الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي الدمشقي (٧٣١-٧٩٢هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝** ﴾ (فاطر: ٤٤) : (فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، **وَقَدْ عُلِمَ ببديهة الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ** ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ ، لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ ، **وَلأَنَّ الْعَاجِزَ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا**)[1] . وقال في موضع آخر : (وَهَذَا الأَصْلُ هُوَ الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ ، **فَإِنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الأَشْيَاءِ ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[2] .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ (الزمر: ٦٧) : (وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، **فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره**)[3] .

ولما سئل أعرابي عن كيفية معرفته صانع العالم أجاب بقوله : (البعرة تدل على البعير . والروث على الحمير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير ؟!)[4] .

وصفتي العلم والقدرة تتضمنان **صفة الإرادة** ، كما أشار إليه محمد الطاهر ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ) في تفسيره قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ (الشورى: ٥٠) حيث قال : (ولمَّا جمع بين وصفي العلم والقدرة تعين أن هنالك صفة مطوية وهي الإرادة لأنه إنما تتعلق قدرته بعد تعلق إرادته بالكائن)[5] . أي أن ظهور القدرة تابع للإرادة ، وكذلك الخلق والإيجاد يتضمن صفة الإرادة أيضاً.

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية (٧٢/١) .
[2] شرح العقيدة الطحاوية (١١٧/١) .
[3] تفسير ابن كثير (١١٣/٧) .
[4] تفسير الرازي (١٠٩/٢) .
[5] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٣٩/٢٥) .

وصفة الخلق تدل أيضاً على **صفة الحكمة** ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞** ﴾ (آل عمران: ١٩٠-١٩١) فأخبر الله عز وجل عن نتيجة التفكر في خلق السماوات والأرض أنها مؤدية إلى الإقرار بحكمة الله عز وجل ، ولقد ذكر في آية أخرى أن من عدم الإيمان بحكمة الله عز وجل إنما هو من ظن الذين كفروا ، فقال عز من قائل : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۞** ﴾ (ص: ٢٧)

المعنى الثاني لكلمة الرب ، وهو المصلح المربي :

يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ فهو رَبٌّ له ورَابٌّ ، ومنه سمي الرَّبَّانيُّون لقيامهم بالكتب [1] ، ومنه تسمى المرأة ربة البيت لقيامها بالتربية وإصلاح البيت .

يتضمن هذا المعنى للربوبية صفة الرزق والإنعام أي تربية الله لخلقه بالنعم التي لا تحصى ، وأن الله هو الذي رزق عباده بكل ما لديهم ، وجعل لهم كل ما يصلحهم وينفعهم ويحفظهم ويسهل معيشتهم على ظهر الأرض.

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (غافر: ٦٤) .

ويتضمن هذا المعنى للربوبية كونه سبحانه وتعالى هو المتصرف في الكون ، الذي بيده تدبير كل شيء ، فكما أنه يصلح ويربي خلقه بالإنعام فهو أيضاً يتصرف فيهم كما شاء ، فلا يصير في ملك الله إلا ما أراد ، أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ (يونس: ١٠٧) ، وقال سبحانه : ﴿ **لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۞** ﴾ (الأنبياء: ٢٣) ، وقال سبحانه : ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞** ﴾ (آل عمران: ٢٦-٢٧)

ولا يقوم بكل ما سبق إلا من كانت لديه القدرة التامة والعلم الشامل بالكليات والجزئيات ، ومن هو موصوف بالحكمة التامة والإرادة المطلقة وهو الله سبحانه وتعالى .

---

[1] انظر تفسير القرطبي (٢١١/١) .

المعنى الثالث لكلمة الرب ، وهو السيد المطاع :

يقال رَبَبْتُ القومَ أي سُسْتُهم أَي كنتُ فَوْقَهم ، ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ **فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا** ﴾ (يوسف: ٤١) أي سيده ، ومن ذلك قول لَبيد بن ربيعة :

وأَهْلكْنَ يومًا ربَّ كِنْدَة وابنَه ورَبَّ مَعدٍّ ، بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ

يعني بربِّ كندة: سيِّد كندة [1] .

وبما أن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء ، فيتضمن هذا المعنى للربوبية أن الله له الأمر والطاعة والسيادة المطلقة كما له الخلق . وأنه هو الذي يضع لهم التشريعات ويحل عليهم الحلال ويحرم عليهم الحرام .

قال تعالى : ﴿ **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأعراف: ٥٤) ، وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾ (الرعد: ٤١)

وها هو يوسف عليه السلام يعلِّم هذه الصفة لصاحبيه في السجن فيقول : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞** ﴾ (يوسف: ٣٩-٤٠)

فصل : رب العالمين له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه

اعلم أن لازم الصفات السابقة أي صفات الربوبية هو اتصاف الله عز وجل بالكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وتنزهه عن جميع النقائص والآفات ومشابهة الخلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . فمن لم يؤمن إيماناً جازماً لا شك فيه بأن الله له الكمال المطلق ومنزه عن جميع النقائص والمعائب والآفات ومشابهة خلقه مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهو في الحقيقة لم يعرف الخالق سبحانه ، و لم يفرق بين الرب والمربوب ، والخالق والمخلوق ، وملك الكون والعبد المملوك .

فالله سبحانه وتعالى مباين لخلقه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، والنقص والعجز والآفات والاحتياج للغير وأمثاله من صفات النقص إنما هي من صفات المخلوقين لا من صفات الخالق عز وجل ، فالله سبحانه وتعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞** ﴾ (الإخلاص: ٤) .

---

[1] تفسير الطبري (١٤١/١) .

قال الله عز وجل مبيناً أنه له الكمال المطلق : ﴿ **لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ۝﴾ (النحل: ٦٠)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير الآية السابقة : (﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأعْلَى** ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه) [(١)] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وثبوت معنى الكمال قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة دالة على معان متضمنة لهذا المعنى فما في القرآن من إثبات الحمد لله وتفصيل محامده وأن له المثل الأعلى وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك كله دال على هذا المعنى . وقد ثبت لفظ الكامل فيما رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ۝ **اللَّهُ الصَّمَدُ** ۝﴾ (الإخلاص: ١-٢) أن الصمد هو المستحق للكمال وهو السيد الذي كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكم الذي قد كمل في حكمه والغني الذي قد كمل في غناه والجبار الذي قد كمل في جبروته والعالم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه وتعالى . وهذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ ولا كمثله شيء وهكذا سائر صفات الكمال و لم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى ، بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس بل هم مفطورون عليه ، **فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء**) [(٢)] .

والأدلة على أن من لم يؤمن بأن الله له الكمال المطلق ومنزه عن النقائص مطلقاً أنه لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله ولا عارفاً به سبحانه كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك ، فإليك بعض الأدلة الدالة على أن الإنسان لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله ولا عارفاً به سبحانه وتعالى إلا بالإيمان الجازم واليقيني أن الله عز وجل له الكمال المطلق ومنزه عن جميع النقائص في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله :

الدليل الأول :

إن وجود الخلق وعظمته ودقته وجماله الباهر يدل على أن له خالقاً منزهاً عن النقائص والمعائب والآفات ومشابهة المخلوقين ، ومتصفاً بالكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، لأن المتصف

(١) تفسير ابن كثير (٥٧٨/٤) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٧٢/٦) .

بالنقص ولو في جزئية يمتنع أن يكون خالقاً لكل شيء ، وهذا معلوم بالضرورة العقلية لكل من لم تشوه الشياطين فطرته وعقله .

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۞** ﴾ (الطلاق: ١٢)

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (يونس: ١٠١) : (والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أي قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ، ووحدته ، وكمال قدرته) [(١)].

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (ولو أردنا نستوعب ما في آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا إله إلا هو الذي ليس كمثله شيء وإنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك) [(٢)] .

ولقد رد الله عز وجل على من لم يؤمن بقدرته تعالى على جمع العظام المتفتتة وإحيائها من جديد بأنه شخص نسي خلقه، وأنه يكفيه مراحل تكوُّنه وخلقه من العدم كدليل على سعة قدرة الله تعالى وعظمته وأنه على كل شيء قدير .

قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞** ﴾ (يس: ٧٧-٨٣)

فمن يشهد أن الله خالقه وفي نفس الوقت لا يشهد أن له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فأمره عجيب ، قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞** ﴾ (الرعد: ٥)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ **وَإِنْ تَعْجَبْ** ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد **مع ما يشاهدونه من آيات**

---

(١) تفسير الشوكاني (٢/٤٥٤) .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢١٢) .

الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم : ﴿ **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه ، كما قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الأحقاف: ٣٣) ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ** ﴾) [(١)].

فكل من لم يعتقد أن الله واحد في صفاته ، وصفاته كلها كمال لا نقص فيها ، وأن الله واحد في أفعاله وأفعاله كلها بحكمة لا عبث فيها فهو المشرك الكافر و لا كرامة .

قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ۞** ﴾ (الإسراء: ٩٧-٩٩)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذبوا ﴿ **بِآيَاتِنَا** ﴾ أي بأدلتنا وحججنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا** ﴾ بالية نخرة ﴿ **أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ **فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات والأرض** ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك [(٢)] كما قال : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ (غافر: ٥٧) وقال ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الأحقاف: ٣٣) وقال : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا**

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٣٢) .

(٢) أي أن إعادة الإنسان من العظام المتفتتة أسهل من خلق السماوات والأرض من العدم ، وهذا أسهل بالنسبة إلينا ، ولكن الله عز وجل ليس شيء أسهل عليه من شيء ، بل الأشياء كلها بالنسبة إلى دخولها تحت قدرته كشيء واحد ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞** ﴾ (يس: ٨٢)

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ ﴾ (يس: ٨١-٨٣) .

وقال هاهنا: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم) [1] .

فتأمل هداك الله مصير من لم يؤمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، وتأمل هداك الله في عقاب الله لهم ، قال الله عز وجل : ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء: ٨٢) فما بعد بيان الله بيان ! ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۞** ﴾ (فصلت: ٤٤) وبالله التوفيق .

الدليل الثاني :

إن الرب المستحق للعبادة إنما هو من تتره عن النقائص مطلقاً ، فمن كان متصفاً بالنقص لا يصلح أن يكون إلهاً ، والدليل على هذا هو أن الله سبحانه وتعالى أظهر بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بالنقص والعجز ، فقال عز من قائل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞** ﴾ (الحج: ٧٣-٧٤) ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞** ﴾ (الأحقاف: ٥) ، وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۞** ﴾ (النحل: ٢٠-٢١) ، وقال عن إبراهيم عليه السلام وهو يحتج على أبيه : ﴿ **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۞** ﴾ (مريم: ٤٢) وعلى قومه: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ۞** ﴾ (الأنبياء: ٦٦-٦٧).

وقد جعل الله عز وجل نفي صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية كما أشار إلى ذلك الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) بقوله : (فإن قيل فالله تعالى لا يكلم عباده قيل بلى قد كلمهم فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب منه إليه بلا واسطة كموسى ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي وهم الأنبياء وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه وقالوا لهم هذا كلام الله الذي تكلم به وأمرنا بتبليغه إليكم ومن ههنا قال السلف من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلهم لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده ، فإذا انتفى

---

[1] تفسير ابن كثير (١٢٣/٥) .

كلامه انتفت الرسالة ، وقال تعالى في سورة طه عن السامري : ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۞ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ۞** ﴾ (طه: ٨٨-٨٩) ، ورجع القول هو التكلم والتكليم ، وقال تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞** ﴾ (النحل: ٧٦) **فجعل نفي صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية ، وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ولا مدبراً ولا رباً** بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة ، **وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد** ، ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه توحيداً ، لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع وجحد له ، **وإنما توحيده إثبات صفات كماله وتنزيهه عن التشبيه والنقائص**)[1] .

نستنتج مما سبق أن الإله الحق ، والرب المستحق للعبادة إنما هو من كان له الكمال المطلق ومن كان منزها عن النقائص كلها في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فانظر إلى الهدهد وتعجب منه كيف ذم قوم سبأ لسجودهم للشمس التي ليس لها الكمال لا في ذاتها ولا في صفتها ، ومن ثم قرر كمال قدرة الله وكمال علمه بألطف عبارة ، واستدل أن الإله الحق الذي يستحق العبادة هو من كان متصفاً بكمال القدرة والعلم لا غيره ، قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن الهدهد : ﴿ **فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۞ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ۞ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞** ﴾[2] (النمل: ٢٢-٢٦) .

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٣٧/١-٣٨) .

[2] فانظر بالله عليك إلى هذا الجندي من جنود التوحيد ، كيف أنه لما وجد قوماً يعبدون الشمس من دون الله حكم عليهم بعدم الهداية وأن سبب ضلالهم هو تزيين الشيطان لعملهم ، فلم يعذرهم بهذا التلبيس ، كما يعذر بعض المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين ، والمدافعين عن توحيد من يعبدون غير الله معتذرين لهم أنهم ملبس عليهم من قبل علمائهم : ﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** ﴾ (المدثر: ٣١) .

الدليل الثالث :

إن الله سبحانه وتعالى عد من نقصه في قدرته ممن لم يقدره حق قدره ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞** ﴾ (الزمر: ٦٧)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآية : (وما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش . وقال السدي : ما عظموه حق عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، **فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره**) [(١)] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فمن نقصه في قدرته وخلقه ومشيئته فلم يقدره قدره ، ومن نقصه من حكمته ورحمته فلم يقدره حق قدره) [(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞** ﴾ (الحج: ٧٣-٧٤)

قال القاضي أبي السعود الحنفي (٩٠٠-٩٨٢هـ) : (﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ أي ما عرفُوه حقَّ معرفتِه حيث أشركُوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياءِ عنه مناسبةً ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ** ﴾ على خلق الممكناتِ بأسرها وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرها ﴿ **عَزِيزٌ** ﴾ غالبٌ على جميع الأشياءِ وقد عرفتَ حالَ آلهتِهم المقهورةِ لأذلها العجزة عن أقلها ، **والجملةُ تعليلٌ لما قبلها من نفيِ معرفتهم له تعالى**) [(٣)] .

الدليل الرابع :

إن الله سبحانه وتعالى عد عدم الإيمان بكمال علم الله عز وجل من سوء الظن به ، قال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ**

---

(١) تفسير ابن كثير (١١٣/٧) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣٠/٦) .

(٣) تفسير أبي السعود (٤٥/٤) .

وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞﴾ (فصلت: ١٩-٢٣)

روى مسلم في صحيحه عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : (اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ ؛ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ ، كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَتُرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ ؟ وَقَالَ الآخَرُ : يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا ، وَقَالَ الآخَرُ : إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ** ﴾ الآيَة) [1] .

أقول بحول الله تعالى : انظر هداك الله كيف سوَّى الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه بينهم في قلة الفقه ، فالأول سأل عن علم الله جاهلاً ، والثاني شبه الله بالمخلوقين الذين يسمعون الجهر ولا يسمعون السر ، أما الثالث فكان أعقلهم ولكن لما كان شاكاً فيما يقوله سوى ابن مسعود رضي الله عنه – وهو من فقهاء الصحابة – بينهم في قلة الفقه ، فكلهم سواسية في الحكم أنهم ليسوا من أهل الإيمان ، **فلا فرق في الحكم بالكفر بين من سأل عن كمال علم الله جاهلاً به ، وبين من شبه علم الله بعلم المخلوقين ، وبين من شك في كمال علم الله تعالى** . والإيمان المطلوب هو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه و تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

الدليل الخامس :

إن عدم الإيمان بكمال صفات الله وعلوها وتمامها يقتضي تشبيه الله سبحانه وتعالى بالمخلوقين ، والشاهد على ذلك هو قول الله عز وجل عن الرجل الذي قال ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ (يس: ٧٨) فلقد وصفه الله سبحانه في أول الآية أنه شبه الله بخلقه حيث قال الله عز وجل عنه : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ (يس: ٧٨) ، مع أن الرجل لم يسلب عن الله القدرة جملة وتفصيلاً بل كان يؤمن بأن الله خلقه ، ولكن لما لم يؤمن بكمال تلك الصفة أصبح وكأنه شبه رب العزة بخلقه ، لأن الخلق لهم قدرة والله تبارك وتعالى له قدرة أيضاً ، لكن قدرة الخلق ناقصة وقدرة الله كاملة تامة ، لذا فمن لم يؤمن بأن قدرة الله تامة كاملة فإنه إذاً يؤمن بأن قدرة الله تعالى ناقصة ومحدودة وبذلك يكون قد شبه

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، الطبعة السلطانية (١٢١/٨) ، ط. المكتر (ص١٤٣٦ ، حديث رقم : ٧٢٠٥) .

الله بخلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهكذا الأمر في جميع صفات الله عز وجل فإن الله له الكمال في جميع صفاته ومنزه عن صفات النقص ، ومنزه أن تكون صفاته ناقصة ، ومنزه أن تشبه صفاته صفات المخلوقين ، فسبحان الملك الحق ! ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص: ٤)

الدليل السادس :

إن الله سبحانه وتعالى عد نسبة نقصٍ مثل الولد إليه شتماً له ، فكل من نسب لله صفة لا تليق به سبحانه يعتبر أنه شاتم لله عز وجل .

عن أبي أَبِى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ : « **قَالَ اللَّهُ : (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِى كَمَا بَدَأَنِى ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَىَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِى كُفْأً أَحَدٌ)** » [1] .

المقصود بالحديث ليس كل بني آدم بل من أنكر منهم البعث [2] ، وسبب التكذيب بالبعث قد يكون عناداً وقد يكون لإنكار القدرة عليه وهو الغالب على من يكذب بالبعث ، كما قال أحدهم : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ۞﴾ (يس: ٧٨) فلقد وصفه الله سبحانه وتعالى في أول الآية أنه إنما ضرب هذا المثل لله ونسي خلقه فردَّ الله سبحانه وتعالى عليه بقوله ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ۞﴾ (يس:٧٩) ، وهنا في هذا الحديث يرد الله عز وجل عليهم بتذكيرهم بقدرته على الخلق الأول ، وأن من قدر على الخلق الأول الذي هو من العدم قدر على الخلق الثاني ، فإعادة الخلق ليس أشق ولا أصعب على الله تعالى من الخلق الأول ، بل الكل سواء يوجد بكلمة (كُنْ) .

ومن ثم يرد الله عز وجل على صنف آخر من الناس ممن وصفوه بالنقص ، وهم الذين نسبوا له الولد ، فلقد وصف الله عز وجل هذا الوصف الشنيع بأنه شتم له .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (إنما سماه شتماً لما فيه من التنقيص ، لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح والناكح يستدعى باعثا له على ذلك والله سبحانه منزه عن جميع ذلك) [3] .

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب التفسير / باب سورة ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ، الطبعة السلطانية (١٨٠/٦) ، ط. المكنز (ص١٣٨٨ ، حديث رقم ٤٩٧٤) .

[2] انظر إرشاد الساري للقسطلاني (٤٣٩/٧) ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٢٥/٨) .

[3] فتح الباري لابن حجر (١٨/٨) .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده) ... إلى أن قال : (فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يجعل نسبة الولد إليه ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته ، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى) [1] .

فرد الله على ذلك أنه هو (الأحد) أي الذي ليس كمثله شيء في صفاته ، وأنه (الصمد) أي الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء إليه محتاج ، وأنه له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وأنه (لم يلد و لم يولد) لأنه لا أول لوجوده ، وأنه (لم يكن له كفواً أحد) أي لم يماثله أحد و لم يشاكله .

الدليل السابع :

إن من وصف قدرة الله أو علمه أو أي صفة من صفات الله أو أفعاله بالنقص فهو إنما يصف ذات الله سبحانه وتعالى بالنقص ، فإن الصفة والفعل راجعان للذات ، فالذات التي لها الكمال تكون صفاتها وأفعالها كمال لا نقص فيها ، والذات الناقصة تكون صفاتها وأفعالها مشوبة بالنقص .

وقد يطلق الاسم أو الوصف ويشترك فيه الرب و المربوب ، كقولك : حي ، فالله سبحانه حي ، وهو أمر معلوم بضرورة العقل حيث أن تدبير الكون واستمراريته لا تصدر إلا من فاعل والفاعل لا يكون إلا حياً ، وبالشرع ، كما في قوله تعالى ﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥) والمربوب حي . فكيف السبيل إلى التفريق بين الوصفين ؟ التفريق بينهما لن يحصل إلا بالتقييد فالخالق يتميز عن المخلوق بالكمال المطلق في الذات والأفعال والصفات حيث أن لكلاهما حياة ولكن حياة الله ليس لها نهاية ولا بداية فلا يقابلها موت ولا عدم لأنه سبحانه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء ، وحياة البشر لها بداية ونهاية ويقابلها موت وعدم فكانت نقصاً من هذا الوجه ، وبهذا التقييد للمخلوق استوجبت منه الافتقار إلى الخالق ، فصفة الخالق لائقة بذاته وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره وبين الصفة والصفة من المخالفة كمثل ما بين الذات والذات .

ثم إن خالق الخلق قد خلق قدراً من الكمال في مخلوقاته وهذا الكمال متفاوت بينهم إلا أن كمال أكملهم لابد وأن يكون ناقصاً قياساً على كمال الله سبحانه وهذا يشمل كل من الذات والصفات والأفعال ، فإنه سبحانه متفرد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

فصفات الكمال مثل القدرة والعلم والحكمة التي يتصف بها الخالق تختلف عن صفات الكمال التي يتصف بها خلقه ، فالخالق سبحانه له الكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص ، وليس هذا إلا لله وحده ،

---

[1] بدائع الفوائد (١٥٧٥/٤) .

والخلق لهم الكمال المقيد أي الكمال الذي يشوبه النقص وتعتريه الآفات . وقد اجتمعت صفات النقص والكمال عند المخلوقين فكانت شفعاً من هذا الوجه وانفرد الله سبحانه بصفات الكمال دون النقص وحده فكانت وتراً ، وهو ما أشار إليه أبو بكر الورَّاق حيث قال :

(الشفع : تضادُّ أوصاف المخلوقين : العز والذل، والقدرة والعجز ، والقوَّة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعَمَى ، والسمع والصَّمَم ، والكلام والخَرَس. **والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عِز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوَّة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عَمًى، وكلام بلا خَرَس ، وسمع بلا صَمَم ، وما وازاها**) [1] .

فكما أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال فهو أيضاً متصف بكمال هذه الصفات . بمعنى آخر **فكما أن الله سبحانه وتعالى متره عن صفات النقص فإنه كذلك متره عن النقص في صفاته** .

مثال ذلك أن الله متصف بالقدرة ، وهي صفة كمال ، والقدرات مراتب ، فمنها الناقص ومنها الكامل ، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، **لأن الله عز وجل متصف بالكمال ومتره عن النقص في كل صفاته** ، فهو القدير سبحانه المتصف بكمال القدرة ومتره أن تكون قدرته ناقصة أو أن يستثنى منها شيء ولو في جزئية . فمن لم يؤمن بقدرة الله ولو في جزئية ما ، لا يكون مؤمنًا بقدرة الله تعالى الحقيقية إذ أن قدرة الله عامة تامة كاملة ، فمن أخرج شيئًا من هذا العموم يكون قد نسب لله النقص في صفة من صفاته ولو كان جاهلاً أو متأولاً . بل من لم يؤمن بكمال قدرة الله عز وجل لا يسمى مؤمناً بأن الله قادر إذ الإيمان بقدرة الله معناه الإيمان بأن الله على كل شيء قدير .

ومثال آخر وهو أن الله متصف بالعلم ، وهي صفة كمال ، والعلم درجات ومراتب منه القليل والناقص ومنه الكامل ، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم ، **لأن الله سبحانه وتعالى متصف بالكمال ومتره عن النقص في كل صفاته** ، فهو العليم سبحانه المتصف بكمال العلم ، فعلمه يشمل ما نظهره وما نكتمه ، وما كان ، وما يكون ، وما فعلناه ، وما سنفعله ، فهو سبحانه متره أن يكون علمه ناقصاً أو أن يستثنى منه شيء ولو في جزئية . فمن لم يؤمن بأن الله يعلم السر وأخفى ، أو لم يؤمن بأن الله يعلم ما سيفعله الإنسان ، أو أخرج من عموم علم الله شيئاً معيناً فهذا لا يسمى مؤمناً بكمال علم الله عز وجل ، ويكون بذلك نسب لله النقص في صفة من صفاته ولو كان جاهلاً أو متأولاً . بل من لم يؤمن بكمال علم الله عز وجل لا يسمى مؤمناً بأن الله عليم إذ الإيمان بأن الله عليم معناه الإيمان بأن الله بكل شيء عليم ، وقس على هذا باقي صفاته سبحانه وتعالى.

---

[1] تفسير القرطبي (٢٦٠/٢١) .

فصل : صفات الله عز وجل التي يعذر الموحد بجهلها

أما صفات الله عز وجل التي يعذر الموحد بجهلها هي الصفات التي لا يلزم الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، وهي بعض الصفات الخبرية ، وليست الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية إلا بها ، وقلنا بعض الصفات الخبرية لأن الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية إلا بها كما أنها تعلم بالعقل فهي أيضاً قد أخبر الله عز وجل بها عن طريق الوحي . فهذه الصفات التي لا يلزم الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، لا يعتبر جاهلها كافراً إلا إذا جحد هذه الصفات بعد بلوغها إليه ، فيكون كافراً لرده أمر الله ، وتكذيبه بالوحي .

أما من جهل صفة من الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية إلا بها فكفره من باب أنه لم يحقق الإيمان أصلاً ، لأن الذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد به فضلاً على أن يحققه ، فإذا وجد شخص لا يعرف الصفات التي لا يتم مفهوم ربوبية الله إلا بها لم يعد من الممكن عقلاً ولا واقعاً ولا شرعاً وصفه بأنه قد عرف الله [1] **، ولا يكون الجهل عذراً يسبغ عليه صفة الإيمان ، ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداءً ، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به ، وهذا منطق العقل والواقع ، بل منطق البداهة الواضح ، فكيف يستحق المرء اسم الإيمان على الجهل ؟!!! فالإيمان قرين العلم واليقين ، والكفر والشرك قرينا الجهل والشك** [2] .

وهذه الصفات الخبرية التي لا يمكن علمها إلا عن طريق الوحي هي صفات كمال أيضاً كسائر صفات الله عز وجل بلا شك ، ويجب الإيمان بها بأنها صفات لا تشبه صفات المخلوقين ، وأنها صفات تليق بجلال الله عز وجل وكماله ، دون التفكر في كيفيتها إذ معرفة كيفية صفات الله محجوبة عن العقول والأفهام .

ومن هذه الصفات صفة الاستواء على سبيل المثال ، فهذه الصفة لا يعني الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، ولا يمكن علمها أصلاً إلا عن طريق الوحي ، فأما من علم هذه الصفة وجحدها فهو كافر لأنه كذب بالوحي ورد أمر الله عز وجل . والموحد الذي يؤمن بهذه الصفة يؤمن بها دون تشبيهها بصفات المخلوقين ، ودون التفكير في كيفية هذه الصفة ، إذ رب العزة تبارك وتعالى ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ**

---

[1] ومن هذه الصفات صفة القدرة أي أن الله على كل شيء قدير ، فتمعن في قول أبو بكر بن فورك في معرض شرحه لحديث الرجل الذي أوصى أولاده بحرق جسده خشية من الله وخوفاً : (ولما قيل في الخبر إن الله تعالى يغفر له ، وقد علم أنه لا يغفر للكافرين ، وجب أن يُحمل لفظه على تأويل صحيح ، لا ينافي المعرفة بالله عز وجل ولا يؤدي إلى الكفر) (كتاب مشكل الحديث أو تأويل الأخبار المتشابهة ، ص ١٦٤) . لأنه لو حمل اللفظ المشكل الذي ورد في الحديث على أنه شكٌّ في قدرة الله ، لكان القول ينافي المعرفة بالله عز وجل ويؤدي إلى الكفر ، لأن من شك في قدرة الله ولو في جزئية لم يكن عارفاً بالله كما قد بينا بحول الله عز وجل .

[2] وهذا الفرق من أهم الفروق فاستفده واحمد الله عليه فإنه باب قد ضل فيه الكثير نسأل الله أن يهدينا ويثبتنا على الإسلام .

شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ﴿ **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص: ٤)

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) : (فإن العقول لها حد تقف عنده ، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه [١] ، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات ، ولذا قال العليم الخبير : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (الشورى: ١١) ، ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار ، فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها ، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز . وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء ، أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات ، متره عن صفاتها ، مقدس عن أحوالها ، موصوف بصفات الكمال اللائق به . ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه ، قبلناه ، واعتقدناه ، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه ، وتركنا الخوض فيه ، هذه طريقة السلف ، وما سواها مهاوٍ وتلف) [٢] .

لذا فإنه على الموحد أن يسلك طريق السلف ولا يبادر بإنكار صفات الله التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه أو وردت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم بحجة أنه يشعر بالتشبيه ، فوصف الله نفسه بصفة لا يقتضي التشبيه ، فلا يقتضي الاشتراك في الأسماء الاشتراك في الصفات . مثال ذلك إذا قرأت في كتاب الله قوله : ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ (طه: ٥) لا تبادر بالإنكار ، فإثبات هذه الصفة لله لا يقتضي مشابهته لصفات المخلوقين ، فإن كنه الصفات محجوبة على العقول ، وما علينا إلا الإيمان بالصفات دون إنكارها ، ودون تكييفها ، ودون تشبيهها بصفات المخلوقين أو تمثيلها بهم ، أي نمرها كما جاءت دون تكييف أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك ، والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، **وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه** ، و ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (الشورى: ١١) بل الأمر كما قال الأئمة – منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري – : "**من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد**

---

[١] لذا فإن المسلم يجب عليه أن لا يفكر في ذات الله ، لأنها تفتح له باب الوسوسة والشكوك ، وكما قيل تفكروا في خلقه ولا تفكروا في ذاته . روى الإمام البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ) في كتابه الأسماء والصفات (٤٦/٢) عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : (**تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله**) . وإنما نهى السلف عن التفكر في ذات الله لأنه يوصل إلى الشكوك في الإيمان ، نسأل الله عز وجل أن يعصمنا برحمته من الزلل .

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٩١/٦) .

كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ". فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيـــات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقـــائص ، فقد سلك سبيل الهدى) [١] .

---

[١] تفسير ابن كثر (٣/٤٢٦-٤٢٧) .

جدول : الفرق بين صفـــات الله عز وجل التي يعذر المسلم الموحد بجهلها أو تأويلها وصفات الله التي لا يعذر بجهلها أو تأويلها

<table>
<tr><td colspan="2">التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي
﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾</td></tr>
<tr><td colspan="2">الذات المقدسة – الأفعال والصفات الكاملة التي لا نقص فيها</td></tr>
<tr><th>الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية إلا بها</th><th>الصفات الخبرية</th></tr>
<tr><td>الصفات الكاملة من كل وجه والتي لا نقص فيها بوجه من الوجوه والتي لا يتصور رب كل شيء (مالك ، مصلح ، مربي ، سيد مطاع) بدونها</td><td>تفاصيل صفات الربوبية :
(مثل مظاهر تجلي قدرة الله وعلمه)
والصفات التي لا يعني جهلها الجهل بربوبية الله عز وجل للعالمين :
(مثل الاستواء واليد والوجه)</td></tr>
<tr><td>﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾
نؤمن بها ونقر بها دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل ، وكذا نؤمن بلازمها من تتريه الله عز وجل وتقديسه مطلقاً</td><td>﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾
نؤمن بها ونقرها كما أخبر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بدون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل</td></tr>
<tr><td>العلم بها أساس التوحيد وأول فرض على من تشوهت فطرته</td><td>العلم بها فرض كفاية</td></tr>
<tr><td>لا يعذر فيها بالجهل ولا بالتأويل لأن من جهلها هو جاهل بالله سبحانه وتعالى ، والمخالف فيها كافر غير عارف بالله ولو كان مجتهداً أو متأولاً</td><td>يعذر من لم يعلم بها أو من علمها فأولها ، ولكن لا يعذر من علمها فشبهها أو مثلها بصفات المخلوقين. فالمخالف فيها بين مجتهد مخطئ أو مبتدع ضال أو كافر جاحد .</td></tr>
<tr><td>الدعوة إليها بالتذكير والإلزام بها ولا يحتاج لسرد أدلتها والتفصيل إلا لمن علم عنه ناقض أو بدعة فيها حيث الاعتراف بها مركوز في النفوس والفطر .</td><td>الدعوة إليها فقط عبر كتاب الله عز وجل وما ثبت من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودون التعمق حولها</td></tr>
</table>

المقدمة الرابعة : إن الدخول في الإسلام لا يتم إلا بالبراءة من كل أنواع الشرك والكفر والبراءة من جميع المشركين والكفار

إن المرء لا يدخل في الإسلام إلا بالاعتقاد الجازم واليقيني أن الإسلام هو الدين الحق ، وأن ما خالفه في قليل أو كثير فهو دين باطل ، وباعتقاد أن من حقق الإسلام فهو على الدين الحق ، وأن كل من خالفه في قليل أو كثير هو على دين باطل .

فلا يكفي للدخول في الإسلام توحيد الله عز وجل ، والتصديق بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم دون متابعة هذا الدين . وأدل دليل على ذلك اليهود الذين كانوا يقرون لله بالوحدانية ويعرفون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صادق ومرسل من عند ربه سبحانه وتعالى ، لكن لم يتابعوه ، لأن متابعته صلى الله عليه وآله وسلم تعني التبرؤ من كل ما يخالف الإسلام ومن كل من يخالفه ، لذا شق عليهم الدخول في الإسلام .

أخرج الإمام الترمذي في سننه عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ : قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِه : اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ ، فَقَالَ صَاحِبُهُ : لاَ تَقُلْ نَبِيٌّ إِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ كَانَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ ، فَأَتَيَا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم فَسَأَلاَهُ عَنْ تِسْعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . فَقَالَ لَهُمْ : « **لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلاَ تَسْرِقُوا ، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَلاَ تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ ، وَلاَ تَسْحَرُوا ، وَلاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا ، وَلاَ تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً ، وَلاَ تُوَلُّوا الْفِرَارَ يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَعَلَيْكُمْ خَاصَّةً الْيَهُودَ أَنْ لاَ تَعْتَدُوا فِي السَّبْتِ** ». قَالَ فَقَبَّلُوا يَدَهُ وَرِجْلَهُ فَقَالاَ : نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ ، قَالَ : « **فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَتَّبِعُونِي** ». قَالُوا : إِنَّ دَاوُدَ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لاَ يَزَالَ فِي ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ تَبِعْنَاكَ أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ [(١)] .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام ، لأن مجرد الإقرار ، والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام ، إلا أن يلتزم طاعته ، ومتابعته ، وإلا فلو قال أنا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم ، **وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي في قول اللسان بمجرده ولا معرفة القلب مع ذلك بل لا بد فيه من عمل القلب**

(١) سنن الترمذي في كتاب الاستئذان / باب مَا جَاءَ فِى قُبْلَةِ الْيَدِ وَالرِّجْلِ ، قال الإمام الترمذي : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، ط. المكتر (ص ٨٢٦-٨٢٧ ، حديث رقم ٢٩٥٢) ، ط. أحمد شاكر (ص ٧٧ ، حديث رقم ٢٧٣٣) .

وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الإيمان هو مجرد معرفة القلب وإقراره) [١] .

ولذلك شق على أبي طالب الدخول في الإسلام لأنه كان يعلم أن الدخول في الإسلام ليس توحيد الله والتصديق بنبيه فقط بل كان يعلم أن الدخول في الإسلام هو مفارقة دين عبد المطلب وكل دين سوى الإسلام والحكم على عبد المطلب بالكفر والشرك وكذا على كل من لم يحقق هذا الدين .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام ، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال ، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ، ورأوا أنهم إن أسلموا سفَّهوا أحلام أولئك وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح ، وهو الكفر والشرك ، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر ما كلمهم به : هو على ملة عبد المطلب ! فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به ، فكيف يأتي أمراً يلزم منه غاية تنقيصه وذمه !!

ولهذا قال : لولا أن تكون مسبة على بني عبد المطلب لأقررت بها عينك أو كما قال .

وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلاَ الْمَلاَمَةُ أَوْ حَذَارَ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحاً بِذَاكَ مُبِينَا

وفي قصيدته اللامية :

فَوَاللَّهِ لَوْلاَ أَنْ تَكُونَ مَسَبَّةٌ ... تُجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالة مِنَ ... الدَّهْرِ جَدًّا غَيْرَ قَوْلِ الْهَازِلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لاَ مُكَذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلاَ يُعْنَي بِقَوْلِ الأَبَاطِلِ

والمسبة – التي زعم أنها تجر على أشياخه – شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول ، فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه) [٢] .

ولذلك أيضاً شق على هرقل الدخول في الإسلام وكان يعلم صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن لم يتابعه لأنه إن تابعه سيحتم ذلك عليه التبرؤ من دين النصارى وبالتالي من النصارى أنفسهم ، وبذلك يخسر ملكه فآثر ملكه على دخول الإسلام .

---

[١] مفتاح دار السعادة لابن القيم (٩٧/١) .

[٢] مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٠٠/١-١٠١) .

ولهذا قالت الملائكة رضوان الله عليهم : « **وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ** » [١] .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وسمي القرآن فرقاناً لتفريقه بين الحق والباطل ، وسمي عمر الفاروق لذلك ، وقوله « **مُحَمَّدٌ فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ** » أي يفرق بين المؤمنين باتباعه ، والكفار بمعاداته والصدود عنه) [٢] .

وهو الذي فهمه أسعد بن زرارة رضي الله عنه عند بيعة العقبة وهو يومها من أصغرهم فقال : (**رويداً يا أهل يثرب ! فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة ، وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة فبينوا ذلك**) [٣] .

ولقد بيَّن هذا الأصل الأصيل الصديق أبو بكر رضي الله عنه في رسالته التي بعثها مع أمرائه لقتال المرتدين حيث قال : (**بسم الله الرحمن الرحيم .**

من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا، من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه ، سلام على من أتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والهوى ، فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نقر بما جاء به ، ونُكَفِّر من أَبَى ذلك ، ونجاهده) [٤] .

ولهذا السبب يأبي الكثير الكثيـــر في زماننا هذا الدخول في الإسلام ، فإذا ما ظهر لأحـــدهم نـــور التوحيد أقبل عليه بفطرته ، لكنه يشق عليه التبرؤ ممن يخالف هذا الدين من أقربائه وأقرانه .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) شارحاً لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِذَا شَـــهِدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا ، وَأَكَلُوا ذَبِيحَتَنَا ، وَصَلَّوْا صَـــلاَتَنَا ، فَقَـــدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا ، لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ** » [٥] :

---

[١] صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ط. المكنز (ص ١٩٧٠ ، حديث رقم : ٧٢٨١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٩) .

[٢] مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١٥٣/٢) ، باب (ف ر ق) .

[٣] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، مسند جابر بن عبد الله ، ت. حمزة أحمد الزين (٤٥٤/١١) حديث رقم ١٤٣٩٣ ، وقال : (إسناده صحيح) .

[٤] البداية والنهاية لابن كثير (٤٤٧/٩-٤٤٨) .

[٥] سنن النسائي ، كتاب تحريم الدم ، ط. المكنز (ص ٧٧٩ ، حديث رقم ٣٩٦٧) ، صحيح سنن النسائي للألباني (٦٧/٣) ، حديث رقم ٣٩٧٧) .

(فَدَلَّ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الْحَدِيث عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي يَحْرُمُ بِهِ دِمَاءُ الْكُفَّارِ ، وَيَصِيرُونَ بِهِ مُسْلِمِينَ ، **لأَنَّ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُ مِلَلِ الْكُفْرِ كُلِّهَا ، وَجَحْدُهَا**) [١] .

إلى أن قال : (فَلاَ يَكُونُ الْكَافِرُ مُسْلِمًا مَحْكُومًا لَهُ وَعَلَيْهِ ، بِحُكْمِ الإِسْلاَمِ حَتَّى يَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ **وَيَجْحَدُ كُلَّ دِينٍ سِوَى الإِسْلاَمِ ، وَيَتَخَلَّى مِنْهُ** ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ نَصْرٍ ، قَالَ : ثنا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ ، قَالَ : ثنا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ ، قَالَ : ثنا أَبُو مَالِكٍ سَعْدُ بْنُ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « **أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَيَتْرُكُوا مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ، حَرُمَتْ عَلَيَّ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى** » [٢] .

حَدَّثَنَا ابْنُ مَرْزُوقٍ ، قَالَ : ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرٍ ، قَالَ : ثنا بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : قُلْت يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا آيَةُ الإِسْلاَمِ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْت وَجْهِيَ لِلَّهِ ، وَتَخَلَّيْت ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ** » [٣] ، فَلَمَّا كَانَ جَوَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ ، لَمَّا سُئِلَ عَنْ آيَةِ الإِسْلاَمِ : « **أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْت وَجْهِيَ لِلَّهِ ، وَتَخَلَّيْت ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ** » ، وَكَانَ التَّخَلِّي هُوَ

---

[١] شرح معاني الآثار للطحاوي (١١٨/٣) ، باب ما يكون الرجل به مسلماً .

[٢] ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة فهو عند النسائي بلفظ : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ** » (سنن النسائي ، كتاب تحريم الدم ، ط. المكنز: حديث رقم ٣٩٧١ ، ص ٧٨٠ ، صحيح سنن النسائي للألباني (٦٩/٣)) ، وهو عند مسلم بلفظ : « **أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُوا بِي ، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ** » (صحيح مسلم ، كتاب الإيمان/باب الأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، ط. المكنز (حديث رقم ١٣٥ ، ص ٣٧) ، ط. السلطانية (٣٩/١)) ، وقد ورد في رواية أخرى عند الإمام مسلم أيضاً في صحيحه بلفظ : « **مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ** » (صحيح مسلم ، كتاب الإيمان/باب الأَمْرِ بِقِتَالِ النَّاسِ حَتَّى يَقُولُوا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، ط. المكنز (حديث رقم ١٣٩ ، ص ٣٨) ، ط. السلطانية (٤٠/١)) .

[٣] الحديث أخرجه الإمام النسائي في سننه قال : (أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ حَدَّثَنَا الْمُعْتَمِرُ قَالَ سَمِعْتُ بَهْزَ بْنَ حَكِيمٍ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ - لأَصَابِعِ يَدَيْهِ - أَلاَّ آتِيَكَ وَلاَ آتِيَ دِينَكَ ، وَإِنِّي كُنْتُ امْرَأً لاَ أَعْقِلُ شَيْئًا إِلاَّ مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا قَالَ : « **بِالإِسْلاَمِ** » ، قَالَ : قُلْتُ : وَمَا آيَاتُ الإِسْلاَمِ ، قَالَ : « **أَنْ تَقُولَ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَخَلَّيْتُ ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ ، لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مُشْرِكٍ بَعْدَمَا أَسْلَمَ عَمَلاً أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ** ») . (سنن النسائي ، كتاب الزكاة / باب مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ط. المكنز (حديث رقم : ٢٥٦٨ ، ص ٤٩٦) ، صحيح سنن النسائي للألباني : ص (٢١٧/٢-٢١٨)) .

تَرْكُ كُلِّ الأَدْيَانِ إِلَى اللَّهِ ، ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ **كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَخَلَّى مِمَّا سِوَى الإِسْلاَمِ ، لَمْ يُعْلَــمْ بِــذَلِكَ دُخُولَهُ فِي الإِسْلاَمِ**) [١] .

وقال في موضع آخر : (**الإِسْلاَمَ لاَ يَكُونُ إلاَّ بِالْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الدُّخُولِ فِــي الإِسْــلاَمِ ، وَتَرْكِ سَائِرِ الْمِلَلِ**) [٢] .

ولا يستطيع الإنسان أن يتخلى عما سوى الإسلام إلا بمعرفة الإسلام ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله شهادة علم وصدق ومحبة وإخلاص ويقين وانقياد ومتابعة .

فالإنسان لا يعد مسلماً إلا إذا دخل هذا الدين بهذا الاعتبار ، بأن يفارق الشرك وأهله مفارقة تبرؤ من دينهم ومعبوداتهم الباطلة . ولا يعد من أهل الإسلام إذا اعتبر ما سواه من الأديان صحيحاً أو اعتبر من لم يحقق هذا الدين أو من خالفه من زمرة المسلمين . فهذا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام الذي أمرنا الله عز وجل بالتأسي به وبمن معه من المسلمين ، يقول الله عز وجل عنه في كتابه الكريم :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الممتحنة: ٤)

فانظر كيف قدموا البراءة من أقوامهم على البراءة من معبوداتهم دون الله عز وجل ، حيث أن الشرك من صناعة المشرك ، ولا وجود للشرك دون صانعه ، وانظر كيف جعلوا هذا الدين هو أساس التــرابط والتواد والموالاة . فهذا هو الإسلام الحق وما سواه باطل .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم (٦٩١-٧٥١هـ) رحمة الله عليه حين قال [٣] :

أَتُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدَّعِي ... حُبًّا لَهُ مَا ذَاكَ فِــي إِمْكَانِ
وَكَــذَا تُعَادِي جَاهِداً أَحْبَابَهُ ... أَيْنَ الْمَحَبَّةُ يَا أَخَ الشَّيْطَانِ

وقد يخدع إبليس بعض الناس فيوهمهم بأن التبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام كاف حتى لــو لم يتبرأوا من معتقدي هذا الدين ، فمثلا يزعم أتباع إبليس أن التبرؤ من كل ما يخالف الإســلام واجــب مثل التبرؤ من الشيوعية والنصرانية ، ولكن لو لم يتبرأ المسلم (!) من الشيوعي لا يضره ، وهذه سفسطة كلامية فإن من يحكم على دين بالكفر لا مفر له من أن يحكم على أتباعه بالكفر أيــضاً ، وإلا كــان متناقضاً وساعياً للجمع بين الضدين في آن واحد .

---

[١] شرح معاني الآثار للطحاوي (١١٨/٣-١١٩) ، باب ما يكون الرجل به مسلماً .

[٢] شرح معاني الآثار للطحاوي (١١٨/٣) ، باب ما يكون الرجل به مسلماً .

[٣] الكافية الشافية لابن القيم ص ١٨٦ ، رقم البيت ٣٤٩٩-٣٥٠٠ .

فالموحد لا يتبرأ من الشرك وحده بل يتبرأ من الشرك وأهله كما فعل إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ومن معه من الموحدين الحنفاء ، وإن أعظم الفساد اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء ، وأعظم الولاء أن يعدَّ غير المسلمين من أهل الإسلام ، **فإن من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم الباطل كفر إجماعاً** .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) : (وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام وعرف أن ما من اله إلا الله ، لا تظن أنك إذا قلت : هذا هو الحق وأنا تارك ما سواه لكن لا أتعرض للمشركين ولا أقول فيهم شيئاً ، لا تظن أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام ، بل لابد من بغضهم وبغض من يحبهم ومسبتهم [١] ومعاداتهم ، كما قال أبوك إبراهيم والذين معه : ﴿ **إِنَّا بُرَآَءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ (الممتحنة: ٤) ، وقال تعالى : ﴿ **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى** ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (النحل: ٣٦) . و لو قال رجل : أنا أتبع النبي صلى الله عليه و سلم وهو على الحق ، لكن لا أتعرض للات والعزة ولا أتعرض لأبي جهل وأمثاله ، ما عليَّ منهم ، لم يصح إسلامه) [٢] .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١١٩٦-١٢٨٥هـ) : (فلا بد من تكفيرهم أيضاً ، وهذا هو مقتضى: لا إله إلا الله ، كلمة الإخلاص ، **فلا يتم معناها، إلا بتكفير من جعل لله شريكا في عبادته** ، كما في الحديث الصحيح : « **مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ** » [٣] ، فقوله : « **وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ** » تأكيد للنفي ، فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك ، فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله) [٤] .

---

[١] لا يقصد من المسبة هنا بمعنى الشتم المعروف عرفاً ، وتوضيح ذلك من قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في موضع آخر حيث قال : (إنه صلى الله عليه وسلم لما قام ينذرهم عن الشرك ، ويأمرهم بضده وهو التوحيد ، لم يكرهوا ذلك واستحسنوه ، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه إلى أن صرح بسب دينهم ، وتجهيل علمائهم ، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، وقالوا سفَّه أحلامنا ، وعاب ديننا ، وشتم آلهتنا ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ، لكن لما ذكر أنهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً) (مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان ، ص ٣٥٥-٣٥٦) .

[٢] مجموعة الفتاوى والرسائل والأجوبة ، ص ١٢٦ .

[٣] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله ، ط. المكنز (ص ٣٨ ، حديث رقم : ١٣٩) ، الطبعة السلطانية (١/٤٠) .

[٤] الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/٢٠٦) .

قال الشيخ الإمام حمد بن علي بن عتيق (١٢٢٧-١٣٠١هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** ﴾ (آل عمران: ٢٨) : (فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين ثم قال : ﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ** ﴾ أي : ومن يوالِ الكافرين ، فليس من الله في شيء ، أي : فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، حفظاً للإسلام والتوحيد) [١] .

وقال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (فإن من الفساد في الأرض إتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝** ﴾ (الأنفال: ٧٣) ، فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝** ﴾ (النساء: ١٤٤) ، ثم قال : ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝** ﴾ (النساء: ١٤٥)) [٢] .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) في معرض وصفه لسورة الكافرون : (وأما المسألة السادسة : وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك ، فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً فقوله : ﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝** ﴾ (الكافرون: ٢) ؛ براءة محضة ، ﴿ **وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝** ﴾ (الكافرون: ٣) ؛ إثبات أن له معبوداً يعبده وأنتم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفي والإثبات وطابقت قول إمام الحنفاء : ﴿ **إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٧) ، وطابقت قول الفتية الموحدين : ﴿ **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ (الكهف:١٦) ؛ **فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله** ، ولهذا كان النبي يقرنها بسورة قل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب ، فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص ، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما ، وهما :

توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع و لم يولد فيكون له أصل ، و لم يكن له كفواً أحد فيكون له نظير ، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها ، فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله

[١] سبيل النجاة والفكاك من مولاة المرتدين وأهل الإشراك ، ص ٢٥٩ .

[٢] تفسير ابن كثير (١/١٨١) .

من صفات الكمال ، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً ، فهذا توحيد العلم والاعتقاد .

والثاني : توحيد القصد والإرادة : وهو أن لا يعبد إلا إياه ، فلا يشرك به في عبادته سواه ، بل يكون وحده هو المعبود ، وسورة قل يا أيها الكافرون مشتملة على هذا التوحيد فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له) [1]

... إلى أن قال : (وأما المسألة التاسعة وهي : ما الفائدة في قوله : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (الكافرون: ٦) ، وهل أفاد هذا معنى زائداً على ما تقدم ؟ فيقال : في ذلك من الحكمة والله أعلم أن النفي الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه ، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم ، وهم أيضاً لا يكونون عابدين لمعبوده ، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً فقال له لا تدخل في حدي ولا أدخل في حدك ، لك أرضك ولي أرضي ، فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا ، فأصابنا التوحيد والإيمان فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه ، وأصابكم الشرك بالله والكفر به فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصمون به لا نشرككم به ، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه ، وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خود تزف إلى ضرير مقعد ، فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي ونسأله إتمام نعمته) [2] .

... إلى أن قال : (وأما المسألة الحادية عشرة : وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخا أو مخصوصا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص ؟

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة وقد غلط في السورة خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها ، **فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه** . وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم ، **ومنشأ الغلط ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم** ، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا : منسوخ .

---

[1] بدائع الفوائد (٢٤٢/١-٢٤٤) .

[2] بدائع الفوائد (٢٤٥/١-٢٤٦) .

وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم ، فقالوا هذا مخصوص ، ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً ، بل لم يزل رسول الله في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد .

وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه فأبى إلا مضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم فكيف يقال إن الآية اقتضت تقريره لهم معاذ الله من هذا الزعم الباطل ، **وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة** كما تقدم ، **وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً** ، **فإنه دين باطل فهو مختص بكم ، لا نشرككم فيه ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق** ، **فهذا غاية البراءة** ، **والتنصل من موافقتهم في دينهم** ، فأين الإقرار حتى يدعي النسخ أو التخصيص أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال : ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ (الكافرون: ٦) ؟! بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده)[١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب ، فلا بد من إخلاص الدين لله ، والدين لا يكون دينا إلا بعملٍ ، فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة ، وقد أنزل الله عز و جل سورتي الإخلاص قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، إحداهما في توحيد القول والعلم ، والثانية في توحيد العمل والإرادة فقال في الأول : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞** ﴾ (الإخلاص) ، فأمره أن يقول هذا التوحيد ، وقال في الثاني : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۞** ﴾ (الكافرون) ، **فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله**)[٢] .

قلت : وما يوجب البراءة من عبادة غير الله وإخلاص العبادة لله عز وجل هو تكفير الكافر وعدم تصحيح مذهبه ودينه والتبرؤ منه ومن دينه وبغضه وعدم إعانته على المسلمين .

وقال رحمه الله في موضع آخر : (فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربه كافرون ، قد شهد عليهم بالكفر ، وأمرهم بجهادهم ، **وكفَّر من لم يجعلهم كافرين ويوجب جهادهم**)[٣] .

---

[١] بدائع الفوائد (٢٤٧/١-٢٤٨) .

[٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٧٣/١٠-٢٧٤) .

[٣] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٦٣/٣) .

إذا علمت هذا علمت أن الدخول في الإسلام لا يتم إلى بسلب الألوهية والربوبية عن كل ما سوى الله عز وجل ، وسلب الإتباع عن كل بشر سوى رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وسلب الولاء عن كل من لم يحقق الشهادتين أو ناقضهما أو خالف فيهما .

فمن والى من خالف هذا الدين فلا يعتبر مؤمناً بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا حكم الله عز وجل المحكم الواضح في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حيث ذكر عن كثير من كفار بني إسرائيل أنهم كانوا يتولون الذين كفروا وأنهم لو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوا الكافرين أولياء ، فقال عز من قائل : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞** ﴾ (المائدة: ٧٨-٨١)

فتحقيق الولاء لأهل الإسلام ، وتحقيق البراءة من أهل الكفر هو من أصل التوحيد لا يتم إلا به ، ومن ادعى أنه يؤمن بالله عز وجل وبنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل إليه مع موالاته للكافرين فهو كاذب في دعواه الإيمان ، يكذبه رب العزة تبارك وتعالى بقوله : ﴿ **وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ (المائدة: ٨١) ، لذا فعليك يا عبد الله أن تكون بريئاً من الشرك والمشركين ، موالياً للتوحيد والموحدين ، حتى تكون من أهل الحق واليقين ، وتفوز بجنات النعيم ، جعلنا الله وإياك من أهله بفضله ومنّه وكرمه ... آمين يا رب العالمين .

واعلم أن الشرك والكفر سببه الغالب إما الجهل [1] ، وإما التأويل الفاسد ، وإما العناد ، وإما الإعراض عن دين الله عز وجل ، فقصر علماء إبليس الشرك والكفر على العناد ، وجعلوا الجهل والتأويل عذراً يسبغون به على المشركين صفة الإسلام ويوالونهم لأجله إن كانوا ممن يتلفظون بالشهادتين فقصروا الإسلام على مجرد ألفاظ خاوية من المعاني ، ولم يدروا أن الشاهد كي يكون شاهداً يجب عليه أن يشهد بالشيء على علم وعلى ما هو عليه ، فهذه هي حقيقة الشهادة .

---

[1] قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون ، وتارة بأنهم لا يعقلون ، وتارة بأنهم لا يشعرون ، وتارة بأنهم لا يفقهون ، وتارة بأنهم لا يسمعون ، والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم لا يبصرون ، **فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه** ، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون كقوله تعالى : ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ۞** ﴾ (الفرقان: ٦٣) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۞** ﴾ (القصص: ٥٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۞** ﴾ (الأعراف: ١٩٩)) . (مفتاح دار السعادة لابن القيم ج١ ، ص ٩٢) .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٦) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فان الخطأ في اسم الإيمان ليس كالخطأ في اسم محدث ، ولا كالخطأ في غيره في الأسماء ، إذا كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الأيمان والإسلام و الكفر والنفاق)[1] .

فمن لم يفرق بين المسلم والمشرك وسمى المشرك مسلماً فهو من زمرة المشركين المسوغين للشرك ، الموالين للمشركين ، الناقضين للتوحيد ، المكذبين لنصوص الوحيين ، وكل من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم الباطل كفر إجماعاً وكُذِّب في دعواه الإيمان .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (المائدة: ٨١) ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (ولهذا نكفِّر من لم يكفِّر من دان بغير ملة المسلمين من الملل أو وقف فيهم أو شكَّ أو صحح مذهبهم ، وإن أظهر مع ذلك الإسلام واعتقده واعتقد إبطال كل مذهب سواه فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك)[2] .

لذا فإن أصل الخلاف بيننا وبين من يسمون بأصحاب العذر بالجهل في التوحيد ، وهم المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين ، والمدافعين عن إيمان المشركين بالله عز وجل في عبادته بحجة أنهم جاهلين ، هو في تحديد معالم هذا الدين ومعرفة حقيقته وأصله وأساسه الذي لا يتم ولا يصح إلا به ، فهم يجعلون الإسلام تارة هو التلفظ بالشهادتين ، وتارة يظنون أنه يكفي للدخول في الإسلام معرفة أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق الرازق ولو كان يعبد الواحد منهم غير الله عز وجل ، وبذلك يصححون دين المشركين ودين الجاهلين برب العالمين .

وهؤلاء أصحاب العذر بالجهل في التوحيد ليسوا على دين الإسلام لأن من شرط الدخول في الإسلام التبرؤ من كل الملل سوى الإسلام وجحدها والتبرؤ من أهلها كما أسلفنا .

لذا قلنا أن الشاك في الله والموالي له في الحكم سيان ، فالأول لم يعرف الله و لم يؤمن به بعد ، والثاني صحح دين من لم يعرف الله عز وجل ومن لم يؤمن به أي صحح الكفر ووالى أهله .

فإن ادعى مغرض أن من لم يكفر المشركين ليس موال لهم بالضرورة ، فنرد عليه بحول الله تعالى ونقول :

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩٥/٧) .

[2] الشفا للقاضي عياض (٢٨٦/٢) .

إن من لم يكفِّر المشركين ، ولو لم يوالهم الولاء العملي ، فهو قد والاهم بقلبه وقوله .

أما ولاؤه القلبي : فهو لأنه اعتبرهم من المؤمنين الموحدين ، فأحبهم حب المؤمنين الموحدين ، وهذا من أعظم الولاء ، وأصل الولاء الذي ينبني عليه صور الولاء الأخرى من الولاء القولي والعملي .

وأما الولاء القولي : فهو لأنه وصف أهل الشرك بأنهم أهل إيمان وتوحيد .

أقول بحول الله تعالى : فإذا عرف الواحد معنى الشهادتين وعرف حقيقة هذا الدين وجب عليه التبرؤ من كل ما سوى هذا الدين وأتباعهم ، فمن صحح إيمان الجاهلين برب العالمين ، أو الشاكين في كمال بعض صفات الله عز وجل ، أو صحح إيمان المشركين برب العالمين ولو بحجة أنهم جاهلين ، فهو قد صحح الشرك والكفر لأنه اعتبر أهل الشرك والكفر من أهل الإسلام ، ومن اعتبر أهل الشرك والكفر من أهل الإسلام فقد والاهم بقلبه على أدنى تقدير ، وهذا هو أصل الولاء الذي ينبثق منه صور الولاء الأخرى من الولاء القولي والعملي ، وبذلك يعد أنه لم يدخل في الإسلام بعد لأنه لم يتبرأ و لم يجحد كل ملل الشرك والكفر وجميع أهلها .

المقدمة الخامسة : التحذير من الفلسفة وعلم الكلام وبيان ضرره على أهل الإسلام

اعلم أرشدك الله لطريق الهداية ، أن المسلمين لما كانت عقائدهم مستقاة من الكتاب والسنة ، وهما طريق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، كانت عقائدهم صافية نقية ، كيف لا وهم يستقون من هذين الأصلين اللذين قال عنهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ » [(١)] .

وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الالتزام بالكتاب والسنة ، والتحذير من البدع ، والمجادلة بالباطل . قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه (ت: ٣٣هـ) : (إنا نقتدي ولا نبتدي ، ونتبع ولا نبتدع ، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر) [(٢)] .

وقد سار التابعون ، ومن بعدهم من السلف ، على هذا النهج ، إلى أن ازدهرت حركة الترجمة في عهد الخليفة العباسي المأمون فلم يكتف المسلمون بترجمة العلوم التطبيقية بل قاموا بترجمة حتى ما يتعلق بجانب العقائد والفلسفة والمنطق .

فانبهر البعض بالعقول اليونانية وبمنطقهم وفلسفتهم ، وبدؤوا بإثبات العقائد الإسلامية من خلال منطق أفلاطون وأرسطو ، فنتج من ذلك مفاسد كثيرة جداً منها القدح في صفات الله عز وجل .

وسبب ذلك أنهم لما أثبتوا بعض العقائد الصحيحة عن طريق علوم اليونان ، أدى ذلك بهم إلى الاعتماد على هذه النظريات ، فجعلوها أساساً تبنى عليها علومهم وأطلقوا لها العنان ، مما أدى في النهاية إلى القدح في صفات الله عز وجل [(٣)] . لذا قال الإمام أبو يوسف (١١٣-١٨٢هـ) صاحب أبو حنيفة : (من طلب العلم بالكلام فقد تزندق) [(٤)] .

ولما كان الأمر بهذه الخطورة فقد حذر العلماء من علم الكلام أشد ما تحذير ، ونكتفي في ذلك بنقولات يسيرة تدل على المقصود .

---

(١) الموطأ برواية أبي مصعب الزهري ، كتاب الجامع / باب النهي عن القول بالقدر (٧٠/٢) ، حديث رقم ١٨٧٤ .

(٢) شرح أصول اعتقاد السنة للالكائي (١٦٦/١) .

(٣) اعلم أن العقل الصريح لا يتعارض مع النقل الصحيح ، ولكن لا شك أن عقول أفلاطون وأرسطو المنتنة تتعارض مع الشرع ولا بد .

(٤) الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (١١٧/١) ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٦٦/١) .

قال الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ) : (لو كان الكلام علماً ، لتكلم فيه الصحابة والتابعون ، كما تكلموا في الأحكام والشرائع ، ولكنه باطل ، يدل على باطل) [١] .

قيل لأبي حنيفة [٢] (٨٠-١٥٠هـ): ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام والأعراض والأجسام ؟ فقال: (مقالات الفلاسفة ، عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك كل محدثة فإنها بدعة) [٣] .

قال الإمام الشافعي [٤] (١٥٠-٢٠٤هـ) : (لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في علم الكلام) [٥] .

قال الإمام أحمد بن حنبل [٦] (١٦٤-٢٤١هـ) : (لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل) [٧] .

قال الإمام البربهاري [٨] (٢٣٣-٣٢٨هـ) : (اعلم أنها لم تكن زندقة ولا كفر ولا شكوك ولا بدعة ولا ضلالة ولا حيرة في الدين إلا من الكلام وأهل الكلام ، والجدال والمراء ، والخصومة والعجب) [٩] .

قال أبو الوفاء ابن عقيل (٤٣١-٥١٣هـ) : (قال بعض أصحابنا : أنا أقطع أن الصحابة رضي الله عنهم ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فإن رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وإن رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيته) [١٠] .

---

[١] شرح السنة للبغوي (١٤٩/١) .

[٢] فقيه الملة ، عالم العراق ، أبو حنيفة النعمان ، من طبقة التابعين فقد رأى الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه لما قدم عليهم الكوفة.

[٣] الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة للأصبهاني (١١٥/١) .

[٤] الإمام عالم العصر ، ناصر الحديث ، فقيه الملة أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي ثم المطلبي الشافعي المكي ، الغزي المولد ، نسيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمه ، فالمطلب هو أخو هاشم والد عبد المطلب . انظر سير أعلام النبلاء (٥/١٠-٦) . سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه يوماً فقال : أي رجل كان الشافعي ، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له ؟ قال : (يا بني ، كان كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس ، فهل لهذين من خلف أو منهما عوض) . سير أعلام النبلاء (٤٥/١٠) . ومن أجمل ما قاله : (إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط) سير أعلام النبلاء (٣٥/١٠) .

[٥] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦٩١/٦) .

[٦] هو إمام المسلمين في زمانه ، صاحب المسند ، وهو أشهر من علم حتى قال عنه الذهبي : (وهو الإمام حقاً وشيخ الإسلام صدقاً) . انظر سير أعلام النبلاء (١٧٧/١١) .

[٧] صحيح جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، ص ٣٦٧ .

[٨] شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه ، كان قوالا بالحق داعية إلى الأثر ، لا يخاف في الله لومة لائم . انظر سير أعلام النبلاء (٩٠/١٥) .

[٩] شرح السنة للبربهاري ، ص ٣٨ .

[١٠] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦٩١/٦) .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (فأما أصل الدخل في العلم والاعتقاد فمن الفلسفة ، وهو أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإنعكاف على الكتاب والسنة فأوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب رديئة أفسدوا بها العقائد) [١] .

قال الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي (٧٣١-٧٩٢هـ) : (وسبب الضلال الإعراض عن تدبر كلام الله ورسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة) [٢] .

قال الإمام مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي (ت: ١٠٣٣هـ) : (نصيحة ، اعلم وفقك الله أنه ليس للمرء أسلم في دينه من ترك الخوض في مثل هذا والإعراض عن الخوض في علم الكلام المذموم واقتفاء طريقة السلف فإنهم لم يخوضوا في شيء من هذا) [٣] .

وانظر بالله عليك واعتبر من أقوال العلماء الذين خاضوا هذا العلم باحثين عن فائدة ترجى فلم يرجعوا إلا بالحسرة والأسى ، فهذا الشهرستاني وصف حاله فقال :

لَعَمْرِي لَقَدْ طُفْتُ الْمَعَاهِدَ كُلَّهَا وَصَيَّرْتُ طَرْفِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ
فَلَمْ أَرَ إِلاَّ وَاضِعًا كَفَّ حَائِرٍ عَلَى ذَقَنٍ أَوْ قَارِعاً سِنَّ نَادِمِ

ثم قال : (عليكم بدين العجائز ؛ فإنه أسنى الجوائز) [٤] .

وهذا إمام الحرمين الجويني (ت: ٤٧٨هـ) قال لأصحابه : (يَا أَصْحَابَنَا لاَ تَشْتَغِلُوا بِالْكَلاَمِ ، فَلَوْ عَرَفْتُ أَنَّ الْكَلاَمَ يَبْلُغُ بِي إِلَى مَا بَلَغَ مَا اشْتَغَلْتُ به) ، وَقَالَ عِنْدَ مَوْته : (لَقَدْ خُضْتُ الْبَحْرَ الْخِضَمَّ ، وَخَلَّيْتُ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَعُلُومَهُمْ ، وَدَخَلْتُ فِي الَّذِي نَهَوْنِي عَنْهُ ، وَالآنَ فَإِنْ لَمْ يَتَدَارَكْنِي رَبِّي بِرَحْمَتِهِ فَالْوَيْلُ لابْنِ الْجُوَيْنِيِّ ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي ، أَوْ قَالَ : عَلَى عَقِيدَةِ عَجَائِزِ نَيْسَابُورَ) [٥] .

والإمام أبو العباس القرطبي له كلام قوي ورائع في الرد على المتكلمين ، خصوصاً أن الإمام القرطبي في بداية طلبه تعلم علم الكلام ، فنقده لعلم الكلام نقد المجرب الخبير ، حيث قال عند شرحه لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ** » [٦] :

---

[١] صيد الخاطر لابن الجوزي ، ص ١٧٣ .
[٢] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢٤٢/١) .
[٣] أقاويل الثقات (١١٠/١) .
[٤] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦٩٣/٦) .
[٥] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢٤٥/١) .
[٦] صحيح مسلم ، كتاب العلم / باب في الألد الخصم ، ط. المكنز (ص ١٣٧٥ ، حديث رقم ٦٩٥١) ، الطبعة السلطانية (٥٧/٨) .

(وهذا الخصم المبغوض عند الله تعالى هو الذي يقصد بخصومته مدافعة الحق ، وردّه بالأوجه الفاسدة ، والشبه المموهة ، وأشد ذلك ؛ الخصومة في أصول الدين ، كخصومة أكثر المتكلمين المعرضين عن الطرق التي أرشد إليها كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وسلف أمته إلى طرق مبتدعة واصطلاحات مخترعة ، وقوانين جدلية ، وأمور صناعية ، مدار أكثرها على مباحث سوفسطائية ، أو مناقشات لفظية ترد بشبهها على الآخذ فيها شبه ربما يعجز عنها وشكوك يذهب الإيمان معها ، وأحسنهم انفصالاً عنها أجدلهم لا أعلمهم ، فكم من عالم بفساد الشبهة لا يقوى على حلها ، وكم من منفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها ! ثم إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعاً من المحال لا يرتضيها البله ولا الأطفال لما بحثوا عن تحيز الجواهر والأكوان والأحوال ، ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك البحث فيه السلف الصالح ، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح ، وهو كيفية تعلق صفات الله تعالى وتقديرها ، واتحاذها في أنفسها ، وأنها هي الذات أو غيرها ، وأن الكلام هل هو متحد أو منقسم ؟ وإذا كان منقسماً فهل ينقسم بالأنواع أو بالأوصاف ؟ وكيف تعلق في الأزل بالمأمور ؟ ثم إذا انعدم المأمور فهل يبقى ذلك التعلق ؟ وهل الأمر لزيد بالصلاة مثلاً هو عين الأمر لعمرو بالزكاة ؟ إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث عنها ، وسكت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها ، لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته ، فإن العقول لها حد تقف عنده ، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه ، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات ، ولذا قال العليم الخبير : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ** ﴾ (الشورى: ١١) ، ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار ، فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها ، وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها ، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز . وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء ، أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات ، منزه عن صفاتها ، مقدس عن أحوالها ، موصوف بصفات الكمال اللائق به . ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه ، قبلناه ، واعتقدناه ، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه ، وتركنا الخوض فيه ، هذه طريقة السلف ، وما سواها مهاوٍ وتلف ، ويكفي في الردع عن الخوض في طرق المتكلمين ما قد ورد في ذلك عن الأئمة المتقدمين) [١] .

ومما يلفت النظر أن اللذين قاموا بترجمة هذه الفلسفات هم أعداء الإسلام حتى أنه روي أن بعض الخلفاء العباسيين لما طلب الفلاسفة ليترجم علم المنطق باللغة العربية شاوروا كبيراً لهم ، فقال : (ترجموه لهم فإن علمنا هذا لا يدخل في دين إلا أفسده) [٢] .

---

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٦/٦٩٠-٦٩١) .

[٢] أبجد العلوم (٢/٥٤٤) .

لذا فقد أجمع العلماء على التحذير من علم الكلام في إثبات العقائد ، وذلك يرجع إلى سببين :

أولهما : أن أصول هذا العلم مأخوذة من الكفار وعندنا الكتاب والسنة الكافيان الوافيان ولله الحمد والمنة .

والثاني : أن الكثير قد توصلوا من خلال مقدمات هذا العلم إلى نتائج باطلة مشابهة لعقائد الكفار من الأمم السابقة .

وأما حول الاشتغال بهذا العلم من أجل الرد على العقائد المخالفة فكان للعلماء في هذا مسلكين .

قال محمد صديق خان القنوجي (١٢٤٨-١٣٠٧هـ) : (فالعلماء المتقدمون كانوا إذا اطلعوا على شيء من ألفاظ الفلاسفة في أي كلام يَرِدُ عليهم اكتفوا في رده وإبطاله بأن فيه شيء من عبارة الفلاسفة ، ولم يتشاغلوا ببيان ببطلانه ..... ولم يشتغل من اشتغل من المتأخرين إلا لما كثر التعبير بقواعده من المخالفين ، واستعانوا بالخوض فيه على تيسير الرد عليهم بالطريق التي سلكوها ، وكان الأولى : السلوك في طريقة المتقدمين ، لأن **قواعد التعبير بعبارة المنطق كثيرة الغلط وخارجة عن عبارة الكتاب والسنة واللسان العربي مع أنه مفسدة في كل من الأديان**) [١] .

لذا فقد رأى المتقدمون من العلماء الإعراض الشامل عن هذا العلم ، وهي طريقة سليمة ، ولكن رأى بعض العلماء المتقدمين الدخول في هذا العلم من باب الرد على من يدعي علم المعقول ويطعن في الكتاب والسنة ، وما فعلوا ذلك إلا مجبرين للدفاع عن الإسلام وشبه الملحدين والزنادقة ، وإن كانت طريقة المتقدمين من السلف أسلم .

قال الإمام الدارمي (١٨١-٢٥٥هـ) : (وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه ، وقد كانوا رزقوا العافية منهم ، وابتلينا بهم عند دروس الإسلام ، وذهاب العلماء ، فلم نجد بُدًّا من أن نرد عليهم ما أتوا به من الباطل بالحق) [٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم ، لم يكن أعطى الإسلام حقه) [٣] .

ومناسبة ما أوردناه من التحذير من علم الكلام والفلسفة وجعله من المسائل المهمة هو أن المجادلين من أولياء الشيطان سلكوا هذا المسلك في إثبات معتقدهم الفاسد وشبهتهم الساقطة ، وسيأتي الرد عليهم مفصلاً بعون الله تعالى وتوفيقه .

---

[١] أبجد العلوم (٢/٥٤٤) .

[٢] الرد على الجهمية لأبي سعيد عثمان الدارمي ، ص ٢٣ .

[٣] درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١/٣٥٧) .

المقدمة السادسة : الرد على شبهة الفلاسفة في مجادلتهم حول كمال قدرة الله تبارك وتعالى

إن أعداء الدين منذ القدم يسعون لتدمير هذا الدين بالشبهات تارة وبالشهوات تارة أخرى ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝** ﴾ (التوبة: ٣٢)

فلقد بينا بحول الله وقوته في المسألة السابقة شر أهل الكلام على أهل الإسلام ، فمن مكائدهم الشيطانية اللعب بالألفاظ اللغوية ، وقلب الحقائق الضرورية اليقينية ، ليتوصلوا بذلك إلى إزالة الإيمان من قلب المسلم الموحد ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾ (النساء: ٨٩) .

فمن سخف أفهامهم ، وخبث نواياهم ، أتوا بأسئلة ظنوا أنهم يستطيعون بها بث الشكوك حول الحقيقة الإيمانية الراسخة " **أن الله على كل شيء قدير** " . فبدءوا يسألون المسلمين أسئلة هي أشبه بتعبيرات المجانين ، وعقائد الزنادقة الملحدين ، فقالوا : ألستم تزعمون أن الله على كل شيء قدير ، فهل يقدر الله على خلق صخرة لا يستطيع حملها ؟ وقالوا : فإن قلتم نعم ، فقد أثبتم وجود صخرة لا يستطيع حملها . وإن قلتم لا ، فقد قلتم أنه لا يستطيع خلق مثل هذه الصخرة .

فللنظر الآن إلى حقيقة سؤالهم الذي هو بمفهوم آخر : هل يقدر الذي لا يعجز عن شيء أن يعجز عن شيء ؟

فسؤالهم هذا يفسد أوله آخره ، ويشبه كلام المجانين الذي لا معنى له ، وهو عبارة عن سفسطة كلامية ، ولعب بالألفاظ اللغوية ، وكفر بالله عز وجل .

وسؤالهم هذا لا يقتضي الإجابة بنعم ولا بلا ، لأنه ليس بسؤال صحيح ، فليس كل سؤال له جواب ، بل كل سؤال صحيح له جواب . فإن السؤال الذي يفسد بعضه بعضاً [1] ، وينقض آخره أوله ، هو سؤال فاسد لم يحقق بعد ، فهو في الحقيقة ليس بسؤال ولا سأل صاحبه عن شيء أصلاً ، وما لم يسأل عنه فلا يلزم عنه جواب . كما أن المجنون لو سألنا سؤالاً لم نفهم معناه لم يقتضي تفوهه بالخزعبلات أية إجابة منا ، وكذلك سؤالهم السابق .

ومن أمثلة هذه الأسئلة قولهم أخزاهم الله : هل يستطيع الله خلق إله مثله ، أو هل يستطيع الله أن يفني نفسه ، أو هل يستطيع الله خلق صخرة ليست في ملكه ، إلى أمثال هذه الهذيانات الكفرية التي لا يتفوه بمثلها إلا زنديق مارق ما عرف الله عز وجل ، وما قدره حق قدره ، نسأل الله السلامة .

---

[1] ففي الشق الأول من السؤال يسألون بـــ (هل يقدر) أي (هل يستطيع) وفي الشق الثاني منه لا يستطيع !!!

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن مثل هذه الأسئلة من الشيطان وبيَّن علاج هذا الـــضرب من الأسئلة فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :

« **يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ مَنْ خَلَقَ كَذَا ، مَنْ خَلَقَ كَذَا ، حَتَّى يَقُولَ مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ ، فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّه ، وَلْيَنْتَه** » [(١)] . وفي رواية مسلم : « **لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَـالَ هَـذَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّه** » [(٢)] ، وفي رواية الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِيه الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ، فَيَقُولُ : فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ ، فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقْرَأْ (آمَنْتُ بِاللَّه وَرُسُلِه) فَـإِنَّ ذَلِـكَ يُذْهِبُ عَنْهُ** » [(٣)] ، وفي رواية أبي داود : « **لاَ يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ : هَـذَا خَلَـقَ اللَّـهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ آمَنْتُ بِاللَّه** » [(٤)] ، وفي رواية أخرى عند أبي داود أيضاً : « **فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا : (اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُـوًا أَحَدٌ) ، ثُمَّ لْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِه ثَلاَثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ** » [(٥)] .

فقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن هذا النوع من الأسئلة هي أسئلة شيطانية ، وأرشد في العلاج إلى ثلاثة أمور :

الأول- الاستعاذة بالله .

الثاني- قول : (**آمَنْتُ بِاللَّه**) ، أو قول (**آمَنْتُ بِاللَّه وَرُسُلِه**) ، أو قول (**اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) .

الثالث- الانتهاء عن هذا .

وهذا الدواء النبوي من أنفع الأدوية لمثل هذه الأسئلة الشيطانية . فأما دواء الاستعاذة فهو مـصداقاً لقوله الله عز وجل : ﴿ **وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّه** ﴾ (الأعـراف: ٢٠٠) وفائدتـه ظاهرة فإنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

[(١)] صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق / باب صفة إبليس وجنوده ، الطبعة السلطانية (١٢٣/٤) ، ط. المكنز (ص ٩٠٤ حديث رقم ٣٢٧٦) .

[(٢)] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقول من وجدها ، ط. المطبعة العامرة (٨٣/١-٨٤) ، ط. المكنز (ص ٨٠ ، حديث رقم ٣٦٠) .

[(٣)] مسند الإمام أحمد ، ط. حمزة أحمد الزين ، (١٥٩/١٨-١٦٠) حديث رقم (٢٦٠٨١) ، قال حمزة أحمد الزين : (إسناده صحيح ، رواه بلفظه البزار (٣٤/١) رقم ٥٠ (كشف) ، وابن حبان (٣٦٢/١) رقم ١٥٠ (الإحسان) ، وقال الهيثمي (٣٣/١) رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجاله ثقات) اهـ .

[(٤)] سنن أبي داوود ، كتاب السنة / باب في الجهمية ، ط. المكنز (ص ٩٢٩ ، حديث رقم ٤٧٢١) .

[(٥)] سنن أبي داوود ، كتاب السنة / باب في الجهمية ، ط. المكنز (ص ٩٢٩ ، حديث رقم ٤٧٢٢) .

وأما قول (**آمَنْتُ بِاللَّه**) أو قول (**آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِه**) أو قول (**اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**) فهو الرجوع للمحكم عند ورود وسوسة ما حول حقيقة إيمانية ، ولأن الشيطان بهذه الوسوسة يريد أن يموه بأن الله مخلوق ، فجاء الدواء النبوي بقول (**آمَنْتُ بِاللَّهِ**) أي آمنت بأن الله هو الخالق ، وبهذا تبطل هذه الشبهة الشيطانية ، والتمويه الفاسد .

قال الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) : (« **آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِه** » أي آمنت بالذي قال الله ورسله من وصفه تعالى بالتوحيد والقدم ، وقوله سبحانه وإجماع الرسل هو الصدق والحق ، ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ** ﴾ (يونس: ٣٢)) [١] ، وقال في موضع آخر : (« **فَقُولُوا (اللَّهُ أَحَدٌ** ..) » يعني قولوا في رد هذه المقالة أو الوسوسة : الله تعالى ليس مخلوقاً بل هو أحد ، والأحد هو الذي لا ثاني له في الذات ولا في الصفات الله ، (الصمد) المرجع في الحوائج المستغني عن كل أحد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد) [٢] .

ويرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً إلى التفل عن اليسار ثلاثاً ، قال الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) : (« **ثُمَّ لْيَتْفُلْ** » بسكون اللام الأولى وتكسر ، وبضم الفاء وتكسر ، أي ليبصق أحدكم أو هذا الرجل يعني الموسوس « **عَنْ يَسَارِهِ** » كرامة لليمين وقيل اللمة الشيطانية عن يسار القلب والرحمانية عن يمينه ، « **ثَلاثًا** » أي ليلق البزاق من الفم ثلاث مرات وهو عبارة عن كراهة الشيء والنفور عنه كمن يجد جيفة ، والتكرار مراغمة للشيطان وتبعيد له لينفر منه ويعلم أنه لا يطيعه فيه ويكره الكلام المذكور منه) [٣] .

ويرشدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً إلى الانتهاء من مثل هذه الوساوس وعدم الخوض فيها والإعراض عنها ، وكانت هذه مجرد وساوس يلقيها الشيطان على العبد المؤمن من خلال جنوده من الجن ، فإذ به بعد ذلك يلقيه على عباد الله المؤمنين من خلال جنوده من الإنس الذين تفوهوا بالخزعبلات السابقة الذكر ، فانبرى العلماء لصد شبهتهم وبيان دحضها .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (قَالَ الإِمَام الْمَازِرِيُّ رَحِمَهُ اللَّه : ظَاهِر الْحَدِيث أَنَّهُ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُمْ أَنْ يَدْفَعُوا الْخَوَاطِر بِالإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَالرَّدّ لَهَا مِنْ غَيْر اسْتِدْلَال وَلاَ نَظَر فِي إِبْطَالهَا . قَالَ : وَالَّذِي يُقَال فِي هَذَا الْمَعْنَى أَنَّ الْخَوَاطِر عَلَى قِسْمَيْنِ : فَأَمَّا الَّتِي لَيْسَتْ بِمُسْتَقِرَّة وَلاَ اجْتَلَبَتْهَا شُبْهَة طَرَأَتْ فَهِيَ الَّتِي تُدْفَع بِالإِعْرَاضِ عَنْهَا ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَل الْحَدِيث ، وَعَلَى مِثْلهَا يَنْطَلِق اِسْم الْوَسْوَسَة ؛ فَكَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ أَمْرًا طَارِئًا بِغَيْرِ أَصْل دُفِعَ بِغَيْرِ نَظَر فِي دَلِيل إِذْ لاَ

---

[١] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٢٤٣) .
[٢] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٢٥٣) .
[٣] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٢٥٣) .

أَصْل لَهُ يُنْظَر فِيه . وَأَمَّا الْخَوَاطِر الْمُسْتَقِرَّة الَّتِي أَوْجَبَتْهَا الشُّبْهَة فَإِنَّهَا لاَ تُدْفَع إِلاَّ بِالاِسْتِدْلاَلِ وَالنَّظَر فِي إِبْطَالهَا . وَاَللَّه أَعْلَم) [(١)] .

ولقد كنا بيننا طريقة العلماء في الرد على أهل الكلام ، فأما القسم الذي وجد نفسه مضطراً للدفاع عن الإسلام والرد على أهل الكلام ، سموا هذه الأشياء محالاً لذاته ، أو محالاً عقلياً ، وسماه البعض المحال المطلق .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (وَقَالَ ابْن بَطَّال : فَإِنْ قَالَ الْمُوَسْوِس فَمَا الْمَانِع أَنْ يَخْلُق الْخَالِقُ نَفْسَهُ ، قِيلَ لَهُ هَذَا يَنْقُضُ بَعْضه بَعْضًا ، لأَنَّك أَثْبَتَ خَالِقًا وَأَوْجَبْت وُجُوده ثُمَّ قُلْت : يَخْلُق نَفْسه ، فَأَوْجَبْت عَدَمه ، **وَالْجَمْع بَيْن كَوْنه مَوْجُودًا مَعْدُومًا فَاسِد لِتَنَاقُضِه** ، لأَنَّ الْفَاعِل يَتَقَدَّم وُجُوده عَلَى وُجُود فِعْله فَيَسْتَحِيل كَوْن نَفْسه فِعْلاً لَهُ . وَهَذَا وَاضِح فِي حَلّ هَذِه الشُّبْهَة وَهُوَ يُفْضِي إِلَى صَرِيح الإِيمَان انْتَهَى مُلَخَّصًا مُوَضَّحًا)... إلى أن قال : (وَيُقَال إِنَّ نَحْو هَذِه الْمَسْأَلَة وَقَعَتْ فِي زَمَن الرَّشِيد فِي قِصَّة لَهُ مَعَ صَاحِب الْهِنْد ، وَأَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ هَلْ يَقْدِر الْخَالِق أَنْ يَخْلُق مِثْله ، فَسَأَلَ أَهْل الْعِلْم ، فَبَدَرَ شَابٌّ فَقَالَ : هَذَا السُّؤَال مُحَال ، لأَنَّ الْمَخْلُوق مُحْدَث وَالْمُحْدَثُ لاَ يَكُون مِثْل الْقَدِيم ، فَاسْتَحَالَ أَنْ يُقَال يَقْدِر أَنْ يَخْلُق مِثْله أَوْ لاَ يَقْدِر ، كَمَا يَسْتَحِيل أَنْ يُقَال فِي الْقَادِر الْعَالِم يَقْدِر أَنْ يَصِير عَاجِزًا جَاهِلاً) [(٢)] .

قال الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) : (فإن وسوس الشيطان فقال : ما المانع أن يخلق الخالق نفسه . قيل له : **هذه وسوسة ينقض بعضها بعضاً** ؛ لأن بقولك (يخلق) قد أوجبت وجوده تعالى ، وبقولك (نفسه) قد أوجبت عدمه ، **والجمع بين كونه موجودًا ومعدومًا معًا تناقض فاسد** ؛ لأن من شرط الفاعل تقدم وجوده على وجود فعله فيستحيل كون نفسه فعلاً له ؛ لاستحالة أن يقال إن النفس تخلق النفس التي هي هو ، وهذا بيِّن في حل هذه الشُبه وهو صريح الإيمان) [(٣)] .

وهنا مسألة مهمة وهو أنه لو سُئِل أحد الموحدين عن مثل هذه الأسئلة الشيطانية الكفرية مثل أن يسأله أحد شياطين الإنس فيقول له : هل يقدر الله أن يخلق إله مثله ؟

فلو بادر أحد الموحدين إلى الإجابة عن هذا السؤال بنعم ، وكان قصده أن يقول أن الله على كل شيء قدير ، و لم يقصد أبداً أن يقول بإمكانية أن يوجد لله مثيل ، وهذا قد يحصل لعدم تنبهه على الأمر المستفهم عنه بالقدرة وأنه أمر كفري ، لا يكفَّر مباشرة ، بل ينبه ويبين له الأمر ، فإن الموحد لا شك أنه يعرف أنه من المحال أن يكون لله مثيل أو شبيه وأن هذا الفرض كفري ، لكن لما يسأل هذا السؤال

---

(١) شرح النووي على مسلم (٢/١٥٥) .

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٣/٢٨٨) .

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٣٤٣) .

قد يفهم منه أنه سؤال عن قدرة الله عز وجل فقط ، والله على كل شيء قدير ، فيجيب بنعم دون تدقيق في الأمر المستفهم عنه ، لذا يبين لمن لم يفهم السؤال حقيقة السؤال ، ومن ثم يبين له الدواء النبوي في مثل هذه الأسئلة وأنه لا يجاب عليها بلا ولا بنعم ، لأنه ليس بسؤال صحيح ، بل كلام متناقض ، ينقض بعضه بعضاً .

وهناك حالة معاكسة أخرى وهو فيما إذا أجاب الموحد عن هذا السؤال بقوله : (لا يقدر الله على خلق إله مثله) أو بقوله : (إن الله غير قادر على خلق إله مثله) قاصداً استحالة أن يكون لله مثيلاً أو قاصداً أن ينفي أن هذه الحالة المفروضة من وجود مثيل لله عز وجل لا يسأل عنها بالقدرة ، فهذا الموحد لا يكفر أيضاً وإن كانت العبارة غير لائقة والنفس تنفر منها جداً .

فإن قلت : فهل ستقول مثل هذا الأمر فيما لو قال إنسان (إن الله غير قادر على إنزال المعجزات) ؟

قلت بحول الله تعالى : كلا ، فمن قال (إن الله غير قادر على إنزال المعجزات) لا يعني هنا إلا نفي القدرة ، ونفي القدرة إثبات للعجز ولا بد . ومن قال ذلك لا يتردد موحد في تكفيره ، لأن كلامه صريح في الكفر وفي نفي القدرة . لكن من قال (إن الله غير قادر على خلق إله مثله) فهذا قد يعني أحد أمرين :

أولاً : نفي القدرة عن الله عز وجل ، وهذا يعني إثبات العجز لله ، وهذا كفر صريح .

ثانياً : (إن الله غير قادر على خلق إله مثله) أي يستحيل وجود مثيل لله عز وجل ، أو أن هذه الحالة لا يقال عن الله أنه قادر عليها أو غير قادر لأنها من المستحيلات ومن الكلام غير المستقيم الذي ينافي أوله آخر وينقض بعضه بعضاً .

فإن قلت : فما الفرق بين الجملة الأولى والثانية ، قلت بحول الله تعالى : الفرق أن الشيء المنفي في الجملة الأولى شيء ممكن ومستقيم وهو إنزال المعجزات ، لذا لا يتصور معنى آخر لذلك الكلام . وأما الأمر المنفي في الجملة الثانية فهو أمر محال وغير مستقيم وهو (أن يكون لله مثيل) ، فكلام (خلق إله مثله) محال وكفر لأنه فرض أن يكون لله مثيلاً ، لذا فمن قال (إن الله غير قادر على خلق إله مثله) قد يكون يقصد نفي المحال ، لا نفي القدرة ، فهذه جملة فلسلفية جداً ومن نفاها قد يكون يقصد نفي الفلسلفة والكفر الموجود فيها لا نفي القدرة عن الله بحال ، أو ممكن يقصد أنه لا يقال عن الله في مثل هذه الأشياء أنه قادر عليها أو غير قادر عليها لأنها من المستحيلات والخزعبلات الكفرية .

فقد سئل الشيخ عبد الله أبا بطين عن قول السيوطي ، على قوله: ﴿ **وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ۞﴾ (المائدة: ١٢٠) في آخر سورة المائدة من الجلالين [(١)] ، قال : (وخص العقل ذاته ، فليس عليها بقادر [(٢)]) .

فأجاب : الظاهر أن مراده أن الرب سبحانه وتعالى ، يستحيل عليه ما يجوز على المخلوق ، من العدم والعيب ، والنقص ، وغير ذلك من خصائص المخلوقين ؛ فلكون ذلك : **يستحيل على ذات الرب سبحانه وتعالى ، عبر عنه بأنه لا يدخل تحت القدرة** [(٣)] ، **وأنا ما رأيت هذه الكلمة لغيره ، والنفس تنفر منها** .

وقد روي عن ابن عباس ، حكاية على غير هذا الوجه ، وهي: أن الشياطين ، قالوا لإبليس : يا سيدنا ، ما لنا نراك تفرح بموت العالم ، ما لا تفرح بموت العابد ؟! والعالم لا نصيب منه ، والعابد نصيب منه ؟! قال: انطلقوا، فانطلقوا إلى عابد ، فأتوه في عبادته ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك ، فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه ؟ فقال: لا أدري ؛ فقال : أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله ؟! فسألوا عالماً عن ذلك ؟ فقال : هذه المسألة محال ، لأنه لو كان مثله ، لم يكن مخلوقاً ، فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل ، فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله ، بل كان عبداً من عبيده ؛ فقال : أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين ؟! والله أعلم .

وقال أيضاً : والذي ذكره السيوطي ، لفظة لم تأت في الكتاب ، ولا في السنة ، **ولا رأينا أحداً من أهل السنة ذكرها في عقائدهم** ؛ ولا ريب أن ترك فضول الكلام ، من حسن الإسلام ؛ وهذه كلمة ما نعلم مراد قائلها ؛ يحتمل أنه أراد بها معنى صحيحاً ، ويحتمل أن يراد بها باطل ؛ فالواجب: اعتقاد ما نطق به القرآن ، من أن الله على كل شيء قدير ، وأنه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، كما أراد ، وأنه ليس كمثله شيء ، ولا يكون شيء مثله ، سبحانه وتعالى وتقدس ؛ وجواب العالم الذي قال : لا يكون المخلوق مثل الخالق ، جواب صحيح ، لأنه الذي غاظ الشيطان ، وهو نتيجة العلم ؛ **ويدل على أنه لو قال : قادراً ، أو غير قادر ، لم يكن جواباً صحيحاً** ؛ وما ذكرنا من جواب هذا العالم فيه مشابهة لكلام السيوطي ، من بعض الوجوه .

---

(١) وللإشارة فإن هذا الكلام المنسوب للسيوطي سقط من بعض طبعات تفسير الجلالين .

(٢) تقدير كلامه (عرفنا بالعقل بأن الله غير قادر على إفناء ذاته وما شابه) وقصده يستحيل على الله الفناء وما شابهه كما سيأتي .

(٣) أي أنه قال (لا يقدر) بمعنى لا يدخل تحت القدرة ، قاصداً استحالة أن يجوز على الله ما يجوز على المخلوقين من العدم أو العيب أو النقص وما شابهه ، فإن قلت (لا يقدر) معناه يعجز ، قلت بحول الله تعالى : إنه هنا يتحدث عن المحال المطلق أي عن نفي الأباطيل عن الله عز وجل ، ولو قال ذلك في غير هذا لكان كلامك صحيحاً ، ومع ذلك فإن النفس تنفر من هذا التعبير حتى ولو اعتذرنا له .

واعلم أن طريقة أهل السنة أن كل لفظ لا يوجد في الكتاب ولا في السنة ولا في كلام أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين ، لا نفيه ولا إثباته : لا يثبت ولا ينفى إلا بعد الاستفسار عن معناه ؛ فإن وجد معناه مما أثبته الرب لنفسه أثبت ، وإن وجد مما نفاه الرب عن نفسه نفي ، وإن وجد اللفظ مجملاً يراد به حق وباطل ، فهذا اللفظ لا يطلق نفيه ولا إثباته ، وذلك كلفظ : الجسم ، والجوهر ، والجهة [(١)] ونحوها ، وكره السلف والأئمة الكلام المحدث ، لاشتماله على كذب وباطل ، وقول على الله بلا علم ؛ وما ذكر السيوطي من هذا النوع [(٢)] ، وضد القدرة : العجز ، **وهل يسوغ أن يقال : إن الله عاجز عن كذا ؟!** وإنما يقال: إنه سبحانه يستحيل وصفه بما يتضمن النقص والعيب تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ؛ والله أعلم) [(٣)] .

وقد ورد في جواب الشيخ أبو محمد سيدي عبد الله الشريف ابن سيدي عبد الله الشريف على فقهاء بِجَايَةَ ما نصه : (فإن قلت : هل يجوز أن يقال : الله لا يقدر على المحال أو الله غير قادر عليه ؟

قلت : الذي أراه ، و الله اعلم ، أن ذلك لا يجوز لما في اللفظ من إيهام التعجيز . و لما لم يجز إطلاق الألفاظ الموهمة لما لا يجوز إلا بتوقيف ، لأن العلم في نفي الجواز إيهام ، و ذلك مشترك بينهما . ووجه التكلم في المسألة أن يقال : المحال لا تتعلق به قدرة ، أو المحال غير مقدور ، وشبه ذلك من الألفاظ التي لا توهم نقصاً . وقد قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله : مما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي صلى الله عليه وسلم أن يلزم في كلامه ما يجب توقيره وتعظيمه وبره ، و يراقب حال لسانه ولا يهمله ، فإذا تكلم في الأقوال قال هل يجوز عليه الخلف في القول أو الإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطاً أو نحوه من العبارات ، و يتجنب لفظ الكذب جملة ، و إذا تكلم في العلم قال هل يجوز أن لا يعلم إلا ما علم ، ولا يقول يجهل لقبح اللفظ وبشاعته ، وإذا تكلم في الأفعال قال هل يجوز عليه المخالفة في الأوامر والنواهي ومواقعة بعض الصغائر ، فهو أدب أولى من قوله هل يجوز أن يعصي أو يذنب .

[(١)] هذه الألفاظ مجملة ومحدثة قد يراد بها حق وقد يراد بها باطل ، فمثلاً لفظ الجهة لفظ مجمل قد يراد به حق وقد يراد به باطل ، فالجهة ثلاث أنواع :

الأول : جهة سفل : وهذه محالة على الله لثبوت علوه .

الثاني : جهة علو تحيط بالله : وهذه محالة عليه تعالى لأن الله لا يحيط به شيء من خلقه.

الثالث : جهة علو لا تحيط بالله : وهذه نثبتها معنى لا لفظاً ، يعني معناه ثابت من نصوص العلو لكن اللفظ لابد فيه من نص .

لذا فلفظ الجهة لا يطلق نفيه لأنه قد يراد به معنى حقاً ، ولا يطلق إثباته لأنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة .

[(٢)] أي أن كلام السيوطي محدث ، وهو لفظ مجمل قد يراد به حقاً وقد يراد به باطلاً ، فالحق الذي ممكن يراد به هو بيان استحالة العدم والعيب والنقص على الله عز وجل ، والباطل الذي ممكن يراد به هو نفي القدرة ، فلو كان المراد نفي القدرة لكان معنى الكلام وصف الله بالعجز لأن ضد القدرة العجز .

[(٣)] الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، الجزء الثالث ، كتاب الأسماء والصفات ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

قال : وإذا كان هذا بين الناس مستعملاً في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم فاستعماله في حقه عليه السلام أوجب والتزامه آكد ، فجودة العبارة تحسن الشيء أو تقبحه ، و تهذيبها يهوّن الأمر أو يعظمه . وفيما جلبناه من كلام القاضي تأكيد لما ذكرناه ، و حجة لما رأيناه ، و الله الموفق للصواب ، و هو حسبي ونعم الوكيل) [1] .

قلت بحول الله : وإذا كان تجنب العبارات الموهمة للتنقيص أوجب في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام كونها مستعملة ومشهورة بين الناس في آدابهم كما نقل القاضي عياض عليه رحمة الله فهي في حق الله سبحانه وتعالى أوجب وأوكد ، فياليت شعري كيف بمن أراد ذات المعنى الكفري لتلك العبارات ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

أقول بحول الله تعالى : ومن ثم جاء إخوان هؤلاء الملاحدة بأسئلة أخرى تدل على سخف عقولهم واستهتارهم بالعقلاء ، كقولهم هل يستطيع الله أن يجعل زيداً موجوداً وغير موجود في آن واحد ؟ لأنه لا يفرض أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في نفس الوقت إلا رجل ليس من أهل التمييز والعقل الصحيح .

فأهل التمييز لو سألوا لكان سؤالهم هل يستطيع الله إيجاد رجل غير موجود ، أو يستطيع الله إعدام رجل من الوجود . فأما الجمع بين الضدين هو من المستحيلات تصورها ووجودها[2] . فلا يتصور أن يجتمع الإيمان والكفر في محل واحد وفي آن واحد ، ولا القدرة مع العجز ، ولا العلم مع الجهل ، ولا الشك مع اليقين ، ولا الوجود مع العدم .

علاوة على أن تعريف الضدين [3] أصلاً هما ما لا يجتمعان معاً في آن واحد في شيء واحد ، فيكون الجمع بين الضدين ، من السفسطة الكلامية أيضاً .

ومن خصائص الضد ، أن الضد يظهر بضده ، فإذا فرضنا اجتماع الضد مع الضد في المحل الواحد افترضنا عدم ظهور ذلك الضد ، أي اللاشيء . ويسمي العلماء هذا النوع من الأسئلة سؤالاً عن لاشيء أو عن العدم ويعدون هذا أيضاً من المحال لذاته .

---

[1] المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت: ٩١٤هـ) (٢٣٥/١٢-٢٣٦) .

[2] لأن حاصل الجمع بين الضدين هو اللاشيء أو العدم ، فالذي يقول هل يستطيع الله أن يجعل زيد موجوداً وغير موجود في نفس الوقت ، كأنه يسأل هل يستطيع الله أن يفعل لا شيء .

[3] قال أبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيَّا في كتابه مقاييس اللغة (٢٨٢/٣) : (والمتضادّان: الشَّيئان لا يجوز اجتماعهما في وقتٍ واحد، كالليل والنَّهار) . وقال صاحب كتاب معجم الفروق اللغوية (١٤٤/١) : (وحد الضدين هو ما تنافيا في الوجود) . وقال صاحب كتاب معجم لغة الفقهاء (٢٨٣/١) : (والمتضادان: اللذان يستحيل اجتماعهما في شيء واحد في زمن واحد) .

وهنا ينبغي التفريق بين الجمع بين الضدين وبين إخراج الضد من الضد ، فالجمع بين الضدين حاصله العدم أو اللاشيء ، أما إخراج الضد من الضد فهو من المظاهر التي تتجلى فيها كمال قدرة الله سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞** ﴾ (الأنعام: ٩٥) ، وكإخراج الله عز وجل النار من الشجر الأخضر ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُون ۞** ﴾ (يس: ٨٠) .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، **فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شيء قدير** ، ويعني بالآية ما في المرخ والعفار وهي زنادة العرب ، ومنه قولهم : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، فالعفار الزند وهو الأعلى ، والمرخ الزندة وهي الأسفل ، يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار)[1] .

ولقد أشار الله عز وجل إلى صفات التضاد في غير ما آية في كتابه الكريم ، فقال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ** ﴾ (الرعد: ١٦) ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۞ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۞ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ** ﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ۞** ﴾ (غافر: ٥٨) ، وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ (فاطر: ١٢)

فهذه حقائق بديهية أكد عليها القرآن الكريم ، فلا يكون الإنسان حياً ميتاً في آن ، والله عز وجل يقدر أن يجعل الميت حياً ، والحي ميتاً ، ولكن من المحال أن يكون الإنسان حياً ميتاً في آن ، لأن الأحياء والأموات لا يستوون ، والحياة ضد الموت لا يجتمعان معاً في آن ، ولا يتصور أن يكون الإنسان حياً ميتاً في آن إلا رجل متناقض وليس من أهل التمييز .

فحاصل الأمر أن تعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الخزعبلات الكلامية الكفرية من سأل عنها بقدرة الله عز وجل لا يستحق الإجابة إلا ببيان وجه خزعبلاته . فلا تعلق فيما دسه الزنادقة المبطلون من الفلاسفة والملحدين للتشكيك في قدرة العزيز الجبار الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه من إله عظيم .

---

[1] تفسير القرطبي (١٧/٤٩١-٤٩٢) .

فصل : تعريف أنواع المحال

وهنا وجب علينا التفريق بيان أنواع المحال ، فنقول وبالله التوفيق : المحال ثلاثة أنواع :

أولاً : **المحال عادة** : وهو على ضربين :

فمنه المحال بالإضافة : مثل تكلم الطفل الرضيع ، وتكلم المجنون في دقائق العلم وصوغه الشعر . فإن هذه المعاني وإن كانت موجودة في العالم ممن هي ممكنة منهم ، ولكنها ممتنعة ومحالة من غيرهم .

ومنه المحال في الوجود : كانقلاب الحجر حيواناً ، وكنطق الحجر والشجر ، وكانقلاب نواميس الكون بحيث لا تحرق النار ، ولا يقطع السكين ، فإن كل هذا غير موجود عندنا ولا ممكن عندنا البتة . ولكنه ليس من شيء صعب على قدرة الله عز وجل ، فإن الله قادر على المستحيلات .

ويظهر الله سبحانه وتعالى هذه المستحيلات على يدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دلالة على صدق نبوتهم ، فينطق الولد الرضيع بإذن الله ، وينطق الحجر والشجر بإذن الله ، وتكون النار برداً وسلاماً بإذن الله ، فالله سبحانه وتعالى قادر على المستحيلات وقادر على خرق العادة فسبحانه لا إله إلا هو .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (من قال أن الله لا يقدر على مثل إماتة الخلق وإحيائهم من قبورهم وعلى تسيير الجبال وتبديل الأرض غير الأرض فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل) [١] .

ثانياً : **المحال لذاته** : أو ما يسمى بالمحال عقلاً ، وهو اللاشيء أو العدم المحض .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (**المحال لذاته الذي ليس بشيء** ، كالجمع بين النقيضين ، وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين) [٢] .

قال صاحب كتاب معجم لغة الفقهاء (٤٠٨/١) : (المحال عقلاً : الذي لا يتصور العقل وجوده كاجتماع الضدين في مكان واحد وزمن واحد) . وقال في نفس الكتاب (٤٦٠/١) : (الممتنع لذاته : ما **يقتضي لذاته العدم**) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وذلك أن الله على كل شيء قدير **وهذا لفظ عام لا تخصيص فيه** ، فأما الممتنع لذاته فليس بشيء باتفاق العقلاء ، **وذلك أنه متناقض** ، لا يعقل وجوده ، فلا يدخل في مسمى الشيء حتى يكون داخلاً في العموم ، مثل أن يقول القائل : هل يقدر أن

---

[١] مجموعة الرسائل والمسائل (٣٨٢/٤-٣٨٣) .

[٢] مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٠٥/٢) .

يعدم نفسه أو يخلق مثله ، فإن القدرة تستلزم وجود القادر ، وعدمه ينافي وجوده ، فكأنه قيل هل يكون موجوداً معدوماً ، **وهذا متناقض في نفسه ، لا حقيقة له ، وليس بشيء أصلاً**)[١] .

وقال في موضع آخر : (وَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **لاَ يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ شَيْءٌ** ؛ لَكِنَّ مُسَمَّى " الشَّيْءِ " مَا تُصُوِّرَ وُجُودُهُ ، فَأَمَّا الْمُمْتَنِعُ لِذَاتِهِ فَلَيْسَ شَيْئًا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلاَءِ . وَالْقُدْرَةُ عَلَى خَلْقِ الْمُتَضَادَّاتِ قُدْرَةٌ عَلَى خَلْقِهَا عَلَى الْبَدَلِ [٢] ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ مُتَحَرِّكًا جَعَلَهُ وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ سَاكِنًا جَعَلَهُ ، وَكَذَلِكَ فِي الإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَغَيْرِهِمَا ؛ لَكِنْ لاَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ مُتَّصِفًا بِالْمُتَضَادَّاتِ فَيَكُونُ مُؤْمِنًا صِدِّيقًا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ كَافِرًا مُنَافِقًا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ وَشُعْبَةٌ مِنْ النِّفَاقِ . **وَالَّذِي يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَرَحْمَتَهُ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ الَّذِي لاَ يُتَصَوَّرُ زِيَادَةٌ عَلَيْهَا بَلْ كُلَّمَا أَمْكَنَ مِنْ الْكَمَالِ الَّذِي لاَ نَقْصَ فِيهِ فَهُوَ وَاجِبٌ لِلرَّبِّ تَعَالَى**)[٣] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (ولا ريب أن الله على كل شيء قدير كما نطق به القرآن في غير موضع فإن قدرته من لوازم ذاته والمصحح لها الإمكان فلا اختصاص لها بممكن دون ممكن ، **لكن الممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء** ، فلا يعقل وجوده في الخارج ، فإنه لا يعقل في الخارج كون الشيء موجوداً معدوماً أو متحركاً ساكناً أو كون أجزاء الحركة المتعاقبة مقترنة في آن واحد أو كون اليوم موجوداً مع أمس وغداً وأمثال ذلك ، وحينئذ فمثل هذا لا يدخل في عموم الكتاب)[٤] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وأما أهل السنة فعندهم أن الله تعالى على كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج في هذا ، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً فهذا لا حقيقة له ، ولا يتصور وجوده ، ولا يسمى شيئًا باتفاق العقلاء ، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه ، وأمثال ذلك)[٥] .

قال الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي الدمشقي (٧٣١-٧٩٢هـ) : (وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّة ، فَعِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ [٦] فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا . وَأَمَّا الْمُحَالُ لِذَاتِهِ ، مِثْلَ كَوْنِ الشَّيْءِ

---

[١] بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (٣٤٩/٢-٣٥٠) .

[٢] المقصود بخلقها على البدل ، أي تبديل هذا بهذا مثل تبديل الموت حياة ، والحياة موتاً وهكذا .

[٣] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥١٣/٨) .

[٤] الصفدية لابن تيمية (١٠٩/٢) .

[٥] منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية (٢٩٣/٢) .

[٦] مصطلح الممكن يستخدمه العلماء للتعبير عن الشيء ، ويقصدون به ما لم يكن ممتنعا لذاته ، أي ما لم يكن عدماً أو لا شيء .

الْوَاحِد مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَة ، فَهَذه لاَ حَقِيقَةَ لَهُ ، وَلاَ يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ ، **وَلاَ يُسَمَّى شَيْئًا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلاَء** . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ : خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِه ، وَإِعْدَامُ نَفْسِه ! وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ . وَهَذَا الأَصْلُ هُوَ الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِه الْعَامَّة التَّامَّة ، فَإِنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الأَشْيَاءِ ، **وَلاَ يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وكذلك الممتنعات مثل شريك البارئ وولده ، فإن الله يعلم أنه لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ، ويعلم أنه ليس له شريك في الملك ولا ولي من الذل ، ويعلم أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، **وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئًا باتفاق العقلاء**) [٢] .

قال الإمام ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (والجمع بين الضدين محال ، ولا يقال فيلزم العجز لأن المحال ليس بشيء فلا تتعلق به القدرة ، والله على كل شيء قدير ، فلا يخرج ممكن عن قدرته البتة) [٣] .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (**فإن المستحيل لا يوصف البارئ تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه لإستحالة شرط تعلق القدرة**) [٤] .

أي لأنه ليس بشيء ، ولا حقيقة له . وهنا فرق دقيق مهم جداً ، وهو أن **المحال لذاته أو المحال عقلاً هو ما لا يتصور العقل وجوده ، وليس ما لا يتصور العقل كيفية تكونه أو ما لا يقدر العقل تصوره عجزاً عن مثل هذا التصور** ، فتأمل هداك الله هذا الفرق جيداً تنج من كثير من الزلل بإذن الله عز وجل . فإن العقول عاجزة عن تصور كثير من الأمور ، وكذلك عاجزة عن معرفة كيفية تكون كثير من الأمور . فليس معنى قولنا أن المحال لذاته هو ما لا يتصور العقل وجوده أن كل شيء لم يستطع العقل تصوره فهو باطل ، أو أن كل شيء لم يتصور العقل كيفية تكونه فهو باطل ، بل القصد أن المحال لذاته هو ما علم بطلانه وكونه لا شيء عن طريق العقل . ولا يعني ذلك قياس قدرة الله سبحانه وتعالى بالعقل[٥] ، بل معنى ذلك **قياس صحة الأقوال بالعقل** ، فالفرق بين الأمرين شاسع جداً ، فجميع العقلاء مجمعون على أن الوجود غير العدم ، والطويل غير القصير ، والواحد أقل من الإثنين ، وهذه

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١١٧/١) .

[٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥٥/٢) .

[٣] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ، ص ٣٥٨ .

[٤] الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، ص ١٥١ .

[٥] اعلم أن من وزن قدرة الله بعقله فهو كافر لم يقدر الله حق قدره ، ولكن من وزن صحة الأقوال بعقله الذي أودعه الله فيه فعرف أن الطويل غير القصير ، وأن القدرة والعجز وأمثالهما من الأضداد اللذان لا يجتمعان فهو رجل صحيح سليم العقل . فإن الله سبحانه وتعالى حث على التفكر واستخدام العقل وذم من عطله .

أمور بديهية لا يقول بعكسها إلا مجنون ، فلو جاء أحد وقال لنا أن الواحد هو نفس الإثنين ، والطويل نفس القصير لعددناه مجنوناً [1] ، وعرفنا بطلان قوله عن طريق العقل الذي نميز بـه ، ولـذا يمكنـك تلخيص هذا النوع من المحال بأنه الكلام الذي ينقضه بعضه بعضاً فيكون كالعدم في عدم تحقق معنـاه ، وهذا معنى قولنا محال عقلاً أو محال لذاته ، فتأمل.

وهذا النوع من المحال لا يسأل عنه بالقدرة ، لأنه ليس بشيء أصلاً ، ولأن السؤال عن المحال لـيس بسؤال صحيح فلا يقتضي إجابة .

والزنادقة يسألون عن المحال لذاته مما يتعلق بذات الله عز وجل وصفاته فيظنون أنهم بذلك يستطيعون نقض العقيدة الراسخة والأصل المحكم الثابت أن الله على كل شيء قدير . وأسئلتهم قد بينا أنها أسـئلة يناقض أولها آخرها ، وهي أسئلة شيطانية بنص قول النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد أشار الله عز وجل إلى هذا النوع من المحال في كتابه ، فقال في المحال الذي يتعلق بذات الله عـز وجل وصفاته : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَـصِفُونَ ۝** ﴾ (الأنبياء: ٢٢) فأشار بهذه الآية إلى استحالة وجود شريك له سبحانه .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (قوله تعالى : ﴿ **لَفَسَدَتَا** ﴾ أي : لخربتا وبطلتا وهلكَ من فيهما ، لوجود التمانع بين الآلهة ، فلا يجري أمر العالَم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثـنين فصاعداً لم يَسْلَم من الخلاف) [2] .

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) : (والمعنى : لو كان فيهما آلهة سوى الله لفـسدتا ، ووجـه الفساد أن كون مع الله إلها آخر يستلزم أن يكون كل واحد منهما قادراً على الاستبداد بالتـصرف ، فيقع عند ذلك التنازع والاختلاف ويحدث بسببه الفساد ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية بالبرهان ، أي تنزّه عزَّ وجلَّ عما لا يليق به من ثبوت الشريك له ، وفيه إرشاد للعباد أن ينزّهوا الربَّ سبحانه عما لا يليق به) [3] .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۝ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝** ﴾ (الإسراء: ٤٢-٤٣) ، وقال تعالى : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَـدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَـصِفُونَ ۝** ﴾ (المؤمنون: ٩١)

---

[1] قال الإمام الحافظ البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ) في كتابه الجامع لشعب الإيمان (٣٧٧/٦) : (سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : بلغني أن يوسف بن الحسين كان يقول : إذا أردت أن تعرف العاقل من الأحمق فحدثه بالمحال إن قبل فاعلم أنه أحمق) .

[2] تفسير ابن الجوزي (٣٤٥/٥) .

[3] تفسير الشوكاني (٣٨٩/٣) .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضا بممالكهم إذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من أحد أمور ثلاثة :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ، ويمتنع من حكمهم عليه ولا يمتنعون من حكمه عليهم ، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون .

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في العبادة والإلهية فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ** ﴾ (لقمان: ١١) ، فلله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت شيئًا مع الله طولبوا بأن يروه إياه ، وإن اعترفوا بأنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت إلهيتها باطلاً ومحالاً .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞** ﴾ (الأحقاف: ٤)

فطالبهم بالدليل العقلي والسمعي ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۞** ﴾ (الرعد: ١٦)

فاحتج على تفرده بالإلهية بتفرده بالخلق ، وعلى بطلان إلهية ما سواه بعجزهم عن الخلق ، وعلى أنه واحد بأنه قهار ، والقهر التام يستلزم الوحدة ، فإن الشركة تنافي تمام القهر .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞** ﴾ (الحج: ٧٣-٧٤)

فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه ، فمن لم يستمعه فقد عصى أمره ، كيف تـضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان ، في أوجز عبارة ، وأحسنها ، وأحلاها ، وأسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد ، وساعد بعضهم بعضاً ، وعاونه بأبلغ المعاونة ، لعجزوا عن خلق ذباب واحد ، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم ، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره ، فهل قَدَرَ القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها .

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ ، وأحسنها ، لم يستكرهها غموض ، ولم يشنها تطويل ، ولم يعبها تقصير ، ولم تزر بها زيادة ولا نقص ، بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز ما لا يتوهم متوهم ، ولا يظن ظان أن يكون أبلغ في معناها منها ، وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ) [١] .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، فقال: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ أي: لو قُدِّر تعدد الآلهة ، لانفرد كل منهم بما يخلق ، فما كان ينتظم الوجود . والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ، ﴿ **مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ** ﴾ (الملك: ٣) ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه ، فيعلو بعضهم على بعض . والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزًا ، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد . وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالاً ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب ، والآخر المغلوب ممكنًا ؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ **وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ أي: عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيراً) [٢] .

قال سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٧هـ) : (ثم يأتي بالدليل الذي ينفي دعواهم ، ويصور ما في عقيدة الشرك من سخف واستحالة : ﴿ **إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾ مستقلاً بما خلقه ، يصرفه حسب ناموس خاص؛ فيصبح لكل جزء من الكون ، أو لكل فريق من المخلوقات ناموس خاص لا يلتقي فيه

---

[١] الصواعق المرسلة لابن القيم (٢/٤٦٣-٤٦٧) .

[٢] تفسير ابن كثير (٥/٤٩١) .

بناموس عام يصرف الجميع . ﴿ **وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ بغلبة سيطرته وتصريفه على الكون الذي لا يبقى ولا ينتظم إلا بناموس واحد ، وتصريف واحد ، وتدبير واحد .

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون ، الذي تشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه ، وتشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره ، وكل جزء فيه وكل شيء يبدو متناسقاً مع الأجزاء الأخرى بلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب . . ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ . .) [(1)] .

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) : (ثم بين سبحانه ما يستلزمه ما يدَّعيه الكفار من إثبات الشريك ، فقال : ﴿ **إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾ وفي الكلام حذف تقديره لو كان مع الله آلهة لانفرد كل إله بخلقه واستبدَّ به ، وامتاز ملكه عن ملك الآخر ، ووقع بينهم التطالب والتحارب والتغالب : ﴿ **وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ أي غلب القويُّ على الضعيف ، وقهره ، وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم ، وحينئذٍ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلهاً ، وإذا تقرَّر عدم إمكان المشاركة في ذلك ، وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دلَّ على نفي الشريك فإنه يدلَّ على نفي الولد ؛ لأن الولد ينازع أباه في ملكه . ثم نزَّه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ أي : من الشريك والولد) [(2)] .

وقد أشار الله عز وجل إلى هذا النوع من المحال في كتابه مما يتعلق بالحقائق البديهية فقال سبحانه وتعالى :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** ۝﴾ (الأعراف: ٤٠)

قال الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) : (﴿ **وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة ، والخياط والمخيط الإبرة ، والمراد منه : أنهم لا يدخلون الجنة أبدا لأن الشيء إذا علق بما يستحيل كونه يدل ذلك على تأكيد المنع) [(3)] .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل فقال : هو زوج الناقة . وعن الحسن أنه قال : ابن الناقة الذي يقوم في المربد على أربع قوائم وفي ذلك استجهال للسائل وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . والعرب تضرب به المثل في عظم الخلقة فكأنه قيل : حتى يدخل ما هو مثل في عظم الجرم ﴿ **فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ أي ثقبة الإبرة وهو مثل عندهم أيضاً في ضيق المسلك ، وذلك مما لا يكون ، فكذا ما توقف عليه ، بل لا تتعلق به القدرة لعدم إمكانه ما دام

[(1)] في ظلال القرآن لسيد قطب (م٤/ج١٨/ص٢٤٧٨-٢٤٧٩) .

[(2)] تفسير الشوكاني (٤٨٠/٣-٤٨١) .

[(3)] تفسير البغوي (٢٢٩/٣) .

العظيم على عظمه والضيق على ضيقه ، وهي إنما تتعلق بالممكنات الصرفة ، والممكن الولوج بتصغير العظيم أو توسيع الضيق) [١] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ) : (وقوله عن أهل النار : ﴿ **وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ** ﴾ ، وهو البعير المعروف ﴿ **فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسماً ، في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء ، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال ، أي: فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط ، فكذلك المكذبون بآيات الله محال دخولهم الجنة) [٢] .

قلت بحول الله تعالى : فالبعير لا يدخل في ثقب الإبرة ، لأن البعير جسم عظيم ، وثقب الإبرة ضيق ، والله عز وجل جعل الجسم العظيم الصلب لا يدخل في ثقب صغير صلب ، ويمكن أن يدخل الله الجمل في ثقب الإبرة بتصغير الجمل ، أو توسيع ثقب الإبرة ولا شك ، لكن من قال لنا وتنطع هل يقدر الله على إدخال الجمل في ثقب الإبرة دون أن يصغر الجمل أو يوسع ثقب الإبرة كان سؤاله متناقض وكأنه يقول هل يقدر الله أن يفعل دون أن يفعل ، وكذلك فإن الله قادر على أن يدخل العالم داخل بيضة صغيرة بأن يصغر العالم أو يكبر البيضة الصغيرة ، لكن سألنا أحد المتنطعين وقال هل يقدر الله أن يدخل الدنيا داخل بيضة صغيرة دون أن يصغر الدنيا أو يكبر البيضة لكان سؤاله تنطعاً وتناقضاً وخلطاً يتولد منه تفه ، وكأنه يقول هل يقدر الله أن يفعل دون أن يفعل ، وبالله التوفيق .

ثالثاً : المحال شرعاً : أو ما يسمى بالمحال لغيره أو بالممتنع لغيره.

وهي الأمور التي لا يفعلها الله عز وجل لأنه شاء أن لا يفعلها ، أو نص على أنه لا يفعلها . كقولنا : من المحال أن يدخل أبا لهب الجنة ، وليس ذلك لأن دخول أبا جهل الجنة ممتنع في ذات الأمر ، بل لأن الله عز وجل أخبر أنه من أهل النار .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وأما الممتنع لغيره وهو ما علم الله أنه لا يكون وأخبر أنه لا يكون وكتب أنه لا يكون ، فهذا لا يكون لعدم إرادته وأنه لا يكون ، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فهذا لو شاء لفعله كما أخبر القرآن في غير موضع أنه لو شاء الله لآتى كل نفس هداها ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة وأمثال ذلك) [٣] .

---

[١] تفسير الألوسي (١١٨/٨-١١٩) .

[٢] تفسير السعدي ، ص ٢٨٨ .

[٣] الصفدية لابن تيمية (١٠٩/٢) .

فإن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، ولكن لا يعني هذا أنه يفعل كل شيء ، فهناك أشياء لا يفعلها الله عز وجل لأنه نص على أنه لا يفعلها ، وهناك أمور لا يفعلها لمنافاته حكمته عز وجل ، فالأفعال تصدر من الله عز وجل عن قدرة باهرة وحكمة بالغة .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (فإنه تعالى يقدر على مقدورات تمنع بحكمته كقدرته على قيامه الساعة الآن ، وقدرته على إرسال الرسل بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقدرته على إبقائهم بين ظهور الأمة إلى يوم القيامة ، وقدرته على إماتة إبليس وجنوده وإراحة العالم منهم ، وقد ذكر سبحانه في القرآن قدرته على ما لا يفعله لحكمته في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ (الأنعام: ٦٥) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ۞﴾ (المؤمنون: ١٨) ، وقوله : ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** ۞﴾ (القيامة: ٣-٤) ، أي نجعلها كخف البعير صفحة واحدة ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي** ﴾ (السجدة: ١٣) ، وقوله : ﴿ **لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** ﴾ (يونس: ٩٩) ، وقوله : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ (هود: ١١٨) ، فهذه وغيرها مقدورات له سبحانه وإنما امتنعت لكمال حكمته فهي التي اقتضت عدم وقوعها فلا يلزم من كون الشيء مقدوراً أن يكون حسناً موافقاً للحكمة)[1] .

وقد أدرج بعض العلماء هذا النوع من المحال تحت المحال لذاته ، لأنه لو سألنا سائل هل يقدر الله على أن يدخل أبا لهب الجنة ؟ لم يكن سؤاله عن ذات إدخاله في الجنة ، بل غرضه أن يسأل هل يقدر الله الذي لا يخلف وعده أن يخلف وعده ؟ فكانت مثل هذه الأسئلة مندرجة تحت المحال لذاته ولا بد ، فالفرق بين المحال لذاته والمحال لغيره أن المحال لذاته هو في ذاته محال دائماً وأبداً ، أما المحال لغيره أي المحال شرعاً قد اندرج في المحال لذاته لأنه الله سبحانه وتعالى قضى ذلك وأراده ، فتأمل .

[1] مفتاح دار السعادة لابن القيم (٤٠٣/٢) .

الباب الثاني

الدحض المبين لبعض شبهات المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين وعن إسلام الشاكين في أصل دين الأنبياء والمرسلين

– صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين –

" الرد على قواعد وأصول واهنة بناها القوم على أفهام فاسدة لنصوص غير صريحة ، وفهم خاطئ لبعض أقوال أهل العلم حتى يصدوا الناس عن أهل التوحيد ، ويقنعوا الناس بعقيدهم الهالكة : (أن من شك في بعض صفات الربوبية أو جهلها فهو مؤمن عارف بالله عز وجل) نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة "

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١–٧٥١هـ) :

(وكل من أصل أصلاً لم يؤصله الله ورسوله قاده قسراً إلى رد السنة وتحريفها عن مواضعها ، فلذلك لم يؤصل حزب الله ورسوله أصلاً غير ما جاء به الرسول ، فهو أصلهم الذي عليه يعولون ، وجُنَّتهم التي إليها يرجعون)

(شفاء العليل ، ص ٢٥).

الشبهة الأولى : قولهم : (المعتزلة أنكروا صفات الربوبية ومع ذلك اختلف العلماء في تكفيرهم) .

لا شك أن المعتزلة فرقة من فرق الضلال ، ولا شك أن غلاقم كفار بإجماع العلماء . لكننا سنوضح لك أيها القارئ الكريم حقيقة مقالهم وسبب اختلاف العلماء في تكفيرهم على تلك المقالة لكي لا يلبس عليك أهل الشرك ممن يتزيون بزي الموحدين ، فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد الإعانة :

لتعلم أولاً إن المعتزلة يؤمنون بأن الله حي قادر عالم مريد متكلم سميع بصير ، ويكفِّرون من لم يؤمن بذلك ، فكيف يقال عنهم أنهم أنكروا صفات الربوبية ؟! فهذه العبارة عبارة (أنكروا صفات الربوبية) عبارة غير دقيقة البتة في وصف حالهم .

فأهل السنة والمعتزلة بعد أن قال جميعهم أن الله حي قادر عالم مريد متكلم سميع بصير ، وكفَّروا المخالف في هذه المسألة ، افترقوا فريقين :

فأهل السنة قالوا أن هذه الصفات (وسموها الصفات المعنوية) أي كون الله سبحانه وتعالى حياً قادراً عالماً مريداً متكلماً يلازمها صفات المعاني وهي الحياة والقدرة والعلم والسمع والبصر . إذ القادر من كانت له القدرة ، والعالم من له العلم [(١)] .

قال الإمام محمد بن يوسف السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) : (فمثال الصفات المعنوية كونه تعالى قادراً مريداً حياً سميعاً بصيراً متكلماً ، ومثال صفات المعاني علل هذه الصفات المعنوية أي ملزوماتها وهي القدرة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام) [(٢)] .

وأما أهل الاعتزال فنفوا صفات المعاني بسبب بعض الشبهات التي طرأت لهم مع إثباتهم الصفات المعنوية ، ولقد تنوعت مقالتهم في ذلك فتارة قالوا : نقول إن الله عالم بلا علم ، وقادر بلا قدرة وهكذا في جميع الصفات . وتارة قالوا إن الله عالم بغير علم ، وقادر بغير قدرة وهكذا في جميع الصفات . لكن قصدهم هنا نفي الصفة مع إثباتهم الوصف أو حكم الصفة أو ما يسمى بالحال.

وإليك نص عقيدتهم من كتبهم ، فقد قال الزمخشري المعتزلي (٤٦٧-٥٣٨هـ) : (اعلم أن محدث العالم شيء مخالف لسائر الأشياء ..... قديم مختص بالأزلية ، لم يتقدمه عدم ، قادر لذاته على جميع

---

(١) اعلم أن أهل السنة اضطروا إلى هذا التوضيح من أجل الرد على المعتزلة ليس إلا ، وإلا فالخوض في هذه التفريقات ما هو إلا تكلف زائد عن الحد .

(٢) المنهج السديد في شرح كفاية المريد ، ورقة٩١ب (مخطوط) .

المقدورات ، عالم لذاته بجميع المعلومات ، حي لذاته ، سميع بصير لذاته ، مدرك للمدركات كلها لذاته ، لا لمعانٍ أوجبت ذلك) [١] .

وأصل بدعتهم شبهات عقلية طرأت عليهم لتعويلهم كثيراً على عقولهم الفاسدة منها أنهم قالوا : لو قلنا بوجود صفات المعاني يلزم من هذا تعدد الآلهة ، أي أن الله هو الأزلي الذي لا بداية له ، فلو قلنا بوجود الصفات للزمنا القول بوجود شيء أزلي غير الله معه سبحانه وتعالى ، ومن ثم قالوا إن الله عز وجل له الغنى المطلق فهو عالم لم يستفد كونه عالماً من صفة معللة اسمها العلم بل هو عالم بذاته بغير هذه الصفة ، لذا قالوا إن الله عالم بذاته وليس بصفة العلم ، وقالوا كذلك إن الله قادر ولكن بذاته وليس بصفة القدرة ، وهذا كما ترى من تلبيس الشيطان عليهم ، وفلسفة وتكلف لا داعي لهما .

قال الإمام محمد بن يوسف السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) : (قد اتفق أهل السنة والاعتزال على أنه تعالى قادر مريد عالم حي سميع بصير متكلم ، ثم اختلفوا بعد ذلك فقال أهل السنة قاطبة أن هذه الأحكام السبعة المعنوية يلازمها صفات أخر وجودية تقوم بذاته تعالى تسمى صفات المعاني وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، ورأوا لأجل التلازم العقلي بين النوعين أنه لو انتفى هذا النوع الثاني وهو صفات المعاني لانتفى النوع الأول المجمع عليه وهو الصفات المعنوية ، وذلك يستلزم نفي الألوهية ، ولا خفاء أن اعتقاد هذا اللازم كفر لا محالة ، وذهبت المعتزلة أذل الله تعالى بدعتهم إلى نفي هذه الصفات الوجودية التي هي صفات المعاني وقالوا أن أحكامها المعنوية من كونه تعالى قادراً مريداً عالماً إلى آخرها ثابتة له جل وعلا لذاته من غير صفة تقوم به ، ووافقوا على التلازم العقلي بين المعنوية والمعاني في الشاهد أي في حق الحوادث [٢] فلا يوجد عالم من الحوادث لذاته بلا علم يقوم به ، ولا قادر بغير قدرة تقوم بالذات ، وهكذا كل صفة معنوية في الشاهد فإنهم يوافقون أنها لا توجد إلا مع صفة معنى تقوم بالذات ، وإنما فرقوا بين القديم [٣] والحادث في التلازم بين المعنوية والمعاني لأوجه اغتروا بها) [٤] .

قلت بحول الله تعالى : أما رد العلماء على بدعتهم فليس هذا موضعها إذ وجه فسادها لا يخفى ، ولكن المهم أن تعرف حقيقة بدعتهم تلك لكي تعرف لماذا اختلف العلماء في تكفيرهم .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى : قَالَ الْمَازِرِي : اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَكْفِير الْخَوَارِج ، قَالَ : وَقَدْ كَادَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَة تَكُون أَشَدّ

---

[١] المنهاج في أصول الدين ، ص ٦ .

[٢] الحوادث أي المخلوقات التي حدثت بعد أن لم تكن .

[٣] القديم معناه الأزلي وهو الله عز وجل . والقديم ليس من أسماء الله عز وجل ، ولكن يعبر العلماء بالقديم إشارة إلى أزلية الله عز وجل .

[٤] المنهج السديد في شرح كفاية المريد ، ورقة٩٢أ .

إِشْكَالاً مِنْ سَائِرِ الْمَسَائِلِ ، وَلَقَدْ رَأَيْت أَبَا الْمَعَالِي وَقَدْ رَغَّبَ إِلَيْهِ الْفَقِيه عَبْد الْحَقّ – رَحِمَهُمَا اللَّه تَعَالَى – فِي الْكَلَام عَلَيْهَا فَرَهَّبَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَاعْتَذَرَ بِأَنَّ الْغَلَط فِيهَا يَصْعُبُ مَوْقِعُهُ ؛ لِأَنَّ إِدْخَال كَافِر فِي الْمِلَّة وَإِخْرَاج مُسْلِم مِنْهَا عَظِيم فِي الدِّين ، وَقَدْ اضْطَرَبَ فِيهَا قَوْل الْقَاضِي أَبِي بَكْر الْبَاقِلَّانِي ، وَنَاهِيك بِهِ فِي عِلْم الْأُصُول ، وَأَشَارَ ابْن الْبَاقِلَّانِيّ إِلَى أَنَّهَا مِنْ الْمُعَوِّصَات ؛ لِأَنَّ **الْقَوْم لَمْ يُصَرِّحُوا بِالْكُفْرِ** ، **وَإِنَّمَا قَالُوا أَقْوَالاً تُؤَدِّي إِلَيْهِ** ، وَأَنَا أَكْشِف لَك نُكْتَة الْخِلَاف وَسَبَب الْإِشْكَال ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلِيَّ مَثَلاً يَقُول : إِنَّ اللَّه تَعَالَى عَالِم ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ ، وَحَيٌّ وَلَا حَيَاةَ لَهُ . يُوقِع الِالْتِبَاس فِي تَكْفِيره ؛ **لِأَنَّا عَلِمْنَا مِنْ دِيْنِ الْأُمَّة ضَرُورَةً أَنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ اللَّه تَعَالَى لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا عَالِم كَانَ كَافِرًا** ، وَقَامَتْ الْحُجَّة عَلَى اسْتِحَالَة كَوْن الْعَالَم لَا عِلْم لَهُ ، فَهَلْ نَقُول : إِنَّ الْمُعْتَزِلِيَّ إِذَا نَفَى الْعِلْم نَفَى أَنْ يَكُون اللَّه تَعَالَى عَالِمًا – **وَذَلِكَ كُفْر بِالْإِجْمَاعِ** – وَلَا يَنْفَعُهُ اعْتِرَافُهُ بِأَنَّهُ عَالِم مَعَ نَفْيِهِ أَصْل الْعِلْم ، أَوْ نَقُول قَدْ اعْتَرَفَ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى عَالِم ، وَإِنْكَاره الْعِلْم لَا يُكَفِّرهُ ، وَإِنْ كَانَ يُؤَدِّي إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِعَالِمٍ ، فَهَذَا مَوْضِع الْإِشْكَال) [1] .

قلت بحول الله تعالى : إن هناك علماء كفروا المعتزلة بهذه البدعة ، ويرجع ذلك إلى سببين :

السبب الأول : عدم علمهم بتفصيل بدعتهم وحقيقة مرادهم : وذلك أنهم لما سمعوا بدعة المعتزلة في إنكار صفات المعاني وقولهم أن الله عالم بلا علم ، أو عالم بغير علم ، قالوا إذا نفوا صفة العلم انتفى وصف العالم ، فالوصف والصفة متلازمان وهذا يتفق عليه كل العقلاء . فكفَّروا المعتزلة بهذا القول لأنه لا خلاف بين أهل القبلة المسلمين في حكم من نفى عن الله كونه قادراً وعالماً وهو ما يسميه العلماء الوصف أو حكم الصفة أو الحال .

أما العلماء الذين لم يكفِّروا المعتزلة على تلك المقالة لم يكفِّروهم لأنهم وقفوا على حقيقة مذهبهم بشكل أدق ، وأنهم يفرقون بين الصفة والوصف ، وأنهم لا ينكرون أن الله عالم وقادر ، فالمعتزلة متفقون مع أهل السنة على أن من قال أن الله ليس بعالم وليس بقادر فهو كافر .

والإمام أبو الحسن الأشعري [2] (٢٦٠-٣٢٤هـ) كان ممن يكفِّر المعتزلة في ابتداء أمره ، لكن بعد أن وقف على حقيقة مذهبهم أكثر تراجع عن تكفيرهم كما نقل عنه الإمام عز الدين بن عبد السلام (ت: ٦٦٠هـ) حيث قال : (وَقَدْ رَجَعَ الْأَشْعَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ مَوْتِه عَنْ تَكْفِيرِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ لِأَنَّ الْجَهْلَ بِالصِّفَاتِ لَيْسَ جَهْلاً بِالْمَوْصُوفَاتِ ، **وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي عِبَارَاتٍ وَالْمُشَارُ إلَيْهِ وَاحِدٌ**) [3] .

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (١٦٠/٧) .

[2] كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، وهو من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، ولد في البصرة ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم ، وهو مؤسس مذهب الأشاعرة إلا أنه رجع في نهاية حياته إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وتوفي ببغداد .

[3] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (٣٠٦/١) .

فبعد أن تفحص الإمام أبو الحسن الأشعري حقيقة مذهبهم ، تبين له أن الخلاف هو في العبارات ، وأن المشار إليه واحد ، أي تبين له أن المعتزلة في مقالتهم لا ينفون كون الله عز وجل قادراً عالماً حياً سميعاً بصيراً .

السبب الثاني : أنهم ألزموهم بلازم قولهم : وتوضيح ذلك أن نفي صفات المعاني يلزم منه نفي الصفات المعنوية ، بمعنى نفي القدرة يلزم منه نفي أن الله قادر . فقسم من العلماء قالوا أن من نفى صفة القدرة فكأنه نفى كون الله تعالى قادراً ، ومن نفى كون الله تعالى قادراً فهو كافر ، فلذلك كفروهم ، و لم يقبلوا تأويلهم .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (فأما من أثبت الوصف ونفى الصفة فقال : أقول عالم ولكن لا علم له ، ومتكلم ولكن لا كلام له ، وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة فمن قال بالمآل لما يؤديه إليه قوله ويسوقه إليه مذهبه كفَّره ، لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم ، فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم) [(١)] .

قلت بحول الله تعالى : قوله : (فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم) ، هم لم يصرحوا أبداً بما أدى إليه قولهم ، ولو صرحوا بذلك لم يختلف اثنان في تكفيرهم ، ولكن من كفَّرهم من هذا القسم من العلماء اعتبروا المعتزلة كأنهم صرحوا عندهم بما أدى إليه قولهم ، فهذا هو معنى قول القاضي عياض .

ونقل بدر الدين الزركشي الشافعي (٧٤٥-٧٩٤هـ) قول من كفَّر المعتزلة حيث قال : (وَيَقُولُ : الْمُعْتَزِلَةُ كُفَّارٌ ؛ لأَنَّهُمْ – وَإِنْ اعْتَرَفُوا بِأَحْكَامِ الصِّفَاتِ – فَقَدْ أَنْكَرُوا الصِّفَات وَيَلْزَمُ مِنْ إنْكَارِ الصِّفَاتِ إنْكَار أَحْكَامِهَا ، وَمَنْ أَنْكَرَ أَحْكَامَهَا فَهُوَ كَافِرٌ) [(٢)] . ومن ضمن من كفَّرهم أيضاً على هذه البدعة الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) .

وأما من قابلهم من العلماء قالوا لازم المذهب [(٣)] ليس بمذهب على الصحيح إلا أن يلتزم صاحبه بذلك ، والمعتزلة أنكروا لازم مذهبهم و لم يلتزموه لذا لم يكفِّرهم هؤلاء العلماء .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم ، ولا ألزمهم موجب مذهبم لم ير إكفارهم قال : لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا لا نقول ليس بعالم ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا ، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفر ، بل نقول إن قولنا لا يؤول إليه على ما أصلناه) [(٤)] .

---

(١) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٩٣-٢٩٤) .

(٢) المنثور في القواعد للزركشي (٣/٩١) .

(٣) اعلم أن لازم المذهب ليس بمذهب على الصحيح ، ولكن حذار أن تفهم هذا خطئاً فتمتنع عن البراءة من المشركين ممن حقيقة مذهبهم بذاته شرك وكفر بالله ، فهؤلاء ذات مذهبهم ولازمه كلاهما كفر وشرك .

(٤) الشفا للقاضي عياض (٢/٢٩٤) .

قلت بحول الله تعالى : وبذلك يتبين لك أن المعتزلة لم يشكوا في أوصاف الربوبية ولا أنكروها على الحقيقة ، وإنما أنكروا أن تعلل هذه الأوصاف بالصفات ، وهي بدعة منكرة لا يلزم منه تكفيرهم إلا إذا أنكروا حقيقة هذه الصفات أي أحكام الصفات . فكما أنه لا يكفر من يؤمن أن الله عالم ولكنه لم يستطع أن يعبر عن هذا ، فكذلك لا يكفر من آمن أن الله عالم ولكن أنكر أن يعلل هذا الوصف بالصفة فيقال هناك صفة علم كالمعتزلة بسبب الشبهة العقلية التي طرأت عليهم .

قال بدر الدين ابن جماعة الكناني (٦٣٩-٧٣٣هـ) : (طائفة المعتزلة المنتسبين إلى واصل بن عطاء الذي عزله الحسن البصري عن حلقته أو اعتزل هو عنها ، فقد نفوا صفات المعاني من جهة استقلالها كصفات قائمة بالله تعالى على ما هو اعتقاد أهل السنة ، فقالوا في الإرادة والعلم والقدرة والسمع والبصر إنه مريد بذاته وعالم بذاته إلى آخرها ، ولم يقولوا مريد بصفة الإرادة التي ليست هي هو ولا غيره ، ومن ثم سماه بعضهم نفاة الصفات ، **وهم لم ينفوا الصفات وإنما نفوا استقلالها كما تقدم** [1] ، ولذا لم يكفرهم السلف الصالح أو **أكثرهم** في هذا الشأن . وكان الذي زين لهم ذلك الحرص على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن العدد والكثرة فكان نزغة من نزغات الشيطان وإلا فمن يقول إن تعدد الصفات تدل على تعدد الذات أيا كانت تلك الصفات ؟!! وزين لهم ذلك وغيره اغترارهم بالعقل) [2] .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البَقوري (ت: ٧٠٧هـ) : (القسم الثالث : اختلف في التكفير به ، وهو من أثبت الأحكام بدون الصفات ، فقال : الله عالم بغير علم ، ومتكلم بغير كلام ، ومريد بغير إرادة ، وكذا في بقية الصفات ، وهو مذهب المعتزلة ، فللأشعري ولمالك والشافعي وأبي حنيفة والقاضي في تكفيرهم قولان) [3] .

وقال محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ) في نفس الموضوع : (**وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلة وأثبتوا أحكامها** ، فقالوا هو قادر بذاته سميع بذاته عليم بذاته حي بذاته ، ولم يثبتوا قدرة ولا علماً ولا حياة ولا سمعاً ولا بصراً فراراً من تعدد القديم) [4] .

وبدعة المعتزلة وإن لم نكن نكفرهم عليها طالما لم يلتزموا بلازمها فهي بدعة خطيرة جداً ، وقد أفضى بالبعض إلى أن قال بسبب هذه البدعة القول بالحلول والاتحاد – نعوذ بالله منه — الذي هو أقبح من كفر النصارى كما أشار لذلك الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي الدمشقي (٧٣١-٧٩٢هـ) في

---

[1] وهذا أفضل وصف لحال المعتزلة ، أي لم ينفوا أن الله عالم ولا نفوا صفة العلم ، بل نفوا أن تكون صفة العلم صفة مستقلة عن الله عز وجل لذا قالوا أن الله عز وجل عالم بذاته وليس بعلم أي ليس بصفة العلم .

[2] إيضاح الدليل لبدر الدين بن جماعة ، ص ٣٥-٣٦ .

[3] ترتيب الفروق واختصارها ، أبي عبد الله محمد بن إبراهيم البَقوري ، ج ٢ ، ص ٤١٧ .

[4] منهج ودراسات لآيات الأسماء و الصفات للشنقيطي ، ص ١٣ .

شرحه للطحاوية بقوله : (فَإِنَّ نُفَاةَ الصِّفَات أَدْخَلُوا نَفْيَ الصِّفَات فِي مُسَمَّى التَّوْحِيد ، كَالْجَهْم بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِثْبَاتُ الصِّفَات يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الْوَاجِب ! وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَاد بالضَّرُورَة ، فَإِنَّ إِثْبَاتَ ذَات مُجَرَّدَة عَنْ جَمِيعِ الصِّفَات لاَ يُتَصَوَّرُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ ، وَإِنَّمَا الذِّهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيَّلُهُ ، وَهَذَا غَايَةُ التَّعْطِيلِ . وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أَفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُول وَالاتِّحَاد ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى) [1] .

أقول بحول الله تعالى : ما تقدم من نقول لأهل العلم في المسألة ما هو إلا غيض من فيض ولو أردنا التوسع أكثر لما وسعنا فصل من باب فنسأل الله تبارك وتعالى أن يكون ما قدمناه مع اختصاره جامعاً مانعاً ؛ جمع أطراف الشبهة وردَّ عليها ، ومنع دخول غيرها فيها .

[1] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١/٢٤-٢٥) .

الشبهة الثانية : قولهم : (من آمن بصفات الربوبية مجملاً وشك في جزئية من جزئياتها فمعذور) .

إن أصحاب هذه الشبهة المقيتة يقولون : نحن نوافقكم أن الإنسان لا يكون مؤمناً إلا بالإيمان بأن الله قادر عالم مريد متكلم سميع بصير ، ولكن من آمن بهذه الصفات إيماناً مجملاً وشك في جزئية من جزئياتها فهو مؤمن موحد معذور بهذا الشك أو الجهل أو التأويل ، ولا يكفر إلا بعد البيان وإقامة الحجة عليه ، فالإيمان بهذه الصفات مجملاً يكفي بداية لصحة التوحيد .

فنقول لهم بحول الله تعالى : كيف يكون الإيمان بصفة القدرة أو العلم أو غيرهما مجملاً ؟ وما هي الجزئية التي يكون من جهلها أو شك فيها أو تأولها معذور فلا يكفر ؟ فكيف جاز لكم أن تضعوا أصولاً تتعلق بالتوحيد وأنتم في حقيقة أمركم لا تعرفون حتى شرحها ؟!

قلت بحول الله تعالى : والحديث مع هؤلاء يتم بداية بإرجاعهم إلى الأصل فنقول لهم : أليس من الواجب على المرء أن يؤمن إيماناً جازماً ويقينياً لا شك فيه بوجه من الوجوه بأن الله عز وجل له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله حتى يعتبر أنه قد عرف الله عز وجل المعرفة الصحيحة ؟

أو لنعكس لهم السؤال فنقول : أليس من الواجب على المرء أن يؤمن إيماناً جازماً يقينياً لا شك فيه بوجه من الوجوه بأن الله عز وجل متره عن النقص مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله حتى يعتبر أنه قد عرف الله عز وجل المعرفة الصحيحة ؟

فإن أجابوا بنعم ، نقول لهم : من شك أو جهل جزئية من جزئيات صفات الربوبية كالعلم والقدرة مثلاً لا يكون مؤمناً بكمال هذه الصفات ، أو بمعنى آخر لا يكون مؤمناً بتتره الله عز وجل عن النقص في هذه الصفات ، فيثبت بذلك بطلان تأصيلكم .

وإن أجابوا بلا ، جعلنا معهم مدار النقاش على هذا الأصل الأصيل ، متمسكين بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح والتي ذكرناها في المقدمة الثالثة من هذه الرسالة بتوفيق الله عز وجل .

قلت بحول الله تعالى : وهذا الأصل الذي أصلوه لا دليل لهم عليه إلا فهمهم الفاسد لبعض الآيات والأحاديث واحتجاجهم تارة بنصوص محتملة وأخرى بنصوص لا تصح نسبتها إلى أهل العلم والتي سيأتي توضيح جل ذلك في ثنايا هذه الرسالة في جزئها الثاني بتوفيق الله عز وجل ومنه وكرمه .

وكذلك فإن هؤلاء ليس لديهم ضابط واضح ودقيق في التفريق بين مجمل الصفة التي لا يعذرون من شك فيها أو جهلها أو تأولها وجزئية الصفة التي يعذرون من شك فيها أو جهلها أو تأولها . إلا أن أحدهم بعد عناء مرير وتفكر طويل أتاه إلهام شيطاني فظنه علماً لَدُنِّيًّا ، وفضلاً من الله عز وجل اختصه

به فوضع ضابطاً ظنًّا منه أنه لم يسبق إلى ذلك فقال أن الجزئية التي يعذر فيها المرء بالجهل أو التأويل هي ما لا يستطيع عقله إدراكها و لم يأت بدليل على قوله ذلك سوى اتباعه للمتشابه ابتغاء الفتنة والإضلال . ويلزمه من هذا إعذار كل من ضل بسبب ما يعتبره أو يتصوره عقله محالاً .

قال محمد الطاهر ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ۝﴾ (الأعراف: ٦٠) : (« والضَّلال » اسم مصدر ضَلَّ إذا أخطأ الطريق الموصل ، « والمبين » اسم فاعل من أبان المراد فبَان ، وذلك هو الضَّلال البالغ الغاية في البعد عن طريق الحق ، وهذه شبهة منهم **فإنَّهم توهّموا أنَّ الحقَّ هو ما هم عليه** ، فلا عجب إذا جعلوا ما بَعُد عنه بعداً عظيماً ضلالاً بيّناً لأنَّه خالفهم ، **وجاء بما يعُدُّونه من المحال** ، إذْ نفَى الإلهيةَ عن آلهتهم ، فهذه مخالفة ، وأثبتها لله وحده ، فإن كانوا وثنيين فهذه مخالفة أخرى ، وتوعدهم بعذاب على ذلك وهذه مخالفة أيضاً ، وإن كان العذاب الذي توعدهم به عذاب الآخرة فقد أخبرهم **بأمر محال عندهم وهو البعث** ، فهي مخالفة أخرى ، فضلاله عندهم مبينٌ ، وقد يتفاوت ظهوره ، وادَّعى أنَّ الله أرسله **وهذا في زعمهم تعمد كذب وسفاهةُ عقل وادعاءُ محال** ، كما حكي عنهم في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ۝﴾ (الأعراف: ٦٦) ، وقوله هنا : ﴿ **أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ (الأعراف: ٦٣) الآية) [(١)] .

نسال الله عز وجل أن يعيد صاحب هذا التأصيل الفاسد الذي لا دليل عليه لا من كتاب ولا من سنة إلى الجادة كما رجع عن مسائل عديدة ، وللرد على أصحاب هذا التأصيل الفاسد نقول أن ذات هذا التأصيل كفر بالله عز وجل ، لأن قياس صفات الله عز وجل بالعقل هو الشرك الصراح ، فالعقل أداة للوصول إلى معرفة خالق هذا العالم وكماله وليس مكيال يقاس فيه صفات الله عز وجل . لأن قدرة العقل وقوته محدودة ، وكمال الله عز وجل غير متناهي ، فكيف يضبط المتناهي غير المتناهي ؟! وأصل التعطيل والتشبيه والتمثيل ومنشؤه هو قياس صفات الله عز وجل حسب العقول الناقصة والأفهام القاصرة .

وما أحسن ما قاله الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (**فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص** وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها) [(٢)] . وقال في موضع آخر : (وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩١/٨) .

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن الجوزي ، ص ٤٩٨ .

المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومها ، **فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا ؟!**) [(١)] .

قلت بحول الله تعالى : وذات هذا الضابط ليس بدقيق ، لأن العقول تتفاوت في الإدراك والمعرفة ، فعلى هذا الضابط سيكون الحكم عندهم مختلفاً من شخص إلى شخص ، وكل واحد يشك في جزء من الصفة إذا اعتذر لهم قائلاً : أنا لم أستطع إدراك ذلك بعقلي سيعذرونه بهذا ويضيع بذلك معالم الدين وحدوده ، والله المستعان.

وهنا ينبغي توضيح بعض المفاهيم ، لأن التأصيل الذي أصَّله هؤلاء متناقض في ذاته ، فافتراض إنسان يؤمن بصفات الربوبية إيماناً مجملاً وفي نفس الوقت يشك في جزئية من جزئياتها افتراض غير صحيح . ومنشأ ذلك عدم معرفتهم الإيمان المجمل وكيفيته . فالإيمان بكمال صفات الربوبية وأنه لا يلحقها نقص ولا عيب ولو في جزئية هو من الإيمان المجمل وليس من الإيمان المفصل .

لذا فمن شك في جزئية من جزئيات صفات الربوبية عموماً ، بأن يتردد في كمالها ، أو يجعلها محدودة ، فإنه بذلك يعتبر ناقضاً للإيمان المجمل .

قال أبو حامد الغزالي : (لا يزال في نعوت جلاله متزهاً عن الزوال وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال) [(٢)] .

فكما أن له كل صفات الكمال كذلك فإن صفاته كاملة مستغنية عن زيادة الاستكمال فهي لا تقبل الزيادة و النقصان خلافاً للمخلوق المحدث .

وأما تفاصيل صفات الربوبية يعذر فيها بالجهل ، نعم ، ولكن ليس معنى تفصيل الصفة كما يفهمه أتباع المتشابهات . فتفصيل الصفة لا يقصد به أهل العلم كونها كاملة لا يشوبها نقص أو عيب أو آفة وأنها لا تشبه صفات المخلوقين ، بل يقصدون بذلك تارة مظاهر تجلي هذه الصفات مثل مظاهر تجلي قدرة الله عز وجل وعلمه سبحانه وتعالى ، وتارة يقصدون بها متعلقات هذه الصفات فيقولون مثلاً تفاصيل عدل الله عز وجل الذي هو شرعه .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (وأما تفاصيل العدل الذي هو شرع الرب تعالى فلا يعلم إلا بالرسل) [(٣)] .

هذا ما يقصد العلماء من تفاصيل الصفات ، فجاهل تفصيل صفة العدل معناه من يجهل بعض الشرع ، وليس معناه من يتردد في بعض أفعال الله هل هو عادل فيها أم لا ولو في جزئية من الجزئيات

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٩١٦/٣) .

(٢) إحياء علوم الدين (٨٩/١) .

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم ، ص ٤٩٨ .

بل ولو في مسألة واحدة ، أي ليس معناه من يجهل أن الله عز وجل متره عن جميع أنواع الجور والظلم ولو كان هذا الجهل متعلق بجزئية من الجزئيات ولو في مسألة واحدة فقط .

وجاهل تفصيل صفة الحكمة ليس معناه من يتردد في بعض أفعال الله عز وجل هل هي صادرة عن حكمة أم لا ، بل معناه من يجهل وجه الحكمة في أفعال الله عز وجل أو في بعضها .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فكل ما فعله علمنا أن له فيه حكمة ، وهذا يكفينا من حيث الجملة وإن لم نعرف التفصيل) [1] .

وفي الحقيقة فإن هؤلاء أكثر مشكلتهم في صفة العلم والقدرة ، فلو حاورناهم في هذا التأصيل الفاسد الذي وضعوه على صفات أخرى مثل صفة العدل والحكمة لم يجرؤوا أن يطبقوا هذا التأصيل الذي وضعوه .

فمثلاً لو قلنا لهم ما حكم رجل قال : (أنا أؤمن أن الله حكيم [2] وهو في هذه الصفة أعظم من جميع خلقه ، ولكن لا أظن أن كل أفعال الله عز وجل لا بد أن تصدر عن حكمة ، فمثلاً لا أظن أن في خلق الذباب حكمة) لبادروا إلى إنكار ذلك وأنه ليس بموحد أصلاً ، فالعجب العجب ممن فرق بين صفة وأخرى تعود كلها إلى موصوف واحد ، وهو من له المثل الأعلى المتره عن النقائص والآفات .

وتجدر الإشارة أن بعض أهل الغي وضعوا تأصيلاً فاسداً جداً فقالوا لا يكفر الشاك في صفة القدرة أو العلم إلا أن ينكر الصفة مطلقاً ، ومعنى هذا التأصيل الفاسد أن من شك في القدرة أو العلم في أمر أو أمور ولو كثيرة جداً فإنه لا يكفر إلا إذا نسب لله العجز المطلق والجهل المطلق . ومن لم يفرق بين الخالق والمخلوق لا غرابة أن يقع في هذه الأباطيل . وسيأتي مزيد من البيان حول دحض هذه الشبهة في المذهب الثاني في الفصل السابع من الباب الرابع من هذه الرسالة ، وكذلك في معرض دحض الشبهة التالية .

وهنا مسألة ينبغي الإشارة إليها والتأكيد عليها وهي أنه كما أن من لم يتره الله عز وجل عن النقص في صفة من صفاته لا يعد عارفاً بالله عز وجل ، فكذلك من لم يتبرأ من الشرك ولو في مسألة واحدة لا يعد موحداً لله عز وجل .

فكما يجب عليك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه المتفرد بذلك ، وجب عليك أيضاً أن تعتقد أنه الوحيد الذي له الحق في العبادة . ولا يجوز لك أن تنقض هذا الإيمان المجمل أي كما أنه لا يجوز أن تتردد فضلاً أن تعتقد أن الله قد يعتريه نقص في صفاته

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٢٨/٦) .

[2] قال فخر الدين الرازي في تفسيره (١٠١/١٦) : (« حكيم » متره عن العبث والخطأ ، وحكيم بمعنى أنه عليم بعواقب الأمور ، وكل ما كان حكماً له وقضاء كان حقاً وصواباً ولا اعتراض عليه) اهـ .

من أي وجه كان لأن صفاته تعالى كاملة لا تتجزأ ، فكذلك لا يجوز لك أن تصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله سبحانه وتعالى ولو في جزئية .

قال سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٧هـ) عليه رحمة الله في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّه عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ۝ ﴾ (الأنعام: ١٢١) :

(وأمام هذا التقرير الأخير نقف ، لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والإتباع في هذا الدين . إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية . . أن طاعة المسلم في هذه **الجزئية** تخرجه من الإسلام لله ، إلى الشرك بالله .

وفي هذا يقول ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ۝ ﴾ (الأنعام: ١٢١) [١] . . أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره . . فهذا هو الشرك . . كقوله تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٣١) الآية) ...) [٢] .

---

[١] المقصود بالطاعة الشركية هنا طاعة غير الله عز وجل في تحليل الحرام ، أو تحريم الحلال .

[٢] في ظلال القرآن لسيد قطب (م٣/ج٨/ص١١٩٧) .

الشبهة الثالثة : قولهم : (إن معرفة كمال صفات الله عز وجل ليست شرطاً في صحة الدخول في الإسلام وإنما يكفر من جحد بعد ما يصله الدليل) .

لما أفردنا المقدمة الثالثة للجزء الأول من هذا الكتاب بفضل الله عز وجل ومنه وكرمه برسالة مستقلة موسعة سبقت هذه الرسالة بالنشر ، أنكر علينا بعض القوم تبرؤنا وتكفيرنا لمن جهل كمال الله عز وجل في صفاته ، وتبرؤنا وتكفيرنا لمن جهل تنزه الله عز وجل عن النقائص في صفاته ، وأنكر حكمنا عليه بأن مثل هذا الشخص لا يعد عارفاً بالله عز وجل المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه .

فقالوا : إن الإيمان بكمال صفات الله عز وجل ليس شرطاً في صحة التوحيد ابتداء ، وذلك لأن المعرفة الواجبة ابتداء هي معرفة الصانع ، ونحن نوافقكم أنه يلزم منه معرفة أن الله عالم قادر مريد متكلم سميع بصير ، ونوافقكم أنه يلزم منه معرفة أن الله له الحكم والتشريع ، وأنه مدبر الأمر والمتصرف في الكون ، ويلزم من هذا توحيده سبحانه بهذه الصفات وتوحيده بالعبادة . لكن من عرف أن الله له قدرة عظيمة ليس هناك قدرة مثلها بها خلق الخلق ولكن جهل أنه على كل شيء قدير ، مثل جهله بقدرة الله سبحانه على جمع الرماد المتفرق في البر والبحر وخلقها من جديد على سبيل المثال ، وكذلك من عرف أن لله عز وجل علماً عظيماً ليس هناك علم مثله ولكن جهل أنه بكل شيء عليم مثل جهله بأن الله يعلم ما سيفعله الإنسان وأنه يعلم أهل الجنة من أهل النار على سبيل المثال أيضاً ، فهذا لا يعد بهذا الجهل مشركاً ولا كافراً بل هو من أهل الإيمان حتى يأتيه الدليل على أن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم فيجحد ذلك وينكره فعندها يكفر ويخرج من دائرة الإسلام . واحتجوا بحجج لا تسعفهم فقالوا :

أولاً : إن صفة الخلق هي الصفة التي حاج الله تعالى بها المشركين على توحيده بالعبادة ، مما يدل على أن معرفتها كافية ابتداء ليبنى عليها الدعوة إلى توحيد الله بالعبادة .

ثانياً : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث إلى ناس تغيرت فطرة الكثير منهم وكان كثير منهم يجهل كمال صفات الله تعالى . والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطالبهم بالإقرار بكمال الصفات ابتداء بل طالبهم ابتداء بأن يوحدوا الله بالعبادة ومن أجابه واتبعه اعتبره مسلماً ، ودعوته كانت عامة للجميع وذلك بمطالبتهم ابتداء بأن يوحدوا الله بالعبادة ويتبعوه على الرسالة . فعدم مطالبته إياهم بالإقرار بكمال صفات الله ابتداء يدل على أحد أمرين : الأول : إما أنهم كانوا كلهم مقرين بذلك فلم يحتاجوا إلى المطالبة به . وهذا يكذبه الواقع ، فلم يبقى إلا أن نقول بالأمر الثاني وهو : أن معرفة كمال الصفات ليست شرطاً ابتداء في الدخول في الإسلام ، وإنما يكفر ويخرج من دائرة الإسلام من جحد ذلك بعد أن يصله الدليل وخبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك .

ثالثاً : إن العلماء كلهم عندما يذكرون المعرفة الواجبة يقولون عنها معرفة الصانع ، وهذا يدل على أننا فهمنا الأمر كما فهمه العلماء الذين هم أعلم الناس بالقرآن والسنة .

رابعاً : إننا لو قلنا أن من عرف الله و لم يعرف كمال صفاته لا يعد عارفاً بالله أو أنه لا يعد مؤمناً ، لتحتم علينا بذلك تكفير علماء عظام خالفوا في ذلك .

خامساً : إن كون صفات الله عز وجل كاملة لا نقص فيها إنما ذكرت في كتاب الله عـــز وجـــل ، فكيف يكفر من جهل كمال الصفات ممن لم يبلغه القرآن .

سادساً : إن معرفة كمال صفات الله عز وجل ليست من توحيد الربوبية بل هي من توحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الأسماء والصفات متعلق بالأخبار ، وما كان متعلقاً بالأخبار لا يكفر جاهلـــه إلا بعد وصول الخبر إليه ، وهذا كمن جهل صفة اليد والاستواء مثلاً .

سابعاً : إنه لا يوجد دليل لا في الكتاب ولا في السنة على أن من جهل كمال صفات الله عز وجل لا يعد مؤمناً موحداً ، فهاتوا لنا الدليل لكي نتبعه .

أقول بقدرة ملك الملوك جل جلاله مستمداً منه الإعانة : إن هذا الكلام قد حوى على كثير من المغالطات والعلل واقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته للناس ، وإليك تفصيل الرد على كل ما سبق بحول الله تعالى وتوفيقه وعونه .

فأما احتجاجهم بأن الله عز وجل حاجَّ المشركين بصفة الخلق ، فنعم ، ومعنى ذلك أن صفة الخلق دليل كافٍ لمعرفة بطلان الشرك ، فلقد حاجَّ الله سبحانه وتعالى بصفة الخلق على بطلان الشرك في غير ما آية في كتابه الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ **أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ۞﴾ (النمل: ٦٤) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ۞﴾ (الزخرف: ٨٧) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ۞﴾ (العنكبوت: ٦١)

ولكن لا يدل ذلك على أن مجرد الإقرار بصفة الخلق يكفي دون الإقرار بلازمه من كمال الخالق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . بل نفس ما احتجوا به هو حجة لنا ، لأن صفة الخلق كما أنها حجة كافية في بطلان الشرك فهي أدل دليل على كمال الخالق سبحانه وتعالى في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وأن الخالق جل جلاله لا يشوب ذاته وصفاته وأفعاله نقص ولا آفة ولا عيب ولا مشابهة لخلقه .

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** ۞﴾ (الطلاق: ١٢)

ولو أردنا أن نتقصى أقوال أهل العلم في شرح الآية السابقة وغيرها ، واستدلالهم بها على أن صفة الخلق كافية لمعرفة كمال الخالق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله أو بمعنى آخر استدلالهم بصفة الخلق على تنزه الخالق عن النقائص والمعائب والآفات مطلقاً في ذاته وفي وصفاته وفي أفعاله لطال بنا المقال كثيراً .

فمن ذلك ما قاله الإمام برهان الدين البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) في تفسير الآية السابقة : (﴿ **اللَّهُ** ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة إحداها ، ثم أخبر عنه بما يدل على ذلك لأن الصنعة تدل على الصانع وعلى ما له من الصفات فقال : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ** ﴾ أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال البديع القريب ﴿ **سَبْعَ سَمَوَاتٍ** ﴾ أي وإنهم يشاهدون عظمة ذلك ويشهدون أنه **لا يقدر عليه إلا تام العلم كامل القدرة**) [١] .

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (إن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة ، فدل **بذلك المصنوع على كمال قدرته ولطيف حكمته**) [٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (**وذاتاً لا تتصف بصفات الكمال ليست خالق المخلوقات**) [٣] . وقال في موضع آخر : (فلا بد للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته له من صفات الكمال ، وينفي عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال ، ولا بد له في أحكامه من أن يثبت خلقه وأمره **فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته** ، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل ويؤمن بشرعه وقدره إيماناً خاليا من الزلل . وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل ، والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول كما دل على ذلك سورة (قل هو الله أحد) ، ودل على الآخر سورة (قل يا أيها الكافرون) ، وهما سورتا الإخلاص وبهما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك) [٤] .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) في تفسير قوله الله عز وجل : ﴿ **وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً** ﴾ (آل عمران: ١٩١) :

(فلا ريب أن خلق السموات والأرض من أعظم الأدلة على وجود فاطرهما وكمال قدرته وعلمه وحكمته وانفراده بالربوبية والوحدانية) [٥] . وقال في موضع آخر : (ولو أردنا نستوعب ما في آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا إله إلا ، هو الذي ليس كمثله شيء

---

[١] تفسير البقاعي (٢٠/١٧١-١٧٢) .

[٢] صيد الخاطر ، ص ٣٤ .

[٣] درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٠/١٥٦-١٥٧) .

[٤] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٢-٣) .

[٥] مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/٥١٩) .

، وإنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك) [١] .

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (يونس: ١٠١) : (والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أي قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ، ووحدته ، وكمال قدرته) [٢] .

وقال القاضي أبي السعود الحنفي (٩٠٠-٩٨٢هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۞ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞** ﴾ (النحل: ١٠-١١) : (﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ أي في إنزال الماءِ وإنبات ما فصل ﴿ **لَآيَةً** ﴾ عظيمةً دالةً على تفرده تعالى بالألوهية **لاشتماله على كمال العلمِ والقدرةِ والحكمة**) [٣] .

ولما كان ذلك كذلك **فإن الله عز وجل كما أنه حاجَّ المشركين على بطلان الشرك بصفة الخلق ، فإنه حاجَّ من عطَّل كماله في صفاته بصفة الخلق أيضاً** .

فمن ذلك أنه لما أنكر أحد المشركين قدرة الله عز وجل على إحياء العظام المتفتتة مع أنه كان يؤمن بأن قدرة الله أعظم من قدرة جميع البشر وأنه هو الخالق للبشر ، ردَّ الله عز وجل عليه بأنه إنسان نسي خلقه ، لأن إنكار كمال قدرة الله عز وجل لا يصدر إلا من إنسان ناسٍ أن الله عز وجل خلقه من العدم .

قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞** ﴾ (يس: ٧٧-٨٣)

---

[١] مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢١٢/١) .

[٢] تفسير الشوكاني (٤٥٤/٢) .

[٣] تفسير أبي السعود (٣٤٤/٣) .

ومما سبق يتبين لكل ذي لب وعقل سليم وفطرة سوية أن صفة الخلق ، وإن كانت لوحدها مسألة من مسائل الربوبية [١] فإنها تتفرع عنها جميع الصفات الواجبة معرفتها لصحة توحيد المرء ابتداءً كما يتفق هؤلاء معنا ولقد بينا وجه ذلك في المقدمة الثالثة . وصفة الخلق كما يلزم منها توحيد الخالق في العبادة نقول لهم أنه يلزم منها إثبات الكمال المطلق للخالق ، وتتريهه سبحانه عن النقائص مطلقاً ، في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وتوحيده بهذا الكمال المطلق .

وأما احتجاجهم بعموم دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه كان يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ولم يكن يطلب من الناس الإقرار بكمال الخالق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله مع أنه كان هناك كثير ممن كانوا يجهلون ذلك ، فهذا كله من القدح في دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويدل على جهل تام بحقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان على زعمهم يدعو أناساً ينسبون لله النقائص في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله ، ويقبل إسلامهم ابتداء إذا أجابوه إلى توحيد الخالق بالعبادة ، واتباعه بالرسالة ، دون أن يعرِّف من تشوهت منهم فطرته بربهم وما يجب عليه وما يستحيل في حقه سبحانه ، وأنهم بعد دخولهم في الإسلام على الهيئة التي قرروها يبقون جاهلين أن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم وأنه متره عن العبث مطلقاً في أفعاله إلى أن يترل القرآن ببيان ذلك كله . فهذا هو ظنهم السوء بحقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وجهلهم بحقيقة شهادة التوحيد .

وجواب هذه الشبهة من أنفع الأجوبة إن شاء الله تعالى ، فافتح قلبك وعقلك وفهمك له ، فنقول بفضل الله عز وجل ومنه نستمد الإعانة والتوفيق والسداد :

اعلم أن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوة عامة إلى البشرية ، ولها حقيقة واضحة وجلية تتجمع في شهادة جليلة القدر وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وهذه دعوة إلى توحيد الله عز وجل بالعلم والعمل معاً ، وإلى توحيد الرسول بالإتباع وتلقي الشرائع ، وإلى التزام هذه الكلمة ، وعقد الولاء والبراء عليها بموالاة أهلها والتبرؤ ممن خالفها .

وخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خطاب دقيق جامع مانع ، ولكن كيفية الدعوة إلى هذه الحقيقة تختلف من مخاطب لآخر ، وكذب من ادعى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت دعوته للبشرية أجمعين بنفس الكيفية ، بل كانت تتنوع حسب احتياج المخاطبين ، وحسب النقص الموجود

---

[١] أشار لذلك شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب في الدرر السنية (٦٤/٢) حين قال : (فأما توحيد الربوبية فهو الأصل ولا يغلط في الإلهية إلا من لم يعطه حقه ، كما قال تعالى فيمن أقر بمسألة منه : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ (الزخرف: ٨٧)) . اهـ

عندهم ، وحسب فهمهم ، وبعض المخاطبين كان محققاً لبعض ما أتت به الرسل فدعوتهم إلى ما حققوه هو تحصيل حاصل لا غير ، وكل قوم واحتياجاته يختلف عن الآخر .

فدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لقريش إلى الإسلام كانت مختلفة عن دعوته أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإسلام لأن كل منهم عنده خلل يختلف عن الآخر .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوا قريشاً بسوق ذي المجاز قائلاً :

« **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، تُفْلِحُوا** » [1] .

وكانت كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه كافية في بيان الإسلام لأن قريشاً كانت تفهم من هذه الكلمات حقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ذلك يتضمن الدعوة إلى الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لكن لما دعا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اليهود إلى الإسلام طالبهم أن يقروا برسالته أيضاً ، لأنهم قد يقولون نحن نؤمن أصلاً أنه لا إله إلا الله ، لذا اختلفت دعوته لهم عن دعوة قريش .

قال أبو بكر الجصاص الحنفي (٣٠٥-٣٧٠هـ) : (قَوْلَ : « **لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** » إِنَّمَا كَانَ عَلَمًا لإِسْلاَمِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لأَنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ إلاَّ اسْتِجَابَةً لِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَصْدِيقًا لَهُ فِيمَا دَعَاهُمْ إلَيْه) [2] .

وقريشاً كانت تفهم من كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن المقصود بهذه الدعوة صرف جميع صفات الألوهية لله وحده لذا قالوا : ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ۝ ﴾ (ص: ٥) ، وكانوا يفهمون كذلك أنها دعوة إلى توحيد الله تعالى بالملك والحكم والتشريع لذا قال أحدهم : (إن هذه كلمة تكرهها الملوك) .

وأما النصارى فكانوا يجهلون أن طاعة الأحبار والرهبان تعني عبادتهم [3] وأن من أطاع شخصاً دون الله في التحليل والتحريم فإنه يعتبر عابداً له وكأنه صلى أو صام له ، لذا احتاجوا إلى مزيد بيان فكانت

---

[1] صحيح ابن حبان ، كتاب التاريخ / باب ذكر مقاساة المصطفى صلى الله عليه وسلم ما كان يقاسي من قومه في إظهار الإسلام ، (١٤/٥١٨) ، حديث رقم ٦٥٦٢ .

[2] أحكام القرآن للجصاص (٣/٢٢٥) .

[3] قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) في تفسيره (١٤/٢١٠) : (حدثنا أبو كريب وابن وكيع ، قالا : حدثنا مالك بن إسماعيل ، وحدثنا أحمد بن إسحاق ، قال : حدثنا أبو أحمد ، جميعًا ، عن عبد السلام بن حرب ، قال : حدثنا غطيف بن أعين ، عن مصعب بن سعد ، عن عدي بن حاتم قال : أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال : « **يَا عَدِيّ ! اطْرَحْ هَذَا الوَثَنَ مِنْ عُنُقكَ !** » قال : فطرحته ، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة ، فقرأ هذه الآية : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٣١) ، قال :

دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن شرح لهم حقيقة هذه الدعوة أكثر ، وإليك نص رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل عظيم الروم يدعوه للإسلام :

« **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .**

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ،

سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ .

وَ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝﴾ (آل عمران: ٦٤) [١] .

وكذلك فإن قريشاً كانت تفهم من كلمات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها دعوة إلى التبرؤ من سائر ملل الكفر وأتباعها لذا شق على أبو طالب الدخول في هذا الدين لأنه يعرف أن معنى ذلك أن يحكم على عبد المطلب بالشرك والكفر . إذاً فكيفية الدعوة تختلف من شخص لآخر حسب ما يحتاجه لسد النقص عنده وحسب ما يفهمه من الخطاب المتوجه إليه .

فمن احتج بدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أن معرفة كمال الصفات ليست شرطاً في صحة إسلام المرء ابتداء هو جاهل بحقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل ودعوة جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم) [٢] .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) في معرض شرحه لحديث الرجل المسرف على نفسه الموصي أولاده بحرق جسده بعد موته خشية من الله : (**ولا يختلف المسلمون في أن من جهل أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر** ، حلال الدم في الدنيا ، مخلد في النار في الآخرة ؛ لأن ذلك معلومٌ من الدين بالضرورة ، وجحده أو الشك فيه تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً . فمقتضى الحديث بظاهره أن الرجل كافرٌ على مقتضى شريعتنا . ولذلك قالت طائفة : فلعل شرع ذلك الرجل لم يكن فيه الحكم بتكفير من جهل ذلك ، أو شكَّ فيه ، والتكفير حكم من

قلت : يا رسول الله ، إنا لسنا نعبدُهم ! فقال : « **أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ** ؟ » قال: قلت : بلى ، قال: « **فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ** » ، واللفظ لحديث أبي كريب) .

[١] صحيح البخارى ، كتاب الجهاد / باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة ، ط. المكتز (ص ٨١٣ ، حديث رقم ٢٩٤١) ، الطبعة السلطانية (٤/٤٧) .

[٢] تفسير القرطبي (٨/٢٨٦-٢٨٧) .

الأحكام الشرعية فيجوز أن تختلف الشرائع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ (المائدة: ٤٨)

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأن **هاتين القاعدتين من ضروريات الشرائع** [١] ، إذ **لا تصح شريعة مع الجهل** [٢] ، فإن الله عالم ، قادر ، مريد ، **ولا مع الشك فيها ، فلا بد أن تنص الرسل لقومهم على هذه الصفات ، مع أن العقول تدل عليها ، فيكون العلم بها ضرورياً من كل الشرائع**) [٣] .

وكذلك فإن الدعوة إلى توحيد العبادة تتضمن الدعوة إلى إثبات كمال المعبود في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية ، وإنما الجمود في فهم حقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أدى إلى هذا الفهم السقيم .

فإن قالوا : لماذا لم يذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ذكرتم خلال دعوته للناس ما تدَّعون أنه شرط في صحة التوحيد وهو إثبات الكمال لله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ؟

فنقول بحول الله تعالى : إن المخاطبين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانوا في جاهليتهم أصنافاً و فرقاً ، منهم المقر بذلك و هم الجمهور بل السواد الأعظم كانوا كذلك وما شذ إلا القليل القليل ، والشاذ لا ينبني عليه قاعدة . وإليك الأدلة على أن عموم قريشاً كانت تقر بكمال الخالق جل جلاله في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

قال تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝** ﴾ (الزخرف: ٩) ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۝** ﴾ (يونس: ٣١) ، وقال تعالى : ﴿ **قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۝ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۝** ﴾ (المؤمنون: ٨٤-٨٩) وغير ذلك من الآيات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (ليس في الرسل من قال أول ما دعا قومه إنكم مأمورون بطلب معرفة الخالق فانظروا واستدلوا حتى تعرفوه فلم يكلفوا أولا بنفس المعرفة ولا بالأدلة الموصلة إلى المعرفة **إذ كانت قلوبهم تعرفه وتقر به**) [٤] .

---

[١] يقصد الإيمان بأن الله على كل شيء قدير وأن الله بكل شيء عليم .

[٢] وهذه عبارة مهمة جداً ، فلا تصح شريعة مع الجهل بأصل الدين ، فالكافر لا يقبل منه عمل ولو أتى بكل الشرائع ما دام أنه لم يحقق أصل الدين ، فلا تصح شريعة مع الجهل ولا مع الشك فيها ، فتأمل .

[٣] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٥-٧٦) .

[٤] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/٣٣٨) .

فهذا الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى يقر بكمال علم الله عز وجل حيث يقول في معلقته المشهورة :

فَلا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى ، فَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّه يَعْلَمِ

يُؤخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ ، أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

وهذا عبد المطلب يقر بأن الله عز وجل عالم بذاته ، وأنه سبحانه متره عن البخل كما في حديث رقيقة بنت أبي صيفي القرشية وهو حديث طويل قالت : (... حتى إذا استووا بذروة الجبل ، قام عَبْد المُطَّلب ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام قد أيفع ، أو كَربَ ، فرفع يده فقال : (**اللهم سادَّ الخَلَّة، وكاشف الكربة، أنت معلِّم غير معلَّم، ومسؤول غير مُبَخَّل، وهذه عِبِدَّاك وإماؤك بِعَذِرَات حَرَمِك ، يشكون إليك سنتهم التي أذهبت الخُفَّ والظلف ، اللهم فأمطر علينا مُغدِقاً مرتعاً**) ، فورب الكعبة ما راموا حتى تفجرت السماء بما فيها) [1] .

فالله عز وجل حكا عن عموم قريش إقرارهم بالخالق وكماله وإقرارهم بما يلزم صفة الخلق من صفات أخرى ، وأما من شذ منهم فهم قلة قليلة ، ولا شك أنهم كانوا يفهمون حقيقة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنها دعوة إلى توحيد الله بالعبادة مع تتريهه عن النقائص مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله أي إثبات الكمال المطلق لله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله لأن كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان جامعاً مانعاً. ولما كان المخاطبين يفهمون ذلك لم يحتاجوا إلى بيان ذلك بالتفصيل ، كما لم يحتج أبو طالب أن يقول له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إنه لكي يصح إسلامك يجب عليك أن تتبرأ من جميع المشركين بما فيهم أبوك عبد المطلب » ، وكما لم يحتج جميع قريش أن يقول لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إن معنى دعوتي لكم إلى لا إله إلا الله معناه توحيد الله بالحكم والتشريع » .

ولا شك أنهم كانوا يفهمون ذلك ، ولو لم يكونوا يفهمون ذلك لبيَّن لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك ، كما بيَّن للنصارى أن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله عز وجل .

أقول بحول الله تعالى : وأدلُّ دليل على أن المخطابين زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بل وجميع الأمم قاطبة كانوا يفهمون من دعوة رسلهم أنها دعوة إلى توحيد الخالق الذي له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، هو أمر قاطع واضح محكم بيِّن وهو أن أي رسولٍ يدعو قومه فلا بد أن يدعوهم إلى التوحيد مبشراً فاعله بالجنة ، وينذر عن الشرك محذراً فاعله بالنار ، ولا خفاء في هذا ،

---

[1] أسد الغابة لابن الأثير (١١٣/٧) ، وقال عز الدين ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ) بعد أن أورد هذا الحديث : (أخرجه أبو نعيم وأبو موسى، وقال أبو موسى: هذا حديث حسن عال) . والخِلَّة: الحاجة ، والعذرات: الأفنية ، ويعني بالظلف والخف: الغنم والإبل ، والمغدق: الكثير ، ومرتعاً: أي ترتع فيه الدواب .

ومن يسمع هذه الدعوة سيعرف أن الخالق الذي يدعوا إليه رسل الله عز وجل لتوحيده ، هو خالق له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، لأنه سيحاسبهم يوم القيامة ، وكيف سيحاسبهم يوم القيامة دون أن يعلم سرهم وعلانيتهم ، بل سر وعلانية جميع الخلق في آن ، وهذا دال على كمال العلم ، بل دال على جميع أنواع الكمال ، وكذلك سيحييهم من جديد حتى بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً بالية ، وهذا دال على كمال القدرة كما هو واضح وبين ، وبالله تعالى التوفيق .

ونقول للمخالفين : يجب عليكم أن تثبتوا وجود أناس يثبتون لله النقص في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله ، ومن ثم تثبتوا لنا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع علمه بوجود مثل هؤلاء ضمن المخاطبين في دعوته ، أنه لم يدعهم ابتداء إلى تتريه الله عز وجل عن هذا النقص الذي ينسبونه إليه سبحانه وتعالى في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله ، وإنما دعاهم ابتداء إلى أن لا يصرفوا أي نوع من أنواع العبادات لغير الله سبحانه وتعالى وبذلك كان يعتبرهم مسلمين ابتداء ، ومن ثم بعد أن يدخلوا في الإسلام يبقى هؤلاء المسلمين (!) بزعمكم مصرين على نسبة النقص لله تعالى في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله إلى أن تنــزل الآيات القرآنية بذلك ، وحينها فقط (بزعمكم) إذا بقوا مصرين على ما كانوا عليه يخرجون من دائرة الإسلام لأنهم ردوا نصوص القرآن .

وأنى لكم أن تثبتوا ذلك ، وقد أثبتنا قبل قليل أن دعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام لا بد أن يفهم منها المخاطبين كمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وكذلك فقد ثبت عندنا بالدليل القاطع من الكتاب والسنة أن جاهل كمال صفات الله عز وجل لا يعد موحداً ، فالله عز وجل وصف من أنكر كمال قدرته بأنه شخص نسي الخلق الأول فقال عز وجل عنه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ ﴾ (يس: ٧٧-٧٨)

ووصف من لم يؤمن بأن الله على كل شيء قدير بأنه لم يعرف الله حق معرفته فقال تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ ﴾ (الزمر: ٦٧)

قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (**﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾** هــم الكفــار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم ، **فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره**) [1] .

ووصف من شك في كمال علم الله عز وجل أن هذا الظن أرداه وأهلكه ، فقال تعالى :

---

[1] تفسير ابن كثير (١٢/١٤٧) .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞﴾ (فصلت: ١٩-٢٣)

روى مسلم في صحيحه عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : (اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتُرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ ؟ وَقَالَ الآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا ، وَقَالَ الآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : **﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ﴾** الآيَة)[1] .

وقد وصف الله عز وجل اليهود والنصارى أنهم لا يؤمنون بالله عز وجل مع أنهم يؤمنون بأن الله عز وجل هو خالق كل شيء ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۞﴾ (التوبة: ٢٩)

قال الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) : (فإن قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر ؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين ، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، لا يكون ذلك إيماناً بالله)[2] .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (قال الزجاج : ومعناها : لا يؤمنون بالله إيمان الموحِّدين ، لأنهم أقرُّوا بأنه خالقُهم ، وأنَّه له ولد)[3] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (اعلم أنه تعالى ذكر أن أهل الكتاب إذا كانوا موصوفين بصفات أربعة ، وجبت مقاتلتهم إلى أن يسلموا ، أو إلى أن يعطوا الجزية .

فالصفة الأولى : أنهم لا يؤمنون بالله . واعلم أن القوم يقولون : نحن نؤمن بالله ، إلا أن التحقيق أن أكثر اليهود مشبهة ، والمشبه يزعم أن لا موجود إلا الجسم وما يحل فيه فأما الموجود الذي لا يكون

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، الطبعة السلطانية (١٢١/٨) ، ط. المكتر (ص١٤٣٦ ، حديث رقم : ٧٢٠٥) .

[2] تفسير البغوي (٣٣/٤) .

[3] تفسير ابن الجوزي (٤١٩/٣) .

جسماً ولا حالاً فيه فهو منكر له ، وما ثبت بالدلائل أن الإله موجود ليس بجسم ولا حالاً في جسم ، فحينئذ يكون المشبه منكراً لوجود الإله فثبت أن اليهود منكرون لوجود الإله) [1] .

وسر هذا كله أن تعطيل كمال الله عز وجل في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله يلزم منه تعطيل صفة الخلق ، فكل من نسب لله النقص في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله نحتج عليه بخلق الله للإنسان وبخلقه للسماوات والأرض ، وهذه طريقة القرآن الكريم كما بينا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وأصل الشرك إما **التعطيل** مثل تعطيل فرعون موسى ، والذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم ، والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهدى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، وإما **الإشراك** وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل ، وأهله خصوم جمهور الأنبياء ، وفي خصوم إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم معطلة ومشركة ، لكن التعطيل المحض للذات قليل ، **وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال ، وهو مستلزم لتعطيل الذات**) [2] .

فلما كان الأمر كذلك و لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بلفظه عرفنا أن المخاطبين إما أنهم كانوا يفهمون معنى ذلك من شهادة التوحيد أو أنهم كانوا يقرون بذلك وأن خللهم هو في ما دعوا إليه تحديداً . وعلى فرض أنهم لم يكونوا يفهمون ذلك من شهادة التوحيد فهم لا بد أن يفهموا ذلك من الإيمان باليوم الآخر الذي يقترن مع دعوة التوحيد كما قد بينا بتوفيق الله عز وجل .

ونقول للمخالفين : ما قولكم فيمن ينسب لله الولد من النصارى مع إقرارهم بأن الله عز وجل هو خالق كل شيء من العدم ؟

فسيقولون : هذا فيه نسبة الكثير من النقص لله عز وجل .

فنقول لهم : ها قد رجعتم إلى الفطرة السوية ، ونقضتم ما قررتموه سابقاً .

فسيقولون : من آمن بأن قدرة الله أعظم من قدرة البشر وأنه ليس هناك قدرة مثلها لكن جهل أن الله على كل شيء قدير لا يعني أنه ينتقص من ذات الله عز وجل ، والنصارى بنسبتهم لله الولد فهم ينتقصون من ذات الله عز وجل .

فنقول لهم : من نسب لله النقص بنية الانتقاص لا شك أنه أسوأ حالاً ممن نسب لله النقص جهلاً أو تأويلاً . فالنصارى لم ينسبوا لله الولد بقصد الانتقاص منه ، وإنما هذا لغلوهم في المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم .

---

[1] تفسير الرازي (٢٩/١٦) .

[2] منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٩٢/٣) .

والذي يجهل مثلاً أن الله على كل شيء قدير ، فهذا يعني أنه سيصف الله بالعجز في بعض الأشياء التي جهل قدرة الله عليها ، أو أنه سيبقى متردداً فيها هل الله قادر عليها أم لا ؟ وهذا يعني نسبة العجز لله عز وجل أو بمعنى آخر تجويز العجز على الله عز وجل في هذه المسألة . فمن كان كذلك يعتبر أنه لم ينزه الله عز وجل عن العجز مطلقاً ، وأنه قد وصف الله بالنقص أو جوز عليه النقص في مسألة معينة .

ومعنى إثبات الكمال المطلق لله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله هو تنزيهه عز وجل عن جميع النقائص في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . فمن نزه الله عز وجل عن النقص مطلقاً في صفة القدرة معناه آمن بكمال قدرة الله عز وجل وهكذا في جميع الصفات .

وقد يتمادى بعض الجهلة فيقولون : إن اليهود والنصارى كانوا يثبتون لله النقص في ذاته ، وقد ثبت ذلك في القرآن الكريم حيث قال الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٣٠) ، والنبي صلى الله عليهم وآله وسلم كان يعلم ذلك ، فأثبتوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعوا إلى ترك هذا الإفك ابتداء ولا يقبل إسلام أحد من اليهود والنصارى إلا أن يعتقد تنزه الله عز وجل عن الولد ؟

فنقول لهؤلاء بتوفيق الله تعالى : لا شك أن اليهود والنصارى كانوا أفهم منكم بخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فإننا لو سألناكم عن معنى كلمة « **لا إله إلا الله** » ستقولون أنها عبادة الله وحده لا شريك له ، فنقول لكم : ومعنى عبادة الله وحده لا شريك له أليس معناه أن تعتقد أن كل ما سوى الله عز وجل عبد لله تعالى ، وأن الله وحده هو الإله الحق ؟! فهذا من أبسط معاني هذه الكلمة ، فمن آمن أن كل ما سوى الله عز وجل هو عبد لله سبحانه وتعالى ، نفى بذلك إمكانية وجود ابن لله عز وجل أو بنت أو صاحبة . ولهذا احتج الله عز وجل على النصارى بهذه الحجة في غير ما آية في كتابه الكريم ، فقال عز من قائل : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞** ﴾ (مريم: ٨٨-٩٣)

قال برهان الدين البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) : (﴿ **عَبْدًا** ﴾ مسخراً مقهوراً خائفاً راجياً ، فكيف يكون العبد ابناً أو شريكاً ؟! فدلت الآية على التنافي بين العبودية والولدية) [1] .

قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ۞** ﴾ (البقرة: ١١٦) ، وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ**

---

[1] تفسير البقاعي (٢٤٩/١٢) .

بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞﴾ (الأنعام: ١٠٠-١٠١)

قال برهان الدين البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) : (ولما ختم بالتنزيه عما قالوا من الشريك والولد ، استدل على ذلك التنزيه بأن الكل خلقه ، محيط بهم علمه ، ولن يكون المصنوع كالصانع ، فقال : ﴿ **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي مبدعهما ، وله صفة الإبداع ، أي القدرة على الاختراع ثابتة ، ومن كان كذلك فهو غني عن التوليد ، فلذا حسن التعجب في قوله : ﴿ **أَنَّى** ﴾ أي كيف ومن أيِّ وجه ﴿ **يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ** ﴾)[1] .

وفيما نقلنا كفاية ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى تفسير الآيات السابقة ، ويقرأ كتاب الله عز وجل بتمعن وتدبر وتفهم وتعقل ليرى كيف احتج الله سبحانه وتعالى على من نسب له الولد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وأما احتجاجهم بالعلماء أنهم عندما يذكرون المعرفة الواجبة يعبرون عنها بمعرفة الصانع ، ولا يقولون معرفة كماله أيضاً ، فالرد عليهم من وجوه :

الوجه الأول : إن العلماء ليسوا حجة في دين الله تعالى ، فإن قالوا لنا : إننا إنما استدللنا بهم على صحة فهمنا للأدلة الشرعية ، فالجواب : إنكم لم تمعنوا النظر في الأدلة الشرعية المحكمة الواضحة الجلية والتي حاجَّ الله سبحانه وتعالى بها المشركين ، فما بعد بيان الله تعالى بيان أوضح ولا حجة أجلى !

الوجه الثاني : وأما احتجاجهم بالعلماء على صحة فهمهم للأدلة الشرعية ، فهم في الحقيقة وللأسف لم يفهموا معنى كلام العلماء ، فقد ذكرنا فيما مضى قريباً وفي المقدمة الثالثة أقوالاً للعلماء صريحة جداً يقررون فيها أن صفة الخلق يلزم منها الإقرار بكمال الخالق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وهذه الأقوال كثيرة جداً .

الوجه الثالث : إن معرفة الخالق عند العلماء تستلزم معرفته سبحانه بأنه عالم قادر سميع بصير إلى غير ذلك من الصفات التي هي من أصل التوحيد ، وعندما يقولون عالم قادر يعنون بذلك أنه عالم بكل شيء قادر على كل شيء ، والدليل على ذلك أن العلماء يصفون من شك في قدرة الله على مسألة واحدة ومحددة ، حتى ولو كان يؤمن بقدرة الله عز وجل على ما عداها يصفونه بأنه شاك في قدرة الله نفسها ، وكذا الأمر في بقية صفات الله عز وجل ، فالإيمان بصفات الله عندهم إيمان بكمال هذه الصفات ، لذا يرون أن من شك أو جهل شيئًا من عموم هذه الصفات أنه شاك أو جاهل بأصل هذه الصفة ، وسترى ذلك جلياً في ثنايا هذه الرسالة بتوفيق الله عز وجل .

---

[1] تفسير البقاعي (٢١٧/٧) .

الوجه الرابع : أن إثبات الألوهية عند العلماء متضمن لإثبات الكمال الذي لا يشوبه نقص لله عز وجل . كما أشار لذلك القاضي أبي السعود الحنفي (٩٠٠-٩٨٢هـ) : (فإن عنوانَ الألوهيةِ مناطٌ لجميع صفاتِ كمالِه تعالى) [(١)] .

فلا يختلف اثنان أن الله هو الإله الحق لتفرده بصفات الكمال التي لا يشوبها نقص ولا يعتريها عيب ولا تدخلها آفة ولا تشبه صفات المخلوق المحدث .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (وهذا أمر معلوم بالفطر ، والعقول السليمة ، والكتب السماوية أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ولا مدبراً ولا رباً ، بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة ، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد) [(٢)] . وقال في موضع آخر : (**ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه** ، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده ، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب ، كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده ، ويمنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره) [(٣)] .

وهنا مسألة نفيسة جداً ينبغي التوقف فيها ، وهو هل جاهل كمال الله في صفاته وأفعاله يعد عارفاً بالله أم لا ، وهذه مسألة أثيرت في الماضي ونقلها الإمام الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) حيث قال : (وحكا القاضي عياض قال : حدث في القيروان مسألة في الكفار هل يعرفون الله تعالى أم لا ؟ فوقع فيها اختلاف العلماء ، ووقعت في ألسنة العامة ، وكثر المراء ، واقتتلوا في الأسواق إلى أن ذهبوا إلى أبي عمران الفاسي ، فقال: إن أنصتم علمتكم .

قالوا: نعم .

قال: لا يكلمني إلا رجل ، ويسمع الباقون ، فنصبوا واحداً ، فقال له : أرأيت لو لقيت رجلاً ، فقلت له : أتعرف أبا عمران الفاسي ؟ قال: نعم ، فقلتَ له : صفه لي . قال : هو بقال في سوق كذا ، ويسكن سبتة ، أكان يعرفني ؟

فقال : لا .

فقال : لو لقيت آخر فسألته كما سألت الأول ، فقال : أعرفه ، يدرس العلم ، ويفتي ، ويسكن بغرب الشماط ، أكان يعرفني ؟

---

(١) تفسير أبي السعود (٧٢٠/١) .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (٣٧/١) .

(٣) الجواب الكافي في السؤال عن الدواء الشافي لابن القيم ، ص ١٤٦ .

قال: نعم .

قال: فكذلك الكافر قال لربه صاحبة وولد ، وأنه جسم ، فلم يعرف الله ولا وصفه بصفته بخلاف المؤمن .

فقالوا : شفيتنا ، ودعوا له ، و لم يخوضوا بعد في المسألة .

قلت : المشركون والكتابيون وغيرهم عرفوا الله تعالى بمعنى أُهم لم يجحدوه ، وعرفوا أنه خالقهم ، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ (الزخرف: ٨٧) ، وقال: ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ (إبراهيم: ١٠) فهؤلاء لم ينكروا البارئ ، ولا جحدوا الصانع ، بل عرفوه ، وإنما جهلوا نعوته المقدسة ، وقالوا عليه ما لا يعلمون ، والمؤمن فعرف ربه بصفات الكمال ، ونفى عنه سمات النقص في الجملة ، وآمن بربه ، وكف عما لا يعلم ، فبهذا يتبين لك أن الكافر عرف الله من وجه ، **وجهله من وجوه**) [1] .

قلت بحول الله تعالى : والمتأمل في هذا النقل جيداً يرى أنه لا خلاف بين أبو عمران الفاسي والإمام الذهبي في عدم إيمان من جهل كمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . لكن أبو عمران الفاسي يرى أن من ينسب لله الولد وشبهَه من سمات النقص لا يعرف الله عز وجل نهائياً ، والإمام الذهبي يعلق موضحاً ومفيداً بأن هذا الجهل ليس جهلاً مطلقاً وكلّياً ، بل قد يعرف هذا الكافر الجاهل وأشباهه بأن الله عز وجل هو الخالق والرازق ، ولكن هذه المعرفة لا تكفي لكي يعدَّ من أهل الإيمان بالله تبارك وتعالى .

ومن ثم بين الإمام الذهبي الفرق بين معرفة المؤمن لربه وبين معرفة الكافر لربه ، فالكافر جهل كمال ربه في ذاته وفي صفاته وأفعاله ، وأما المؤمن فعرف ربه بصفات الكمال ونفى عنه سمات النقص في الجملة ، والكافر قال على ربه ما لا يعلم ، وأما المؤمن فكف عما لا يعلم في شأن ربه و لم يتقول على الله ما لا يعلمه . وأما قوله (فبهذا يتبين لك أن الكافر عرف الله من وجه ، وجهله من وجوه) كلام ينبغي التوقف فيه جداً ، إذ يقصد أن هذه المعرفة التي عرفها هذا الكافر بشأن الله عز وجل هي معرفة من وجه واحد ، و لم يكفه حتى يعد مؤمناً بالله لأنه يجب عليه أن يعرف الله عز وجل كما عرفه المؤمن ، فيثبت لله عز وجل الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وينفي عنه النقص في الجملة ، ولا يقول على الله ما لا يعلم .

مما سبق يتبين لك أنه ليس هناك خلاف بين العلماء في أن من آمن بأن الله خالقه ورازقه مع جهله كمال الله عز وجل في صفاته وأفعاله أنه لا يعد من أهل الإيمان ، وإنما اختلفوا فيما إذا كان الكافر

---

[1] سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/٥٤٦-٥٤٧) .

الذي يؤمن بأن الله خالقه ورازقه ولكن يجهل أن له الكمال المطلق في صفاته وأفعاله هل يعد عارفاً بالله عز وجل مع عدم إيمانه به أم لا يعد عارفاً به نهائياً ، فتأمل .

وأما احتجاجهم بأنهم لو اتبعوا الحق وانقادوا له فإن ذلك سيحتم عليهم تكفير علماء عظام لأنهم خالفوا في هذه المسألة بزعمهم .

فنقول لهم بتوفيق الله عز وجل : قال الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ) : (لا تقلدوا دينكم الرجال إن آمنوا آمنتم وإن كفروا كفرتم) [(١)] . فادرسوا المسألة جيداً بأدلتها ، ومن ثم زنوا بهذا الميزان الرجال كل الرجال حاشا النبي المعصوم عليه الصلاة والسلام ، فاعرفوا الحق تعرفوا أهله ، ولا تعرفوا الحق بالرجال ، وأما ادعاؤكم أن علماء عظام خالفوا في هذه المسألة فهذا الوهم يرجع إلى سببين :

الأول : قرأتم أقوالاً غير صريحة لهم وفهمتموها فهماً خاطئًا ، ولو أرجعتموها إلى المحكم من أقوالهم لتبين لكم قصدهم .

الثاني : قرأتم أقوالاً صريحة لهم لا تصح نسبتها لهم ، وضعها عليهم الزنادقة أعداء الإسلام ، وهي قليلة ، ولو رجعتم إلى أقوالهم الأخرى لرأيتم التناقض الواضح ، وهي كثيرة بفضل الله عز وجل.

هذا كله طبعاً على فرض أننا نتكلم عن العلماء المعتبرين علماء أهل السنة والجماعة . وسيأتي التنبيه على الأقوال غير الصريحة في المعنى في ثنايا هذا الجزء بحول الله تعالى ، وأما الأقوال غير الصحيحة في النسبة فسيأتي بيانها في الجزء الثاني من هذه الرسالة بتوفيق اللطيف المنان سبحانه وتعالى .

وأما احتجاجهم أن كمال الصفات إنما بينت بالقرآن الكريم ، وأن من لم يصله القرآن كيف يكفر على شيء لا يعرفه إلا بالقرآن الكريم ؟

فنقول بحول الله تعالى : وكذلك صفة الخلق أتت في القرآن الكريم ، فهل نقول إن من جهل أن الله عز وجل هو الخالق ممن لم يصله القرآن لا يكفر إلا إذا بلغه القرآن ؟! وكيف أصلاً ثبت له حكم الإيمان ابتداءً ؟! بل إن إفراد الله بالحكم والتشريع والطاعة والدعاء والاستغاثة قد جاء في القرآن الكريم أيضاً ، فهل ستعذرون من صرفها لغير الله تعالى جهلاً منه كما عذرتم من جهل استحقاق الله للكمال في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ؟!

فاعلموا أن للتوحيد أصلاً وللإيمان بالله عز وجل حقيقة واضحة ، كل من لم يحققه سواء بلغه القرآن أم لم يبلغه أو كان في أعالي جبال أفرست وأعماق أدغال الأمازون لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله عز وجل . فالتوحيد لا يثبت بالجهل ابتداءً وإنما يثبت بالعلم الذي يتبعه الالتزام والانقياد .

والعلم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينقسم من حيث الجملة إلى قسمين :

[(١)] مختصر المؤمل في الرد إلى الأمر الأول لأبي شامة المقدسي ، ص ٦٢ .

الأول : علم الأصل : وهو العلم الذي طالب به الناس حتى يكونوا من جملة المسلمين وهو أن يعلموا أنه لا إله إلا الله علما يقترن به العمل والانقياد ، ويعلموا أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علماً يتبعه المتابعة فيؤمنوا بكل ما جاء به.

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (وقال سائر أهل الإسلام : كل من اعتقد بقلبه اعتقاداً لا يشك فيه ، وقال بلسانه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن كل ما جاء به حق ، وبريء من كل دين سوى دين محمد صلى الله عليه وسلم فإنه مسلم مؤمن ، ليس عليه غير ذلك) [(١)] .

الثاني : ما سوى ذلك من علوم الوحي الذي يتعلمونه بعد ذلك ولا يعتبر جهله ناقضاً للأصل الذي به استحقوا اسم الإسلام .

فما كان طولبوا به أولاً حتى يعتبروا مسلمين لا يمكن أن يعذروا فيه بالجهل ، إذ لا يتحقق إسلامهم إلا بالعلم اليقيني به . وأما العلوم الأخرى التي يتعلمونها بعد ذلك عن طريق الوحي فيعذرون فيها بالجهل والتأويل لأن جهلهم بها أو تأويلهم لها **لا ينقض الأصل الذي به دخلوا في الإسلام وبه صح إسلامهم وبه اعتبروا من أهل الإسلام** .

فالعلم الذي أتت به الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم قسمان علم أصول وعلم فروع كما أشار لذلك الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) حيث قال : (العلوم الشرعية قسمان : علم الأصول وعلم الفروع .

أما علم الأصول : فهو معرفة الله سبحانه وتعالى بالوحدانية وبالصفات وتصديق الرسل ، فعلى كل مكلف معرفته ولا يسع فيه التقليد لظهور آياته ووضوح دلائله ، قال تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (محمد: ١٩) ، وقال الله سبحانه : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ (فصلت: ٥٣) .

وأما علم الفروع : فهو علم الفقه ومعرفة أحكام الدين ، فينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية) [(٢)].قلت بحول الله تعالى : وهنا نكتة نريد الإشارة إليها علّها تعود بهؤلاء المتناقضين إلى رشدهم حيث أنه لو أمعن النظر هؤلاء المتربصون بالتوحيد المبطلون لحقائق الدين لعلموا أن الذي ذهبوا إليه هو من أدلّ الأدلة على بطلان مذهبهم الفاسد وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على ظنهم سذاجة من يقصدونهم ويتوجهون إليهم بهذا الكلام إذ كيف يريدون الجمع بين المتضادات حيث أن العلم شرط في صحة التوحيد ، وهو ما أجمع عليه أهل العلم قاطبة ، ثم يجعلون من ضده والذي هو الجهل مانعاً من

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٦٧/٤) .

(٢) شرح السنة للبغوي (١٩٩/١-٢٠٠) .

الخروج منه في نفس ما اشترطوا له العلم ، فيلزمهم من هذا القول إما أهم لا يقصدون بالمسائل التي اشترط أهل العلم لها العلم حتى يدخلون في الإسلام ابتداء أو أهم متناقضون يريدون أن يجعلوا من ضد ما هو شرط مانعاً في ذات الأمر وهذا ما لا يستقيم ولا يقول به عاقل فضلاً عن مسلم .

قال سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٧هـ) : (إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر ... ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم ونوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .

لقد كان يعني دائماً : الدينونة لله وحده ؛ بالتزام ما شرعه ، ورفض ما يشرعه غيره . وإفراده سبحانه بالألوهية في الأرض مثل إفراده بالألوهية في السماء ؛ وتقرير ربوبيته وحده للناس : أي حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره . وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في « دين الله » ومن هم في (دين الملك) أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه . أو يشركون فيدينون لله في الاعتقاد والشعائر ، ويدينون لغير الله في النظام والشرائع !

وهذا من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن **بديهيات العقيدة الإسلامية تماماً** .

وبعض المترفقين بالناس اليوم يتلمسون لهم عذراً في أهم يجهلون مدلول كلمة « دين الله » وهم من ثم لا يصرون ولا يحاولون تحكيم شريعة الله وحدها بوصفها هي « الدين » . وأن جهلهم هذا بمدلول الدين يعفيهم من أن يكونوا جاهليين مشركين !

وأنا لا أتصور كيف أن جهل الناس ابتداء بحقيقة هذا الدين يجعلهم في دائرة هذا الدين !

إن الاعتقاد بحقيقة فرع عن معرفتها . فإذا جهل الناس حقيقة عقيدة فكيف يكونون معتنقين لها ؟! وكيف يحسبون من أهلها وهم لا يعرفون ابتداءً مدلولها ؟!

إن هذا الجهل قد يعفيهم من حساب الآخرة [(١)] ، أو يخفف عنهم العذاب فيها ؛ ويلقي بتبعاتهم وأوزارهم على كاهل من لا يعلموهم حقيقة هذا الدين وهم يعرفوها ... ولكن هذه مسألة غيبية متروك أمرها لله [(٢)] ، والجدل في الجزاء الأخروي لأهل الجاهلية عامة ليس وراءه كبير طائل . وليس هو الذي يعنينا نحن البشر الذين ندعو إلى الإسلام في الأرض !

[(١)] وذلك إن كانوا ممن لم تقم عليهم الحجة الرسالية ، لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ۝ ﴾ (الإسراء: ١٥)

[(٢)] قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) في طريق الهجرتين ، ص ٦١٠ : (والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل ، فهذا مقطوع به في جملة الخلق ، وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا فذلك ما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه ، **بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر** ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول ، هذا في

إن الذي يعنينا هو تقرير حقيقة الدين الذي فيه الناس اليوم ... أنه ليس دين الله قطعاً . فدين الله هو نظامه وشرعه وفق النصوص القرآنية الصريحة . فمن كان في نظام الله وشرعه فهو في « **دين الله** » . ومن كان في نظام الملك وشرعه فهو في « دين الملك » . ولا جدال في هذا .

والذين يجهلون مدلول الدين لا يمكن أن يكونوا معتقدين بهذا الدين . لأن الجهل هنا وارد على أصل حقيقة الدين الأساسية . والجاهل بحقيقة هذا الدين الأساسية لا يمكن عقلاً وواقعاً أن يكون معتقداً به . إذ الاعتقاد فرع عن الإدراك والمعرفة . . وهذه بديهية . .

وخير لنا من أن ندافع عن الناس وهم في غير دين الله ونتلمس لهم المعاذير ، ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر مدلول دينه وحدوده ! . .

خير لنا من هذا كله أن نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول « دين الله » ليدخلوا فيه . . أو يرفضوه . . هذا خير لنا وللناس أيضاً . . خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا الدين ، الذين **ينشأ عن جهلهم به عدم اعتناقه في الحقيقة** . . وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه وأنهم في دين الملك لا في دين الله قد تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن دين الملك إلى دين الله !

كذلك فعل الرسل عليهم صلوات الله وسلامه وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان . .) [1] .

أما مسألة هل كل من لم يحقق التوحيد بسبب جهله وعدم بلوغ الرسالة إليه معذب في الآخرة أم لا ، فهذه مسألة أخرى غير الأولى ، فهذه مسألة المشرك الكافر الجاهل الذي لم تصله الرسالة هل هو معذب أم أن الله عز وجل لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل ؟! فيه قولين للعلماء .

قال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (١٢٧٦-١٣١٩هـ) : (بل أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة والقرآن ، وماتوا على الجاهلية لا يسمون مسلمين بالإجماع ، ولا يستغفر لهم ، وإنما اختلف أهل العلم في تعذيبهم) [2].

قال محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ) : (اعلم أولا : أن من لم يأته نذير في دار الدنيا ، وكان كافراً حتى مات ، اختلف العلماء فيه : هل هو من أهل النار لكفره ، أو هو معذور لأنه لم يأته نذير ؟

الجملة والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه هذا في أحكام الثواب والعقاب ، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر) اهـ .

[1] في ظلال القرآن لسيد قطب (م٤/ج١٣/ص٢٠٢١-٢٠٢٢) .

[2] حكم تكفير المعين ، الرسالة السادسة من كتاب عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين ، ص ١٥١ .

كما أشار له في مراقي السعود بقوله :

ذو فترة بالفرع لا يراع وفي الأصول بينهم نزاع) [1] . اهـ

ومن هذا الاختلاف السابق نشأ الخلاف حول إذا ما كان الإنسان يستطيع التوصل لمعرفة توحيد الله عز وجل بعقله قبل وصول الرسالة إليه أم لا ، وفيه قولان أيضاً . وقد ييسر الله سبحانه وتعالى جمع الأقوال في المسألة وبسط الكلام في حقيقة الخلاف وأسبابه والفصل فيه في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى . لكن لتعلم أن الخلاف حول ما إذا كان الإنسان يستطيع التوصل لمعرفة توحيد الله عز وجل بعقله قبل وصول الرسالة إليها لا علاقة له في مسألة الحكم على هذا الجاهل الذي لم تصله الرسالة و لم يوحد الله عز وجل ، فالكل مجمع على أنه لا يعد موحداً من جهل توحيد الله عز وجل .

وأما احتجاجهم بأن معرفة كمال صفات الله عز وجل هي من توحيد الأسماء والصفات ، وأن توحيد الأسماء والصفات متعلق بالأخبار ، وتسويتهم بين من جهل صفة اليد بمن جهل كمال صفات الله عز وجل فهذا من الخلط العجيب .

فنقول لهم بحول الله تعالى : إن تقسيم التوحيد إلى قسمين أو ثلاثة تقسيم وضعه العلماء ، لتسهيل تعليم التوحيد ، وإن كان التوحيد في حقيقته واحداً لا يتجزأ ، وهذه الأقسام التي قسمها العلماء لها أدلة من الكتاب والسنة وليس هذا موضع البسط .

فمنشأ هذه الشبهة عدم فهمهم لتوحيد الأسماء والصفات ، فتوحيد الله بأسمائه وصفاته المقصود منه باختصار شديد ومفيد أن تعتقد أن الله واحد في أسمائه وصفاته ، وهذا التوحيد يتعلق بنوعين من الصفات :

الأول : الصفات التي لا يتصور ربوبية الله إلا بها ، فيجب أن تعتقد أن الله واحد في تلك الصفات ، لا يشابهه ولا يماثله أحد في تلك الصفات وأنه لا يتطرق إليها النقص بحال .

الثاني : الصفات الخبرية التي لا يضر جهلها قدحاً أو جهلاً في ربوبية الله للعالمين ، فيجب أن تعتقد أن الله واحد في تلك الصفات حتى لو لم تعرف هذه الصفات ، أي تقر بأن كل صفة لله عرفتها أم لم تعرفها فإن الله عز وجل واحد في ذلك لا يشابهه ولا يماثله أحد في تلك الصفات وأنه لا يتطرق إليها النقص بحال .

إذا فتوحيد الأسماء والصفات يبحث في كيفية الإيمان بأسماء الله وصفاته ، أي أن الإنسان عند معرفته لربه يؤمن بأنه واحد في ربوبيته لا شبيه له ولا مثيل في ذلك ، ومن ثم إذا وصله نص من كتاب أو سنة بصفة من صفات ربه عز وجل أو اسم من أسمائه سبحانه يجب عليه أن يثبت ذلك ويؤمن به من غير تشبيه أو تمثيل بصفات المخلوقين . فتوحيد الأسماء والصفات متحقق بالجملة في كل موحد ولا يعتبر

---

[1] دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب ، ص١٨٠ .

موحداً إلا به . لكن معرفة ما يتعلق بهذا التوحيد بمعنى معرفة صفات الله عز وجل فهو متوقف على الشرع ووصول الخبر . ولكن أي الصفات هي المقصودة هنا ؟ طبعاً هي الصفات التي لا يعني جهلها جهلاً بالله عز وجل وأنه رب العالمين . فتوحيد الأسماء والصفات وضعه العلماء لبيان كيفية الإيمان بأسماء وصفات الله كلها سواء كانت صفات الربوبية أو صفات الألوهية أو الصفات التي لا تعلم إلا بالخبر كاليد والاستواء .

وأما مطالبتهم لنا بالدليل من الكتاب والسنة على أن جاهل كمال صفات الله عز وجل لا يعد مؤمناً موحداً عارفاً بربه جل جلاله ، فقد سبق بيان ذلك في هذا الفصل ، وفي المقدمة الثالثة من هذه الرسالة فراجعه غير مأمور .

فإذا اعترضوا علينا بأننا تفردنا بفهم هذه الأدلة على هذا النحو فليراجعوا رسالة منجدة الغارقين ومذكرة الموحدين فإننا ذكرنا فيها كثيراً من أقوال أهل العلم في شرح الأدلة من الكتاب والسنة لكي يعلموا أننا لم نبتدع وأن فهمنا موافق لفهم العلماء ، وبالله التوفيق .

نسأل الله عز وجل أن يبصر كل من يريد الحق بالحق في هذه المسألة وفي غيرها من المسائل ، ويرزقه الانقياد للحق الذي استبان له ، ويمن عليه بعد ذلك بالدعوة إلى هذا الحق . إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهو على كل شيء قدير .

الباب الثالث

تتريه الأنبياء والأولياء من مقالات السفهاء وحثالة الأغبياء

" لكي توقن ببطلان عقيدة المدافعين عن أسلمة المشركين بحجة أنهم جاهلين ، والمدافعين عن إيمان من جهل كمال صفات الله عز وجل ، يكفيك أن تعرف أنهم ينسبون جهل أبسط معاني العقيدة إلى الأنبياء وصحابتهم وحواريهم لكي يستدلوا على صحة إفكهم ، فإليك دمغ جملة من حججهم الداحضة وبضاعتهم المزجاة " .

الفصل الأول :

تتريه إمام الحنفاء إبراهيم ورسولنا محمد عليهم الصلاة والسلام

إن إمام الموحدين الحنفاء وأبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة السلام والذي اتخذه الله سبحانه وتعالى خليلاً ، قد عاين عظيم قدرة الله عز وجل وهو فتى لما ألقاه قومه في النار فكانت عليه برداً وسلاماً ، ومع كل هذا يأتي السفهاء فيقولون أنه شك في قدرة الله عز وجل ، واستدلوا بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

و لم يكتف السفهاء بذلك بل تمادوا في باطلهم حتى قالوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم شك في قدرة الله عز وجل أيضاً واستدلوا في ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام :

« **نَحْنُ أَحَقُّ بالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة:٢٦٠) » [1] .

فاللهم إليك المشتكى من هذا الظن الذي يردي ، وهذا الفهم الذي يخزي ، وهذه العقول التي لا تجدي نفعاً لأصحابها .

قلت بحول الله تعالى : أما طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الله عز وجل أن يريه كيف يحيي الله الموتى ، فهو لم يسأل قط عن القدرة هنا وإنما سأل عن الكيفية ، والله سبحانه وتعالى برَّأه في نفس الآية عن الشك في القدرة وذلك لما سأله وقال له : ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِنْ** ﴾ فأجاب إبراهيم عليه السلام : ﴿ **بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ ، فهذه الآية لا إشكال فيها أصلاً ، وإنما يقال لماذا طلب إبراهيم عليه السلام من ربه عز وجل أن يريه كيفية إحياء الموتى ؟ فإليك أقوال العلماء في شرح ذلك :

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (وأما قوله عليه السلام : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ فلم يقرره ربنا عز وجل وهو يشك في إيمان إبراهيم عبده وخليله ورسوله عليه السلام ، تعالى الله عن ذلك ، ولكن تقرير الإيمان في قلبه وإن لم ير كيفية إحياء الموتى ، فأخبر عليه السلام عن نفسه أنه مؤمن مصدق وإنما أراد أن يرى الكيفية فقط ويعتبر بذلك ، وما شك إبراهيم عليه السلام في أن الله تعالى يحيي الموتى وإنما أراد أن يرى

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب التفسير / باب ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠)) ، ط. المكنز (ص ١٢٣٦ ، حديث رقم ٤٥٣٧) ، الطبعة السلطانية (٣١/٦) .

الهيئة كما أننا لا نشك في صحة وجود الفيل والتمساح والكسوف وزيادة النهر والخليفة ثم يرغب من لم ير ذلك منا في أن يرى كل ذلك ولا يشك في أنه حق لكن ليرى العجب الذي يتمثله في نفسه و لم تقع عليه حاسة بصره فقط) ... إلى أن قال : (**ومن نسب ها هنا إلى الخليل عليه السلام الشك فقد نسب إليه الكفر** ، **ومن كفر نبياً فقد كفر** ، وأيضاً فإن كان ذلك شكاً من إبراهيم عليه السلام ، وكنا نحن أحق بالشك منه فنحن إذا شكاك جاحدون كفار ، وهذا كلام نعلم والحمد لله بطلانه من أنفسنا ، بل نحن ولله الحمد مؤمنون مصدقون بالله تعالى وقدرته على كل شيء)[(١)] .

قال الإمام ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) رحمه الله : (وتأويل قول إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ أي يطمئن بيقين النظر . واليقين جنسان : أحدهما يقين السمع ، والآخر يقين البصر . ويقين البصر أعلى اليقينين)[(٢)] .

قال عضد الدين الإيجي (ت: ٧٥٦هـ) : (قوله ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) ، **والشك في قدرة الله على إحياء الموتى كفر** ، والجواب : إن ذلك السؤال لم يكن عن شك في الإحياء أو القدرة عليه ، بل في الآية تصريح بأنه طلبه لأن في عين اليقين من الطمأنينة ما ليس في علم اليقين)[(٣)] .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (وَقَالَ عِيَاض : لَمْ يَشُكَّ إِبْرَاهِيم بِأَنَّ اللَّه يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَلَكِنْ أَرَادَ طُمَأْنِينَة الْقَلْب وَتَرْك الْمُنَازَعَة لِمُشَاهَدَةِ الإِحْيَاء فَحَصَلَ لَهُ الْعِلْم الأَوَّل بِوُقُوعِهِ ، وَأَرَادَ الْعِلْم الثَّانِي بِكَيْفِيَّتِهِ وَمُشَاهَدَته ، وَيُحْتَمَل أَنَّهُ سَأَلَ زِيَادَة الْيَقِين وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الأَوَّل شَكٌّ ، لأَنَّ الْعُلُوم قَدْ تَتَفَاوَت فِي قُوَّتهَا فَأَرَادَ التَّرَقِّي مِنْ عِلْم الْيَقِين إِلَى عَيْن الْيَقِين وَاللَّهُ أَعْلَمُ)[(٤)] .

قال أبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥هـ) : (وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء ، ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب ، وأخبر به نمرود)[(٥)] .

وقال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (وَأَمَّا سُؤَال إِبْرَاهِيم صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ الْعُلَمَاء فِي سَبَبه أَوْجُهًا أَظْهَرهَا أَنَّهُ أَرَادَ الطُّمَأْنِينَة بِعِلْمِ كَيْفِيَّة الإِحْيَاء مُشَاهَدَة بَعْد الْعِلْم بِهَا اِسْتِدْلالاً ، فَإِنَّ عِلْم الاسْتِدْلال قَدْ تَتَطَرَّق إِلَيْهِ الشُّكُوك فِي الْجُمْلَة بِخِلاف عِلْم الْمُعَايَنَة فَإِنَّهُ ضَرُورِيّ وَهَذَا مَذْهَب الإِمَام أَبِي مَنْصُور الأَزْهَرِيّ وَغَيْره .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١٨/٤) .
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، ص ٩٧ .
(٣) كتاب المواقف للإيجي (٤٣٥/٣) .
(٤) فتح الباري لابن حجر (٤٧٥/٦) .
(٥) تفسير البحر المحيط (٣٠٨/٢) .

وَالثَّانِي : أَرَادَ اخْتِبَار مَنْزِلَته عِنْد رَبِّه فِي إِجَابَة دُعَائِهِ وَعَلَى هَذَا قَالُوا : مَعْنَى قَوْله تَعَالَى ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِنْ** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) أَيْ تُصَدِّق بِعظَم مَنْزِلَتك عِنْدِي وَاصْطِفَائِك وَخُلَّتك .

وَالثَّالِث : سَأَلَ زِيَادَة يَقِين وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الأَوَّل شَكًّا فَسَأَلَ التَّرَقِّي مِنْ عِلْم الْيَقِين إِلَى عَيْن الْيَقِين ؛ فَإِنَّ بَيْنَ الْعِلْمَيْنِ تَفَاوُتًا ، قَالَ سَهْل بْن عَبْد اللَّه التُّسْتُرِيّ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ : (سَأَلَ كَشْف غِطَاء الْعِيَان لِيَزْدَادَ بِنُورِ الْيَقِين تَمَكُّنًا) .

وَالرَّابِع : أَنَّهُ لَمَّا احْتَجَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ رَبّه سُبْحَانه وَتَعَالَى يُحْيِي وَيُمِيت طَلَبَ ذَلِكَ مِنْهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى لِيُظْهِرَ دَلِيله عِيَانًا . وَقِيلَ أَقْوَال أُخَر كَثِيرَة لَيْسَتْ بِظَاهِرَة .

قَالَ الإِمَام أَبُو الْحَسَن الْوَاحِدِيّ رَحِمَهُ اللَّه : اخْتَلَفُوا فِي سَبَب سُؤَاله فَالأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ رَأَى جِيفَة بِسَاحِلِ الْبَحْر يَتَنَاوَلهَا السِّبَاع وَالطَّيْر وَدَوَابّ الْبَحْر فَتَفَكَّرَ كَيْف يَجْتَمِع مَا تَفَرَّقَ مِنْ تِلْكَ الْجِيفَة ؟ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسه إِلَى مُشَاهَدَة مَيِّت يُحْيِيه رَبُّه وَلَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِحْيَاء الْمَوْتَى ، وَلَكِنْ أَحَبَّ رُؤْيَة ذَلِكَ ، كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُحِبُّونَ أَنْ يَرَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْجَنَّة ، وَيُحِبُّونَ رُؤْيَة اللَّه تَعَالَى مَعَ الإِيمَان بِكُلِّ ذَلِكَ وَزَوَال الشُّكُوك عَنْهُ) [١] .

ولقد لخص الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) أقوال العلماء في سبب سؤال خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال : (قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) في سبب سؤاله هذا أربعة أقوال .

أحدها : أنه رأى ميتة تمزقها الهوام والسباع ، فسأل هذا السؤال ، وهذا قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وعطاء الخراساني ، وابن جريج ، ومقاتل . وما الذي كانت هذه الميتة ؟ فيه ثلاثة أقوال . أحدها : كان رجلاً ميتاً ، قاله ابن عباس . والثاني : كان جيفة حمار ، قاله ابن جريج ، ومقاتل . والثالث : كان حوتاً ميتاً ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه لما بشر باتخاذ الله له خليلاً ، سأل هذا السؤال ليعلم صحة البشارة ، ذكره السدي عن ابن مسعود ، وابن عباس . وروي عن سعيد بن جبير أنه لما بشر بذلك ، قال : ما علامة ذلك ؟ قال : أن يجيب الله دعاءك ، ويحيي الموتى بسؤالك ، فسأل هذا السؤال .

والثالث : أنه سأل ذلك ليزيل عوارض الوسواس ، وهو قول عطاء ابن أبي رباح .

والرابع : أنه لما نازعه نمرود في إحياء الموتى ، سأل ذلك ليرى ما أخبر به عن الله ، وهذا قول محمد بن إسحاق) [٢] .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (١٨٤/٢) .

[٢] تفسير ابن الجوزي (٣١٣/١) .

قلت بحول الله تعالى : واعلم أنه حتى الشك في نفس إحياء الموتى منفي عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فإحياء الموتى وليس القدرة على ذلك يعلم بالشرع نعم ، ولكن مع هذا فهو منفي عن إبراهيم عليه السلام ، وتوضيح هذا أن الشك الذي نسبه السفهاء إلى إبراهيم عليه السلام في إحياء الموتى لا بد أن يكون على أحد وجهين :

الوجه الأول : إما أهم يقولون أنه شك في إحياء الموتى لأنه لم يكن يعلم ذلك و لم يرده بذلك شرع ، وهذا باطل لأسباب :

السبب الأول : إن البعث من أظهر ما يقترن بدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وحتى أهل الجاهلية كانوا يعلمون ذلك فكيف يجهله من وظيفته تبليغ الناس وتذكيرهم بيوم الحساب فالرسول إنما يرسل مبشراً بالجنة ومنذراً بالنار ؟! قال تعالى : ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** ﴾ (الأنعام: ٤٨)

السبب الثاني : إن إبراهيم عليه السلام كان يعلم ذلك لقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ (البقرة: ٢٥٨)

قال الإمام أبو عبد الله ابن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ناقلاً عن ابن عطية (٤٤١-٥١٨هـ) : (وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع ، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به يدلك على ذلك قوله : ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ ، فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة) [(١)] .

السبب الثالث : لو كان جاهلاً في نفس إحياء الموتى لما كان السؤال على هذا النحو ، لأنه سأل عن كيفية أمر معلوم لديه .

الوجه الثاني : إما أهم يقولون أنه شك في إحياء الموتى بعد أن علم ذلك ، وهذا الشك شك في أخبار الله تعالى وهو كفر بلا شك وهو منفي عن إبراهيم عليه السلام .

إذا علمت ذلك فإن العلماء في معرض حديثهم حول هذا الموضوع بعضهم ينفي شك إبراهيم عليه السلام في قدرة الله وبعضهم ينفي الشك عن إبراهيم عليه السلام في نفس إحياء الموتى ، وكلا الشكين منفي عن إبراهيم عليه السلام ، فتنبه .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ناقلاً عن ابن عطية (٤٤١-٥١٨هـ) : (وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الاستفهام بـ (كيف) إنما هو سؤاله عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسؤول ونحو قولك : كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا ومتى قلت : كيف ثوبك ؟ وكيف زيد ؟ فإنما السؤال عن حال من

---

(١) تفسير القرطبي (٣١١/٤) .

أحواله وقد تكون (كيف) خبراً عن شيء شأنه أن يستفهم عنه بكيف نحو قولك كيف شئت فكـن ونحو قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ، و (كيف) في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عـن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح مثال ذلـك أن يقـول مدع : أنا أرفع هذا الجبل فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه ! فهذه طريقة مجاز في العبارة ومعناهـا تسليم جدلي كأنه يقول : افرض أنك ترفعه فأرني كيف ترفعه ! فلما كانت عبارة الخليل عليه السـلام بهذا الاشتراك المجازي خلص الله له ذلك وحمله على أن بين له الحقيقة فقال له : ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) فكمل الأمر وتخلص من كل شك ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة .

قلت : هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك **فإنه كفر** ، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث ، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ (الحجر: ٤٢) ، وقـال اللعـين : ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝** ﴾ (الحجر: ٤٠) ، وإذا لم يكن له عليهم سلطنة فكيف يشككهم ؟! وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فـأراد أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فقوله : ﴿ **أَرِنِي كَيْفَ** ﴾ (البقـرة: ٢٦٠) ، طلـب مـشاهدة الكيفية) [1] .

فإن قلت : فما توجيه العلماء لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **نَحْنُ أَحَقُّ بالـشَّكِّ مِـنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِـي** ﴾ (البقرة:٢٦٠) » [2] ؟

قلت بحول الله تعالى : ليس الشك في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما فهمه السفهاء بـلا خلاف كما قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِـنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة:٢٦٠) » ، وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحيى عن ابن وهب به ، **فليس المراد هاهنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده ، بلا خلاف**) [3] .

وللعلماء تأويلات عديدة لكلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولسبب مقولته تلك :

---

[1] تفسير القرطبي (٣١١/٤-٣١٢) .

[2] صحيح البخاري ، كتاب التفسير / باب ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) ، ط. المكتر (ص ١٢٣٦ ، حديث رقم ٤٥٣٧) ، الطبعة السلطانية (٣١/٦) .

[3] تفسير ابن كثير (٦٨٩/١) .

الأول : قالوا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك لنفي الشك عن إبراهيم عليه السلام مقدماً إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام على نفسه من باب التواضع . وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك دفعاً للأفهام الفاسدة من أن يتطرق إليها هذا التأويل الفاسد .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (فَتَأَمَّلْنَا قَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ إذْ قَالَ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** » فَوَجَدْنَا إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي نَفْسِهِ الآيَةَ الَّتِي لَمْ يَرَ مِثْلَهَا ، وَهُوَ إلْقَاءُ أَعْدَائِهِ إيَّاهُ فِي النَّارِ فَلَمْ تَعْمَلْ فِيهِ شَيْئًا لِوَحْيِ اللَّهِ إلَيْهَا ﴿ **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ۞﴾ (الأنبياء: ٦٩) فَكَانَتْ آيَةً مُعْجِزَةً لَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَبْلَهَا وَلاَ بَعْدَهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِيَنْفِيَ الشَّكَّ عَنْ إبْرَاهِيمَ عِنْدَ قَوْلِهِ ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) أَيْ : إنَّا وَلَمْ نَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الآيَةَ الَّتِي أُرِيَهَا إبْرَاهِيمُ فِي نَفْسِهِ لاَ نَشُكُّ ، فَإِبْرَاهِيمُ مَعَ رُؤْيَتِهِ إيَّاهَا فِي نَفْسِهِ أَحْرَى أَنْ لاَ يَشُكَّ) (١) .

وابن قتيبة أيضاً يرى أن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم كان : (تواضعاً منه وتقديماً لإبراهيم على نفسه يريد أنا لم نشك ونحن دونه فكيف يشك هو) (٢) .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (وأما ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ** » **فمن ظن أن النبي صلى الله عليه و سلم شك قط في قدرة ربه عز وجل على إحياء الموتى فقد كفر** ، وهذا الحديث حجة لنا على نفي الشك عن إبراهيم أي لو كان الكلام من إبراهيم عليه السلام شكا لكان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم عليه السلام أحق بالشك فإذا كان من لم يشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم غير شاك فإبراهيم عليه السلام أبعد من الشك) (٣) .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ناقلاً عن ابن عطية الغرناطي (٤٤١-٥١٨هـ) : (وأما قول النبي صلى الله عليه و سلم : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إبْرَاهِيمَ** » فمعناه أنه لو كان شاكًّا لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك ، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم) (٤) .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (وقيل معناه : (إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك) أي لو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم وقد علمتم أني لم

(١) شرح مشكل الآثار للطحاوي ، ص ٢٩٨-٢٩٩ .
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، ص ٩٧ .
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (١٨/٤) .
(٤) تفسير القرطبي (٣١٠/٤-٣١١) .

أشك فاعلموا أنه لم يشك ، وإنما قال ذلك تواضعاً منه أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم) [١] .

قال الإمام محيي الدين يحيي بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي مَعْنَى « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » عَلَى أَقْوَال كَثِيرَة أَحْسَنهَا وَأَصَحّهَا مَا قَالَهُ الإِمَام أَبُو إِبْرَاهِيم الْمُزَنِيُّ صَاحِب الشَّافِعِي وَجَمَاعَات مِنْ الْعُلَمَاء : مَعْنَاهُ أَنَّ الشَّكّ مُسْتَحِيل فِي حَقّ إِبْرَاهِيم ، فَإِنَّ الشَّكَّ فِي إِحْيَاء الْمَوْتَى لَوْ كَانَ مُتَطَرِّقًا إِلَى الأَنْبِيَاء لَكُنْت أَنَا أَحَقّ بِهِ مِنْ إِبْرَاهِيم ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي لَمْ أَشُكّ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ إِبْرَاهِيم عَلَيْهِ السَّلَام لَمْ يَشُكّ ، وَإِنَّمَا خُصَّ إِبْرَاهِيم صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَوْنِ **الآيَة قَدْ يَسْبِق إِلَى بَعْض الأَذْهَان الْفَاسِدَة مِنْهَا احْتِمَال الشَّكّ** ، وَإِنَّمَا رَجَعَ إِبْرَاهِيم عَلَى نَفْسه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَاضُعًا وَأَدَبًا أَوْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَم صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ خَيْر وَلَد آدَم) [٢] .

قال الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) : (وقال الإمام المزي معناه لو كان الشك متطرقاً إليه لكنت أحق به ، وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه كذلك ، وإنما رجح إبراهيم علي نفسه تواضعاً أو لصدوره قبل أن يعلم أنه خير ولد آدم) [٣] ... إلى أن قال : (ومعناه ما ذكرناه أي لم يكن صدور هذا السؤال منه شكا من إبراهيم واختلج في صدره إذ لو كان الشك يعتريه لنحن أحق بالشك منه ولكنا لا نشك فكيف يجوز أن يشك هو فيه . أقول : المراد بقوله (نحن) ليس صيغة التعظيم ليحتاج إلى الاعتذار بأنه قال ذلك تواضعاً لإبراهيم ، بل المعنى أني مع أمتي لا نشك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، **بل نحن معاشر الخلق من سائر الأمم غالباً نعتقد قدرته على الإحياء** ، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام من أكمل الأنبياء في مرتبة التوحيد ومقام التفريد حتى أمرنا بمتابعته على طريقه القويم وسبيله المستقيم [٤] فكيف يتصور منه الشك ؟! إذ لو جاز عليه الشك وهو من المعصومين المتبوعين لجاز لنا بالأولى ونحن من اللاحقين التابعين ، والحاصل أنه أراد بالدليل البرهاني نفي الشك عن الخليل الرحماني وإيصاله إياه إلى المقام الاطمئناني والحال العياني) [٥] .

قال الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) : (وقال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم ، لكن فيه نفي الشك عنهما ، يقول : إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس ، وكذلك قوله : « **وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا**

---

[١] فتح الباري لابن حجر (٦/٤٧٥) .

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي (٢/١٨٣) .

[٣] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/٦٢٨) .

[٤] وذلك في قوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ۝ ﴾ (النحل: ١٢٣)

[٥] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/٦٨٣) .

لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي »[1] ، وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال)[2] .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وقول نبينا صلى الله عليه وسلم « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » نفي لأن يكون إبراهيم شك ، وإبعادٌ للخواطر الضعيفة أن تظن هذا بـإبراهيم ، أي نحن موقنون بالبعث وإحياء الله الموتى ، فلو شك إبراهيم لكنا أولى بالشك منه)[3] .

قال أبو الوليد ابن رشد القرطبي (٤٥٠-٥٢٠هـ) : (... ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ** ﴾ (الزمر: ١٤-١٥) ، فظاهر هذا الكلام الأمر بعبادة ما شاءوا من دون الله ، والمراد به النهي عن ذلك والوعيد عليه ، ومنه قوله تعالى لإبليس : ﴿ **وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ۝** ﴾ (الإسراء: ٦٤) ، فظاهره أيضاً الأمر ، والمراد به النهي والوعيد عليه ، ومن ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » ، فظاهر هذا الكلام من النبي صلى الله عليه وسلم الإخبار بتحقيق الشك عليه في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، إذ شك إبراهيم في ذلك ، والمراد به تحقيق نفي الشك عن إبراهيم ، إذ لا يشك هو في ذلك ، **فلو لم يعدل بهذه الألفاظ الواردة في القرآن والسنن وما شاكلهما عن ظاهرها بالتأويل إلى ما يصح من معانيها لعاد الإسلام شركاً والدين لعباً**)[4] .

الثاني : قالوا أن معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (نحن أحق بالشك في أن الله يجيب طلبنا) وأنه صلى الله عليه وآله وسلم قال ذلك مقدماً إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام على نفسه من باب التواضع .

قال الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) : (حكى محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال على هذا الحديث ، لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا)[5] .

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء / باب قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝** ﴾ (الحجر: ٥١) ، ط. المكنز (ص ٩٣٢ ، حديث رقم ٣٣٧٢) ، الطبعة السلطانية (١٤٧/٤) .

[2] تفسير البغوي (٣٢٣/١) .

[3] الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٩٨/٢) .

[4] الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط لابن رشد القرطبي ، ص ٤٣-٤٥ .

[5] تفسير البغوي (٣٢٣/١) .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (وقد ذكر ابن الأنباري وجها آخر فقال لما أنكر قوم الخليل إحياء الموتى سأل ربه أن يريه ما أيقن به عقله من قدرة ربه على إحياء الموتى ، وأراد أن يعلم مترلته عند ربه بإجابة دعوته ، وشك هل تقع الإجابة أم لا لأنه قد يكون من المصلحة ألا يجاب المؤمن إلى ما يسأل فلما شك إبراهيم على هذا التأويل الحسن لا على المعنى المذموم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**أنا أولى بالشك من إبراهيم**) [1] ، أي أنا أولى أن أسأل مثل هذا الأمر العظيم الذي يشك السائل في إجابة ربه فيه وإنما صار أحق لما عاني من تكذيب قومه له وردهم عليه وتعجبهم من ذكر البعث فقال أنا أحق أن أسأل ما سأل إبراهيم لعظيم ما جرى علي من قومي ولمعرفتي بتفضيل الله عز وجل إياي على الأنبياء ولكني لا أسأل) [2] .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى لَهُ ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى** ﴾ ، وَقَدْ حَقَّقَ ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ لَمْ يَكُنْ عَلَى الشَّكِّ مِنْهُ ، وَلَكِنْ لِمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ طَلَبِهِ إجَابَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَسْأَلَتِهِ إيَّاهُ ذَلِكَ لِيَطْمَئِنَّ بِهِ قَلْبُهُ وَيَعْلَمَ بِذَلِكَ عُلُوَّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ) [3] .

الثالث : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمى طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام الانتقال إلى مرتبة الطمأنينة شكاً ، فقال عن نفسه أنه أحق بذلك منه من باب التواضع وتقديم إبراهيم عليه الصلاة والسلام على نفسه أو يكون معنى كلامه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم ، والله تعالى أعلم وأحكم .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (بين العيان والخبر رتبة طلب إبراهيم زوالها بقوله : ﴿ **وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) فعبر عن تلك الرتبة بالشك ، والله أعلم) [4] .

وقال في موضع آخر : (إن إبراهيم طلب الانتقال من الإيمان بالعلم بإحياء الله الموتى إلى رؤية تحقيقه عياناً فطلب بعد حصول العلم الذهني تحقيق الوجود الخارجي ، فإن ذلك أبلغ في طمأنينة القلب ، ولما كان بين العلم والعيان مترلة أخرى قال النبي : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ... ﴾ » وإبراهيم عليه السلام لم يشك ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشك ، ولكن أوقع اسم الشك على المرتبة العلمية باعتبار التفاوت الذي بينها وبين مرتبة العيان في الخارج وباعتبار هذه المرتبة سمي العلم اليقيني قبل مشاهدة معلومه ظناً قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ**

---

[1] لفظ الحديث هو « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » وليس أنا .

[2] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (٣/٣٥٨) .

[3] شرح مشكل الآثار للطحاوي ، ص ٢٩٨-٢٩٩ .

[4] مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/١٦٠) .

مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿﴾ ﴾ (البقرة: ٤٦) ، وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ** ﴾ (البقرة: ٢٤٩) ، وهذا الظن علم جازم كما قال تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ** ﴾ (البقرة: ٢٢٣) ، لكن بين الخبر والعيان فرق) [(١)] .

وقال في موضع آخر : (فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عياناً ، والمعلوم مشاهداً ، وهذا هو المعنى الذي عبَّر عنه النبي بالشك في قوله : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ** : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ... ﴾ » ، وهو لم يشك ولا إبراهيم ، حاشاهما من ذلك ، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة ، هذا أحد الأقوال في الحديث) [(٢)] .

وقال في موضع آخر : (ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة : حق اليقين وعلم اليقين وعين اليقين ، كما قال تعالى : ﴿ **كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿﴾** ﴾ (التكاثر: ٥-٧) ، فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه : وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه كعلم اليقين بالجنة مثلاً وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر .

(المرتبة الثانية) عين اليقين : وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ﴿ **لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** ﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع ، وعين اليقين للبصر ، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً « **لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ** » [(٣)] ، وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين ، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان ، وعلى هذه المسافة أطلق النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الشك حيث قال : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** » ، ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم وإنما هو عين بعد علم وشهود بعد خبر ومعاينة بعد سماع .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين : وهي مباشرة الشيء بالإحساس به ، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين ، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين ، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين ، ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب فلهذا قال : ﴿ **وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿﴾** ﴾ (الحاقة: ٥١) ، فإن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذه أعلى مراتب الإيمان وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٥١٦) .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم (١/٣٨٤) .

(٣) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ١٨٤٢ ، ت. أحمد شاكر (٢/٤٢٤) وقال : (إسناده صحيح) .

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثلاً فقال : إذ قال لك من تجزم بصدقه : عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين ، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين ، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين) [(١)] .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ) : (وأما قوله : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) ، فمن أعظم الأدلة على تفاوت الإيمان ومراتبه ، حتى الأنبياء عليهم السلام ، فهذا طلب الطمأنينة مع كونه مؤمناً ، فإذا كان محتاجاً إلى الأدلة التي توجب له الطمأنينة ، فكيف بغيره ؟ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** ») [(٢)] .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (ثم اختلفوا في معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « **نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ** » ، فقال بعضهم معناه نحن أشد اشتياقاً إلى رؤية ذلك من إبراهيم) [(٣)] .

قال الملا علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) : (قال ابن الملك : أراد أن ما صدر من إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن شكاً ، بل كان طلباً لمزيد العلم وأنا أحق به لأني مأمور بذلك لقوله تعالى : ﴿ **وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ۝ ﴾ (طه: ١١٤) ، وأطلق الشك بطريق المشاكلة) [(٤)] .

فإن قلت : فما وجه استدلال البعض بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما : (ما في القرآن آية أرْجَى عندي منها) ، وما روي عن عطاء [(٥)] أنه قال : (دخل قلبَ إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوبَ الناس) ؟

قلت بحول الله تعالى : للعلماء توجيه وجيه لكلام حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وإليك بيان ذلك :

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) ناقلاً عن ابن عطية الغرناطي (٤٤١-٥١٨هـ) : (فأما قول ابن عباس : (هي أرجى آية) فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك ويجوز أن يقول : هي أرجى آية لقوله : ﴿ **أَوَلَمْ تُؤْمِنْ** ﴾ (البقرة:٢٦٠) أي إن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث وأما قول عطاء : (دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس) فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم) [(٦)] .

[(١)] التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ، ص ١١١ .

[(٢)] الدرر السنية في الكتب النجدية (١١٨/١٣) .

[(٣)] فتح الباري لابن حجر (٤٧٥/٦) .

[(٤)] من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٣٩/١٦) .

[(٥)] هو عطاء بن أبي رباح ، رحمة الله عليه ، وهو من علماء التابعين الأعلام .

[(٦)] تفسير القرطبي (٣١٠/٤) .

قلت بحول الله تعالى : حاشا لحبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن ينسب الشك إلى إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد تقدم توجيه كلامه أن هذه الآية عنده هي أرجى آية في كتاب الله ، وإضافة لذلك فقد أخرج الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) عنه رواية تبين تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لسبب طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال : (حدثني المثنى ، قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله : ﴿ **لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) ، قال : أعلم أنك تجيبني إذا دعوتك ، وتعطيني إذا سألتك) [(١)] .

قلت بحول الله تعالى : فأي لبس وأي إشكال يبقى مع ما تقدم لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وإن كنت لا أعتقد بوجود قلب أو سمع للطاعنين المشككين في عصمة المرسلين ، فارتفع كل إشكال وانقطع كل مقال بعون ربنا وهو شديد المحال .

[(١)] تفسير الطبري (٥/٤٩٤) .

الفصل الثاني :
تنزيه نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام

إن نبي الله يونس عليه السلام الذي سماه الله عز وجل في القرآن الكريم ذا النون ، دعا قومه كغيره من الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وكل نبي ينذر قومه بجهنم ويبشره بالجنة ﴿ **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ (النساء: ١٦٥) ، ومع هذا فإن السفهاء قالوا فيه مقالة لو قيلت في حق مسلم لكان عظيماً ، فهؤلاء السفهاء اتهموا نبي الله يونس عليه السلام بأنه شك أن الله لا يقدر على معاقبته ، فكيف يمكن أن يظن بل ويشك أن الله لا يقدر على معاقبته وهو من ينذر المشركين بمعقابة الله لهم إن أصروا على شركهم ؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم!

واستدل هؤلاء الجهلة بقوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ۞** ﴾ (الأنبياء: ٨٧-٨٨) فقالوا أن الله وصف يونس عليه السلام أنه ظن أن الله لن يقدر عليه وذلك في قوله : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ وزعموا أن هذا يدل على شكه في قدرة الله عز وجل ، ومن هذا الفهم السقيم استدلوا على أن الشك في قدرة الله عز وجل يعذر فيه المرء بجهله.

قلت بحول الله تعالى : وهل هذا الفهم لهذه الآية على هذا النحو إلا هوس وجنون . فلو أراد هؤلاء الحق ، وكان في قلبهم مثقال ذرة من احترام للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومثقال ذرة من فهم للتوحيد ، لسألوا العلماء عن هذا الأمر الذي أشكل عليهم [١] ، فليس عيب أن يستشكل عليك فهم آية أو حديث ، بل العيب أن تفهم هذا الإشكال كما يمليه عليك الشيطان فتنقض بذلك قاعدة إيمانية راسخة ، وترمي نبيًّا من أنبياء الله تعالى بمثل هذه التفاهات التي يتعالى عنها مقلد في الإيمان فكيف بنبي معصوم .

وإليك أقوال العلماء في دحض هذه الشبهة :

---

[١] كما فعل كاتب رسول الله معاوية رضي الله عنه لما أشكلت عليه الآية حول يونس عليه السلام لجأ إلى الصحابي الجليل حبر الأمة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما وسأله عن معنى هذه الآية حيث قال له : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك . قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية فقال : أو يظن نبي الله أن لا يُقْدَرَ عليه ؟ قال : هذا من القَدْرْ لا من القدرة . اهـ . أخرج ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما جمع من أهل التفسير منهم الإمام النسفي وفخر الدين الرازي في تفسيرهما لقوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٨)

قال الإمام اللغوي ابن منظور الأنصاري (٦٣٠-٧١١هـ) في لسان العرب تحت مادة (قَدَرَ) : (وقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ يفسر بالقُدرة ويفسر بالضِّيق . قال الفراء في قوله عز وجل : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ قال الفراء : المعنى فظن أَن لن نَقْدِرَ عليه من العقوبة ما قَدَرْنا ، وقال أَبو الهيثم : روي أَنه ذهب مغاضباً لقومه وروي أَنه ذهب مغاضباً لربه [1] ، **فأَما من اعتقد أَن يونس عليه السلام ظن أَن لن يَقْدِرَ الله عليه فهو كافر لأَن من ظن ذلك غير مؤمن** ، ويونس عليه السلام رسول لا يجوز ذلك الظن عليه فآل المعنى فظن أَن لن نَقْدِرَ عليه العقوبة ، قال : ويحتمل أَن يكون تفسيره فظن أَن لن نُضَيِّقَ عليه من قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أَي ضُيِّقَ عليه قال : وكذلك قوله : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) معنى ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ** ﴾ فَضَيَّقَ عليه ، وقد ضيَّق الله على يونس عليه السلام أَشدَّ تَضْييق ضَيَّقَه على مُعَذَّب في الدنيا لأَنه سجنه في بطن حوت فصار مَكْظُوماً أُخِذَ في بَطْنِه بكَظَمِه ، وقال الزجاج في قوله ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أَي لن نُقَدِّرَ عليه ما قَدَّرنا من كونه في بطن الحوت قال ونَقْدِرُ بمعنى نُقَدِّرُ ، قال وقد جاء هذا في التفسير ، قال الأَزهري وهذا الذي قاله أَبو إِسحق صحيح والمعنى ما قَدَّرَه الله عليه من التضييق في بطن الحوت ، ويجوز أَن يكون المعنى لن نُضَيِّق عليه ، قال : وكل ذلك شائع في اللغة والله أَعلم بما أَراد ، فأَما أَن يكون قوله ﴿ **أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ من القدرة فلا يجوز لأَن من ظن هذا كفر ، والظن شك ، **والشك في قدرة الله تعالى كفر** ، وقد عصم الله أَنبياءه عن مثل ما ذهب إِليه هذا المُتَأَوِّلُ ، **ولا يَتَأَوَّلُ مثلَه إلا الجاهلُ بكلام العرب ولغاتها**) [2].

قال الإمام أبو الحسن السبتي الأموي : (وقال الفجرة : إنه ظن أن لا يقدر الله عليه أي لا يمكنه أن يفعل فيه ، **وهذا كفر صراح لا يمكن أن يعتقده مقلد في الإيمان فكيف نبي** ، وقد تذاكرت مع طالب من طلبة الأندلس ملحوظ بالطلب فقال لي ذلك ، **وبالاجماع أنه من ظن أن لا يقدر الله عز وجل عليه على وجه العجز عنه أو الفوت من قضائه وقدره فهو كافر**) [3] .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (قيل : معناه استزله إبليس ووقع في ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته ، **وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر** . رُوِيَ عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوي والثعلبي عن الحسن وذكر الثعلبي وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيق عليه ، قال الحسن : هو من قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦) ، أي يضيق وقوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) .

---

[1] أي مغاضباً لأجل الله ، وسيأتي شرح ذلك قريباً إن شاء الله تعالى .

[2] لسان العرب لابن منظور (٧٤/٥) .

[3] تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ، ص ١١٨ .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن ، وقدَر وقدَّر وقتَر وقتَّر بمعنى أي ضيَّق ، وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردي والمهدوي ، وقيل : هو من القدر الذي هو القضاء والحكم ، أي فظن أن لن نقضي عليه بالعقوبة قاله قتادة ومجاهد والفراء مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة .

وروى عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عز و جل : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، هو من التقدير ليس من القدرة يقال منه : قدَر الله لك الخير يَقْدِرُه قَدْراً بمعنى : قَدَّرَ الله لك الخير ، وأنشد ثعلب :

فليست عشيَّـاتُ اللِّوى برواجـعٍ لنا أبـداً ما أبْـرَمَ السَّلَمَ النَّضْرُ

ولا عائداً ذاك الزمان الذي مَضَـى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني ما تقدره وتقضي به يقع ، **وعلى هذين التأويلين العلماء** [١]) [٢] .

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب ، قول من قال: عَنَى به : فظنَّ يونس أن لن نحبسه ونضيِّق عليه ، عقوبة له على مغاضبته ربه.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الكلمة ، لأنه لا يجوز أن ينسب إلى الكفر وقد اختاره لنبوته ، ووصفه بأن ظنَّ أن ربه يعجز عما أراد به ولا يقدر عليه ، **ووصف له بأنه جهل قدرة الله ، وذلك وصف له بالكفر ، وغير جائز لأحد وصفه بذلك**) [٣] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (والجواب عن الشبهة الثانية : وهي التمسك بقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أن نقول **من ظن عجز الله تعالى فهو كافر** ، **ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين** ، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام فإذن لا بد فيه من التأويل) [٤] .

قال عضد الدين الإيجي (ت: ٧٥٦هـ) : (﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أن لن نضيق عليه فإنه مشتق من القَدْرِ كما في قوله : ﴿ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الزمر: ٥٢) لا من القدرة) [٥] .

---

[١] وهذا يدل على أن العلماء المعتبرين إنما لهم في تأويل هذه الآية قولان أحدها من التقدير والأخرى من التضييق ، ويعضد ما قلناه قول حافظ المغرب أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) في الاستذكار (٣٦٨/٨) : (﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وللعلماء في تأويل هذه اللفظة في هذه الآية **قولان** أحدهما : أنها من التقدير والقضاء ، والآخر : أنها من التقتير والتضييق ، وقد ذكرنا من شواهد الشعر العربي على الوجهين جميعاً في التمهيد ما فيه كفاية) اهـ .

[٢] تفسير القرطبي (٢٧٠/١٤-٢٧٢) .

[٣] تفسير الطبري (٥١٦/١٨) .

[٤] تفسير الرازي (٢١٥/٢٢) .

[٥] كتاب المواقف للإيجي (٤٤٢/٣) .

قال الشيخ بدر الدين الكناني الحموي (٦٣٩-٧٣٣هـ) : (﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أي نضيق لأن النبي لا يجهل صفة من صفات الله تعالى وهي قدرة الله تعالى عليه) [١] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (أما قوله ﴿ **سُبْحَانَكَ** ﴾ فهو تتريه عن كل النقائص ومنها العجز ، وهذا يدل على أنه ما كان مراده من قوله : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أنه ظن العجز ، وإنما قال : ﴿ **سُبْحَانَكَ** ﴾ لأن تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوراً أو شهوة للانتقام ، أو عجزاً عن تخليصي عن هذا الحبس ، بل فعلته بحق الإلهية وبمقتضى الحكمة) [٢] .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (وأما قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ فليس علي ما ظنوه من الظن السخيف الذي لا يجوز أن يظن بضعيفة من النساء أو بضعيف من الرجال إلا أن يكون قد بلغ الغاية من الجهل فكيف بنبي مفضل على الناس في العلم ؟! ومن المحال المتيقن أن يكون نبي يظن أن الله تعالى الذي أرسله بدينه لا يقدر عليه ، وهو يرى أن آدميا مثله يقدر عليه ، ولا شك في أن من نسب هذا للنبي الفاضل صلى الله عليه وسلم فإنه يشتد غضبه لو نسب ذلك إليه ، أو إلى ابنه [٣] ، فكيف إلى يونس عليه السلام الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم : « **لا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بن مَتَّى** » [٤] . فقد بطل ظنهم بلا شك وصح أن معنى قوله : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أي لن نضيق عليه كما قال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) أي ضيِّق عليه) [٥] .

قلت بحول الله تعالى : وذهب آخرون إلى أن (قدر) في الآية ليس من التقدير ولا من التضييق بل بمعنى الفعل ، أي (قدر) في الآية من القدرة بمعناها المجازي ، وإليك طائفة من أقوالهم :

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (وجُوِّز أن يكون من القدرة وتكون مجازاً عن أعمالها أي فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه) [٦] .

---

[١] إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، ص ٢٠٠ .

[٢] تفسير الرازي (٢١٦/٢٢) .

[٣] فلله در الإمام ابن حزم ما أصدقه في وصف الواقع ، فهكذا هم المدافعين عن إسلام الجاهلين برب العالمين والمدافعين عن إسلام الطواغيت وعابديهم المشركين ، ينسبون جهل أبسط معاني العقيدة إلى الأنبياء وصحابتهم ، ونفس ما رموهم به لو نسبه أحدهم إليهم أو إلى أبنائهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد لغضبوا أشد الغضب ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

[٤] لعله رواه بالمعنى ، أو أننا لم نعثر عليه بذلك اللفظ ، فقد أخرج هذا الحديث البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء / باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ۞ ﴾ (الصافات: ١٣٩) بلفظ : « **لاَ يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ** » . زَادَ مُسَدَّدٌ : « **يُونُسَ بْنِ مَتَّى** » ، وفي رواية أخرى : « **مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** » . (ط. المكتز : ص٩٤٤ ، الطبعة السلطانية (١٥٩/٤)) .

[٥] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣٦/٤) .

[٦] تفسير الألوسي (٨٤/١٧) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وَكَذَلِكَ ظَنَّ يُونُسُ (أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) أَيْ فُسِّرَ بِالْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ ؛ هَلْ تَقْدِرُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا ؟ أَيْ هَلْ تَفْعَلُهُ ؟ وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ النَّاسِ) [١] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (ورابعها : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ ، أي فظن أن لن نفعل ، لأن بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر) [٢] .

قال ابن عادل الدمشقي (ت: بعد ٨٨٠هـ) : (الرابع : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ** ﴾ ، أي : فظن أن لن نفعل لأن بين القدرة والفعل مناسبة ، فلا يبعد جعل أحدهما مجازاً عن الآخر) [٣] .

قال الزمخشري (٤٦٧-٥٣٨هـ) : (والمخفف يصح أن يفسر بالقدرة ، على معنى : أن لن نعمل فيه قدرتنا) [٤] .

قال القاضي أبي السعود الحنفي (٩٠٠-٩٨٢هـ) : (﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أي لن نضيّقَ عليه أو لن نقضيَ عليه بالعقوبة من القدر ، ويؤيده أنه قرئ مشدداً ، أو **لن نُعمل فيه قدرتَنا**) [٥] .

قال القاضي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) : (﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ لن نضيق عليه أو لن نقضي عليه بالعقوبة من القدر ، ويعضده أنه قرئ مثقلاً ، **أو لن نعمل فيه قدرتنا**) [٦] .

قال النيسابوري (ت: ٢٨٦هـ) : (ولئن سلمنا أنه من القدرة فالمراد بالقدرة الفعل أي فظن أن لن نعمل فيه قدرتنا ، فالقدرة غير وإعمالها غير ، فظن انتفاء الأول كفر دون الثاني) [٧] .

قلت بحول الله تعالى : وذهب آخرون إلى أن قدر في قول يونس عليه السلام من القدرة ، ووجهوا المعنى توجيهين :

الأول : قالوا أنه من القدرة ولكن صدر منه هذا الظن قبل النبوة .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (أن على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلاً قبل الرسالة ، ولا يبعد في حق **غير** الأنبياء والرسل أن يسبق ذلك إلى وهمه بوسوسة الشيطان . ثم إنه يرده بالحجة والبرهان) [٨] .

---

[١] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٧٤/٨) .
[٢] تفسير الرازي (٢١٥/٢٢) .
[٣] اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (٥٨٣/١٣) .
[٤] الكشاف للزمخشري (١٦١/٤) .
[٥] تفسير أبي السعود (٧٢٢/٣) .
[٦] تفسير البيضاوي ، ص ١٠٥ .
[٧] تفسير النيسابوري (٣٧٢/٥) .
[٨] تفسير الرازي (٢١٥/٢٢) .

الثاني : قالوا أنه من القدرة ولكن معنى الآية استفهامي :

قال الإمام اللغوي ابن منظور الأنصاري (٦٣٠-٧١١هـ) : (و لم يدر الأَخفش ما معنى نَقْدِر وذهب إِلى موضع القدرة إِلى معنى فظن أَن يَفُوتَنَا و لم يعلم كلام العرب حتى قال (إِن بعض المفسرين قال أَراد الاستفهام أَفَظَنَّ أَن لن نَقْدِرَ عليه) ، ولو علم أَن معنى (نَقْدِر) نُضَيِّق لم يخبط هذا الخبط قال و لم يكن عالماً بكلام العرب وكان عالماً بقياس النحو) [1] .

قلت بحول الله تعالى : وهذا التأويلين لا يخفى أنهما تأويلين مرجوحين ولا دليل عليهما .

فإن قلت : فما قصة مغاضبة يونس عليه الصلاة والسلام ؟ ولمن كانت ؟

قال الإمام أبو الحسن السبتي الأموي : (شرح قصة يونس عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧)

فمما **اختلقوه** عليه عليه السلام في شرح هذه الآية أن قالوا : " أنه جاءه الملك بالوحي وهو يتعبد في الجبل فقال له : (إن الله تعالى أمرني أن أعلمك بأنه أرسلك إلى أهل نينوى لتحذرهم وتنذرهم) ، فقال له يونس عليه السلام : (الله أرفق بي وأعلم بضعفي ومسكنتي من أن يرسلني إلى قوم جبارين متكبرين يؤذونني ويقتلونني فراجع ربك أيها الملك في أمري فلعله يعفيني من ذلك ويلطف بي) ، فقال له الملك : (الله تعالى أعظم من أن أراجعه فيما أمرني به ، وقد أمرتك فسل أنت ربك ذلك إن شئت فقد بلغتك والسلام) ، ثم صار الملك إلى مقامه ، ففر إذ ذاك يونس عليه السلام على وجهه إلى جهة البحر مغاضبا لربه وركب السفينة فالتقمه الحوت " .

ومنهم من قال : " إنه بلغ قومه الرسالة فسبوه وضربوه وأغلوا في أذيته فدعا عليهم فأخبره ربه أنه ينزل البلاء عليهم في يوم كذا فأخبرهم بذلك ، فلما كان في ذلك اليوم خرج إلى أعلى الجبل وقعد ينتظر الوعد فإذا سحابة عظيمة سوداء قد جاءت من ناحية البحر حتى قربت من البلد ثم جاءت ريح فهبت في وجهها فردها عنهم فخرج فاراً مغاضباً لربه حيث رد عنهم البلاء " .

فهذا من بعض أقوالهم الخبيثة في قصة يونس عليه السلام ، ومقتضى هاتين الكذبتين عليه أنه سخط أحكام ربه و لم يرض بقضائه ولا أذعن لحكمه ، وحاشى وكلا أن يفعل ذلك أنبياء الله تعالى مع العصمة والنزاهة فيما دون ذلك كما قدمناه ، **فإن غضب العبد على ربه إنما هو ألا يرضى بحكمه ولا بإرادته وهذه هي المناقضة والكفر الصراح** ، قال تعالى لنبينا عليه السلام : ﴿ **فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا**

---

[1] لسان العرب لابن منظور (٧٤/٥) .

تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥) فنفى الله الإيمان عمن لم يرض بحكم الله تعالى وحكم نبيه عليه السلام ، وقال عليه السلام في دعائه : « **لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى** » [1] ، **والأمر أظهر من الاستدلال عليه** .

فإن قيل : إذا لم تصح هذه المغاضبة لربه على هذا الوجه فما الصحيح الذي يعول عليه فيها .... قلنا : أما مغاضبته عليه السلام فكانت لقومه لا لربه ولا يجوز ذلك عليه ... وإنما كانت لقومه لما نال منهم من الأذية فاحتمل أذاهم حتى ضاق صدره ويئس من فلاحهم ففر بنفسه بعدما بلغ غاية التبليغ كما أمره الله تعالى .

ثم غلب ظنه لسعة حلم الله تعالى ألا يطلبه بذلك الفرار لكونه قد أدَّى ما عليه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ أي أن لن نضيق عليه ، قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضيق ، وقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الزمر: ٥٢) أي يضيق ، ويحتمل أنه ظن أن قدرة الله تعالى لم تتعلق بإيلامه وسجنه تفضلاً منه وأنه تعالى يعفو عنه في ذلك الفرار فوقع خلاف ظنه وهذا هو الذي يجوز أن يعتقده الأنبياء وأن يعتقد فيهم) [2] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (ليس في الآية من غاضبه ، لكنا نقطع على أنه **لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه ؛ لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكاً للأمر والنهي ، والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً** ... وإذا ثبت أنه لا يجوز صرف هذه المغاضبة إلى الله تعالى ، وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضباً لغير الله ، والغالب أنه إنما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعاً) [3] .

قال الإمام أبو زيد الثعالبي (٧٨٦-٨٧٥هـ) : (قال عياض : والصحيح في قوله تعالى : ﴿ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا** ﴾ أَنَّهُ مُغَاضِبٌ لقومه ؛ لكفرهم ، وهو قول ابن عباس ، والضَّحَّاكِ وغيرهما ، لا لربه ؛ إذْ مغاضبة اللَّه تعالى معاداة له ، ومعاداةُ اللَّه كفر لا يليق بالمؤمنين ، فكيف بالأنبياء عليهم السلام !) [4] .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (أما إخبار الله تعالى أن يونس ذهب مغاضباً ، فلم يغاضب ربه قط ولا قال الله تعالى أنه غاضب ربه فمن زاد هذه الزيادة كان قائلاً على الله

[1] أخرجه الحافظ نور الدين الهيثمي مجمع الزوائد عن عبد الله بن جعفر ، كتاب المغازي والسير/ باب خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وعرضه نفسه على القبائل : انظر بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣٨/٦) ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني ، وفيه : ابن إسحق ، وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

[2] تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ص ١١٥-١١٨ .

[3] تفسير الرازي (٢١٤/٢٢) .

[4] تفسير الثعالبي (٩٧/٤) .

الكذب ، وزائداً في القرآن ما ليس فيه . هذا لا يحل ، **ولا يجوز أن يظن بمن له أدنى مسكة من عقل أنه يغاضب ربه تعالى** ، **فكيف أن يفعل ذلك نبي من الأنبياء ؟!** فعلمنا يقينا أنه إنما غاضب قومه و لم يوافق ذلك مراد الله عز وجل فعوقب بذلك وإن كان يونس عليه السلام لم يقصد بذلك إلا رضاء الله عز وجل) [١] .

قال عضد الدين الإيجي (ت: ٧٥٦هـ) : (ومنه قصة يونس عليه السلام فإنه ذهب مغاضباً ... والغضب ذنب .... والجواب : لعل غضبه كان على قوم كفرة بالغوا في العناد والمكابرة حتى عيل صبره و لم يطق المصابرة معهم ، فهذا غضب لله على أعدائه ، فلا يكون ذنباً) [٢] .

قال النيسابوري (ت: ٢٨٦هـ) : (والجواب أنه عليه السلام غضب لأجل ربه أنفة لدينه وبغضاً للكفر وأهله ، وغاضب قومه بمفارقته كي يخوِّفهم حلول العقاب عليهم عندها . فغاية ما في الباب أن تلك المغاضبة ترك الأولى وهو الصبر على مشاق الرسالة بعد أدائها إلى أن يأذن الله له في المهاجرة) [٣] .

فإن قلت : لقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره أن أكثر المفسرين على أن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً لربه وأن هذا القول مروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد ابن جبير ووهب وأنه اختاره ابن قتيبة وابن جرير الطبري ؟

قلت بحول الله تعالى : من زعم أن يونس عليه الصلاة والسلام قد غاضب ربه فهو كافر كائناً من كان ، وإنما هذا القول المذكور عن أكثر المفسرين وعن بعض الصحابة له توجيه وجيه ، وهو أن معنى قولهم أن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً لربه أي لأجل ربه تعالى ، فاللام هنا لام العلة ، فمعنى أنه ذهب مغاضباً لربه لا تعني أنه غاضب ربه عز وجل بل تعني أنه غضب لأجل ربه سبحانه وتعالى .

وإليك أقوال العلماء في بيان ذلك :

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (وقيل مغاضباً لربه عز وجل ، وحكي في هذه المغاضبة كيفيات ؛ وتعقب ذلك في (البحر) بأنه يجب إطراح هذا القول إذ لا يناسب ذلك منصب النبوة ، وينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كالحسن ، والشعبي ، وابن جبير ، وغيرهم من التابعين ، وابن مسعود من الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأن يكون معنى قولهم (لربه) لأجل ربه تعالى وحمية لدينه ، فاللام لام العلة ، لا اللام الموصلة للمفعول به . انتهى) [٤] .

---

[١] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٣٥/٤-٣٦) .
[٢] كتاب المواقف للإيجي (٤٤٢/٣) .
[٣] تفسير النيسابوري (٣٧٢/٥) .
[٤] تفسير الألوسي (٨٣/١٧-٨٤) .

قال الإمام الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) : (﴿ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا** ﴾ أي اذكر ذا النون وقت ذهابه مغاضباً ، أي مراغماً . قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير : ذهب مغاضباً لربه ، واختاره ابن جرير والقتيبي والمهدوي . وحكى عن ابن مسعود : قال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة ، وهو قول صحيح . والمعنى : مغاضباً من أجل ربه ، كما تقول غضبت لك ، أي من أجلك) [1] .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (والثاني : أنه خرج مغاضباً لربِّه ، قاله الحسن ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وعروة . وقال أبو بكر النقاش : المعنى : مغاضباً من أجل ربِّه ، وإنما غضب لأجل تمرُّدهم وعصيانهم) [2] .

فإن قلت : فلماذا وصف يونس عليه السلام نفسه حيث قال : ﴿ **إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين** ۝ ﴾ (الأنبياء:٨٧) ، ولماذا قال الله سبحانه وتعالى عنه : ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ۝ ﴾ (الصافات: ١٤٢) ، ولماذا أمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يكون مثل يونس عليه السلام في هذه الحادثة وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝ لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ** ۝ ﴾ (القلم: ٤٨-٤٩) ؟

قال الإمام أبو الحسن السبتي الأموي : (وأما قوله تعالى : ﴿ **فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ** ۝ ﴾ (الصافات: ١٤٢) أي أتى ما يلام عليه ، وليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومه ، فإن كان تعالى لم يلمه فقد اندفع الاعتراض لعدم اللوم ، والأظهر أنه لم يلمه إذ لو وقع اللوم لقال : (وهو ملوم) وإن كان لامه فاللوم قد يكون عتاباً ، وقد يكون ذماً ، فإن صح وقوع لومه فكان من الله عتاباً له على فراره لا ذماً ، إذ المعاتب محبور والمذموم مدحور ، فاعلم رحمك الله صحة التفرقة بين اللوم والذم قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

وقال آخر :

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقي العتاب

وقال آخر :

لو كنت عاتبتي لسكن لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن صددت فما لصدك حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

ألا ترى كيف قال الله تعالى : ﴿ **لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ** ۝ ﴾ (القلم: ٤٩) ، معناه لولا ما عصمناه ورحمناه لأتى ما يذم عليه على أصل الجواز لا على فرع الوقوع .

---

[1] تفسير الشوكاني (٤٠٧/٣) .

[2] تفسير ابن الجوزي (٣٨٢/٥) .

وهذا من النمط الذي قدمناه في قصة إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ** ۞﴾ (إبراهيم: ٣٥) ، وهو قد أمن من ذلك بالخبر ، وقوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام : ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** ﴾ (الأعراف: ٨٩) الآية ، وقوله تعالى لنبينا عليه السلام : ﴿ **وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ** ﴾ (الإسراء: ٨٦) ، وهو تعالى لم يشأ ذلك بالخبر .

وأما قوله تعالى لنبينا عليه السلام : ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ (القلم: ٤٨) يعني كيونس عليه السلام في فراره حين ضاق صدره كما قدمناه ، وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ۞﴾ (الحجر: ٩٧) ، كما ضاق صدر يونس فلا تفر كفراره . ولذا جاء عنه عليه السلام : « **لا تُفَضِّلُوني عَلَى يُونُس بن مَتَّى** » [(١)] ما قيل له ﴿ **وَلاَ تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ** ﴾ فنهاه أن يفعل فعله في قصة مخصوصة خاف على قلوب عوام أمته من اعتقاد هذه القولة على خلاف ما هي به فيعتقدون أنها نهي له على العموم ، وحاشى وكلا وكيف يصح فيها العموم وقد أمره تعالى أن يتخلق ويقتدي ويهتدي بأخلاقه وأخلاق نظرائه عليهم السلام حيث قال له : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه** ﴾ (الأنعام: ٩٠) ، فقال ذلك والله اعلم ... وعلى هذا ينبغي أن تحمل هذه الأقوال وعلى ما هو أغمض وأعلى في التبرئة من هذا ولا قوة إلا بالله) [(٢)] .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (فظن يونس عليه السلام أن الله تعالى لا يضيِّق عليه في مغاضبته لقومه إذ ظن أنه محسن في فعله ذلك ، وإنما نهى الله عز و جل لمحمد صلى الله عليه وسلم عن أن يكون كصاحب الحوت ، فنعم ، نهاه الله عز و جل عن مغاضبته قومه ، وأمره بالصبر على أذاهم وبالمطاولة لهم ، وأما قول الله تعالى أنه استحق الذم والملامة لولا النعمة التي تداركه بها للبث معاقباً في بطن الحوت ، فهذا نفس ما قلناه من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون في الدنيا على ما فعلوه مما يظنونه خيراً وقربة إلى الله عز وجل ، إذا لم يوافق مراد ربهم ، وعلى هذا الوجه أقر على نفسه بأنه كان من الظالمين ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه ، فلما وضع النبي صلى الله عليه وسلم المغاضبة في غير موضعها اعترف في ذلك بالظلم لا على أنه قصده وهو يدري أنه ظلم) [(٣)] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء ، ص ١١٨-١٢٠ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٤/٣٦-٣٧) .

الفصل الثالث :
تنزيه نبي الله زكريا عليه الصلاة والسلام
وأم مسيح الهدى مريم ابنة عمران عليها السلام

إن نبي الله زكريا عليه السلام هو من أنبياء بني إسرائيل ، وهو من ذرية يعقوب عليه السلام ، وهـــو الذي عانى من مشركي بني إسرائيل ما عانى ، والذي كفل مريم ابنة عمران عليها السلام ، وكان كلما دخل إلى المحراب على مريم عليها السلام وجد عندها رزقاً يستغرب من أين لها به ، فتقـــول أن ذلـــك كرامة من عند الله عز وجل يتفضل الله به سبحانه على من يشاء من عباده .

قال تعالى : ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَـلَ عَلَيْهَـا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (آل عمران: ٣٧)

ونبي الله زكريا يعرف قدرة الله عز وجل الباهرة ، ويرى تفضله على مريم عليها السلام فيطمـــع في فضل الله عز وجل أن يرزقه ولداً لأن امرأته كانت عاقراً ، إضافة إلى أنهما طاعنين في السن فتوجـــه إلى خالق الأسباب الوحيد القادر على كشف ما به ، ويذكر الله عز وجل عنه ذلك بعبارات رائعة تخـــشع لها القلوب المؤمنة ، فيقول عز من قائل : ﴿ **كهيعص ۞ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۞ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَـقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَـرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾ (مريم: ١-٦)

فيستجيب الله عز وجل لهذا الدعاء فيقول : ﴿ **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّـا ۞ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۞** ﴾ (مريم: ٧-٩)

لكن السفهاء فهموا من قول زكريا عليه السلام : ﴿ **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ** ﴾ استبعاداً من زكريا عليه الصلاة والسلام لقدرة الله عز وجل على أن يكون له غلام بعد أن بلغ بزكريا عليـــه الـــسلام الكـــبر وكانت امرأته عاقراً .

فأول ما نقول لهؤلاء : كيف طلب إذاً من الله عز وجل شيئًا لا يؤمن بأن الله قادر عليه ؟ فطلبه من الله عز وجل شيئًا يدل على إيمانه بأن الله قادر على إجابته هذا الطلب ولا خفاء .

وإليك أقوال العلماء في شرح معنى كلام زكريا عليه السلام الذي فهمه السفهاء فهماً فاسداً .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد ، ففرح فرحًا شديدًا ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقرًا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا ، أي عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع) [1] .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ** ﴾ أي : كيف يكون؟! .

قال الكميت :

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ

قال العلماء : منهم الحسن ، وابن الأنباري ، وابن كيسان : كأنه قال : من أي وجه يكون لي الولد ؟ أيكون بإزالة العقر عن زوجتي ، وردِّ شبابي ؟ أم يأتي ونحن على حالنا ؟ فكان ذلك على سبيل الاستعلام ، لا على وجه الشك) [2] .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (و ﴿ **أَنَّى** ﴾ بمعنى كيف ، وهو في موضع نصب على الظرف . وفي معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما : أنه سأل هل يكون له الولد وهو وامرأته على حاليهما أو يردان إلى حال من يلد ؟ الثاني : سأل هل يرزق الولد من امرأته العاقر أو من غيرها ، وقيل : المعنى بأي منزلة أستوجب هذا وأنا وامرأتي على هذا الحال على وجه التواضع) [3] . وقال في موضع آخر : (قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ** ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير) [4] .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (كلمة ﴿ **أَنَّى** ﴾ بمعنى كيف أو من أين) [5] .

قال سيد قطب (١٣٢٤-١٣٨٧هـ) : (إنه فيض الكرم الإلهي يغدقه على عبده الذي دعاه في ضراعة ، وناجاه في خفية ، وكشف له عما يخشى ، وتوجه إليه فيما يرجو . والذي دفعه إلى دعاء ربه خوفه الْمَوَالِيَ من بعده على تراث العقيدة وعلى تدبير المال والقيام على الأهل بما يرضي الله . وعلم الله ذلك من نيته فأغدق عليه وأرضاه .

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢١٤) .

(٢) تفسير ابن الجوزي (١/٣٨٤) .

(٣) تفسير القرطبي (٥/١٢٠) .

(٤) تفسير القرطبي (١٣/٤١٨) .

(٥) تفسير الألوسي (١٦/٦٦) .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء . فإذا هو يواجه الواقع . . إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل شيبه ، وامرأته عاقر لم تلد له في فتوته وصباه : فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟ إنه ليريد أن يطمئن ، ويعرف الوسيلة التي يرزقه الله بها هذا الغلام :

﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ (مريم: ٨)

إنه يواجه الواقع ، ويواجه معه وعد الله . وإنه ليثق بالوعد ، ولكنه يريد أن يعرف كيف يكون تحقيقه مع ذلك الواقع الذي يواجهه ليطمئن قلبه ، وهي حالة نفسية طبيعية ، في مثل موقف زكريا النبي الصالح . الإنسان ! الذي لا يملك أن يغفل الواقع ، فيشتاق أن يعرف كيف يغيره الله !

هنا يأتيه الجواب عن سؤاله : أن هذا هين على الله سهل . ويذكره بمثل قريب في نفسه : في خلقته هو وإيجاده بعد أن لم يكن . وهو مثل لكل حي ، ولكل شيء في هذا الوجود :

﴿ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ (مريم: ٩)

وليس في الخلق هين وصعب على الله . ووسيلة الخلق للصغير والكبير ، وللحقير والجليل واحدة : كن . فيكون .

والله هو الذي جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفاني لا ينسل ؛ وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب في الرجل . وهو أهون في اعتبار الناس من إنشاء الحياة ابتداء . وإن كان كل شيء هيناً على القدرة : إعادة أو إنشاء .

ومع ذلك فإن لهفة زكريا على الطمأنينة تدفع به أن يطلب آية وعلامة على تحقق البشرى فعلاً . فأعطاه الله آية تناسب الجو النفسي الذي كان فيه الدعاء وكانت فيه الاستجابة . . ويؤدي بها حق الشكر لله الذي وهبه على الكبر غلاماً . . وذلك أن ينقطع عن دنيا الناس ويحيا مع الله ثلاث ليال ينطلق لسانه إذا سبح ربه ، ويحتبس إذا كلم الناس ، وهو سوي معافى في جوارحه لم يصب لسانه عوج ولا آفة .

﴿ **قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا** ۝﴾ (مريم: ١٠) . . وكان ذلك : ﴿ **فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا** ۝﴾ (مريم: ١١) . .) [(١)] .

قلت بحول الله تعالى : ونظير كلام زكريا عليه السلام ما قالته الصديقة مريم بنت عمران عليها السلام لما بشرت بابنها المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حيث قالت : ﴿ **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** ۝﴾ (مريم: ٢٠)

[(١)] في ظلال القرآن لسيد قطب (م٤/ج١٦/ص٢٣٠٣) .

فهذا لم يكن شكاً منها في قدرة الله عز وجل ، وكيف تشك وهي التي كانت تكرم برزق من عند الله عز وجل ؟!

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (أي: فتعجبت مريم من هذا وقالت : كيف يكــون لي غلام؟ أي : على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور) [١] .

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (يقول تعالى ذكره : قالت مريم لجبريل : ﴿ **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ** ﴾ من أيِّ وجه يكون لي غلام ؟ أمن قِبَل زوج أتزوَّج فأرزقه منه أم يبتدئ الله فيَّ خلقه ابتداء) [٢] .

قال الشيخ محمد بن علي الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) : (ما استبعدت من قــدرة الله شــيئاً ، ولكــن أرادت كيف يكون هذا الولد ، هــل من قبل زوج تتزوّجه في المستقبل أم يخلقه الله ســبحانه ابتداء ؟) [٣] .

---

[١] تفسير ابن كثير (٥/٢٢٠) .

[٢] تفسير الطبري (١٨/١٦٥) .

[٣] تفسير الشوكاني (٣/٣١٨) .

الفصل الرابع : تتريه حواري روح الله المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام

لقد أرسل الله المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل لدعوة المشركين إلى التوحيد ، فلقد كان مشركي بني إسرائيل يحكمون بغير ما أنزل الله ، ويحرفون التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام بأيديهم ، ويكتمون الحق ليشتروا به ثمناً قليلاً ، وغير ذلك من شركهم وكفرهم ، وفي خضم هذا الجو من غربة التوحيد انبرت جماعة صادقة آمنوا بعيسى عليه الصلاة والسلام وناصروا هذا الدين ، قال الله سبحانه تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝ ﴾ (آل عمران: ٤٥-٥٣)

وقد أثنى الله عز وجل على هؤلاء الحواريين رضوان الله تعالى عليهم ، فقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يكون أنصاراً لله عز وجل كما كان هؤلاء الحواريون أنصار الله ، فقال رب العزة تبارك وتعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾** (الصف: ١٤)

فهؤلاء الحواريين أنصار الله عز وجل آمنوا بالله في وقت غربة وقلة الموحدين وأشهدوا المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام على إسلامهم ، وطلبوا من الله عز وجل أن يكتبهم مع الشاهدين ، آمنوا بنبي ولادته بحد ذاتها معجزة ، ودليل على عظيم قدرة الله عز وجل ، فمجرد إيمانهم بهذا النبي إيمان بأن الله على كل شيء قدير . هذا إن لم يكونوا قد رَأَوْ معجزات نبيهم الأخرى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وعاينوها بأنفسهم والتي كلها دليل على كمال قدرة الله عز وجل .

ومع كل هذا طلع جماعة من السفهاء [١] رموا هؤلاء الحواريين صحابة عيسى عليه وعلـــى نبينـــا أفضل الصلاة والتسليم بأنهم شكوا في قدرة الله تعالى على أن يترل مائدة من السماء ، وليت شعري أي مائدة خيالية هذه التي طلبوها واستعظم شأنها هؤلاء السفهاء حتى رموهم بما رموهم قائلين أنهم شكوا في قدرة الله على إنزاله من السماء ؟ إنها مجرد مائدة طعام يأكلون منها ! فالحمد لله الذي عافانا من هذا الضيق في الأفق ، والسذاجة في التفكير .

بل إن عوام بني إسرائيل يستحيل عليهم أن يشكوا في قدرة الله عز وجل على إنـــزال مائـــدة مـــن السماء لأنه لا شك أنهم كانوا يعرفون المعجزات المشهورة لموسى عليه وعلى نبينا أفضل الـــصلاة وأتم التسليم من انفلاق البحر نصفين ، ورفع الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة وغيرها الكثيرة التي تدل على كمال قدرة الله عز وجل ، فكيف الحال إذاً بحواري عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم . بل إن من أعظم نعم الله عز وجل على بني إسرائيل أن نزَّل الله عليهم المن والسلوى ، وهذا أمر مشهور يعرفه عوام بني إسرائيل قبل الحواريين رضي الله عنهم فكيف يقول قائل أو يتصور عاقـــل بعـــدها أن الحواريين رضوان الله تعالى عليهم مع كل ما سبق يمكن أن يشكوا في إنزال مائدة من السماء .

فلو أن هؤلاء قالوا ذلك واقتصروا على أن انتقصوا من قدر هؤلاء الأصفياء الأنصار وأبقوا على دين الله كما انزل نقياً صافياً لكانت مدافعتنا لهم لأجل ما نسبوه للحواريين فقط لكن الأمر تعدى هـــذا إلى القدح في دين الله فقالوا أن المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام عذرهم بجهلهم أيضاً .

---

[١] قال الشيخ أحمد طارق في كتابه الإنذار : (لقد عز الحياء والله وكلامهم هذا من أوضح البراهين على سيطرة الهوى على منهاجهم في الاستدلال ، وهذا الذي نسبوه للحواريين واحتجوا به هو من أفسد ما يكون الاحتجاج ، وهو ظاهر البطلان لذي عقل وقلب ، وبداية أعجب كيف يجهل الحواريون وهم خلصاء رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام وبطانته وأئمة الهدى والعلم في أمته ، أقول : كيف ينسب إليهم جهل أبسط معنى العقيدة وأعظم صفات الباري سبحانه ، وهي القدرة وقد قدمنا أن **صفة القدرة بالذات لا ينكرها أو يشك فيها إلا كافر سفيه العقل** . ولا أدري هل كان الحواريون يؤمنون بأن الله تعالى الذي يعبدونه ويؤمنون به هو الذي خلق رسولهم عيسى ـــ عليه السلام ـــ بكلمة منه ، وقال له « **كُنْ** » فكان ؟ أم إلهه اله آخر يعجز أن يترل من السماء مائدة ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وهل كانوا يعبدون الذي خلق السماوات بغير عمد وسخر فيها الشمس والقمر والنجوم السيارة ، والأرض وما بث فيها من آيات ودلائل تشهد أدناها بعظمة خالقها وقدرته وجبروته ، والذي خلقهم ولم يكونوا شيئا مذكوراً ، ثم يميتهم ثم يحييهم ويبعثهم بصيحة واحدة ، وهو الذي يرزق الطير والدواب ، وكل نفس منفوشة ، بل إني أعجب كيف آمنوا بأن الله قادر على أن يترل الملائكة من السماء بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، ومنهم عيسى ـــ عليه السلام ـــ رسولهم الذي آمنوا به وبما يتترل عليه ، ثم هم يشكون في أن الله قادر على أن يترل مع الملائكة مائدة على الحواريين ؟ اللهم إليك نشكو فساد العقول والألباب ، وسيطرة الهوى و عماية الرأي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...) اهـــ .

وقبل الذب عن حواري المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وتتريههم عن الإفك المنسوب إليهم والمزعوم في حقهم ، نريد أن نرد على من يدافعون عن أسلمة المشركين بحجة أنهم جاهلين ، فنقول لهم وبالله التوفيق ومنه نستمد الإعانة :

على فرض فهمكم للآية أن الحواريين شكوا في قدرة الله عز وجل ، من أين فهمتم أن عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم قد عذرهم بهذا الجهل وعدهم من زمرة الموحدين العارفين بالله مع جهلهم قدرة الله عز وجل ؟ هذا ما لا تستطيعون إثباته البتة ، فحينها تنقطعون صاغرين ، ولله الحمد .

أما الآية التي استدلوا بها على باطلهم فهي قول الله عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۞ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۞ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ ﴾ (المائدة: ١١١-١١٥)

فهؤلاء الحواريين إنما طلبوا من المسيح عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يترل الله عليهم مائدة من السماء واستفهموا فيما إذا كان الله يستطيع ذلك أي بمعنى يفعل ذلك أم لا ، وهذا النوع من السؤال شائع في عرف الناس ، كما يقول أحدنا لصاحبه : هل تستطيع أن تأتي معي وهو يعلم أنه قادر على ذلك ومستطيعه ولكن يقصد هل تأتي معي أي هل تفعل ذلك أم لا . وقال البعض أن معنى يستطيع هنا بمعنى يطيع ، ويطيع بمعنى يجيب فيكون كلام الحواريين بمعنى : (هل يجيبنا ربك عز وجل في طلبنا في إنزال مائدة من السماء إن سألته ؟) ، وفي كلا المعنيين يكون الحواريين إنما طلبوا مائدة تترل عليهم من السماء فاستفسروا فيما إذا كان الله يجيب طلبهم فيترل عليهم مائدة من السماء أم لا يجيب طلبهم فلا يترل عليهم ذلك ، و لم يشكوا أبداً في قدرة الله عز وجل على ذلك ، والدليل على ذلك أمور :

أولاً : إن هذه الآية قد قرأها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقراءة أخرى توضح معنى هذه القراءة التي ظاهرها مشكل على البعض ، إذ أن قراءات القرآن الكريم لا تتناقض ولا تتعارض بل يؤيد بعضها بعضاً لأنها كلها من عند الله عز وجل ، ولو أشعرت قراءة من قراءات القرآن الكريم الصحيحة بنوع من تعارض مع قراءة أخرى صحيحة ثابتة لوجب عندها الجمع بين هذه القراءات ولا بد .

فقول الحواريين **﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾** قد قرأها النبي صلى الله عليهم على النحو التالي : **﴿ هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾** ، وهي قراءة

الكسائي ، وقرأ بها من الصحابة علي بن أبي طالب وعائشة بنت أبي بكر وعبد الله ابن عباس ، ومعاذ بن جبل ، ومن التابعين مجاهد وسعيد بن جبير رضوان الله عليهم أجمعين .

وإليك بيان ذلك مع ذكر أقوال العلماء في شرح معنى القراءتين :

أخرج الحاكم في مستدركه في كتاب التفسير / باب قراءات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري ، قال : سألت معاذ بن جبل رضي الله عنه عن قول الحواريين ، ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ أو ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾ ، فقال : « أقرأني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ** ﴾ بالتاء » [1] .

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (واختلفت القراءة في قراءة قوله: ﴿ **يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين : ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ** ﴾ بالتاء ﴿ **رَبَّكَ** ﴾ بالنصب ، بمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربك ؟ أو: هل تستطيع أن تدعوَ ربَّك ؟ أو: هل تستطيع وترى أن تدعوه ؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكِّين أن الله تعالى ذكره قادرٌ أن ينزل عليهم ذلك ، وإنما قالوا لعيسى: هل تستطيع أنت ذلك ؟

حدثنا ابن وكيع قال ، حدثنا محمد بن بشر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبي مليكة قال : قالت عائشة : (**كان الحواريون لا يشكُّون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة ، ولكن قالوا : يا عيسى هل تَسْتَطِيعُ ربَّك ؟**) .

حدثني أحمد بن يوسف التَّغْلِبيّ قال ، حدثنا القاسم بن سلام قال ، حدثنا ابن مهدي ، عن جابر بن يزيد بن رفاعة، عن حسَّان بن مخارق ، عن سعيد بن جبير : أنه قرأها كذلك : ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾، وقال : تستطيع أن تسأل ربَّك . وقال : **ألا ترى أنهم مؤمنون ؟**

وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والعراق : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ** ﴾ بالياء ﴿ **رَبُّكَ** ﴾ ، بمعنى : أن ينزل علينا ربُّك ، كما يقول الرجل لصاحبه : أتستطيع أن تنهض معنا في كذا ؟ وهو يعلم أنه يستطيع ، ولكنه إنما يريد : أتنهض معنا فيه ؟ وقد يجوز أن يكون مرادُ قارئه كذلك : هل يستجيب لك ربك ويُطِيعك أنْ تنزل علينا ؟) [2] .

قال الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) : (أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : (**كان الحواريون أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك** [3] **، إنما قالوا : هل تستطيع أنت ربك ، هل تستطيع أن تدعوه**) .

---

[1] المستدرك للحاكم (٢/٢٨٥) ، وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » ، وتابعه الذهبي .

[2] تفسير الطبري (١١/٢١٨-٢١٩) .

[3] أي بالمعنى الظاهر من الكلام ، وإلا فهم قالوا ذلك وعنوا الفعل ولم يعنوا القدرة .

وأخرج الحاكم وصححه والطبراني ، وابن مردويه عن عبد الرحمن بن غنم قال : سألت معاذ بن جبل عن قول الحواريين ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ أو ﴿ **تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾ ؟ فقال ؟ أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾ بالتاء [(١)] .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس أنه قرأها ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾ بالتاء وبنصْبِ (**رَبَّكَ**) .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن سعيد بن جبير أنه قرأها ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾ وقال : هل تستطيع أن تسأل ربك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي أن علياً كان يقرؤها ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ قال : هل يطيعك [(٢)] ربك .

وأخرج عبد بن حميد عن يحيى بن وثاب وأبي رجاء أنهما قرآ ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ بالياء والرفع .

وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ ، قال : قالوا : هل يطيعك ربك إن سألته) [(٣)] .

قال الإمام محيي السنة البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) : (قرأ الكسائي ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ** ﴾ بالتاء ﴿ **رَبَّكَ** ﴾ بنصب الباء ، وهو قراءة علي وعائشة وابن عباس ومجاهد ، أي: هل تستطيع أن تدعو وتسأل ربك ، وقرأ الآخرون ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ** ﴾ بالياء و ﴿ **رَبُّكَ** ﴾ برفع الباء ، ولم يقولوه شاكين في قدرة الله عز وجل ، ولكن معناه : هل يترل ربك أم لا ؟ كما يقول الرجل لصاحبه هل تستطيع أن تنهض معي وهو يعلم أنه يستطيع ، وإنما يريد هل يفعل ذلك أم لا ، وقيل: ﴿ **يَسْتَطِيعُ** ﴾ بمعنى يطيع ، يقال: أطاع واستطاع بمعنى واحد ، كقولهم : أجاب واستجاب، معناه: هل يطيعك ربك بإجابة سؤالك ؟) [(٤)] .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين ، وإنما هو كقولك للرجل : هل يستطيع فلان أن يأتي

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/٢٨٥) ، وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » وتابعه الذهبي .

(٢) قال المرتضى الحسيني الزبيدي (١١٤٥-١٢٠٥هـ) : (وقيل : يستطيعُ ويُطِيعُ بَمعنىً واحدٍ ومَعناهُ : هلَ يُجيبُ) . (تاج العروس (٢١/٤٦٤)) . قال أبو هلال العسكري : (وجاءت الاستطاعة بمعنى الإجابة وهو قوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) أي هل يجيبك إلى ما تسأله) . (معجم الفروق اللغوية للعسكري ، ص٤٧) .

قال جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) : (وقيل المعنى : هل يطيع ربك ؟ أي هل يستجيب دعوتك إذا دعوته ؟ فيستطيع بمعنى يطيع ، وهما بمعنى واحد ، والسين زائدة ، كاستجاب وأجاب ، واستحب وأحب ، ويطيع بمعنى يجيب مجازاً لأن المجيب مطيع) .اهـ (محاسن التأويل (٦/٤٢٩)) .

(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (٥/٥٩٢-٥٩٣) .

(٤) تفسير البغوي (٣/١١٧) .

وقد علمت أنه يستطيع ، فالمعنى: هل يفعل ذلك ؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا ؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر ، فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة:٢٦٠) على ما تقدم . وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ، ولذلك قال الحواريون : ﴿ **وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا** ﴾ (المائدة:١١٣) كما قال إبراهيم : ﴿ **وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠) قلت: وهذا تأويل حسن) [١] .

قال الإمام ابن عطية الغرناطي (٤٤١-٥١٨هـ) : (وقرأ جمهور الناس ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ بالياء ورفع الباء من ربك . وهي قراءة السبعة حاشا الكسائي ، وهذا ليس لأنهم شكوا في قدرة الله على هذا الأمر كامنة بمعنى هل يفعل تعالى هذا وهل تقع منه إجابة إليه ؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد : (**هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَتَوَضَّأُ ؟**) [٢] ، فالمعنى هل يخف عليك وهل تفعله ؟) [٣] .

قال الإمام جمال الدين ابن هشام الأنصاري [٤] (٧٠٨-٧٦١هـ) : (وقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ الآية في قراءة غير الكسائي ﴿ **يَسْتَطِيعُ** ﴾ بالغيبة و ﴿ **رَبُّكَ** ﴾ بالرفع ، معناه هل يفعل ربك ، فعبر عن الفعل بالاستطاعة لأنها شرطه ، أي هل يُنزِلُ علينا ربُّك مائدةً إن دعوتَه. ومثله ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، أي لن نؤاخذه ، فعبر عن المؤاخذة بشرطها وهو القدرة عليها ، وأما قراءة الكسائي فتقديرها هل تستطيع سؤال ربك ، فحذف المضاف ، أو هل تطلب طاعة ربك في إنزال المائدة أي استجابته) [٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْحَوَارِيِّينَ : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ (المائدة: ١١٢) إنَّمَا اسْتَفْهَمُوا عَنْ هَذِهِ الْقُدْرَةِ ، وَكَذَلِكَ ظَنَّ يُونُسُ ﴿ **أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أَيْ فُسِّرَ بِالْقُدْرَةِ كَمَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ ؛ هَلْ تَقْدِرُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا ؟ أَيْ هَلْ تَفْعَلُهُ ؟ وَهُوَ مَشْهُورٌ فِي كَلَامِ النَّاسِ) [٦] .

---

[١] تفسير القرطبي (٢٨٥/٨) .

[٢] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، كتاب الصلاة / باب العمل في الوضوء (٥٠/١) ، حديث رقم ٣٢ .

[٣] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢٥٩/٢) .

[٤] قال عنه ابن خلدون : (ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه) . انظر الأعلام للزركلي (١٤٧/٤) .

[٥] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ص٩٠٤-٩٠٥ .

[٦] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٧٤/٨) .

قال الحافظ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي (٨٢٣-٩٢٦هـ) : (فإن قلت : كيف قال الحواريون ذلك ، وهم خُلَّص أتباع عيسى ، وهو كفر ؛ لأنه شكٌّ في قدرة الله تعالى وذلك كفر . قلت : الاستفهام المذكور استفهام من الفعل لا من القدرة ، كما يقال للغني القادر : هل تقدر أن تعطيني شيئًا ؟ وهذه تسمى استطاعة المطاوعة ، لا استطاعة القدرة ، والمعنى : هل يسهل عليك أن تسأل ربك ؟ كقولك لآخر : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك) [(١)] .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (ومن ذلك أجيب عن الآية بأجوبة فقيل : إن معنى ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ** ﴾ هل يفعل كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم مبالغة في التقاضي . ونقل هذا القول عن الحسن . والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ هي من أسباب الايجاد ، وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل تسمية للسبب الذي هو الإرادة باسم المسبب الذي هو الفعل) [(٢)] .

قال محمد الطاهر ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ) : (وجرى قوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ على طريقة عربية في العرض والدعاء ، يقولون للمستطيع لأمر : هل تستطيع كذا ، على معنى تطلّب العذر له إن لم يجبك إلى مطلوبك وأنّ السائل لا يحبّ أن يكلّف المسئول ما يشقّ عليه ، وذلك كناية فلم يبق منظوراً فيه إلى صريح المعنى المقتضي أنّه يشكّ في استطاعة المسئول ، وإنّما يقول ذلك الأدنى للأعلى منه ، وفي شيء يعلم أنه مستطاع للمسئول ، فقرينة الكناية تحقّقُ المسئول أنّ السائل يعلم استطاعته . ومنه ما جاء في حديث يحيى المازني أنَّ رجلاً قال لعبد الله بن زيد : (أتستطيع أن تريني كيف كان رسول الله يتوضَّأ) . فإنّ السائل يعلم أنَّ عبد الله بن زيد لا يشقُّ عليه ذلك ، فليس قول الحواريِّين المحكي بهذا اللفظ في القرآن إلاَّ لفظاً من لغتهم يدلُّ على التلطُّف والتأدُّب في السؤال ، كما هو مناسب أهل الإيمان الخالص . وليس شكّاً في قدرة الله تعالى ولكنَّهم سألوا آية لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان بأن ينتقلوا من الدليل العقلي إلى الدليل المحسوس . فإنَّ النفوس بالمحسوس آنس ، كما لم يكن سؤال إبراهيم بقوله ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى** ﴾ (البقرة:٢٦٠) ، شكّاً في الحال . وعلى هذا المعنى جرى تفسير المحققين مثل ابن عطية ، والواحدي ، والبغوي خلافاً لما في «الكشاف») [(٣)] .

قال جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) وجلال الدين المحلي (٧٩١-٨٦٤هـ) : (﴿ **يَسْتَطِيعُ** ﴾ : أي يفعل ، وفي قراءة بتاء فوقانية ، أي : تستطيع أن تسأله) [(٤)] .

[(١)] فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن ، ص ١٥٣ .

[(٢)] تفسير الألوسي (٥٩/٧) .

[(٣)] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٥/٧) .

[(٤)] تفسير الجلالين للإمامين جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلى ، ص ١٣٠ .

قال شهاب الدين الخفاجي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) : (.. فقد عرفت أن العرب استعملته بهذا المعنى ، وفي الإنصاف قيل : معنى يستطيع : يفعل ، كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ ونقل هذا القول عن الحسن ، فعلى هذا يكون إيمانهم سالماً عن الشك في القدرة) [1] .

قال الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي (ت: ١٢٠٤هـ) : (السؤال إنما هو عن الفعل دون القدرة عليه تعبيراً عنه بلازمه ، وذلك لأنهم كانوا مؤمنين موقنين بقدرة الله على هذا الفعل ، والمعنى : إذا سألت ربك هل ينزلها أو لا ؟) [2] .

قال أبو البقاء الحسيني الكفومي (ت: ١٠٩٤هـ) : (ونفي الاستطاعة قد يراد به نفي القدرة والإمكان نحو ﴿ **فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً** ﴾ (يس: ٥٠) ، ﴿ **وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا** ﴾ (الكهف: ٩٧) ، وقد يراد به نفي الامتناع نحو ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ على القراءتين أي : هل يفعل) [3] .

ثانياً : أن الحواريين وضحوا بأنفسهم حقيقة طلبهم فقالوا : ﴿ **نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝** ﴾ (المائدة: ١١٣)

فهم إنما أرادوا أن يأكلوا من المائدة ، وتطمئن قلوبهم كما قال إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

فإن قلت : فما وجه قولهم : ﴿ **وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا** ﴾ (المائدة: ١١٣) ، فهل كانوا شاكين في صدق المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ؟ وما وجه قول المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم لهم : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝** ﴾ (المائدة: ١١٢) ؟

قلت بحول الله تعالى : قد ذكر المفسرين توجيها لهذا الإشكال ، وإليك بيان ذلك :

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (﴿ **قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا** ﴾ أي: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ **وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا** ﴾ ، إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء ﴿ **وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا** ﴾ أي : **ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك** ، ﴿ **وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ** ﴾ أي: ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به) [4] .

---

[1] حاشية الشهاب على البيضاوي (٣/٣٠٠) .

[2] الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (١/٥٤١-٥٤٢) .

[3] كتاب الكليات ، ص ١٤٩.

[4] تفسير ابن كثير (٣/٢٢٥) .

ثالثاً: إن الحواريين هم خلصاء الأنبياء ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جاؤوا بالتوحيد ، فكيف يخفى عليهم أبسط معاني التوحيد ؟

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (وقال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين ، وأيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ** ﴾ (المائدة: ١١٥) ، وبأن وصفهم بالحواريين ينافي أن يكونوا على الباطل ، وبأن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم ، والإقتداء بسنتهم في قوله عز من قائل : ﴿ **كُونُوا أَنْصَارَ اللَّه** ﴾ (الصف: ١٤) الآية ، وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مدح الزبير « **إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا ، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ** »[١]) .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (وقيل المعنى : هل يقدر ربك ، وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) أي لا تشكوا في قدرة الله تعالى .

قلت : وهذا فيه نظر لأن **الحواريين خلصاء الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال** : ﴿ **مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** ﴾ (الصف: ١٤) ، وقال عليه السلام : « **لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ ، وَحَوَارِيِّ الزُّبَيْرُ** »[٢] ، **ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم فيكف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى ؟**)[٣] ... إلى أن قال : (قال ابن الحصار : وقوله سبحانه مخبراً عن الحواريين لعيسى : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ ليس بشك في الاستطاعة ، وإنما هو تلطف في السؤال ، وأدب مع الله تعالى ، إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد ، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى ، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن[٤] ، وأما قراءة التاء فقيل : المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك ، هذا قول عائشة و مجاهد رضي الله عنهما قالت عائشة رضي الله عنها : (**كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا** ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ ، قالت : ولكن ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾) ، وروي عنها أيضاً أنها قالت : (**كان الحواريون لا يشكون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا : له** ﴿ **تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾) وعن

---

[١] صحيح البخاري ، كتاب المغازي / باب غزوة الخندق ، ط. المكتز (حديث رقم : ٤١١٣ ، ص ١١٢٥-١١٢٦) ، الطبعة السلطانية (١١١/٥) .

[٢] صحيح البخاري ، كتاب أخبار الآحاد / باب بعث النبي الزبير طليعة وحده ، ط. المكتز (حديث رقم : ٧٢٦١ ، ص ١٩٦٤) ، الطبعة السلطانية (٨٩/٩) .

[٣] تفسير القرطبي (٢٨٤/٨-٢٨٥) .

[٤] مصطلح الممكن يقصد به العلماء الشيء فتنبه .

معاذ بن جبل قال : (أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾) ، قال معاذ : (وسمعت النبي صلى الله عليه و سلم مرارا يقرأ بالتاء ﴿ **هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبَّكَ** ﴾) ، وقال الزجاج : المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله ، وقيل : هل تستطيع أن تدعوا ربك أو تسأله ، والمعنى متقارب ، ولا بد من محذوف كما قال : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ (يوسف: ٨٢) ، وعلى قراءة الياء لا يحتاج إلى حذف) [١] .

قلت بحول الله تعالى : وأما ما أجاب به البعض عن قول الحواريين من أن ذلك كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله أي قبل أن يكونوا حواريين وأنصاراً لله عز وجل بل وقبل أن يكونوا موحدين ، وأنه لهذا قال لهم المسيح عيسى عليهم الصلاة والسلام استتابة لهم : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ۝ ﴾ (المائدة: ١١٢) بمعنى لا تشكوا في قدرة الله ، وأن قولهم أنهم آمنوا وأنهم أنصار الله عز وجل ، إنما كانت دعوى باللسان ، فهو جواب ضعيف ويرده أن الله عز وجل وصف القائلين أنهم الحواريين وهم خلصاء عيسى عليه السلام وأنصاره ، وأن الله عز وجل أمر المؤمنين بالاقتداء هؤلاء الحواريين وذلك في قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ** ﴾ (الصف: ١٤) ، فلو كان قولهم أنهم أنصار الله مجرد دعوى باللسان لما كان ليأمر الله عز وجل المؤمنين بالاقتداء بهم ، وبالله تعالى التوفيق .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (قال ابن الأنباري : **ولا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكُّوا في قدرة الله** ، وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ، وهو يعلم أنه مستطيع ، ولكنّه يريد : هل يسهل عليك . وقال أبو علي : المعنى : هل يفعل ذلك بمسألتك إيّاه . وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك قبل استحكام إيمانهم ومعرفتهم ، فردَّ عليهم عيسى بقوله : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ ، أن تنسبوه إلى عجز ، والأول أصح) [٢] .

قلت بحول الله تعالى : والأول أصح وهو قول جمهور المفسرين كما نقل ذلك بعض أهل التفسير ، وإليك أقوالهم :

قال أبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥هـ) : (وقرأ الجمهور ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ بالياء وضم الباء ، وهذا اللفظ يقتضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن يترل مائدة من السماء ، وذلك هو الذي حمل الزمخشري على أن الحواريين لم يكونوا مؤمنين قال : (فإن قلت : كيف قالوا ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم؟ (قلت) : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكا

---

[١] تفسير القرطبي (٨/٢٨٦-٢٨٧) .

[٢] تفسير ابن الجوزي (٢/٤٥٦) .

ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه قــوله : ﴿ **قَالُوا** ﴾ [١] ، فآذن أن دعواهم كانت باطلة وأنهم كانوا شــاكين وقوله : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ **كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم** ، ولذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا مــا تــشتهون مــن الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) إن كانت دعواكم للإيمــان صحيحة) انتهى .

وأما غير الزمخشري من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين ، حتى قال ابن عطية : لا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين ، وقال قوم : قال الحواريون هذه المقالــة في صــدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، قال المفسرون : (والحواريون هم خواص عيسى وكانوا مؤمنين و لم يشكوا في قدرة الله تعالى على ذلك) . قال ابن الأنباري : (لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ وهو يعلم أنه مستطيع له ، ولكنه يريد هل يسهل عليك) انتهى . وقال الفارسي : (معناه هل يفعل ذلك بمسألتك إياه) . وقال الحسن : (لم يشكوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل يترل أم لا فإن كان يترل فاسأله لنا) . قال ابن عطية : (هل يفعل تعالى هذا وهل يقع منه إجابة إليــه كما قال لعبد الله بن زيد : (**هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِيَنِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليــه وســلم يَتَوَضَّأُ ؟**) [٢] فالمعنى هل يخف عليك وهل تفعله) انتهى) [٣] .

قال جمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هــ) : (قال أكثر المفسرين : الاستفهام علــى القــراءة الأولى (يقصد قراءة ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾) محمول على المجاز ؛ إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم علــى الحواريين أنهم شكوا في قدرة الله تعالى ، لكنه كما يقول الرجل لصاحبه : هل تستطيع أن تقوم معي ؟ مع علمه بأنه يقدر على القيام مبالغة في التقاضي) [٤] .

بل ذكر الحلبي أن من قال أن الحواريين شكوا في القدرة فقد خرق الإجماع ، نقله عنه شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هــ) حيث قال : (﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ (المائــدة: ١١٢) منصوب بــ ﴿ **اذْكُرْ** ﴾ (المائدة: ١١٠) على أنه ابتداء كلام لبيان ما جرى بينه عليه الــصلاة والسلام وبين قومه منقطع عما قبله كما يشير إليه الإظهار في مقام الإضمار . وجوِّز أن يكون ظرفــاً لــ ﴿ **قَالُوا** ﴾ [٥] ، وفيه على ما قيل حينئذ تنبيه على أن ادعاءهم الإخلاص مــع قــولهم : ﴿ **هَــلْ**

---

[١] في الآية ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) وليس (قالوا) ولعله خطأ من الناسخ .

[٢] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، كتاب الصلاة / باب العمل في الوضوء (٥٠/١) ، حديث رقم ٣٢ .

[٣] تفسير البحر المحيط (٥٧/٤) .

[٤] محاسن التأويل للقاسمي (٤٢٨/٦-٤٢٩) .

[٥] في الآية ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) وليس (قالوا) ولعله خطأ من الناسخ .

يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (المائدة: ١١٢) لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه ، **لأنهم لو حققوا وعرفوا لم يقولوا ذلك ، إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عز وجل . وتعقب هذا القول الحلبي بأنه خارق للإجماع**)[1] .

قال الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) : (قال ابن الأنباري : لا يجوز لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا في قدرة الله تعالى ، وبهذا يظهر أن قول الزمخشري : ليسوا بمؤمنين ، ليس بجيد وكأنه خارق للإجماع)[2] .

قلت بحول الله تعالى : فهؤلاء العلماء وهم الجمهور نفوا الشك عن الحواريين لأنه ثبت عندهم أنهم مؤمنين والمؤمن عندهم لا يكون مؤمناً إلا بالإيمان الجازم واليقيني بأن الله على كل شيء قدير ، ولو كان عندهم الشك في قدرة الله لا ينافي الإيمان لقالوا أنهم شكوا في قدرة الله عز وجل و لم يبطل إيمانهم لجهلهم ، ولكن حاشا هؤلاء العلماء من هذا الاعتقاد الكفري . وحتى العلماء الذين خالفوا جمهور المفسرين أو خرقوا الإجماع على رأي البعض لم يقولوا أبداً أن الحواريين عذروا بجهلهم بل فسروا الآية على أن عيسى عليه السلام كفَّرهم بذلك واستتابهم ، وإليك أقوال هؤلاء العلماء :

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (قوله : ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) ، من صلة : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ** ﴾ (المائدة: ١١١) ، وإن معنى الكلام : (وإذ أوحيت إلى الحواريون أن آمنوا بي وبرسولي ، إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربَّك ؟) فبيِّنٌ إذ كان ذلك كذلك ، أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه ، وأمرهم بالتوبة ومراجعة الإيمان من قِبلهم ذلك ، والإقرارِ لله بالقدرة على كل شيء ، وتصديقِ رسوله فيما أخبرهم عن ربِّهم من الأخبار . وقد قال عيسى لهم عند قيلهم ذلك له استعظامًا منه لما قالوا : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة: ١١٢))[3] ... إلى أن قال : (وأما قوله: ﴿ **قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ۝ ﴾ (المائدة: ١١٢) ، فإنه يعني : قال عيسى للحواريِّين القائلين له : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ (المائدة: ١١٢) راقبوا الله أيها القوم ، وخافوه أن يَنزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فإن الله لا يعجزه شيء أراده ، وفي شكِّكم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء ، كفرٌ به ، فاتقوا الله أن يُنزل بكم نقمته ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾)[4] .

---

(١) تفسير الألوسي (٥٨/٧) .
(٢) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (٥٤١/١-٥٤٢) .
(٣) تفسير الطبري (٢٢٠/١١) .
(٤) تفسير الطبري (٢٢٣/١١) .

والإمام الطبري صريح جداً في تكفير من جهل قدرة الله عز وجل كغيره من العلماء ، وسيأتيك أقواله في مواضع آتية من هذه الرسالة بعون الله عز وجل .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) ناقلاً هذا الوجه : (انه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكا عنهم ادعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ (المائدة: ١١٢) فدل ذلك على أنهم كانوا شاكين متوقفين فإن هذا القول لا يصدر عمن كان كاملاً في الإيمان ، وقالوا : ﴿ **وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا** ﴾ (المائدة: ١١٣) ، وهذا يدل على مرض في القلب ، وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) يدل على أنهم ما كانوا كاملين في الإيمان) [١] .

قلت بحول الله تعالى : ما كانوا كاملين في الإيمان ليس معناه هنا كمال إيمانهم ، بل معناه لم يكتمل ولم يتم إيمانهم بعد ، أي لم يدخلوا في زمرة المؤمنين الموحدين بعد ، وأما قوله : (ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكا عنهم ادعاءهم لهما) فيرده أن الله عز وجل أمر المؤمنين بالاقتداء بهم وبأن الله عز وجل سماهم الحواريين .

قال الزمخشري المعتزلي (٤٦٧-٥٣٨هـ) : (فإن قلت : كيف قالوا : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ بعد إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكا ادعاءهم لهما ، ثم أتبعه قوله : { **إِذَ قَالُواْ** } [٢] فآذن إنَّ دعواهم كانت باطلة ، وإنهم كانوا شاكين ، وقوله : ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم) [٣] .

قلت بحول الله تعالى : ولقد ذهب بعض العلماء أن هذا القول إنما صدر ممن كان مع الحواريين ، وأنهم فرقتين مؤمنة وكافرة ، وهذا القول تكلف ظاهر ولا دليل عليه من كتاب أو سنة فلا يعوَّل عليه ، والله أعلم على ماذا استند قائله في هذا التفسير ، وإليك ذكر أقوال طائفة من العلماء ممن ردوا هذا التأويل :

قال شهاب الدين الخفاجي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) : (وقال ابن عطية : (صفة الحواريين تنافي عدم إيمانهم ، وهو الحق ، **وادعاء أنهم فرقتان يحتاج إلى نقل** ...) [٤] .

---

[١] تفسير الرازي (١٢/١٣٧) .

[٢] في الآية ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) وليس (قالوا) ولعله خطأ من الناسخ .

[٣] الكشاف للزمخشري (٢/٣١٣-٣١٤) .

[٤] حاشية الشهاب على البيضاوي (٣/٣٠٠-٣٠١) .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (والتزام القول بأن الحواريين فرقتان مؤمنون وهم خالصة عيسى عليه الصلاة والسلام والمأمور بالتشبه بهم وكافرون وهم أصحاب المائدة ، وسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام نزول المائدة وإنزالها ليلزمهم الحجة **يحتاج إلى نقل ولم يوجد**) [1] .

قلت بحول الله تعالى : بعد سرد أقوال الفريقين من المفسرين ، وهما الجمهور ومن شذ عنهم ، يتبين لنا أن الخلاف الحاصل بين الفريقين من المفسرين هو خلاف حول حقيقة إيمان الحواريين . وليس الخلاف بينهم في حكم من شك قدرة الله عز وجل هل هو مؤمن موحد أم لا ، فتأمل .

ولا شك أن الحق في هذه المسألة هو ما عليه الجمهور ، وهو إيمان الحواريين وعدم شكهم في قدرة الله عز وجل ، يدل عليه وصف الله عز وجل لهم بأنهم الحواريين ، وكذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بالاقتداء بهم ، وهذا هو تفسير علماء الصحابة مثل أم المؤمنين عائشة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وعلماء التابعين كسعيد بن جبير والحسن البصري ومجاهد والسدي ومن تبعهم من جمهور العلماء ممن بعدهم.

ومن خالف في إيمان الحواريين اعتبر بعض العلماء قوله شاذاً والبعض الآخر اعتبره خارقاً للإجماع ، وهو تفسير مخالف لثناء الله عز وجل عليهم حيث أمر المؤمنين بالاقتداء بهم ووصفهم بأهم الحواريين . ولعل من شذ من هذا الصنف من المفسرين وهم آحاد لم ينتبهوا إلى هذا الأمر ، وبالله التوفيق .

---

[1] تفسير الألوسي (٧/٥٨-٥٩) .

الفصل الخامس :

تتريه أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما

هي أم المؤمنين الصديقة عائشة بنت الصديق أبو بكر رضي الله عنهما ، زوجة خير الخلق محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا والآخرة ، كنَّاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأم عبد الله وهو عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ابن أختها أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . وهي حبيبة حبيب الله صلى الله عليه وآله وسلم المبرأة من فوق سبع سماوات [1] ، والتي نزل فيها قرآن يتلى إلى يوم القيامة ، وسبح الله عز وجل نفسه في شأنها .

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناديها أحياناً « **يَا عَائِشْ** » [2] وهو في اللغة من باب الترخيم ، ولقبت رضي الله عنها بأم المؤمنين كغيرها من زوجات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ (الأحزاب: ٦) فإذا كانت زوجات النبي [3] صلى الله عليه وآله وسلم أمهاتنا في العقيدة ، فإنهن أعظم حقاً علينا من أمهاتنا في النسب بلا شك .

ولا شك أن محبة أزواج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من علامات الإيمان ، وكرههن أو إحداهن من علامات نقصه بل من علامات فقده ، ولهذا روى عبد الله بن عبيد بن عمير قال : قدم رجل فسأله أبي : (كيف كان وجد الناس على عائشة ؟ (يعني عند وفاتها رضي الله عنها) فقال : كان فيهم وكان . قال : أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه) [4] .

ولدت رضي الله عنها في مكة قبل الهجرة بسبع سنوات تقريباً ، وهي أصغر من فاطمة الزهراء رضي الله عنها بثماني سنين . وتزوجها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمكة وهي بنت ست سنين ودخل بها في المدينة وهي بنت تسع ، ولم يتزوج بكراً غيرها ، وقد أحبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم حباً شديداً . وقد سأله عمرو بن العاص رضي الله عنه عن أحب الناس إليه فأجابه النبي صلى الله عليه وآله

---

[1] فلقد جاء الدفاع عنها في القرآن الكريم في عشر آيات من سورة النور .

[2] مثال ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا « **يَا عَائِشَ ، هَذَا جِبْرِيلُ يُقْرِئُكِ السَّلاَمَ** » فَقُلْتُ : (وَعَلَيْهِ السَّلاَمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، تَرَى مَا لاَ أَرَى) تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) . (صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة / باب فضل عائشة رضي الله عنها ، ط. المكتر (ص١٠٣١-١٠٣٢ ، حديث رقم ٣٧٦٨) ، الطبعة السلطانية (٥/٢٩)) .

[3] ولقد حرمت أمهات المؤمنين علينا بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا** ۝ ﴾ (الأحزاب: ٥٣)

[4] الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/٧٨) .

وسلم فقال : « **عائشة** » ، فسأله بعدها عن أحب الناس إليه من الرجال فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « **أبوها** » [(١)] .

وتربت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها شطراً في بيت الصديق رضي الله عنه (٩ سنوات) ، وشطراً في بيت أفضل الخلق صلى الله عليه وآله وسلم (٩ سنوات) ، فما ظنكم بأدب النبوة ! إذا فلا غرابة في كونها **أعلم النساء** مطلقاً .

روى الذهبي عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قد صحبت عائشة ، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت ، ولا بفريضة ، ولا بسنة ، ولا بشعر ، ولا أروى له ، ولا بيوم من أيام العرب ، ولا بنسب ، ولا بكذا ، ولا بكذا ، ولا بقضاء ، ولا طب ، منها) [(٢)] .

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه : (مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَدِيثٌ قَطُّ فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ إِلاَّ وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ عِلْمًا) [(٣)] .

ودخل معاوية رضي الله عنه على عائشة رضي الله عنها فكلمها فلما قام اتكأ على يد مولاها ذكوان ، وقال: والله ما سمعت خطيبا – ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم – أبلغ من عائشة [(٤)] .

وكان الشعبي يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها ثم يقول : ما ظنكم بأدب النبوة [(٥)] .

وقال الزهري : لو جمع علم الناس كلهم ، وأمهات المؤمنين ، لكانت عائشة أوسعهم علماً [(٦)] .

وقال عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس وأعلمهم ، وأحسن الناس رأيا في العامة [(٧)] .

وقال مسروق : والله ، لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض [(٨)] .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة ، قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق ، حبيبة حبيب الله ، المبرأة من فوق سبع سماوات ، فلم أكذبها ؟ [(٩)]

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة / باب مِنْ فَضَائِلِ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضى الله عنه ، الطبعة السلطانية (١٠٩/٧) ، ط. المكنز (حديث رقم : ٦٣٢٨ ، ص ١٢٤٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٣/٢) .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب المناقب / باب فضل عائشة رضي الله عنها ، وقال : « هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ » ، ط. المكنز (حديث رقم ٤٢٥٧ ، ص ١١٥٩) .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤٧/٣) .

(٥) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٧/٢) .

(٦) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩٩/٢) .

(٧) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠٠/٢) .

(٨) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٢/٢) .

(٩) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨١/٢) .

وقال الإمام الذهبي (٦٧٣-٧٤٨هـ) : (**ولا أعلم في أمه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ولا في النساء مطلقاً امرأة أعلم منها**) [(١)] .

وكان عروة بن الزبير يقول لعائشة : يا أمتاه ! لا أعجب من فقهك ؛ أقول : زوجة نبي الله ، وابنة أبي بكر . ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس ؛ أقول: ابنة أبي بكر ، وكان أعلم الناس [(٢)] .

قلت بحول الله تعالى : فهذه هي أم المؤمنين رضي الله عنها ، وهذا جملة من فضائلها [(٣)] ، وقد ركزنا على بيان علمها وفقهها لأن السفهاء أصحاب الإفك الحديث رموها من هذا الجانب . ولا عجب من هؤلاء السفهاء فهم تجنوا على أنبياء الله وحوارييهم فكيف تسلم أم المؤمنين رضي الله عنها من ألسنة هؤلاء الطاعنين الذين لم يعرفوا لأنبياء الله عليهم الصلاة والسلام حرمة و لم يقدروهم حق قدرهم .

فأصحاب الإفك الحديث رموا من تربت تسع سنين في بيت الصديق أبي بكر رضي الله عنه وتأدبت بأدب الصديق ، ومن ثم انتقلت إلى بيت النبوة فتأدبت بأدب النبوة بأنها كانت تجهل أن الله عليم بذات الصدور ، أي عليم بما يخفيه الإنسان ويكتمه في صدره . ولا شك أن هذا الإفك الذي رموه بها لو نسب إلى أحدهم أو إلى أحد أبنائهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد لاشتط بذلك غضبهم ، عاملهم الله عز وجل بما يستحقون .

ومع كل هذا ينتسب أصحاب الإفك الحديث إلى عائشة رضي الله عنها ويقولون أنها أمهم ، وكذبوا والله فإن عائشة رضي الله تعالى عنها ليست أم كل من هب ودب ، وإنما هي أم المؤمنين الموحدين المتبرئين من الشرك وأهله لا غير .

ولا يدري هؤلاء المساكين أصحاب الإفك الحديث أنهم بهذا الإفك يؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم . لأنهم رموا زوجته وحبيبته بهذا الإفك الذي لا يرضونه هم لأهل بيتهم والذي لو نسب إلى أهل بيتهم لغضبوا أشد الغضب .

يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ۝** ﴾ (الأحزاب: ٥٧)

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤٠/٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨٢/٢) .

(٣) فلها رضي الله عنها من الفضائل الجمة والمناقب الكثيرة التي لا يتسع لها هذا الموضع ، رضي الله عنها وأرضاها . وإلا ففضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ** » . (صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة / باب فضل عائشة ، ط. المكنز (ص ١٠٣٢ ، حديث رقم ٣٧٦٨) ، الطبعة السلطانية (٢٩/٥)) .

وفي حادثة الإفك الأول قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعذر من صاحب الإفك الأول عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقال وهو على المنبر : « **يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا** » [١] .

أقول بحول الله تعالى : فإننا بحول الله تعالى سنعذر رسولنا وحبيبنا وقائدنا وأسوتنا فداه آباؤنا وأمهاتنا صلى الله عليه وآله وسلم من رجال سفهاء بلغ أذاهم إلى أهل بيته ، بل بلغ أذاهم إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً في التقصير عن تعليم أهله أبسط معاني العقيدة ، وسنأتي بنيان هؤلاء من القواعد بفضل الله عز وجل فننسفه نسفاً حتى يخر عليهم سقفهم المنتن من فوقهم ، فلا تقوم لهم قائمة بعدها إلى يوم القيامة بإذن الله عز وجل . فإليك الحديث الذي استدل به أصحاب الإفك الحديث :

أخرج الإمام مسلم في صحيحه قال : وَحَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ حَجَّاجًا الأَعْوَرَ – وَاللَّفْظُ لَهُ – قَالَ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّد حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّه – رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ – عَنْ مُحَمَّد بْن قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا : أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ أُمِّي ، قَالَ : فَظَنَنَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أُمَّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ . قَالَ : قَالَتْ عَائِشَةُ : (أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ عَنِّي وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم) . قُلْنَا : (بَلَى) . قَالَ : قَالَتْ : (لَمَّا كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِيهَا عِنْدِي انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ ، وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ فَاضْطَجَعَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدًا ، وَانْتَعَلَ رُوَيْدًا ، وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَخَرَجَ ، ثُمَّ أَجَافَهُ [٢] رُوَيْدًا ، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي ، وَاخْتَمَرْتُ ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي [٣] ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ [٤] ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ [٥] ، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ ، فَلَيْسَ إِلاَّ أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ فَقَالَ : « **مَا لَكِ يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَةً** » [٦] . قَالَتْ : (قُلْتُ : لاَ شَيْءَ) . قَالَ : « **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ». قَالَتْ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَأَخْبَرْتُهُ) ، قَالَ : « **فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي ؟** » . قُلْتُ : نَعَمْ . فَلَهَدَنِي [٧] فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي ، ثُمَّ قَالَ : «

---

[١] صحيح البخاري ، كتاب المغازي / باب حديث الإفك ، ط. المكتز (حديث رقم : ٤١٤١ ، ص ١١٣٤) ، الطبعة السلطانية (١١٨/٥) .

[٢] أجافه أي أغلقه .

[٣] تقنعت إزاري أي لبسته .

[٤] الهرولة هي المشي السريع دون العدو .

[٥] الإحضار هو العدو ، أي زاد في الإسراع أشد من الذي قبله فازددت أنا فيه .

[٦] (حَشْيَا) أي مرتفعة النفس كما يحصل للمسرع في المشي ، (رَابِيَة) مرتفعة البطن ، وذلك نتيجة أن هرولت وأحضرت في المشي رضي الله عنها وأرضاها .

[٧] لهدني أي دفعني .

أَظَنَنْت أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْك وَرَسُولُهُ ! » [١] . قَالَتْ : مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ . قَالَ : « **فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْت فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْك فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْك ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْك وَقَدْ وَضَعْت ثِيَابَك ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْت ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَك ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي ، فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ** ». قَالَتْ : (قُلْتُ : كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟) ، قَالَ : « **قُولِي : السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ** » [٢] .

قلت بحول الله تعالى : قد نقل الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) عن شيخه الحافظ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) قاعدة جليلة في الرد على شبهات من مثل هذا النوع فقال : (أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله) [٣] .

فهذا حديث صحيح احتج أصحاب الإفك الحديث على باطلهم ، وفي نفس هذا الدليل يوجد ما ينقض قولهم وإليك تفصيل ذلك من وجوه :

الوجه الأول : زعم أصحاب الإفك الحديث أن أم المؤمنين رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل يعلم الله كل ما يكتمه الناس ؟ وليس في الحديث ما زعموا ، وإنما يوجد قولها : (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ**) ، فهذا ليس بصيغة سؤال أصلاً ، وإنما تقرير أن كل ما يكتمه الناس يعلمه الله ، فـ (مَهْمَا) في لغة العرب ليست أداة سؤال واستفهام وإنما أداة شرط تفيد التوكيد أو كلمة تفيد زيادة التعميم . فكما ترى أن نفس ما احتجوا به على إفكهم هو في الحقيقة حجة لنا لا لهم.

و(مَهْمَا) وردت في القرآن الكريم في موضع واحد وهو قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝** ﴾ (الأعراف: ١٣٢)

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ** ﴾ أي قال قوم فرعون لموسى (مَهْمَا) ، قال الخليل : الأصل (مَا مَا) الأولى **للشرط** والثانية زائدة **توكيد** للجزاء ، كما تزاد في سائر الحروف مثل إما وحيثما وأينما وكيفما ، فكرهوا حرفين

---

[١] الحيف هو الظلم والجور ، وأما الظلم المنفي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو أن يذهب في نوبتها إلى زوجة أخرى ، وأما الظلم المنفي عن الله عز وجل فهو أن يأذن لرسوله بذلك أو يقره عليه ، والاستفهام هنا استنكاري بمعنى التوبيخ.

[٢] صحيح مسلم ، كتاب الجنائز / باب مَا يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقُبُورِ وَالدُّعَاءِ لِأَهْلِهَا ، ط. المكنز (حديث رقم: ٢٣٠٠ ، ص ٤٥٤-٤٥٥) ، الطبعة السلطانية (٣/٦٣-٦٤)

[٣] حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ، ص ٢٠٢ .

لفظهما واحد فأبدلوا من الألف الأولى هاء فقالوا مهما ، وقال الكسائي : أصله (مه) أي اكفف (ما) تأتنا به من آية ، وقيل : هي كلمة مفردة يجازى بها **ليجزم** ما بعدها) [١] .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (كلمة (مهما) مما اختلف فيها فقيل هي كلمة برأسها موضوعة **لزيادة التعميم** . وقيل : هي مركبة من (مَهْ) اسم فعل للكف ، إما باق على معناه أو مجرد عنه ، و(ما) الشرطية . وقال الخليل : أصلها ما ما على أن الأولى **شرطية** والثانية إبهامية متصلة بها **لزيادة التعميم** فقلبت ألف ما الأولى هاء فراراً من بشاعة التكرار) [٢] .

قلت بحول الله تعالى : فأما أن تكون (مَهْمَا) في كلام عائشة رضي الله عنها بمعنى (مَهْ مَا) أي (اُكْفُفْ مَا) فلا يناسب سياق كلامها كما هو ظاهر . وعلى المعاني الأخرى الكثيرة المنوعة لـ (مَهْمَا) يكون معنى كلام عائشة رضي الله عنها بيان علم الله عز وجل لعموم ما يكتمه الناس ، أي تعميم علم الله عز وجل لكل الأشياء ، أي بيان كمال علم الله عز وجل ، وتأكيد ذلك .

ومما يدل على ذلك روايات الحديث الأخرى لكلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وفيها قولها : (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ فَقَدْ عَلِمَهُ اللَّهُ**) . أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه [٣] ، والنسائي في سننه [٤] .

وكلام عائشة رضي الله عنها من الناحية اللغوية يشبه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

و أما (نعم) الذي هو من تتمة كلام عائشة رضي الله عنها كما في رواية الإمام مسلم وعلى نفس الوجه أخرجه الإمام عبد الرزاق ، فقد ورد في رواية النسائي وأحمد في مسنده أن (نعم) من كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم . فاحتج أصحاب الإفك الحديث بهذا وقالوا أن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها (نعم) يدل على أنها سألت وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أجابها بـ (نعم) ، هذا هو حجتهم في قلب الجملة التي أفادت الجزم والتوكيد إلى جملة استفهامية .

فأقول بحول الله تعالى : إن هذا النوع من الاختلاف في الرواية يحتاج إلى ترجيح كما هو مقرر في الأصول .

لكن قبل ذكر الترجيح نقول لهم : حتى لو صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي قال نعم ، فهذا لا يقلب تقرير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سؤالاً ، وإنما يفيد أحد أمرين : إما أن النبي

---

[١] تفسير القرطبي (٩/٣٠٨) .

[٢] تفسير الألوسي (٩/٣٣) .

[٣] صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (١٦/٦٤) ، حديث رقم ٧١١٠ .

[٤] سنن النسائي ، كتاب الجنائز / باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ، ط. المكتر (حديث رقم ٢٠٣٧ ، ص ٤٠١) .

صلى الله عليه وآله وسلم قال (نعم) تصديقاً لكلام أم المؤمنين رضي الله عنها وتأكيداً له ، وإما قال (نعم) لابتداء كلامه .

وأما حول اختلاف الروايات في تعيين قائل (نعم) في تتم كلام عائشة رضي الله عنها ، فيحتاج كما قلنا لترجيح إذ لا يمكن الجمع بين هذه الروايات ، فعندها نقول أن الرواية التي ورد فيها (نعم) من تتمة كلام عائشة رضي الله عنها هي الرواية الراجحة لأسباب :

الأول : إن إسناد عبد الرزاق والذي ورد فيه (نعم) من تتمة كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو أعلى الأسانيد ، لقله عدد رواته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأهل العلم يرجحون الأحاديث باعتبار علو الإسناد كما هو معلوم .

الثاني : إن الرواية التي ورد فيها (نعم) من تتمة كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وردت في صحيح مسلم ، وأهل العلم يرجحون ما في الصحيحين على ما ليس فيهما ، وكذلك يرجحون رواية الإمام مسلم لشدة إتقانه وضبطه ومحافظته على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بالمعنى فالإمام مسلم مشهور بتحرزه في الألفاظ والسياق ، ولعله في هذا الشأن قد فاق الإمام البخاري رحمه الله .

الثالث : إن أهل العلم يرجحون الرواية التي ليس فيها إشعار بقدح في صحابي ما على غيره من الروايات التي ممكن أن تشعر بذلك ، وباعتبار هذا النوع من الترجيح بأمر خارجي فإن الرواية التي ورد فيها (نعم) من تتمة كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي الرواية الراجحة ، وبالله التوفيق .

ومن جملة اللطائف أن شراح الحديث المتقدمين ومن تبعهم من المتأخرين لم يشيروا في شرحهم لهذا الحديث ولو مجرد لفتة يسيرة إلى معنى كلام عائشة رضي الله عنها (مهما يكتم الناس يعلمه الله) ، فمن هؤلاء الإمام المازري (٤٥٣-٥٣٦هـ) ، والقاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) ، والإمام أبو عبد الله الأُبِّي المالكي (ت: ٧٢٧ هـ) ، والإمام السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) ، والإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) [1] ، والإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) ، ومن المعاصرين الشيخ أبو الحسن علي بن سليمان الدمنتي المغربي (١٢٣٤-١٣٠٦هـ) ، والشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، والشيخ محمد ذهني ، والدكتور مصطفى شاهين لاشين كلهم في شروحهم على صحيح الإمام مسلم ، ومن المتقدمين أيضاً الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) ، ونور الدين أبو الحسن السندي (ت. ١١٣٨هـ) في تعليقهما على سنن الإمام النسائي ، ومن المتأخرين أيضاً الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي في تحقيقه لمصنف عبد الرزاق ، والشيخ الألباني في تحقيقه لمختصر

[1] والإمام أبو العباس القرطبي يركز في شرحه لصحيح مسلم على ما هو قد يكون مشكلاً على البعض يدل عليه تسميته لكتابه بـ (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم) ، ولو كان في كلامها أدنى إشكال يشكل على البعض لذكره .

صحيح مسلم ، فلم ير أحد منهم أن كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الذي استنتج منه أصحاب الإفك الحديث ما استنتجوا من خيالات شيطانية يحتاج إلى شرح أو كشف عن مشكل . وإنما أشار بعضهم إلى معنى (نعم) الذي هو من تتمة كلامها لماذا قالته ، فلو كان ظاهر كلامها فيه أدنى إشكال لذكروا على الأقل وجه الإشكال لكي يزيلوه ، وبالله التوفيق .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (قَوْله : « **قَالَتْ : مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ** » هَكَذَا هُوَ فِي الأُصُول وَهُوَ صَحِيح ، وَكَأَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ : « **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** » صَدَّقَتْ نَفْسهَا فَقَالَتْ : نَعَمْ) [١] .

قال الإمام أبو عبد الله الأُبِّي المالكي (ت: ٧٢٧ هـ) : (« **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** » كذا في الأصول ، والمعنى أنها لما قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله تعالى صدقت نفسها ، فقالت : نعم) [٢] .

وقد نقل هذا القول عن الإمام الأبي الإمام السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) [٣] و لم يتعقبه .

والإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) في حاشيته على صحيح مسلم لم يشر إلا إلى معنى (نعم) الذي هو من تتمة كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قال : (نعم : هو من تتمة كلام عائشة صدقت نفسها) [٤] .

وقد تبع عدد من شراح صحيح مسلم المعاصرين المتقدمين من العلماء وساروا على نهجهم في شرح مقولة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وإليك أقوالهم :

قال الشيخ محمد الألباني تعليقاً على قول أم المؤمنين (نعم) : (هكذا هو في الأصول ، وهو صحيح ، وكأنها لما قالت (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) صدقت نفسها فقالت : (نعم)) [٥] .

قال الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي تعليقاً على قول أم المؤمنين (نعم) : (كأنها لما قالت ذلك صدَّقت نفسها ، فقالت : نعم ، قاله النووي) [٦] .

قال الشيخ علي بن سليمان الدمنتي المغربي (١٢٣٤-١٣٠٦هـ) : ("نعم" هو من تتمة كلام عائشة صدقت نفسها) [٧] .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (٤٤/٧) .

[٢] صحيح مسلم مع شرحه المسمى إكمال إكمال المعلم للأبي (١٠٤/٣).

[٣] انظر صحيح مسلم مع شرحه المسمى مكمل إكمال الإكمال (١٠٤/٣).

[٤] الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (٤٦/٣) .

[٥] مختصر صحيح الإمام مسلم للمنذري بتحقيق الألباني ، ص ١٣٤ .

[٦] مصنف عبد الرزاق بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي (٥٧١/٣) .

[٧] وشي الديباج في شرح مسلم بن حجاج (١٠٣/١) .

قال الدكتور مصطفى شاهين لاشين : (« **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ** » صدقت نفسها ، وأكَّدت قولها (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) كأنها قالت بعد ما قالته قالت : هذا حق) [1] .

قال الشيخ محمد ذهني تعليقاً على قول أم المؤمنين (نعم) : (هكذا في الأصول ، وكأنها لما قالت (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**) صدَّقت نفسها فقالت : (نعم)) [2] .

قلت بحول الله تعالى : ها هو الإمام النووي وغيره من العلماء المتقدمين ومن تبعهم في شرح مقولة أم المؤمنين رضي الله عنها من المتأخرين [3] لما أرادوا أن يشرحوا معنى (نعم) الذي هو من تتمة كلام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، أعادوا في الشرح قولها « **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** » بنفس الألفاظ دون شرح ، لأنه كلام واضح لا يحتاج إلى شرح وليس فيه إشكال أصلاً ، فلم يروا أن قولها « « **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** » يحتاج إلى شرح إلا ما ورد من (نعم) الذي هو من تتمة كلامها فقالوا أن هذا من باب تصديق نفسها بنفسها .

و لم أجد إلا واحداً من شراح الحديث المعاصرين نبَّه إلى معنى كلام أم المؤمنين رضي الله عنها وهو الشيخ محمد ابن علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الوَّلّوي المدرس بدار الحديث الخيرية بمكة المكرمة حيث قال في معرض شرحه لرواية الإمام النسائي لهذا الحديث : (« **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ** » (مَهْمَا) شرطية ، ولذا جزم الفعل بعدها ، وجوابها قوله : « **فَقَدْ عَلِمَهُ اللَّه** » ، ولمسلم « **مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ») [4] . وبالله التوفيق .

الوجه الثاني : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى أم المؤمنين رضي الله عنها حشيا رابية قال لها : « **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** » فهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعلمها أنها إن لم تخبره بأمرها لماذا هي حشيا رابية أن الله اللطيف الخبير بكل شيء سيخبره بهذا ، فكيف بعد هذا تسأل عن علم الله بما يكتمه الناس ؟!!

الوجه الثالث : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما علم أنها خرجت غيرة عليه أن شكت في ذهابه إلى امرأة أخرى من نسائه في نوبتها لهدها في صدرها لهدة أوجعتها وقال لها : « **أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ** » ، ولما قالت : (مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ) لم يغضب عليها مثل ما غضب

---

[1] فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٢٥٧/٤) .

[2] صحيح مسلم بتحقيق وشرح محمد ذهني (٣٨٧/١) .

[3] لاحظ أن هؤلاء المعاصرين لا نعتقد إسلامهم ، فمنهم من نجهل حاله ، ومنهم من يدافعون عن توحيد من عبد غير الله جاهلاً أو متأولاً وغير ذلك من طوامهم . أما سبب إيرادنا شروحهم هنا فهذا لكي يعلم أصحاب الإفك الحديث أن بعض شيوخهم المعاصرين يخالفونهم أيضاً في هذا الإفك الحديث .

[4] ذخيرة العقبى في شرح المجتبى (٤٩/٢٠) .

عليها في الأولى ، مما يبين لنا أنها لم تقل شيئًا يوجب الغضب بوجه من الوجوه ، وإنما قررت علم الله عز وجل بكل شيء .

فإن قالوا : لم يغضب عليها لأنها سألت ذلك سؤال جاهل متعلم ؟

قلنا لهم بحول الله تعالى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يشتد غضبه على من سأل أموراً دون الشك في علم الله عز وجل مع أن السائل كان جاهلاً ، مثل سؤال الصحابة ذات أنواط [1] ، وكذلك استشفاع أسامة بن زيد رضي الله عنه في حد من الحدود . وكل هؤلاء لم يكونوا سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وطلبوا منه ما طلبوا عن عناد وإنما عن جهل .

فإن قلت : فلماذا قالت (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ**) ؟

قلت بحول الله تعالى : ذلك على أحد وجهين :

الوجه الأول : على سبيل التدبر والتأمل والتعجب من كمال علم الله سبحانه وتعالى وإحاطة علمه إظهاراً للخشية .

الوجه الثاني : على وجه الاستنفار لحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم طلباً لمزيد علم وفقه ، كقول العربي لصاحبه " أغشيت عكاظاً بالأمس " وهو يعلم أنه ذهب إليها ، ولكنه يستنفره ليحدثه عن تفصيل ما حدث هناك .

قلت بحول الله تعالى : والأظهر عندي أنها قالت ذلك على سبيل تعظيم الله وتسبيحه ، على سبيل التأمل والتدبر والتعجب من عظيم علم الله عز وجل ، كقول الواحد سبحان الله ، أي تتره الله عن النقائص والمعائب ، فهي عظمت الله من هذا الوجه ، ولعلها عظمت الله عز وجل بهذا النوع من التعظيم لأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قال لها : « **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** » فقالت بعد ذلك (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ**) ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم نعم .

---

[1] إن الصحابة رضوان الله عليهم ومنهم أبو واقد الليثي رضي الله عنه لما رأو للمشركين شجرة يعتكفون بها وينوطون أي يعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعل لهم ذات أنواط بمعنى أنهم طلبوا شجرة يعلقون بها أسلحتهم لكي يترل الله عز وجل بركته عليها راجين أن يبارك الله عز وجل في هذا السلاح بحيث يكون النصر حليفهم ، فهم في الحقيقة طلبوا البركة والنصر من الله عز وجل على عكس المشركين الذين كانوا يرجون البركة والنصر من ذات الشجرة ، وهذا الطلب في أصله لا شيء عليه لأنهم طلبوا ذلك من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكي يطلبه من الله عز وجل أن يشرع ذلك لهم ، وإنما غضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم بسبب ما في هذا الطلب من المشابهة بالمشركين ، وهؤلاء الصحابة كانوا جاهلين بحكم التشبه بالمشركين لأنهم كانوا حدثاء عهد بالإسلام ومع ذلك غضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليهم . وهذه الحادثة من الشبهات التي يستدل بها المدافعين عن توحيد من يعبد غير الله عز وجل بحجة أنهم جاهلين أو متأولين ، ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر دحض هذا الاحتجاج بالتفصيل في رسالة مستقلة ، إنه المعين والموفق لكل خير ، وهو على كل شيء قدير .

أقول بحول الله تعالى : وبعد ذلك بدا لي بفضل الله عز وجل جواب آخر ، وهو أن قول عائشة رضي الله عنها : (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ**) ليس من أقوالها التي خاطبت بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما هو من أقوالها التي قالتها لراوي الحديث وهو مُحَمَّد بْنِ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ ، وأنت إذا رجعت إلى سياق الإمام مسلم في روايته للحديث ، وهو المشهور بشدة ضبطه لسياق الأحاديث وألفاظها ، لوجدت أن الأقوال التي خاطبت بها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تصدِّرها بقولها (قُلْتُ) ، وهذا التصدير لم يرد في كلامها (**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ**) الذي إنما صدَّرها راوي الحديث عنها بقوله (قَالَتْ) فراجع هداك الله سياق الحديث بتروي لتقف على ذلك .

وعلى هذا فكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حقيقته متصل أي أنه قال لها : « **أَظَنَنْت أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْك وَرَسُولُهُ ! فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْت ، فَنَادَانِي ، فَأَخْفَاهُ مِنْك ، فَأَجَبْتُهُ ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْك ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْك وَقَدْ وَضَعْت ثِيَابَك ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْت فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَك ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي ، فَقَالَ إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ** » ومما يدل على أن كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متصل استخدامه الفاء في قوله « **فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي** ... » .

ولكن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما حدثت من حدثتهم قالت لهم : (.. فَدَخَلَ فَقَالَ : « **مَا لَك يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَةً** » قُلْتُ : لاَ شَيْءَ . قَالَ : « **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ». قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَأَخْبَرْتُهُ ، قَالَ : « **فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي** ». قُلْتُ : نَعَمْ . فَلَهَدَنِي فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي ، ثُمَّ قَالَ : « **أَظَنَنْت أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْك وَرَسُولُهُ** ») فتوقفت فقالت لمن يستمع إليها : (مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ نَعَمْ) ثم أكملت قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها فقالت : (قَالَ : « **فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْت فَنَادَانِي** ... ») اهـ .

فعلى هذا كأن أم المؤمنين رضي الله عنها أرادت أن تقول للحاضرين المستمعين إليها : (إن هذا الأمر الذي أخبرت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان سيعرفه حتى لو لم أخبره أنا ، لأنه قال لي « **لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** » ، وما دام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرني أن الله اللطيف الخبير سيخبره إن لم أخبره أنا ، لم يكن هناك مفر لي لأنه مهما يكتم الناس يعلمه الله نعم) ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم نعم .

ونزيد أصحاب الإفك الحديث بثمانية أجوبة أخرى فنقول بقدرة ملك الملوك جل جلاله :

أولاً : كيف تجهل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها صفة العلم مع أن هذه الصفة مرتبطة بصفة الخلق كما في قوله تعالى : ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۞** ﴾ (الملك: ١٣- ١٤) ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

ثانياً : كيف تجهل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كمال علم الله عز وجل ، وهو ما عرفه كثير من الجاهليون في جاهليتهم ، فهذا زهير بن أبي سلمى من شعراء الجاهلية يقول :

فَلا تَكْتُمُنَّ اللَّهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى ، فَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّه يَعْلَمِ

يُؤخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ ، أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

فإذا عرف هذا الشاعر الجاهلي في جاهليته كمال علم الله عز وجل ، فكيف تجهل ذلك حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الصديقة بنت الصديق التي تربت في بيت الصديق رضي الله عنه وفي بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهي من هي في العلم كما سلف بيانه ؟!! وهل زهير الناشئ والمترعرع في جاهلية جهلاء أكثر معرفة بربه من الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

قالت الصديقة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (**لَمْ أَعْقِلْ أَبَوَيَّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ، فَيَقِفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ الْمُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ يَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً لاَ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) [١] .

ثالثاً : إن الصحيح الراجح أن كمال علم الله عز وجل لا يحتاج إلى تعليمه إلا لمن تشوهت فطرته لأن الخلق مفطورون على معرفة ربهم ، كما أشار لذلك الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) حيث قال : (**فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتتريهه عن العيوب والنقائص**) [٢] . وقال في موضع آخر : (وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره وملك السموات والأرض وقيومها ، **فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع أنواع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا ؟!**) [٣] .

---

[١] صحيح البخاري ، كتاب الصلاة / باب المسجد يكون في الطريق من غير ضرر بالناس ، ط. المكتر (ص١٣١ ، حديث رقم ٤٧٦) ، الطبعة السلطانية (١/١٠٢-١٠٣) .

[٢] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن الجوزي ، ص ٤٩٨ .

[٣] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٣/٩١٦) .

وعليه نسألكم متى تشوهت فطرة عائشة رضي الله عنها وأرضاها ؟!! وهل الجاهلي زهير بن أبي سلمى الذي عاش في زمان تشوهت فيه فطر الكثيرين ومع ذلك عرف كمال علم الله عز وجل أنقى فطرة من الصديقة أم المؤمنين التي لم تعرف الجاهلية ولا عايشتها ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

رابعاً : كيف تكون أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما جاهلة بعلم الله بما تخفيه الصدور ، وأولادكم الذين لم يبلغوا حد التمييز يعرفون ذلك ؟؟! وكيف تعلمون أنتم أولادكم هذا العلم ويغفل الصديق أبا بكر رضي الله عنه عن هذا ؟! و قد أمر الله كل راع أن يتقي النار ويقيها أهله فقد قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝ ﴾ (التحريم: ٦)

فهل فرَّط الصديق في تعليم ابنته معرفة ربها عز وجل وهو الذي كان في مكة يُسمع نساء قريش كلام الله عز وجل لا يخاف في الله لومة لائم ؟! وهل فرَّط النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي جاء لتعليم الناس التوحيد في تعليم زوجته أبسط معاني العقيدة ؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

فإن قلتم : لقد علمها بمجرد أن سألته ، قلنا لكم : وهل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعلِّم ما أمر بتعليمه وتبليغه للناس مما لا يصح توحيد أحد إلا به إلا بعد أن يسأل عنه ، وهل هذا العلم يجوز تأخيره ويسع الجهل فيه ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

خامساً : أنتم قلتم بجهلكم أن الرجل الذي أوصى أولاده بأن يحرقوا جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً أنه رجل جاهل ، ومع ذلك فقد ثبت في الحديث أن ذلك الرجل كان يعلم يقيناً أن الله يعلم ما تخفيه الصدور بدليل قوله جواباً على سؤال الله عز وجل له على السبب الباعث له على وصية التحريق : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) [1] ، فهل هذا الجاهل بزعمكم أعلم من أم المؤمنين الفقيهة رضي الله عنها والتي هي أعلم نساء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

سادساً : حتى لو فرضنا أن (مَهْمَا) في قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها استفهامية ، لن يكون لكم فيه حجة ، فليس كل سؤال يسأل للجهل أو بنية التعلم . بل الأبعد من ذلك أننا لو فرضنا أنه ورد في الحديث أن أم المؤمنين رضي الله عنها قالت صراحة : هل يعلم الله كل ما يكتمه الناس ؟ وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أجابها بنعم ، فلن يكون لكم فيه حجة أبداً لأنه عليكم أن تثبتوا أن هذا السؤال سؤال جاهل متعلم .

---

[1] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨) ، طبعة المكتز (١١٥٩/٢) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٦) .

فلو فرضنا أنه وصلنا نص صريح يدل على سؤال أم المؤمنين رضي الله عنها سيكون موقف المؤمنين والمؤمنات أنهم سيظنون بأمهم خيراً وسيتزهونها رضي الله عنها عمَّا يرونه منقصة في حق صبي لهم لم يبلغ الرشد بعد ، فيقولون أن هذا ليس بسؤال جاهل متعلم ، حاشا الصديقة بنت الصديق الطيبة زوجة طيب حبيبة حبيب الله صلى الله عليه وآله وسلم ، المبرأة من فوق سبع سماوات ، فسبحانك ربنا هذا بهتان عظيم !

وأما السفهاء الذين لم يعرفوا للأنبياء ولا لزوجاتهم ولا لحواريهم ولا لصحابتهم حرمة ولا رعوهم حق رعايتهم سيكون دأبهم كالذباب لا تنحط إلا على المزابل من الأفهام الفاسدة والظنون المريضة مما يتزهون أنفسهم وأهليهم عنها جازاهم الله بما يستحقون ، فهذا هو ظنهم السوء ، وسبحانك ربنا هذا بهتان عظيم !

سابعاً : وهو جواب لطيف سديد مفحم لأهل الإفك الحديث وصلنا خبره جزى الله خيراً من أجاب به ، وهو أن صاحب الجواب لما ناقش واحداً من أصحاب الإفك الحديث قال له : هل كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قبل أن تقول ما قالت مما فهمته أنت فهماً فاسداً تصلي الصلاة المفروضة أم لا ؟ فأجاب صاحب الإفك بنعم ، فعندها قال له : وفي صلاتها عندما كانت تسر بالقراءة هل كانت تعتقد أن الله يعلم هذه القراءة التي تسر بها في صدرها ؟! ولمن كانت تقرأ بهذه القراءة إن كانت تجهل أن الله يعلم ما في الصدور ؟!! فبهت الذي كفر وانقطع عن الإجابة ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

ثامناً : إن هذه الحادثة حدثت في المدينة المنورة ، ونعلم أن هناك سوراً كثيرة نزلت في مكة المكرمة مثل سورة الأعلى وسورة ق وسورة طه ونحوها ، ومن تدبر ما في هذه السور المكية سيجد أن بها تقرير أن الله يعلم السر وأخفى ، كقوله تعالى في سورة الأعلى : ﴿ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** ۝ ﴾ (الأعلى: ٧) ، وفي سورة ق : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ۝ ﴾ (ق: ١٦) ، وفي سورة طه : ﴿ **وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ۝ ﴾ (طه: ٧) ، وكل هذه الآيات المكية التي تتحدث جلها عن العقيدة الإسلامية كان يعلمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في مكة المكرمة والتي مكث النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعوا فيها لمدة ثلاثة عشرة سنة ، ونترك لكم الإجابة على سؤال بسيط ينقشع به ظلام الشك والمتشابه ويندفع به الجدل والمراء ؛ أتظنون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علَّم أصحابه هذه الآيات ، ولم يعلِّمها زوجته ؟!! وهل تظنون بأبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن تعلم هذه الآيات المكية من النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يحدِّث بها أهله ؟!! وفضلاً عن ذلك هل تشكون في أن أمنا الصديقة عائشة

رضي الله عنها كانت تحفظ هذه السور المكية القصار فضلاً عن الطوال ؟!! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

فالله الله في أمنا يا أيها الموحدون ، ويا أصحاب الإفك الحديث فإننا والله بكم مشفقون ، لذا ندعوكم إلى أن تتوبوا إلى الله عز وجل من هذا الاعتقاد الشائن والفهم الفاسد قبل أن تصابوا بعقاب من الله عز وجل في الدنيا قبل الآخرة ، ألم تستمعوا إلى كلام الله عز وجل في أصحاب الإفك القديم ، حيث قال الله عز وجل فيهم :

﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ۞ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞﴾ (النور: ١٢-١٦)

فإذا كانت هذه الآيات الكريمات نزلت ذباً من الله عز وجل عن عرض أم المؤمنين رضي الله عنها ، فيا ترى ماذا سيكون ردُّ الله عز وجل على من رماها في عقيدها وتوحيدها ؟! **﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۞﴾** (النور: ١٥)

قال الشيخ أحمد طارق : (إن أي مؤمن بر تقي يرعى حرمات المؤمنين فضلاً عن أمهاهم ، فضلاً عن بيت النبوة ، كل ناصح لدينه يأبى أن ينسب لعائشة بنت أبي بكر حب رسول الله وسكنه أن تجهل أبسط معاني العقيدة ، وهي أن الله يعلم السر وأخفى ، خاب من نسب لها ذلك .

أيها الناس : اتقوا الله في دينكم ، ولا يدفعنكم الانتصار للرأي والمذهب إلى التطاول الفاحش والحجج الباطلة ، مما نخشى عليكم أن تؤولوا إليه ، ثم أنا سائلكم : إذا كانت عائشة الصديقة أم المؤمنين التي نشأت في بيت العقيدة ، وتتلمذت على الداعية الأول من الصحابة أبي بكر والدها ، ثم انتقلت إلى بيت النبوة ، مهبط الوحي ، ثم كانت أقرب نساء النبي إلى نفسه ، ثم كانت أحفظ نساء النبي للسنة ، ثم كانت أفقه نساء النبي وأمهات المؤمنين علماً وأفصحهم بياناً .

أقول شارحاً إذا كانت عائشة رضي الله عنها ، وهذه صفتها ومكانتها تجهل أن الله تعالى يعلم السر وأخفى ، وهو ما يعرفه الطفل الحدث الذي لم يدر كيف يتتره من بوله بعد ، فكيف الظن بمن دوهما ؟

أريد أن أقول : أن من نسب هذا التصور والشك إلى عائشة رضي الله عنها ، فليعلم أن هذا قدح مباشر في بيان النبي صلى الله عليه وسلم بحيث كان أهل بيته يجهلون أبسط معاني دعوته ـــ حاشا لله

ـــ بل الظن الصادق أن النبي بلغ فأتم البلاغ ، وبيَّن فأحكم البيان ، وظنُّ الصِّدق بالصدِّيقة أم المؤمنين عائشة يرفعها بمفاوز بعيدة أن نرميها بمثل هذا الإفك وسوء الظن) [1] .

[1] الإنذار بأن نقض أصل التوحيد بالجهل ليس من الأعذار ، الشبهة الخامسة .

الباب الرابع

حديث الرجل الموحد المسرف على نفسه من المعاصي الموصي أولاده بحرق جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً

" أجمعت الروايات قاطبة واتفقت على سؤال الله عز وجل لهذا الرجل عن السبب الباعث له على وصية التحريق ، وهو أجاب بأنه إنما فعل ذلك خشية من الله وخوفاً ، ولم يكذبه الله عز وجل بل غفر الله له معاصيه وأدخله الجنة " .

الفصل الأول : ذكر روايات الحديث في كتب السنة [١]

صحيح البخاري

كتاب بدء الخلق ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ : قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو لِحُذَيْفَةَ : أَلاَ تُحَدِّثُنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ مَعَ الدَّجَّالِ إِذَا خَرَجَ مَاءً وَنَارًا فَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا النَّارُ فَمَاءٌ بَارِدٌ وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ فَنَارٌ تُحْرِقُ فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَى أَنَّهَا نَارٌ فَإِنَّهُ عَذْبٌ بَارِدٌ**) ، قَالَ حُذَيْفَةُ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ رَجُلاً كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ الْمَلَكُ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ فَقِيلَ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : مَا أَعْلَمُ ، قِيلَ لَهُ : انْظُرْ ، قَالَ : مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَأُجَازِيهِمْ فَأُنْظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ**) ، فَقَالَ : وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا وَأَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحَشْتُ** [٢] **فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا رَاحًا** [٣] **فَاذْرُوهُ فِي الْيَمِّ ، فَفَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**) ، قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو وَأَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَاكَ وَكَانَ نَبَّاشًا . [٤]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (وقوله (وكان نباشاً) ظاهره أنه من زيادة أبي مسعود [٥] في الحديث لكن أورده بن حبان من طريق ربعي عن حذيفة قال : (**تُوُفِّيَ رَجُلٌ كَانَ**

---

[١] لقد اكتفيت بذكر روايات الحديث في الكتب التسعة إلا في رواية أبي بكر الصديق فذكرت رواية ابن حبان والإمام الطحاوي لذلك الحديث .

[٢] كذا بلفظ (فَامْتَحَشْتُ) في طبعة المكتز وفي الطبعة السلفية (٤٩١/٢) ، وقد وردت في صدر الطبعة السلطانية بلفظ (فَامْتَحَشَتْ) ووضع ملاحظة في الحاشية أنها وردت في رواية أبي ذر الهروي بلفظ (فَامْتُحِشَتْ) ، وكلها بمعنى واحد أو متقارب والله أعلم . والمحش : إحراق النار الجلد .

[٣] قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (وقوله (راحاً) أي كثير الريح ، ويقال ذلك للموضع الذي تخترقه الرياح ، قال الجوهري يوم راح أي شديد الريح وإذا كان طيب الريح يقال الريح بتشديد الياء ، وقال الخطابي يوم راح أي ذو ريح كما يقال رجل مال أي ذو مال) (فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، ج٦ ، ص ٥٢٢).

[٤] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٦٨/٤-١٦٩) ، طبعة المكتز (٦٨١/٢-٦٨٢) أو (٩٥٥) حديث رقم ٣٤٥٠-٣٤٥٢ ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٢/ج٤/ص٢٠٥-٢٠٦) .

[٥] اسمه عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه ، وهو معدود من علماء الصحابة ، انظر سير أعلام النبلاء (٤٩٣/٢-٤٩٦) .

نَبَّاشاً فَقَالَ لِوَلَدِه احْرِقُونِي) [(١)] فدلَّ على أن قوله (وكان نباشاً) من رواية حذيفة وأبي مسعود معاً ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة لِلطَّبَرَانِيِّ [(٢)] بِلَفْظ (بَيْنَمَا حُذَيْفَة وَأَبُو مَسْعُود جَالِسَيْنِ فَقَالَ أَحَدهمَا : سَمِعْتُ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول : إِنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل كَانَ يَنْبُشُ الْقُبُورَ) فَذَكَرَهُ ، وَعُرِفَ مِنْهَا وَجْه دُخُوله فِي هَذَا الْبَاب) [(٣)] .

كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث الغار

حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّ رَجُلاً كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللَّهُ مَالاً** [(٤)] **فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، فَفَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ**) وَقَالَ مُعَاذٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ عَبْدِ الْغَافِرِ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [(٥)]

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ : قَالَ عُقْبَةُ لِحُذَيْفَةَ : أَلاَ تُحَدِّثُنَا مَا سَمِعْتَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ الْمَوْتُ لَمَّا أَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا ثُمَّ أَوْرُوا نَارًا حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا فَذَرُّونِي فِي الْيَمِّ فِي يَوْمٍ حَارٍّ أَوْ رَاحٍ ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتَكَ ، فَغَفَرَ لَهُ**) قَالَ عُقْبَةُ : وَأَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ : حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ : (**فِي يَوْمٍ رَاحٍ**) . [(٦)]

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا هِشَامٌ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ**

---

(١) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (٤٢١/٢) حديث رقم (٦٥١) ، حققه شعيب الأرنؤوط وقال عنه في الحاشية (إسناده صحيح على شرط الشيخين) .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني (٨١/٤) ، حديث رقم ٣٦٦٥ .

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٥٧٣/٦) .

(٤) رغسه الله مالاً : أي كثّر ماله .

(٥) صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٤) ، طبعة المكنز (٦٨٨/٢) أو (ص٩٦٢ ، حديث رقم ٣٤٧٨) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٢/ج٤/ص٢١٤) .

(٦) صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٤) ، طبعة المكنز (٦٨٨/٢) أو (ص٩٦٢ ، حديث رقم ٣٤٧٩) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٢/ج٤/ص٢١٤) .

الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيه : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِه ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ) وَقَالَ غَيْرُهُ : (**مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ**) . [1]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (قلت : والغير المذكور هو عبد الرزاق ، كذا رواه عن معمر بهذا الإسناد ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده عنه) [2] .

كتاب الرقاق ، باب الخوف من الله

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِه ، فَقَالَ لِأَهْلِه : إِذَا أَنَا مُتُّ فَخُذُونِي فَذَرُّونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ ، فَفَعَلُوا بِه ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ ؟ قَالَ : مَا حَمَلَنِي إِلاَّ مَخَافَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ**) . [3]

حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ سَمِعْتُ أَبِي حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ أَوْ قَبْلَكُمْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا ، يَعْنِي أَعْطَاهُ ، قَالَ : فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيه : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّه خَيْرًا ، فَسَّرَهَا قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ ، وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّه يُعَذِّبْهُ ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي أَوْ قَالَ فَاسْهَكُونِي ، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا ، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي ، فَفَعَلُوا ، فَقَالَ اللَّهُ : كُنْ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ ، فَمَا تَلاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ**) فَحَدَّثْتُ أَبَا عُثْمَانَ فَقَالَ : سَمِعْتُ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ (**فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ**) أَوْ كَمَا حَدَّثَ ، وَقَالَ مُعَاذٌ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [4]

---

[1] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٤) ، طبعة المكتر (٦٨٨/٢) أو (ص٩٦٣ ، حديث رقم ٣٤٨١) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٢/ج٤/ص٢١٤-٢١٥) .

[2] تغليق التعليق على صحيح البخاري ، المجلد الرابع (الجزء السابع) ، ص ٤٣ .

[3] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٠١/٨) ، طبعة المكتر (١٣١٤/٣) أو (ص ١٧٤٩ ، حديث رقم ٦٤٨٠) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٣/ج٨/ص١٢٦) .

[4] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٠١/٨) ، طبعة المكتر (١٣١٤/٣) أو (ص ١٧٤٩ ، حديث رقم ٦٤٨١) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٣/ج٨/ص١٢٦) .

كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله)

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ : فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ لَهُ**) . (١)

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الأَسْوَدِ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ سَمِعْتُ أَبِي حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ كَلِمَةً يَعْنِي أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا ، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِيهِ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي أَوْ قَالَ فَاسْحَكُونِي ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا**) فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي ، فَفَعَلُوا ، ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : كُنْ ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ ، قَالَ اللَّهُ : أَيْ عَبْدِي : مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ**) قَالَ : (**فَمَا تَلاَفَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا**) وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى : (**فَمَا تَلاَفَاهُ غَيْرُهَا**) فَحَدَّثْتُ بِهِ أَبَا عُثْمَانَ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ هَذَا مِنْ سَلْمَانَ (٢) غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ فِيهِ : (**أَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ**) أَوْ كَمَا حَدَّثَ ، حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ وَقَالَ : (**لَمْ يَبْتَئِرْ**) وَقَالَ خَلِيفَةُ : حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ وَقَالَ : (**لَمْ يَبْتَئِزْ**) فَسَّرَهُ قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ . (٣)

صحيح مسلم

كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مَرْزُوقِ بْنِ بِنْتِ مَهْدِيِّ بْنِ مَيْمُونٍ حَدَّثَنَا رَوْحٌ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنِ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأَهْلِهِ**

---

(١) صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٤٥/٩) ، طبعة المكنز (١٥١٦/٣) أو (ص ٢٠٢٩ ، حديث رقم ٧٥٠٦) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٣/ج٩/ص١٧٧-١٧٨) .

(٢) قال الإمام بدر الدين العيني : (قوله (من سلمان) هو سلمان الفارسي الصحابي وأبو عثمان معروف بالرواية عنه) . عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦٤/٢٥) .

(٣) صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٤٥/٩-١٤٦) ، طبعة المكنز (١٥١٦/٣-١٥١٧) أو (ص٢٠٣٠ ، حديث رقم ٧٥٠٨) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٣/ج٩/ص١٧٨-١٧٩) .

: **إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**) . [(١)]

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ عَبْدٌ أَخْبَرَنَا وقَالَ ابْنُ رَافِعٍ وَاللَّفْظُ لَهُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : قَالَ لِيَ الزُّهْرِيُّ : أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثَيْنِ عَجِيبَيْنِ ؟ قَالَ الزُّهْرِيُّ : أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) قَالَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ : أَدِّي مَا أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**) . [(٢)]

حَدَّثَنِي أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنِي الزُّبَيْدِيُّ قَالَ الزُّهْرِيُّ حَدَّثَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (**أَسْرَفَ عَبْدٌ عَلَى نَفْسِهِ**) بِنَحْوِ حَدِيثِ مَعْمَرٍ إِلَى قَوْلِهِ : (**فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**) وَلَمْ يَذْكُرْ حَدِيثَ الْمَرْأَةِ فِي قِصَّةِ الْهِرَّةِ ، وَفِي حَدِيثِ الزُّبَيْدِيِّ قَالَ : (**فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا : أَدِّ مَا أَخَذْتَ مِنْهُ**) . [(٣)]

حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَبْدِ الْغَافِرِ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّ رَجُلاً فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَاشَهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا ، فَقَالَ لِوَلَدِهِ : لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ ، إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي**) وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّهُ قَالَ : (**ثُمَّ اسْحَقُونِي وَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ ، فَإِنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا ، وَإِنَّ اللَّهَ**

[(١)] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨) ، طبعة المكنز (١١٥٩/٢) أو (ص١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٦) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٩/ج١٧/ص٧٠-٧١) .

[(٢)] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨-٩٨) ، طبعة المكنز (١١٥٩/٢) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٧) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٩/ج١٧/ص٧١-٧٢) .

[(٣)] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٨/٨) ، طبعة المكنز (١١٥٩/٢-١١٦٠) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٩) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٩/ج١٧/ص٧٢-٧٣) .

يَقْدرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي ، قَالَ : فَأَخَذَ منْهُمْ ميثَاقًا ، فَفَعَلُوا ذَلكَ به وَرَبِّي ، فَقَالَ اللَّهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ فَقَالَ : مَخَافَتُكَ) قَالَ : (**فَمَا تَلاَفَاهُ غَيْرُهَا**) . [1]

وَحَدَّثَنَاهُ يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ الْحَارِثِيُّ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ قَالَ لِي أَبِي حَدَّثَنَا قَتَادَةُ ح وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُوسَى حَدَّثَنَا شَيْبَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ح وحَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ كِلاَهُمَا عَنْ قَتَادَةَ ذَكَرُوا جَمِيعًا بِإِسْنَادِ شُعْبَةَ نَحْوَ حَدِيثِهِ وَفِي حَدِيثِ شَيْبَانَ وَأَبِي عَوَانَةَ : (**أَنَّ رَجُلاً منَ النَّاسِ رَغَسَهُ اللَّهُ مَالاً** [2] **وَوَلَدًا**) ، وَفِي حَدِيثِ التَّيْمِيِّ : (**فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا** ، قَالَ : فَسَّرَهَا قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا) ، وَفِي حَدِيثِ شَيْبَانَ : (**فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا ابْتَأَرَ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا**) ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي عَوَانَةَ : (**مَا امْتَأَرَ بِالْمِيمِ**) . [3]

موطأ الإمام مالك بن أنس

الموطأ برواية يحي بن يحي الليثي

كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز

وحَدَّثَنِي عَنْ مَالِك ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنِ الأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأَهْلِهِ : إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ لَهُ**) . [4]

الموطأ برواية أبي مصعب الزهري المدني

كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز

أَخْبَرَنَا أَبو مُصْعَبٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مَالِكٌ ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنِ الأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ لِأَهْلِهِ : إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ ثُمَّ أُذْرُوا**

---

[1] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٨/٨) ، طبعة المكنز (١١٦٠/٢) أو (ص١٤١٥-١٤١٦ ، حديث رقم ٧١٦٠) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٩/ج١٧/ص٧٣-٧٤) .

[2] رغسه الله مالا : أي كثَّر ماله .

[3] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٨/٨-٩٩) ، طبعة المكنز (١١٦٠/٢) أو (ص ١٤١٦ ، حديث رقم ٧١٦١) ، ط. دار إحياء التراث العربي (م٩/ج١٧/ص٧٤-٧٥) .

[4] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، (٣٢٩/١) ، حديث رقم ٦٤٥ .

نصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنصْفَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْه لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا منَ الْعَالَمينَ) قَالَ : (**فَلَمَّا مَاتَ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ بِه ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فيه وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فيه ، ثُمَّ قَالَ : لمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ فَقَالَ : منْ خَشْيَتكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ**) . [(١)]

الموطأ برواية سويد بن سعيد الحدثاني

كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَد قَالَ : حَدَّثَنَا سُوَيْد عَنْ مَالِكٌ ، عَنْ أَبِي الزِّنَاد ، عَنِ الأَعْرَج ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ : (**كَانَ رَجُلٌ لَمْ يُعْطَ أَنْ يَعْمَلَ خَيْراً قَطُّ قَالَ لأَهْله : إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي وذُرُّوا بَعْضَهُ فِي الْبَرِّ وَبَعْضَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّه لئنْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْه لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا منَ الْعَالَمينَ ، فَلَمَّا مَاتَ فَفعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ – جَلَّ وَعَزَّ ! – الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فيه وَالْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فيه ، فَقَالَ : لمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ : منْ خَشْيَتكَ يَا رَبِّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ به**) قَالَ : (**فَغَفَرَ اللهُ لَهُ**) . [(٢)]

سنن النسائي

كتاب الجنائز ، باب أرواح المؤمنين

أَخْبَرَنَا كَثِيرُ بْنُ عُبَيْد قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْب عَنِ الزُّبَيْديِّ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْد بْنِ عَبْد الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمعْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يَقُولُ : « **أَسْرَفَ عَبْدٌ عَلَى نَفْسه حَتَّى حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لأَهْله : إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا منْ خَلْقه** » قَالَ : « **فَفعَلَ أَهْلُهُ ذَلكَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لكُلِّ شَيْءٍ أَخَذَ منْهُ شَيْئًا أَدِّ مَا أَخَذْتَ فَإِذَا هُوَ قَائمٌ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ** » . [(٣)]

أَخْبَرَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ : « **كَانَ رَجُلٌ ممَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يُسيءُ الظَّنَّ بعَمَله ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لأَهْله : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الْبَحْرِ ، فَإِنَّ اللَّهَ إِنْ يَقْدرْ عَلَيَّ لَمْ يَغْفرْ لِي**

[(١)] الموطأ برواية أبي مصعب الزهري المدني ، (٣٩٢/١) ، حديث رقم ٩٩٣ .

[(٢)] الموطأ برواية سويد بن سعيد الحدثاني ، ص ٣٢٣ ، حديث رقم ٤٠٧ .

[(٣)] سنن النسائي ، ط. المكنز (ص ٤٠٨ ، حديث رقم ٢٠٧٩) ، صحيح سنن النسائي باختصار السند للألباني : (٤٤٧/٢) ، حديث رقم ١٩٦٦ .

، قَالَ : فَأَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلائِكَةَ فَتَلَقَّتْ رُوحَهُ ، قَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ مَا فَعَلْتُ إِلاَّ مِنْ مَخَافَتِكَ ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ » . [١]

سنن ابن ماجة

كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى وَإِسْحَقُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالاَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاق أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : قَالَ الزُّهْرِيُّ : أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثَيْنِ عَجِيبَيْنِ ؟ أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ، قَالَ : فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ : أَدِّي مَا أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ أَوْ مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ ، فَغَفَرَ لَهُ لِذَلِكَ**) . [٢]

سنن الدارمي

كتاب الرقاق ، باب فيمن قال : إذا متُّ فَاحْرِقُونِي بِالنَّارِ

أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ قَالَ أَخْبَرَنَا بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « **كَانَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَكَانَ لاَ يَدِينُ لِلَّهِ دِينًا ، وَإِنَّهُ لَبِثَ حَتَّى ذَهَبَ مِنْهُ عُمُرٌ وَبَقِيَ عُمُرٌ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا ، فَدَعَا بَنِيهِ فَقَالَ : أَيَّ أَبٍ تَعْلَمُونِي ؟ قَالُوا : خَيْرًا يَا أَبَانَا ، قَالَ : فَإِنِّي لاَ أَدَعُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مَالاً هُوَ مِنِّي إِلاَّ أَخَذْتُهُ أَوْ لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ ، قَالَ : فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا وَرَبِّي ، قَالَ : أَمَّا أَنَا إِذَا مِتُّ فَخُذُونِي فَاحْرِقُونِي بِالنَّارِ حَتَّى إِذَا كُنْتُ حُمَمًا فَدُقُّونِي ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الرِّيحِ ، قَالَ : فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ حِينَ مَاتَ فَجِيءَ بِهِ أَحْسَنَ مَا كَانَ قَطُّ فَعُرِضَ عَلَى رَبِّهِ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى النَّارِ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ ، قَالَ : إِنِّي أَسْمَعُكَ لَرَاهِبًا ، قَالَ : فَتِيبَ عَلَيْهِ** » ، قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ يَبْتَئِرُ : يَدَّخِرُ . [٣]

---

[١] سنن النسائي ، ط. المكتر (ص ٤٠٨ ، حديث رقم ٢٠٨٠) ، صحيح سنن النسائي باختصار السند للألباني : (٤٤٧/٢) ، حديث رقم ١٩٦٧ .

[٢] سنن ابن ماجة ، ط. المكتر (ص ٧٤٧ ، حديث رقم ٤٢٥٥) ، سنن ابن ماجة ، ط. محمد مصطفى الأعظمي : (٤٣٨/٢-٤٣٩) ، حديث رقم ٤٣٠٩ ، كتاب صحيح سنن ابن ماجة للألباني : (٤١٩/٢) .

[٣] سنن الدارمي (١٨٥٥/٣-١٨٥٦) ، قال حسين سليم أسد : (إسناده جيد) .

مسند الإمام أحمد بن حنبل

مُسْنَدُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ إِسْحَاقَ الطَّلَقَانِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ الْمَازِنِيُّ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو نَعَامَةَ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو هُنَيْدَةَ الْبَرَاءُ بْنُ نَوْفَلٍ عَنْ وَالاَنَ الْعَدَوِيِّ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْغَدَاةَ ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الضُّحَى ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ مَكَانَهُ حَتَّى صَلَّى الأُولَى وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ كُلُّ ذَلِكَ لاَ يَتَكَلَّمُ حَتَّى صَلَّى الْعِشَاءَ الآخِرَةَ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ النَّاسُ لأَبِي بَكْرٍ : أَلاَ تَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَأْنُهُ صَنَعَ الْيَوْمَ شَيْئًا لَمْ يَصْنَعْهُ قَطُّ ، قَالَ : فَسَأَلَهُ : فَقَالَ : « **نَعَمْ ، عُرِضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَمْرِ الآخِرَةِ فَجُمِعَ الأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ بِصَعِيدٍ وَاحِدٍ فَفَزِعَ النَّاسُ بِذَلِكَ حَتَّى انْطَلَقُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَم وَالْعَرَقُ يَكَادُ يُلْجِمُهُمْ فَقَالُوا : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ وَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، فَقَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِثْلَ الَّذِي لَقِيتُمْ انْطَلِقُوا إِلَى أَبِيكُمْ بَعْدَ أَبِيكُمْ إِلَى نُوحٍ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، قَالَ : فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلاَم فَيَقُولُونَ : اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، فَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ وَاسْتَجَابَ لَكَ فِي دُعَائِكَ وَلَمْ يَدَعْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، فَيَقُولُ : لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي ، انْطَلِقُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَم ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً ، فَيَنْطَلِقُونَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ : لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَم فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا ، فَيَقُولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَم : لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِنْ انْطَلِقُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّهُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى ، فَيَقُولُ عِيسَى : لَيْسَ ذَاكُمْ عِنْدِي وَلَكِن انْطَلِقُوا إِلَى سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، انْطَلِقُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَشْفَعَ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَ : فَيَنْطَلِقُ فَيَأْتِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَم رَبَّهُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَنْطَلِقُ بِهِ جِبْرِيلُ فَيَخِرُّ سَاجِدًا قَدْرَ جُمُعَةٍ ، وَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، قَالَ : فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ فَإِذَا نَظَرَ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَرَّ سَاجِدًا قَدْرَ جُمُعَةٍ أُخْرَى ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، قَالَ : فَيَذْهَبُ لِيَقَعَ سَاجِدًا فَيَأْخُذُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَم بِضَبْعَيْهِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ مِنْ الدُّعَاءِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى بَشَرٍ قَطُّ ، فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ خَلَقْتَنِي سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْرَ ، وَأَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ أَكْثَرُ مِمَّا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَأَيْلَةَ ، ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الصِّدِّيقِينَ فَيَشْفَعُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الأَنْبِيَاءَ ، قَالَ : فَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يُقَالُ : ادْعُوا الشُّهَدَاءَ فَيَشْفَعُونَ لِمَنْ أَرَادُوا ، وَقَالَ : فَإِذَا فَعَلَتْ الشُّهَدَاءُ**

ذَلكَ ، قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحمينَ أَدْخلُوا جَنَّتي مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِي شَيْئًا ، قَالَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرُوا في النَّار هَلْ تَلْقَوْنَ منْ أَحَد عَملَ خَيْرًا قَطُّ ، قَالَ : فَيَجدُونَ في النَّار رَجُلاً فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ عَملْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامحُ النَّاسَ في الْبَيْع وَالشِّرَاء ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَسْمحُوا لعَبْدي كَإِسْمَاحه إِلَى عَبيدي ، ثُمَّ يُخْرِجُونَ منْ النَّار رَجُلاً فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ عَملْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَمَرْتُ وَلَدي إذَا متُّ فَأَحْرقُوني بالنَّار ثُمَّ اطْحَنُوني حَتَّى إذَا كُنْتُ مثْلَ الْكُحْل فَاذْهَبُوا بي إِلَى الْبَحْر فَاذْرُوني في الرِّيح فَوَاللَّه لاَ يَقْدرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمينَ أَبَدًا ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : لمَ فَعَلْتَ ذَلكَ ؟ قَالَ : منْ مَخَافَتكَ ، قَالَ : فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : انْظُرْ إِلَى مُلْك أَعْظَم مَلك فَإِنَّ لَكَ مثْلَهُ وَعَشَرَةَ أَمْثَاله ، قَالَ : فَيَقُولُ لمَ تَسْخَرُ بي وَأَنْتَ الْمَلكُ ، قَالَ : وَذَاكَ الَّذي ضَحكْتُ منْهُ منَ الضُّحَى » . [1]

وأخرج هذا الحديث عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه الإمام ابن حبان في صحيحه قال : أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ مُحَمَّد الأَزْديّ بخَبَر غَريب حَدَّثَنَا إسْحَاق بْنُ إبْرَاهيم حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ حَدَّثَنَا أَبُو نَعَامَةَ الْعَدَويّ حَدَّثَنَا أَبُو هُنَيْدَةَ الْبَرَاءُ بْنُ نَوْفَلٍ عَنْ وَالاَنَ الْعَدَويِّ عَنْ حُذَيْفَةَ بْن الْيَمَان عَنْ أَبي بَكْر الصِّدِّيق رَضيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَلَّى الْغَدَاةَ ثُمَّ جَلَسَ حَتَّى إذَا كَانَ منَ الضُّحَى ضَحكَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ وَجَلَسَ مَكَانَهُ ... (فَذَكَرَ حَديثًا طَويلاً منْ حَديث يَوْم الْقيَامَة ، ثُمَّ ذَكَرَ فيه شَفَاعَةَ الشُّهَدَاء) : « **ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الصِّدِّيقينَ فَيَشْفَعُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ ادْعُوا الأَنْبيَاءَ فَيَجيءُ النَّبيُّ مَعَهُ الْعصَابَةُ ، وَالنَّبيُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ ، وَالنَّبيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يُقَالُ : ادْعُوا الشُّهَدَاءَ فَيَشْفَعُونَ لمَنْ أَرَادُوا ، فَإِذَا فَعَلَت الشُّهَدَاءُ ذَلكَ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلاَ : أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحمينَ أَدْخلُوا جَنَّتي مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بي شَيْئًا ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : انْظُرُوا في النَّار هَلْ فيهَا منْ أَحَد عَملَ خَيْرًا قَطُّ ، فَيَجدُونَ في النَّار رَجُلاً فَيُقَالُ لَهُ : هَلْ عَملْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُسَامحُ النَّاسَ في الْبَيْع ، فَيَقُولُ اللَّهُ: اسْمحُوا لعَبْدي كَإِسْمَاحه إِلَى عَبيدي ، ثُمَّ يُخْرَجُ منَ النَّار آخَرُ يُقَالُ لَهُ : هَلْ عَملْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لاَ ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَمَرْتُ وَلَدي إذَا متُّ فَاحْرقُوني بالنَّار ثُمَّ اطْحَنُوني حَتَّى إذَا كُنْتُ مثْلَ الْكُحْل**

---

[1] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ١٥ ، ط. أحمد شاكر (١/١٧٢-١٧٥) ، قال أحمد شاكر : { إسناده صحيح ، أبو نعامة : هو عمرو بن عيسى بن سويد ، وهو ثقة ، أبو هنيدة العدوي : قال ابن سعد : كان معروفا قليل الحديث ، والوالان العدوي : هو والان بن بيهس أو بن قرفة . قال في لسان الميزان : روى عن حذيفة عن أبي بكر الصديق حديث الشفاعة مطولا ، قال الدارقطني في العلل : ليس بمشهور ، والحديث غير ثابت . كذا قال ، وقد قال يحيى بن معين : بصري ثقة ، وذكره ابن حبان في الثقات أو أخرج حديثه في صحيحه ، قلت : وكذا أخرجه أبو عوانة وهو من زياداته على مسلم ، أقول : وقد أشار البخاري إلى حديثه هذا في التاريخ الكبير ١٨٥/٢/٤ ، فذكره عن ابن المديني عن روح بن عبادة عن عمرو بن عيسى عن البراء بن نوفل عن والان . ورواه أيضا الدولابي في الكنى ١٥٥/٢-١٥٦ من طريق النضر بن شميل عن أبي نعامة } .

فَاذْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَذُرُّونِي فِي الرِّيحِ ، فَقَالَ اللَّهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ مَخَافَتِكَ ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى مُلْكِ أَعْظَمِ مَلِكٍ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ ، فَيَقُولُ لِمَ تَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ الْمَلِكُ ، فَذَلِكَ الَّذِي ضَحِكْتُ مِنْهُ مِنَ الضُّحَى » . قال إسحاق : هـــذا من أشرف الحديث وقد روى هذا الـــحديث عـــدة عن النبي صلى الله عليه وسلم نـــحو هذا ، منهم : حذيفة و ابن مسعود و أبو هريرة وغيرهم . [(١)]

وكذا أخرج هذا الحديث الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) في مشكله قال : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ شَيْبَةَ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْحَنْظَلِيُّ أَخْبَرَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ أَخْبَرَنَا أَبُو نَعَامَةَ الْعَدَوِيُّ حَدَّثَنَا أَبُو هُنَيْدَةَ الْبَرَاءُ بْنُ نَوْفَلٍ عَنْ وَالاَنَ الْعَدَوِيِّ عَنْ حُذَيْفَةَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ .... (فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلاً مِنْ حَدِيثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ ذَكَرَ فِيهِ شَفَاعَةَ الشُّهَدَاءِ) ، قَالَ : « **ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ أَنَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اُنْظُرُوا فِي النَّارِ هَلْ فِيهَا مِنْ أَحَدٍ عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ ، فَيَجِدُونَ فِي النَّارِ رَجُلاً فَيُقَالُ لَهُ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ فَيَقُولُ لاَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أَمَرْتُ وَلَدِي إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّارِ ثُمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَاذْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاَللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْتُ نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ مِنْ مَخَافَتِكَ ، فَيَقُولُ : اُنْظُرْ مَلِكًا بِأَعْظَمِ مُلْكٍ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهُ وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ** » [(٢)].

---

(١) صحيح ابن حبان ، كتاب التاريخ / باب الحوض والشفاعة ، ط. شعيب الأرنؤوط (٣٩٣/١٤-٣٩٦) وقال عنه : (إسناده جيد) .

(٢) شرح مشكل الآثار للإمام الطحاوي (٢٧/٢) ، ط. شعيب الأرنؤوط ، وقال عنه في الحاشية : { إسناده جيد ، أبو نعامة العدوي : هو عمرو بن عيسى بن سويد بن هُبيرة البصري ، أطلق ابن معين والنسائي القول بتوثيقه ، وقال أبو حاتم : لا بأس به ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، وأخرج مسلم حديثه في "صحيحه" ، وقال أحمد : ثقة إلا أنه اختلط قبل موته ، وقال الإمام الذهبي في "الكاشف" : ثقة قيل تغير بأخرة . وأبو هنيدة البراء بن نوفل روى عنه جمع ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، وقال ابن سعد في "الطبقات" ٢٢٦/٧ : كان معروفاً قليل الحديث ، ووالان العدوي : وهو والان بن بيهس ، أو ابن قرفة ، وثقه ابن معين ، وذكره ابن حبان في "الثقات" وأخرج حديثه هذا في "صحيحه" . ورواه الدارمي في "الرد على الجهمية" ص ٥٧ و٨٨ عن إسحاق بن راهويه ، بهذا الإسناد . ورواه أحمد ٤/١-٥ ، والمروزي في "مسند أبي بكر" (١٥) بتحقيقنا ، وأبو عوانة ١٧٥/١-١٧٨ ، وابن أبي عاصم في "السنة" (٧٥١) و(٨١٢) ، وابن خزيمة في "التوحيد" ص ٣١٠-٣١٢ ، وابن حبان في "صحيحه" (٦٤٧٦) ، وأبو يعلى (٥٦) ، والدولابي في "الكنى" ١٥٥/٢-١٥٦ ، والبزار (٣٤٦٥) من طرق عن النضر بن شميل ، بهذا الإسناد } .

مسند المكثرين من الصحابة ، مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ أَنْبَأَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (**أَنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِأَهْلِهِ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَخُذُونِي وَاحْرِقُونِي حَتَّى تَدَعُونِي حُمَمَةً ، ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ رَاحٍ**) قَالَ : (**فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ**) قَالَ : (**فَإِذَا هُوَ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ**) قَالَ : (**فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**) . [(١)]

قَالَ يَحْيَى حَدَّثَنَا حَمَّادٌ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمِثْلِهِ . [(٢)]

باقي مسند المكثرين ، مسند أبي هريرة رضي الله عنه

حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : قَالَ لِي الزُّهْرِيُّ : أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثَيْنِ عَجِيبَيْنِ ؟ قَالَ الزُّهْرِيُّ : عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عُذِّبَهُ أَحَدٌ**) قَالَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ لِلأَرْضِ : أَدِّي مَا أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ مَخَافَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**) . [(٣)]

حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ الْحَسَنِ وَابْنِ سِيرِينَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ ، فَلَمَّا احْتُضِرَ قَالَ لِأَهْلِهِ : انْظُرُوا إِذَا أَنَا مُتُّ أَنْ يُحْرِقُوهُ حَتَّى يَدَعُوهُ حُمَمًا ، ثُمَّ اطْحَنُوهُ ثُمَّ أَذْرُوهُ فِي يَوْمِ رِيحٍ ، فَلَمَّا مَاتَ فَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ، فَإِذَا هُوَ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ**

---

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ٣٧٨٥ ، ط. أحمد شاكر (٣١/٤) وقال : (إسناده صحيح ، وهو في مجمع الزوائد (١٩٤/١٠) ونسبه للمسند وحسن إسناده ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٥٦/٢) .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ٣٧٨٦ ، ط. أحمد شاكر (٣١/٤) وقال : إسناده صحيح ، وهو في مجمع الزوائد أيضا (١٩٤/١٠) ونسبه للمسند وصحح إسناده ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٥٦/٢) .

(٣) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر (٣٧٨/٧-٣٧٩) حديث رقم ٧٦٣٥ ، وقال : إسناده صحيح ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩٥/٣-٩٦) حديث رقم ٧٦٥١ .

، **فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : أَيْ رَبِّ مِنْ مَخَافَتِكَ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ لَهُ بِهَا ، وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ**) . [١]

باقي مسند المكثرين ، مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنَا شَيْبَانُ أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا فِرَاسُ بْنُ يَحْيَى الْهَمَدَانِيُّ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**لَقَدْ دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ مَا عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ ، قَالَ لِأَهْلِهِ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُوا نِصْفِي فِي الْبَحْرِ وَنِصْفِي فِي الْبَرِّ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ فَجَمَعَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**) . [٢]

حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنَا شَيْبَانُ أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا فِرَاسُ بْنُ يَحْيَى الْهَمَدَانِيُّ عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**لَقَدْ دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ مَا عَمِلَ خَيْرًا قَطُّ ، قَالَ لِأَهْلِهِ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ أَذْرُوا نِصْفِي فِي الْبَحْرِ وَنِصْفِي فِي الْبَرِّ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ فَجَمَعَاهُ ، ثُمَّ قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَغَفَرَ لَهُ لِذَلِكَ**) . [٣]

حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ قَالَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ثُمَّ ذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا**) قَالَ : (**فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا قَطُّ**) قَالَ : فَفَسَّرَهَا قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا (**وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ ، فَإِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي أَوْ**

---

[١] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر (٨/١٣٥-١٣٦) حديث رقم ٨٠٢٧ ، وقال : (هو بإسنادين : أولهما من حديث أبي هريرة وهو إسناد صحيح متصل ، والثاني : مرسل عن الحسن وابن سيرين ، فهو ضعيف لإرساله ، وزاده ضعفاً أنه من رواية حماد عن مجاهيل عن غير واحد عن الحسن وابن سيرين) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٣/١٧٠-١٧١) حديث رقم ٨٠٤٦ .

[٢] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٠/٤٥) حديث رقم ١١٠٣٨ ، وقال : (إسناده حسن ، وشيبان هو ابن عبد الرحمن التميمي ثقة والباقون كلهم فيهم كلام صدوقون لهم أخطاء) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٤/٢٨) حديث رقم ١١٠٩٦ .

[٣] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٠/٥٧-٥٨) حديث رقم ١١٠٧٠ ، وقال : (إسناده حسن لأجل العوفي وشيبان هو ابن عبد الرحمن النحوي ثقة تقدم وفراس صدوق) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٤/٣٦) حديث رقم ١١١٢٨ .

قَالَ فَاسْهَكُونِي ، **ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَاذْرُونِي فِيهَا**) قَالَ نَبِيُّ اللَّه : (**فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**) قَالَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَرَبِّي ، فَلَمَّا مَاتَ أَحْرَقُوهُ ثُمَّ سَحَقُوهُ أَوْ سَهَكُوهُ ثُمَّ ذَرُّوهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ**) قَالَ : (**فَقَالَ اللَّهُ لَهُ : كُنْ ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ ، قَالَ اللَّهُ : أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ؟ فَقَالَ : يَا رَبِّ مَخَافَتَكَ أَوْ فَرَقًا مِنْكَ**) قَالَ : (**فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ**) وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى : (**فَمَا تَلَافَاهُ غَيْرُهَا أَنْ رَحِمَهُ**) قَالَ : فَحَدَّثْتُ بِهَا أَبَا عُثْمَانَ فَقَالَ : سَمِعْتُ هَذَا مِنْ سُلَيْمَانَ غَيْرَ مَرَّةٍ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ : (**ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ**) أَوْ كَمَا حَدَّثَ .[1]

أول مسند البصريين ، حديث حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه معاوية بن حيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم

حَدَّثَنَا مُهَنَّى بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَبُو شِبْلٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِي قَزَعَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**إِنَّ رَجُلاً كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالاً وَوَلَدًا حَتَّى ذَهَبَ عَصْرٌ وَجَاءَ عَصْرٌ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ : أَيْ بَنِيَّ أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُطِيعِيَّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : انْظُرُوا إِذَا مُتُّ أَنْ تُحَرِّقُونِي حَتَّى تَدَعُونِي فَحْمًا**) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، ثُمَّ اهْرُسُونِي بِالْمِهْرَاسِ**) يُومِئُ بِيَدِهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا وَاللَّهِ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا وَاللَّهِ ذَلِكَ ، فَإِذَا هُوَ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : أَيْ رَبِّ مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَتَلَافَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا**) .[2]

أول مسند البصريين ، حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ أَخْبَرَنَا أَبُو قَزَعَةَ الْبَاهِلِيُّ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ عَدَدَ أَصَابِعِي هَذِهِ أَنْ لاَ آتِيَكَ – أَرَانَا عَفَّانُ وَطَبَّقَ كَفَّيْهِ – فَبِالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ ؟ قَالَ : (**الإِسْلاَمُ**) ، قَالَ : وَمَا الإِسْلاَمُ ؟ قَالَ : (**أَنْ يَسْلَمَ قَلْبُكَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَنْ تُوَجِّهَ وَجْهَكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتُصَلِّيَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ** ،

---

[1] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٠/٢٤٣-٢٤٤) حديث رقم ١١٦٧٥ ، وقال : (إسناده صحيح ، ومعتمر هو ابن سليمان) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٤/١٥٥) حديث رقم ١١٧٣٦ .

[2] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٥/١٠٠-١٠١) حديث رقم ١٩٨٩٧ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧/٢٣١-٢٣٢) حديث رقم ٢٠٠٣٢ .

وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لاَ يَقْبَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَحَدٍ تَوْبَةً أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلاَمِهِ) قُلْتُ : مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ : (**تُطْعِمُهَا إِذَا طَعِمْتَ وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ وَلاَ تَضْرِبُ الْوَجْهَ وَلاَ تُقَبِّحُ وَلاَ تَهْجُرُ إِلاَّ فِي الْبَيْتِ**) قَالَ : (**تُحْشَرُونَ هَاهُنَا**) وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَحْوِ الشَّامِ (**مُشَاةً وَرُكْبَانًا وَعَلَى وُجُوهِكُمْ تُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى أَفْوَاهِكُمْ الْفِدَامُ وَأَوَّلُ مَا يُعْرِبُ عَنْ أَحَدِكُمْ فَخِذُهُ**) وَقَالَ : (**مَا مِنْ مَوْلًى يَأْتِي مَوْلًى لَهُ فَيَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلٍ عِنْدَهُ فَيَمْنَعُهُ إِلاَّ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ شُجَاعًا يَنْهَسُهُ قَبْلَ الْقَضَاءِ**) قَالَ عَفَّانُ : يَعْنِي بِالْمَوْلَى ابْنَ عَمِّهِ . قَالَ : وَقَالَ : (**إِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَالاً وَوَلَدًا حَتَّى ذَهَبَ عَصْرٌ وَجَاءَ آخَرُ فَلَمَّا احْتُضِرَ قَالَ لِوَلَدِهِ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، فَقَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطِيعِيَّ وَإِلاَّ أَخَذْتُ مَالِي مِنْكُمْ ، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ أَنْ تَحْرِقُونِي حَتَّى تَدَعُونِي حُمَمًا ثُمَّ اهْرُسُونِي بِالْمِهْرَاسِ**) وَأَدَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ حِذَاءَ رُكْبَتَيْهِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا وَاللَّهِ**) ، وَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ هَكَذَا (**ثُمَّ اذْرُونِي فِي يَوْمٍ رَاحٍ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَعَالَى**) كَذَا قَالَ عَفَّانُ . قَالَ أَبِي وَقَالَ مُهَنَّى أَبُو شِبْلٍ عَنْ حَمَّادٍ : (**أَضِلُّ اللَّهَ ، فَفَعَلُوا وَاللَّهِ ذَاكَ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَهُ ؟ قَالَ : مِنْ مَخَافَتِكَ**) قَالَ : (**فَتَلاَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا**) . [1]

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا بَهْزٌ وَيَزِيدُ قَالَ أَخْبَرَنَا بَهْزٌ الْمَعْنَى حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (**إِنَّهُ كَانَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالاً وَوَلَدًا وَكَانَ لاَ يَدِينُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ دِينًا**) قَالَ يَزِيدُ : (**فَلَبِثَ حَتَّى ذَهَبَ عُمْرٌ وَبَقِيَ عُمْرٌ تَذَكَّرَ فَعَلِمَ أَنْ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَيْرًا دَعَا بَنِيهِ قَالَ : يَا بَنِيَّ أَيَّ أَبٍ تَعْلَمُونَ ؟ قَالُوا : خَيْرَهُ يَا أَبَانَا ، قَالَ : فَوَاللَّهِ لاَ أَدَعُ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَالاً هُوَ مِنِّي إِلاَّ أَنَا آخِذُهُ مِنْهُ أَوْ لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ**) قَالَ : (**فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا**) قَالَ : (**أَمَّا لاَ ، فَإِذَا مِتُّ فَخُذُونِي فَأَلْقُونِي فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا كُنْتُ حُمَمًا فَدُقُّونِي**) قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ عَلَى فَخِذِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ : (**اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) قَالَ : (**فَفُعِلَ بِهِ ذَلِكَ وَرَبِّ مُحَمَّدٍ حِينَ مَاتَ**) قَالَ : (**فَجِيءَ بِهِ أَحْسَنَ مَا كَانَ ، فَعُرِضَ عَلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى النَّارِ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبَّاهُ ، قَالَ : إِنِّي لَأَسْمَعَنَّ الرَّاهِبَةَ**) قَالَ يَزِيدُ : (**أَسْمَعُكَ رَاهِبًا فَتِيبَ عَلَيْهِ**) قَالَ بَهْزٌ :

---

[1] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٠٣/١٥-١٠٤) حديث رقم ١٩٩٠٧ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٢٣٥/٧-٢٣٦) حديث رقم ٢٠٠٤٢ ، ٢٠٠٤٣ ، ٢٠٠٤٤ .

فَحَدَّثْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْحَسَنَ وَقَتَادَةَ وَحَدَّثَانِيهِ (**فَتِيبَ عَلَيْهِ**) أَوْ (**فَتَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ**) شَكَّ يَحْيَى . [١]

باقي مسند الأنصار ، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم

حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ حَدَّثَنَا أَبُو مَالِكٍ الأَشْجَعِيُّ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَعْمَلُ بِالْمَعَاصِي ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِأَهْلِهِ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمٍ رِيحٍ عَاصِفٍ**) قَالَ : (**فَلَمَّا مَاتَ فَعَلُوا**) قَالَ : (**فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي يَدِهِ ، قَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَوْفُكَ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكَ**) . [٢]

حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ عَنْ رِبْعِيٍّ قَالَ : قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو لِحُذَيْفَةَ : أَلاَ تُحَدِّثُنَا مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ مَعَ الدَّجَّالِ إِذَا خَرَجَ مَاءً وَنَارًا ، الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا نَارٌ فَمَاءٌ بَارِدٌ ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ فَنَارٌ تُحْرِقُ ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَى أَنَّهَا نَارٌ ، فَإِنَّهَا مَاءٌ عَذْبٌ بَارِدٌ**) ، قَالَ حُذَيْفَةُ : وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ رَجُلاً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَتَاهُ مَلَكٌ لِيَقْبِضَ نَفْسَهُ فَقَالَ لَهُ : هَلْ عَمِلْتَ مِنْ خَيْرٍ ؟ فَقَالَ : مَا أَعْلَمُ ، قِيلَ لَهُ : انْظُرْ ، قَالَ : مَا أَعْلَمُ شَيْئًا غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ وَأُجَازِفُهُمْ فَأُنْظِرُ الْمُوسِرَ وَأَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ ، فَأَدْخَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ**) ، قَالَ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : (**إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَلَمَّا أَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلاً ، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا ، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَ إِلَى عَظْمِي فَامْتُحِشْتُ [٣] فَخُذُوهَا فَاذْرُوهَا فِي الْيَمِّ**

---

[١] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٥/١٠٨-١٠٩) حديث رقم ١٩٩٢٢ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧/٢٣٩) حديث رقم ٢٠٠٥٩ .

[٢] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٦/٥٦٩) حديث رقم ٢٣١٤٦ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩/٧٥) حديث رقم ٢٣٣١٣ .

[٣] كذا بلفظ (فَامْتُحِشْتُ) في تحقيق المسند لعبد الله محمد الدرويش ، وقد وردت تلك الكلمة في رواية البخاري بلفظ (فَامْتَحَشْتُ) ، والمحش : إحراق النار الجلد .

، **فَفَعَلُوا ، فَجمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْه ، وَقَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : خَشْيَتَكَ** [(١)]) قَالَ : (**فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ**) قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَمْرٍو : أَنَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَكَانَ نَبَّاشًا . [(٢)]

حَدَّثَنَا مُصْعَبُ بْنُ سَلاَّمٍ حَدَّثَنَا الأَجْلَحُ عَنْ نُعَيْمِ بْنِ أَبِي هِنْدٍ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ قَالَ : جَلَسْتُ إِلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَإِلَى أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ : حَدِّثْ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : لاَ ، بَلْ حَدِّثْ أَنْتَ ، فَحَدَّثَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ وَصَدَّقَهُ الآخَرُ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (**يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ انْظُرُوا فِي عَمَلِهِ ، فَيَقُولُ : رَبِّ مَا كُنْتُ أَعْمَلُ خَيْرًا غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ لِي مَالٌ وَكُنْتُ أُخَالِطُ النَّاسَ فَمَنْ كَانَ مُوسِرًا يَسَّرْتُ عَلَيْهِ وَمَنْ كَانَ مُعْسِرًا أَنْظَرْتُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا أَحَقُّ مَنْ يَسَّرَ ، فَغَفَرَ لَهُ**) فَقَالَ : صَدَقْتَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (**يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِرَجُلٍ قَدْ قَالَ لأَهْلِهِ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاحْرِقُونِي ثُمَّ اطْحَنُونِي ثُمَّ اسْتَقْبِلُوا بِي رِيحًا عَاصِفًا فَاذْرُونِي ، فَيَجْمَعُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ**) قَالَ : (**فَيَغْفِرُ لَهُ**) ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ . [(٣)]

---

(١) كذا وردت في ط. دار الحديث بتحقيق حمزة أحمد الزين ، ووردت بلفظ (مِنْ خَشْيَتِكَ) في ط.دار الفكر بتحقيق عبد الله محمد الدرويش .

(٢) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٦/٦٠١-٦٠٢) حديث رقم ٢٣٢٤٦ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩/٩٨) حديث رقم ٢٣٤١٣ .

(٣) المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٦/٦٣٤) حديث رقم ٢٣٣٥٥ ، وقال : (إسناده حسن) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩/١٢١) حديث رقم ٢٣٥٢٣ .

الفصل الثاني : نظرة عامة في روايات الحديث في كتب السنة

هذا حديث عظيم جليل القدر ، فيه من بيان أهمية التوحيد ، وأنه مفتاح الجنة ، وأن الموحدين مآلهم إلى الجنة وإن تأخر دخولهم إليها بسبب معاصيهم ، وفيه من بيان كمال قدرة الله عز وجل وكمال علمه سبحانه وتعالى ، وسعة رحمة الله جل جلاله بالموحدين ، وفضيلة الخوف من الله عز وجل ما الله به عليم .

وقد روى هذا الحديث جمع من فضلاء الصحابة منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وسلمان الفارسي [١] ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وأبو مسعود الأنصاري رضي الله عنهم أجمعين . وأخرجه عنهم كما سبق بيانه وسرده في الفصل الأول جمع كبير من مصنفي الحديث الأعلام مثل الشيخين الإمامين البخاري ومسلم وغيرهما .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أصحاب الصحيح والمساند من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عامر وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة يعلم أهل الحديث أنها تفيد العلم اليقيني وإن لم يحصل ذلك لغيرهم) [٢] .

فهذا حديث صحيح ثابت ، إلا أنه ورد بروايات متعددة ، وتتفق الروايات أو تأتلف بمجموعها على وصف حالة الرجل المذكور أنه رجل عاش فيما قبل زمن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ، وهو رجل أنعم الله عز وجل عليه بالمال والولد ، ولكن هذا الرجل رغم هذه النعم أسرف على نفسه من المعاصي ، وكان نباشاً ينبش القبور ، فلما شعر بدنو أجله وعلم أنه لا بد سيبعث من جديد ويحاسب على أفعاله ، تذكر معاصيه وإسرافه على نفسه ، ففكر في طريق للنجاة ، فجمع أولاده وأوصاهم أن يحرقوا جسده بعد الموت حتى يصير فحماً ، ومن ثم يطحنوه حتى يصير رماداً ، ومن ثم يذروا هذا الرماد في البر والبحر ، وثم ينقلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما سيحدث في المستقبل من أن الله يبعث هذا الرجل ويسأله عن السبب الباعث له على هذا الفعل ، فيجيب هذا الرجل أنه ما فعل ذلك إلا خشية من الله عز وجل وخوفاً منه سبحانه ، فيغفر الله له معاصيه ويتوب عليه ويدخله الجنة بتلك الخشية والخوف .

فإن قلت : فلماذا أمر هذا الرجل أولاده بحرق جسده بعد الموت وذري رماده في البر والبحر ؟

---

[١] أما رواية سلمان الفارسي رضي الله عنه فهي عند أبي عوانة في صحيحه ولم أظفر به ، وقد أشار الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) على طرف منه كما سيأتي بحول الله تعالى .

[٢] مجموعة الرسائل والمسائل (٣٤٦/٣) .

أقول بحول الله تعالى : **قد أجمعت الروايات قاطبة سؤال الله عز وجل لهذا الرجل عن سبب فعله هذا ، وهو أجاب ولم يكذبه الله عز وجل على أنه إنما فعل ذلك خشية من الله وخوفاً ، ولهذا غفر الله له وأدخله الجنة .**

واختلفت الروايات في حديث الرجل مع أهله حين أوصاهم ما أوصاهم ، ففي بعض الروايات لم يعلِّل لهم سبب أمره إياهم بأن يحرقوه ويذروا رماده ، وفي بعض الروايات ذكر لهم أنه لم يعمل خيراً قط ، وفي الروايات الأخرى وردت ألفاظ متعددة [1] خاطب بها الرجل بنيه فسببت إشكالاً في فهم الحديث وتوجيهه ، ونحن نفصِّل لك هذا بفضل الله عز وجل فنقول وبالله التوفيق ومنه نستمد الإعانة:

إن قصة هذا الرجل وردت في كتب السنة على ستة أقسام :

القسم الأول : ورد فيه أن الرجل أمر أهله أن يحرقوه خشية من الله وخوفاً ، ولم يذكر لبنيه قولاً فيه شك في قدرة الله أو في علم الله ، ولا نفي لهما .

مثال هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء / باب حديث الغار : حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّ رَجُلاً كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللَّهُ مَالاً فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ**

---

[1] اعلم أن اختلاف ألفاظ الأحاديث النبوية لا شك في وقوعه ، ومن صوره :

الأول : **أن يتعدد الرواة من الصحابة في واقعة معينة متكررة** : فهذا إن كان في الأفعال المتكررة مثل أذكار الصلاة ومثل ألفاظ الأذان وغير ذلك محمول على تعداد التعليم منه صلى الله عليه وآله وسلم ، فمثل هذه الروايات مخير فيها الإنسان إن صحت فهو مخير بأي رواية عمل فأجر ، فتعدد الألفاظ في مثل هذا النوع مع صحتها دالة على التخيير . فإن التعارض والتناقض إنما يكونان مع اتحاد الزمان .

الثاني : **أن تتحد القصة وتختلف الألفاظ فيها** : وهذا هو المشكل ، وهو محل الاجتهاد والترجيح بأدوات الترجيح التي ذكرها أهل العلم هذا إن لم يكن سبيل إلى الجمع بين تلك الألفاظ ، لأن الجمع بين الروايات مقدم على الترجيح .

الثالث : **أن تتحد القصة وتتنوع الألفاظ فيها بدون أن تتناقض** بحيث يكون في كل رواية من الزيادة ما ليس في غيرها . فإذا روى جماعة من الصحابة قصة معينة واختلفت ألفاظهم فيها بالزيادة والنقصان فهو لأمور :

الأول : إما أنه نسي أحد الرواة بعضاً ، وروى بعضاً ، أو أنه لم يسمع إلا ما روى ، فيصدق كلامهم فيما روي ، لأنهم عدول صادقون يجب قبول روايتهم .

الثاني : وإما أن بعض الرواة حضر موقف حديثه صلى الله عليه وآله وسلم من أوله فروى ما سمعه كاملاً ، وجاء غيره من الصحابة وهو صلى الله عليه وآله وسلم في أثناء حديثه فسمع آخر الحديث فرواه ناقصاً .

الثالث : وإما أن يكون الرواة من الصحابة ومن بعدهم رووا ذلك الحديث بالمعنى لأن الرواية بالمعنى جائزة لمن يعرف الألفاظ ومعانيها ، وغالب الرواة كذلك . لكن الناظر إذا جمع ما وقع من الروايات في الحادثة حصل له الظن الغالب بالمعنى الصادر عنه صلى الله عليه وآله وسلم . (باختصار شديد وتصرف يسير من رسالة اختلاف ألفاظ الحديث النبوي لبدر الدين محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني المتوفى سنة ١١٨٢هـ) .

لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُّونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، فَفَعَلُوا ، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِه) وَقَالَ مُعَاذٌ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ عَبْدِ الْغَافِرِ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [1]

أخرج الحديث على هذا النحو الإمام البخاري من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في كتاب بدء الخلق / باب ما ذكر عن بني إسرائيل [2] ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء / باب حديث الغار [3] ، وفي كتاب الرقاق / باب الخوف من الله [4] ، وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسنده في مسند عبد الله من مسعود رضي الله عنه [5] وفيه أن هذا الرجل كان موحداً ، وأخرجه في مسند أبي هريرة رضي الله عنه من حديث الحسن وابن سيرين [6] وفيه كذلك أن الرجل كان موحداً ، وأخرجه في مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه برقم [7] ورقم [8] ، وأخرجه في باقي مسند الأنصار من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه برقم [9] ورقم [10] ورقم [11] ، وكذلك أخرجه الإمام الدارمي في سننه في كتاب الرقاق ، باب فيمن قال : (إذا مِتُّ فَاحْرِقُونِي بِالنَّارِ) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده [12]

---

[1] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٤) ، ط. المكتز (٦٨٨/٢) أو (ص٩٦٢ ، حديث رقم ٣٤٧٨) .

[2] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٦٨/٤-١٦٩) ، ط. المكتز (٦٨١/٢-٦٨٢) أو (ص٩٥٥ ، حديث رقم ٣٤٥٠-٣٤٥٢) .

[3] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٧٦/٤) ، ط. المكتز (٦٨٨/٢) أو (ص٩٦٢ ، حديث رقم ٣٤٧٩) .

[4] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٠١/٨) ، ط. المكتز (١٣١٤/٣) أو (ص١٧٤٩ ، حديث رقم ٦٤٨٠) .

[5] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ٣٧٨٥ ، ط. أحمد شاكر : (٣١/٤) ، وقال : (إسناده صحيح ، وهو في مجمع الزوائد (١٩٤/١٠) ونسبه للمسند وحسن إسناده) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٥٦/٢) .

[6] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر : (١٣٥/٨-١٣٦) حديث رقم ٨٠٢٧ ، وقال : (هو بإسنادين : أولهما من حديث أبي هريرة وهو إسناد صحيح متصل ، والثاني : مرسل عن الحسن وابن سيرين ، فهو ضعيف لإرساله ، وزاده ضعفاً أنه من رواية حماد عن مجاهيل عن غير واحد عن الحسن وابن سيرين) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (١٧٠/٣-١٧١) حديث رقم ٨٠٤٦ .

[7] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (٤٥/١٠) حديث رقم ١١٠٣٨ ، وقال : (إسناده حسن ، وشيبان هو ابن عبد الرحمن التميمي ثقة والباقون كلهم فيهم كلام صدوقون لهم أخطاء) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٢٨/٤) حديث رقم ١١٠٩٦.

[8] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين (٥٧/١٠-٥٨) حديث رقم ١١٠٧٠ ، وقال : (إسناده حسن لأجل العوفي وشيبان هو ابن عبد الرحمن النحوي ثقة تقدم وفراس صدوق) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٣٦/٤) حديث رقم ١١١٢٨ .

[9] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين (٥٦٩/١٦) حديث رقم ٢٣١٤٦ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧٥/٩) حديث رقم ٢٣٣١٣ .

[10] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (٦٠١/١٦-٦٠٢) حديث رقم ٢٣٢٤٦ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩٨/٩) حديث رقم ٢٣٤١٣ .

[11] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (٦٣٤/١٦) حديث رقم ٢٣٣٥٥ ، وقال : (إسناده حسن) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (١٢١/٩) حديث رقم ٢٣٥٢٣ .

[12] سنن الدارمي (١٨٥٥/٣-١٨٥٦) ، قال محققه حسين سليم أسد : (إسناده جيد) .

، وكذا أخرجه الإمام ابن حبان في صحيحه [١] دون اللفظ المشكل بل اعتبر أمره أولاده حرق جسده بعد الموت من أعمال الخير . وفي بعض هذه روايات هذا القسم ذكر هذا الرجل لأولاده أنه لم يعمل خيراً قط ، وفي بعضها لم يذكر ذلك لهم .

القسم الثاني : وهي الروايات التي وردت فيها ألفاظ أحد معانيها تعني الشك في قدرة الله عز وجل قالها الرجل لبنيه :

فقد ورد بلفظ (**فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا**) مثال هذا ما أخرجه الإمام البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسه** [٢] **فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لبَنيه : إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُوني ثُمَّ اطْحَنُوني ثُمَّ ذَرُّوني في الرِّيحِ فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا ، فَلَمَّا مَاتَ فُعلَ به ذَلكَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعي مَا فيك منْهُ ، فَفَعَلَتْ ، فَإذَا هُوَ قَائمٌ ، فَقَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ**) وَقَالَ غَيْرُهُ : (**مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ**) . [٣] وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الإمام ابن ماجة في سننه في كتاب الزهد / باب ذكر التوبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٤] .

وورد بلفظ (**فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُني عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ به أَحَدًا**) أخرجه بهذه اللفظ الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة ، باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٥] .

وورد بلفظ (**فَوَاللَّه لَئنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْه لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا منَ الْعَالَمينَ**) أخرجه بهذا اللفظ الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى ﴿ **يُريدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّه** ﴾ (الفتح: ١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٦] ، وأخرجه كذلك الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجنائز / باب جامع الجنائز من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برواية يحيى بن يحيى الليثي [٧] ، ومنه برواية أبي مصعب الزهري المدني [٨] ، ومنه برواية سويد بن سعيد الحدثاني [٩] .

---

[١] صحيح ابن حبان ، كتاب التاريخ / باب الحوض والشفاعة ، (١٤/٣٩٣-٣٩٦)، وقال محققه شعيب الأرنؤوط عنه : (إسناده جيد).

[٢] يسرف على نفسه أي : يبالغ في المعاصي .

[٣] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (٤/١٧٦) ، ط. المكنز (٢/٦٨٨) أو (ص٩٦٣ ، حديث رقم ٣٤٨١) .

[٤] سنن ابن ماجة ، ط. المكنز : (ص ٧٤٧ ، حديث رقم ٤٢٥٥) ، ط. محمد مصطفى الأعظمي : (٢/٤٣٨-٤٣٩) ، حديث رقم ٤٣٠٩ ، كتاب صحيح سنن ابن ماجة للألباني : (٢/٤١٩) .

[٥] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٨/٩٧-٩٨) ، ط. المكنز (٢/١١٥٩) أو (ص١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٧) .

[٦] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (٩/١٤٥) ، ط. المكنز (٣/١٥١٦) أو (ص٢٠٢٩ ، حديث رقم ٧٥٠٦) .

[٧] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، (١/٣٢٩) ، حديث رقم ٦٤٥ .

[٨] الموطأ برواية أبي مصعب الزهري المدني ، (١/٣٩٢) ، حديث رقم ٩٩٣ .

[٩] الموطأ برواية سويد بن سعيد الحدثاني ، ص ٣٢٣ ، حديث رقم ٤٠٧ .

وورد بلفظ (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ**) أخرجه بهذا اللفظ الإمام النسائي في سننه في كتاب الجنائز / باب أرواح المؤمنين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [١] .

وورد بلفظ (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عُذِّبَهُ أَحَدٌ**) أخرجه الإمام أحمد في مسنده في مسند أبي هريرة رضي الله عنه [٢] .

وورد بلفظ (**فَإِنَّ اللَّهَ إِنْ يَقْدِرْ عَلَيَّ لَمْ يَغْفِرْ لِي**) أخرجه بهذا اللفظ الإمام النسائي في سننه في كتاب الجنائز / باب أرواح المؤمنين من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه [٣] .

وورد بلفظ (**وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ**) أخرجه بهذا اللفظ الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد / باب قول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ** ﴾ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه [٤] ، وأخرجه كذلك الإمام مسلم في صحيحه في كتاب التوبة / باب في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه [٥] ، وأخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده في مسند أبي سعيد الخدري رضي الله عنه [٦] .

القسم الثالث : وهي الروايات التي ورد فيها لفظ ظاهره يفيد الشك في علم الله عز وجل قالها الرجل لبنيه ، ويلزم منه أيضاً الشك في قدرة الله عز وجل ، وقد رويت عن صحابي واحد هو معاوية بن حيدة رضي الله عنه .

والحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده في أول مسند البصريين / حديث حكيم بن معاوية البهزي عن أبيه معاوية بن حيدة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عَنْ أَبِي قَزَعَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**إِنَّ رَجُلاً كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَغَسَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَالاً وَوَلَدًا حَتَّى ذَهَبَ عَصْرٌ وَجَاءَ عَصْرٌ فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ : أَيْ بَنِيَّ أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُطِيعِيَّ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : انْظُرُوا إِذَا مُتُّ أَنْ تُحَرِّقُونِي**

---

[١] سنن النسائي ، ط. المكنز (ص ٤٠٨ ، حديث رقم ٢٠٧٩) ، صحيح سنن النسائي باختصار السند للألباني : (٤٤٧/٢) ، حديث رقم ١٩٦٦ .

[٢] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر : (٣٧٨/٧-٣٧٩) حديث رقم ٧٦٣٥ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٩٥/٣-٩٦) حديث رقم ٧٦٥١ .

[٣] سنن النسائي ، ط. المكنز (ص ٤٠٨ ، حديث رقم ٢٠٨٠) ، صحيح سنن النسائي باختصار السند للألباني : (٤٤٧/٢) ، حديث رقم ١٩٦٧ .

[٤] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٤٥/٩-١٤٦) ، ط. المكنز (١٥١٦/٣-١٥١٧) أو (ص ٢٠٣٠ ، حديث رقم ٧٥٠٨) .

[٥] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨) ، ط. المكنز (١١٥٩/٢) أو (ص١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٦) .

[٦] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (٢٤٣/١٠-٢٤٤) حديث رقم ١١٦٧٥ ، وقال : (إسناده صحيح ، ومعتمر هو ابن سليمان) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (١٥٥/٤) حديث رقم ١١٧٣٦ .

حَتَّى تَدَعُونِي فَحْمًا) قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، ثُمَّ اهْرُسُونِي بِالْمِهْرَاسِ**) يُومِئُ بِيَده ، قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا وَاللَّه ذَلكَ ، ثُمَّ أَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ فِي يَوْمِ رِيحٍ لَعَلِّي أضلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ : (**فَفَعَلُوا وَاللَّه ذَلكَ ، فَإِذَا هُوَ فِي قَبْضَة اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَقَالَ : يَا ابْنَ آدَمَ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : أَيْ رَبِّ مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَتَلافَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهَا**) . [١]

وأخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده من حديث أبي قزعة الباهلي عن حكيم بن معاوية عن أبيه [٢] ، وكذلك من حديث بهز بن حكيم عن أبيه حكيم بن معاوية عن جده معاوية بن حيدة [٣].

القسم الرابع : وهي الرواية التي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق / باب الخوف من الله من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه والتي ظاهرها تفيد الشك في البعث قالها الرجل لبنيه ، ولفظ الحديث هو :

حَدَّثَنَا مُوسَى حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ سَمِعْتُ أَبِي حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَبْدِ الْغَافِرِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ أَوْ قَبْلَكُمْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا ، يَعْنِي أَعْطَاهُ ، قَالَ : فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ : أَيَّ أَبٍ كُنْتُ ؟ قَالُوا : خَيْرَ أَبٍ ، قَالَ : فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا ، فَسَّرَهَا قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ ، وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي أَوْ قَالَ فَاسْهَكُونِي ، ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا ، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي ، فَفَعَلُوا ، فَقَالَ اللَّهُ : كُنْ ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ قَالَ : مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ ، فَمَا تَلافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ**) فَحَدَّثْتُ أَبَا عُثْمَانَ فَقَالَ : سَمِعْتُ سَلْمَانَ غَيْرَ أَنَّهُ زَادَ (**فَأَذْرُونِي فِي الْبَحْرِ**) أَوْ كَمَا حَدَّثَ ، وَقَالَ مُعَاذٌ : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [٤]

---

[١] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٥/١٠٠-١٠١) حديث رقم ١٩٨٩٧ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧/٢٣١-٢٣٢) حديث رقم ٢٠٠٣٢ .

[٢] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٥/١٠٣-١٠٤) حديث رقم ١٩٩٠٧ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧/٢٣٥-٢٣٦) حديث رقم : ٢٠٠٤٢ ، ٢٠٠٤٣ ، ٢٠٠٤٤ .

[٣] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. حمزة أحمد الزين : (١٥/١٠٨-١٠٩) حديث رقم ١٩٩٢٢ ، وقال : (إسناده صحيح) ، ط. عبد الله محمد الدرويش : (٧/٢٣٩) حديث رقم ٢٠٠٥٩ .

[٤] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (٨/١٠١) ، ط. المكنز (٣/١٣١٤) أو (ص١٧٤٩ ، حديث رقم ٦٤٨١) .

القسم الخامس : وهي رواية فريدة فيها أن الرجل جزم أن الله قادر على أن يعذبه وأخبر بها بنيـــه ، وهي الرواية التي أخرجها الإمام مسلم في صحيحه ولفظ الحديث هو :

حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاذٍ الْعَنْبَرِيُّ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَبْدِ الْغَافِرِ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**أَنَّ رَجُلاً فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَاشَهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا ، فَقَالَ لِوَلَدِهِ : لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لَأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ ، إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي**) وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّهُ قَالَ : (**ثُمَّ اسْحَقُونِي وَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ ، فَإِنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا ، وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي ، قَالَ : فَأَخَذَ مِنْهُمْ مِيثَاقًا ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ وَرَبِّي ، فَقَالَ اللَّهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ ؟ فَقَالَ : مَخَافَتُكَ**) قَالَ : (**فَمَا تَلاَفَاهُ غَيْرُهَا**) . [1]

القسم السادس : وهي رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي أخرجها الإمام أحمد في مـــسنده ، والإمام ابن حبان في صحيحه ، والإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـــــ) في مـــشكله ، مـــن حديث الشفاعة حيث اعتبر الرجل ما فعله من أمره أولاده بحرقه من فعل الخير ، وأنه ما فعل ذلـــك إلا من مخافة الله عز وجل وخشيته ، غير أن رواية ابن حبان لم يرد فيها اللفظ المشكل ، وأما رواية أبي بكر التي في مسند الإمام أحمد ورد فيها كلام الرجل المشكل بلفظ « ... **إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّـــارِ ثُـــمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَاذْهَبُوا بِي إِلَى الْبَحْرِ فَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَـــيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا** ... » . [2] .

وأما رواية الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هــ) في مشكله ورد فيها كلام الرجل المـــشكل بلفظ : « ... **إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي بِالنَّارِ ثُمَّ اطْحَنُونِي حَتَّى إِذَا كُنْتُ مِثْلَ الْكُحْلِ فَاذْهَبُوا بِـــي إِلَـــى الْبَحْرِ فَاذْرُونِي فِي الرِّيحِ فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ** » [3].

ولهذا فإن هذا الحديث عُدَّ من المشكلات لأن هذا رجل موحد كما أشارت إليه رواية أحمد في مسنده ، وكما عُلم من جميع الروايات التي ذكر فيها أنه دخل الجنة والجنة لا يدخلها إلا الموحدون .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هــ) في شرحه لصحيح مسلم : (وقوله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ**) الرواية التي لا يعرف غيرها قَدَرَ بتخفيف الدال ، **وظاهر هذا اللفظ** أنه شك في

---

[1] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٨/٨) ، ط. المكتز (١١٦٠/٢) أو (ص ١٤١٥-١٤١٦ ، حديث رقم ٧١٦٠) .

[2] المسند للإمام أحمد بن حنبل ، حديث رقم ١٥ ، ط. أحمد شاكر (١٧٢/١-١٧٥) .

[3] شرح مشكل الآثار للإمام الطحاوي (٢٧/٢) ، ط. شعيب الأرنؤوط .

كون الله تعالى يقدر على إحيائه وإعادته ، ولذلك أمر أهله أن يحرقوه ، ويسحقوه ، ويذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فكأنه توقع إذا فعل به ذلك تعذرت إعادته . وقد أوضح هذا المعنى ما رواه بعض الرواة في غير كتاب مسلم قال : (فلعلي أضل الله) [١] أي : أغيب عنه . وهذا ظاهر في شك الرجل في علم الله تعالى ، والأولى ظاهرة في شكه في أنه تعالى يقدر على إعادته ، ولما كان هذا انقسم الناس في تأويل هذا الحديث) [٢] .

---

[١] اللفظ الثابت بدون الفاء ، وانظر رواية الإمام أحمد عن بهز بن حكيم عن جده .

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس لقرطبي (٧/٧٥) .

الفصل الثالث : هذا الرجل من بني إسرائيل مسلم موحد ومن أهل الجنة

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) : (وفي رواية أبي رافع عن أبي هريرة في هذا الحديث أنه قال (**قال رجل لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد**) [١] ، وهذه اللفظة ترفع الإشكال في إيمان هذا الرجل ، والأصول كلها تعضدها ، والنظر يوجبها ، لأنه محال أن يغفر الله للذين يموتون وهم كفار لأن الله عز وجل قد أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به ، وقال : ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾ (الأنفال: ٣٨) ، فمن لم ينته عن شركه ومات على كفر لم يك مغفوراً له ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ** ﴾ (النساء: ١٨) .

وأما قوله : (**لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ**) وقد روي : (**لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ**) ، أنه لم يعذبه إلا ما عدا التوحيد من الحسنات والخير بدليل حديث أبي رافع المذكور . وهذا شائع في لسان العرب أن يؤتى بلفظ الكل والمراد البعض ، وقد يقول العرب لم يفعل كذا قط يريد الأكثر من فعله ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « **لاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ** » [٢] يريد أن الضرب للنساء كان منه كثيراً لا أن عصاه كانت ليلاً ونهاراً على عاتقه ، وقد فسرنا هذا المعنى في غير موضع من كتابنا هذا .

والدليل على أن الرجل كان مؤمناً قوله حين قال له : (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟**) قال : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ**) ، والخشية لا تكون إلا لمؤمن يصدق ، بل ما تكاد تكون إلا من مؤمن عالم ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨) .

قالوا : كل من خاف الله فقد آمن به وعرفه ، ويستحيل أن يخاف من لا يؤمن به ، وقد ذكرنا من الآثار في التمهيد ما يوضح ما قلنا وبالله توفيقنا) [٣] .

وقال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) في التمهيد : (روي من حديث أبي رافع عن أبي هريرة في هذا الحديث أنه قال : (**قال رجل لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد**) [٤] ، وهذه اللفظة إن صحت رفعت الإشكال في إيمان هذا الرجل ، وإن لم تصح من جهة النقل فهي

---

[١] رواية أبي رافع عن أبي هريرة لفظه عند أحمد : « **كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ** » ، وليس : (قال رجل ...) . (انظر المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر (١٣٥/٨-١٣٦) حديث رقم ٨٠٢٧) .

[٢] أخرجه الإمام مالك في الموطأ بلفظ « **أَمَّا أَبُو جَهم فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ** » . (موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، كتاب الطلاق/باب ما جاء في نفقة المطلقة (٩٤/٢) ، حديث رقم ١٦٩٧) .

[٣] الاستذكار لابن عبد البر (٣٦٥/٨-٣٦٦) .

[٤] رواية أبي رافع عن أبي هريرة لفظه عند أحمد : « **كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ** » ، وليس : (قال رجل ...) . (انظر المسند للإمام أحمد بن حنبل ، ط. أحمد شاكر (١٣٥/٨-١٣٦) حديث رقم ٨٠٢٧) .

صحيحة من جهة المعنى والأصول كلها تعضدها والنظر يوجبها لأنه محال غير جائز أن يغفر للذين يموتون وهم كفار ، لأن الله عز وجل قد أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به لمن مات كافراً ، وهذا ما لا مدفع له ولا خلاف فيه بين أهل القبلة . وفي هذا الأصل ما يدلك على أن قوله في هذا الحديث (**لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ**) أو (**لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ**) لم يعن به [1] إلا ما عدا التوحيد من الحسنات والخير ، وهذا سائغ في لسان العرب جائز في لغتها أن يؤتى بلفظ الكل والمراد البعض .

والدليل على أن الرجل كان مؤمناً قوله حين قيل له (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟**) ، فقال : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ**) ، والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم ، كما قال الله عز وجل: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨) . قالوا : كل من خاف الله فقد آمن به وعرفه ومستحيل أن يخافه من لا يؤمن به وهذا واضح لمن فهم وألهم رشده .

ومثل هذا الحديث في المعنى ما حدثناه عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبو صالح حدثني الليث عن ابن العجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ : خُذْ مَا يَسُرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللَّهُ : ﴿ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ ﴾ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لِي غُلاَمٌ فَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ يَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ : خُذْ مَا يَسُرَ ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا . قَالَ اللَّهُ : ﴿ قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ ﴾** » [2] .

قال أبو عمر : فقول هذا الرجل الذي لم يعمل خيراً قط غير تجاوزه عن غرمائه : (**لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزَ عَنَّا**) إيمان وإقرار بالرب ومجازاته ، وكذلك قوله الآخر : (**خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ**) ؛ **إيمان بالله ، واعتراف له بالربوبية** ، والله أعلم) [3] .

قلت بحول الله تعالى : وهذا من فقه الإمام ابن عبد البر رحمه الله حيث فسر الحديث بما يشبهه .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (فِيهِ فَوَائِدُ : **الْأُولَى** : أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ ابْنِ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الْأَعْرَجِ وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ (**لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ**) وَأَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ

---

[1] في المطبوع (لم يعذبه) وهو تصحيف ، وما أثبتناه من الأصل المخطوط وبه يستقيم الكلام .

[2] هذا الحديث أخرجه النسائي في سننه بلفظ قريب جداً ، في كتاب البيوع / باب حسن المعاملة والرفق في المطالبة ، ط. المكتز (حديث ٤٦٩٤ ، ص ٩٠٧) ، ولفظه : « **إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ : خُذْ مَا تَيَسَّرَ ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : ﴿ هَلْ عَمِلْتَ خَيْرًا قَطُّ ﴾ قَالَ : لاَ ، إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ لِي غُلاَمٌ ، وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى قُلْتُ لَهُ : خُذْ مَا تَيَسَّرَ ، وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ ، وَتَجَاوَزْ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ ﴾** » .

[3] التمهيد لابن عبد البر (١٨/٤٠-٤٢) .

وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمَعْنَاهُ ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي رَافِعٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمِثْلِ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (**لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ**) ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ نَبَّاشًا ، وَذَكَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ أَنَّ أَكْثَرَ رُوَاةِ الْمُوَطَّإِ رَفَعُوا هَذَا الْحَدِيثَ ، وَوَقَفَهُ الْقَعْنَبِيُّ ، وَمُصْعَبٌ الزُّبَيْرِيُّ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ .

قُلْت : وَالْمُرَادُ وَقْفُ لَفْظِهِ وَأَمَّا حُكْمُهُ فَهُوَ الرَّفْعُ ؛ لأَنَّهُ لاَ يُقَالُ مِثْلُهُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ فَهُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ**) ظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا ؛ لأَنَّ التَّوْحِيدَ أَعْظَمُ الْخَيْرِ لَكِنْ إخْبَارُهُ بِأَنَّهُ فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، **وَكَيْفَ يَخْشَى اللَّهَ مَنْ لاَ يَعْرِفُهُ** ، بَلْ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨) ، وَقَدْ رَفَعَتْ تِلْكَ الرِّوَايَةُ الَّتِي نَقَلْتهَا مِنْ مُسْنَدِ أَحْمَدَ الإِشْكَالَ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِيهَا (**لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ**) .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ إنْ صَحَّتْ رَفَعَتْ الإِشْكَالَ فِي إيمَانِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَإِنْ لَمْ تَصِحَّ مِنْ جِهَةِ النَّقْلِ فَهِيَ صَحِيحَةٌ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى ، وَالأُصُولِ تَعْضُدُهَا ، وَالنَّظَرُ يُوَجِّهُهَا ؛ لأَنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يَغْفِرَ لِلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ بِلاَ خِلاَفٍ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَهَذَا سَائِغٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَنْ يُؤْتَى بِلَفْظِ الْكُلِّ وَالْمُرَادُ الْبَعْضُ) [١] .

قال الإمام شهاب الدين القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ) : " (**لم يقدم عند الله خيراً**) [٢] ليس المراد نفي كل خير على العموم بل نفي ما عدا التوحيد ولذلك غفر له ، وإلا فلو كان التوحيد منتفياً أيضاً لتحتم عقابه سمعاً و لم يغفر له " [٣] .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (قَوْلُهُ : (**لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ**) ؛ ظَاهِرٌ أَنَّ الْعَمَلَ مَا تَعَلَّقَ بِالْجَوَارِحِ وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعَمَلِ ، وَإِنْ جَازَ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى الإعْتِقَادِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ وَالإِتِّسَاعِ ، فَأَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَنْ هَذَا الرَّجُلِ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تُعْمَلُ بِالْجَوَارِحِ ، وَلَيْسَ فِيهِ إخْبَارٌ عَنْ اعْتِقَادِ الْكُفْرِ ، وَإِنَّمَا يُحْمَلُ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّهُ اعْتَقَدَ الإِيمَانَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَأْتِ مِنْ شَرَائِعِهِ بِشَيْءٍ) [٤] .

---

[١] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٦٦) .

[٢] لم أجده بهذا اللفظ في روايات الحديث ، وإنما موجود عند البخاري في كتاب الرقاق بلفظ : (**لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا**) وهما بنفس المعنى .

[٣] إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري للقسطلاني (١٠/٤٣٦-٤٣٧) .

[٤] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (١/٣٢) .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (... ثُمَّ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ : (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟**) ، يُرِيدُ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ إِحْرَاقِهِ وَتَفْرِيقِ أَجْزَائِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَقَالَ : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ وَعِلْمِهِ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، **وَأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَقْصِدِهِ وَمُعْتَقَدِهِ ، فَكَيْفَ يظنُّ مَعَ هَذَا أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِ ؟!!**) [1] .

قلت بحول الله تعالى : وهنا في قول الإمام أبي الوليد الباجي نكتة لطيفة ولفتة دقيقة رائعة ، وقد تفطن لهذا أحد الإخوة جزاه الله خيراً ، وهو أن هذا الرجل أقر لله بالعلم بقوله (**وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) ، فلما رجعت إلى روايات الحديث وجدت أن هذه الزيادة تفرد بها الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه ، أخرجه عنه الإمام البخاري في صحيحه بلفظ (**مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) [2] ، والإمام مسلم في صحيحه [3] ، والإمام مالك في موطئه رواه عنه يحيى الليثي [4] وأبو مصعب الزهري المدني [5] كلهم بلفظ (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) ، ورواه سويد بن سعيد الحدثاني عن الإمام مالك في موطئه [6] بلفظ (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ فَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ**) ، و لم أجد أحداً أشار إلى هذه النكتة البديعة غير أخينا إلا الإمام أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) رحمه الله لما شرح تلك الرواية حول سؤال الله عز وجل لهذا الرجل عن السبب الباعث له على هذا الفعل فأجاب بقوله : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) ، فالخشية تدل على إيمانه ، وكذلك قوله (**وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) يدل على إيمان الرجل وعلمه بصفات الله تعالى ، ويدل على علم الرجل بأن الله أعلم منه بمقصده ومعتقده والسبب الباعث له على وصية التحريق ، أي يدل على أن هذا الرجل يؤمن بأن الله يعلم ما يخفيه في دفين صدره من نيته الحقيقية التي جعلته يوصي بما أوصى ألا وهي خشية الله سبحانه وتعالى ، فكيف يقال عنه بعد ذلك أنه يشك في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه وتعالى ؟!!

وهذه الزيادة في جواب الرجل أي قوله (**وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) لا شك في ثبوتها إذ أخرجها الشيخان وكذلك الإمام مالك في الموطأ ، ولعل سبب انفراد أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ كونه من أحفظ الصحابة لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن أكثرهم رواية ، وأكثرهم ملازمة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يغني شهرة ذلك عن الاستدلال عليه .

---

[1] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٣/١) .

[2] صحيح البخاري ، الطبعة السلطانية (١٤٥/٩) ، ط. المكتر (١٥١٦/٣) أو (ص ٢٠٢٩ ، حديث رقم ٧٥٠٦) .

[3] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨) ، ط. المكتر (١١٥٩/٢) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٦) .

[4] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، (٣٢٩/١) ، حديث رقم ٦٤٥ .

[5] الموطأ برواية أبي مصعب الزهري المدني ، (٣٩٢/١) ، حديث رقم ٩٩٣ .

[6] الموطأ برواية سويد بن سعيد الحدثاني ، ص ٣٢٣ ، حديث رقم ٤٠٧ .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (والرجل كان مؤمناً موحداً ، وقد جاء في بعض طرقه (**لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ**) ، وقد قال حين قال الله تعالى : (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟**) ، قال : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ**) ، والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق ، بل ما تكاد تكون إلا لمؤمن عالم ، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨)) [1] .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) : (وقوله : (**قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ**) هذه الرواية فيها توسعٌ في العبارة ؛ لأنا **نعلم قطعاً** أنَّ هذا الرجل كان متديناً **بدين حق** ، ومن كان كذلك لا بد أن يعمل حسنة : صوماً ، أو صلاة ، أو تلفظاً بخير ، أو شيئًا من الخير الذي تقتضيه شريعته ، وإنما الرجل كان خطَّاءً ، كثير المعاصي ، وقد نص على هذا المعنى في رواية أخرى في الأصل فقال : (**أسرف رجل على نفسه فلما حضرته الوفاة ...**) [2] وذكر الحديث) [3] .

وقال في موضع آخر : (ويشهد لكون هذا الحديث مؤولاً ، وليس على ظاهره قوله في آخر الحديث حين قال الله له : (**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟**) فَقَالَ : (**خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ**) . فلو كان جاهلاً بالله ، أو بصفاته ، لما خافه ، ولما عمل شيئًا لله ، والله تعالى أعلم) [4] .

قال الإمام السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) بعد أن نقل قول الإمام المازري (٤٥٣-٥٣٦هـ) والأُبِّي (ت: ٧٢٧ هـ) : " وقد دل الحديث أنه كان مؤمناً من قوله (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ**) " ، فتعقبه قائلاً : (فيه نظر ، فإن جهل صفة من صفات الله تعالى وإن **أوجب الكفر** لا يرفع الخشية حتى يستدل بثبوتها على نفي الكفر ، فإن كثيراً من الكفرة ممن يعتقد التجسيم وغيره مما يستحيل في حق الله تعالى لهم خشية إلا أن نقول الخشية أخص من الخوف على ما أشار إليه ابن الخطيب في تفسيره من أن الخشية هي الخوف التابع للمعرفة ولذا قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨) ، فقد يصح ما قاله المازْري والأُبِّي) [5] .

قلت بحول الله تعالى : إذا كانت الخشية أخص من الخوف ، وأنها كما أشار إليها ابن الخطيب "الخوف التابع للمعرفة" فهل يبقى ثمة إشكال في أن الرجل عارف بربه يستحيل أن يصدر منه ما فهمه البعض ؟!

---

[1] تفسير القرطبي (٢٧٢/١٤-٢٧٣) .

[2] وإنما يوجد بلفظ « **أَسْرَفَ عَبْدٌ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ** ... » ، وهي عند النسائي ، ويوجد بلفظ : « **أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ** ... » وهي عند مسلم وأحمد وابن ماجة .

[3] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٤/٧) .

[4] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٧/٧) .

[5] مكمل إكمال الإكمال للسنوسي (١٦٦/٩) .

قال الزرقاني (١٠٥٥-١١٢٢هـ) : (« **لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ** » ليس فيه ما ينفي التوحيد عنه ، والعرب تقول مثل هذا في الأكثر من فعله كحديث (**لاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِه**) [١] ، وفي رواية (**لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ**) قاله ابن عبد البر) [٢] .

قال عبد الله بن علي النجدي القصيمي (ت: ١٣٥٣هـ) : (والحديث يدل على أنه مؤمن به خائف منه ومن عقابه ، مؤمن بعذابه وحسابه) [٣] . وقال في موضع آخر : (شبهة ثالثة في الحديث : وهي أنه يقول : إن الرجل لم يعمل خيراً قط ، والتوحيد والإيمان بالله وبالرسل والملائكة والكتب من أعمال الخير ، فظاهر الحديث أنه لم يؤمن بهؤلاء . كما أن ظاهره أيضاً أنه لم يأت بأركان الإسلام : الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فكيف يغفر له حينئذ ؟! عن هذا جوابان :

الأول : أن يكون المراد أنه قد جاء بحسنات وسيئات ، فساوت الحسنات السيئات ، فذهبت بها ، ولم تبق منها حسنة ، وصار كمن لم يعمل خيراً قط ، فقال أنه لم يعمل خيراً . ونظير ذلك : رجل كسب كل يوم مائة قرش ، وينفق في جانب آخر كل يوم مثلها ، فإذا ما استمر كذلك سنة وأردنا أن ننظر فيما كسب في هذه المدة ، فإننا نقول بعد الحساب : إن هذا الرجل لم يكسب شيئاً قط . وإذا فرضنا أن مواليد الأمة المصرية مائة ألف وموتاها كذلك في سنة ١٩٣٥ فإنه يصح لنا أن نقول : إن الأمة المصرية في السنة المذكورة لم يأتها عدد جديد ، أو لم يولد لها ، وأمثال هذه العبارات . وربما فسر هذا ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً لأصحابه « **أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ** ؟ » قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ ، فَقَالَ : « **إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ** » [٤] .

والمفلس هو الذي لا شيء له ، فصار هذا العامل الذي استحق أن تضيع أعماله كأنه لا عمل له وكأنه لم يعمل خيراً قط . وبهذا الجواب تنحل شبهات كثيرة عن أحاديث معروفة ، فليكن من القارئ على ذكر .

والجواب الثاني : إن العمل إذا أطلق إطلاقاً ، كما إذا قيل عمل فلان عملاً صالحاً ، أو عملاً سيئًا ، لا يذهب عند هذا الإطلاق إلا لأعمال الجوارح من صلاة وصيام وحج ونظائره ولا يذهب لأعمال

---

[١] الموطأ برواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، كتاب الطلاق/باب ما جاء في نفقة المطلقة (٩٤/٢) ، حديث رقم ١٦٩٧ .

[٢] شرح الزرقاني على الموطأ (٨٦/٢) .

[٣] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٣ .

[٤] صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب / باب تحريم الظلم ، ط. المكنز (حديث رقم : ٦٧٤٤ ، ص ١٣٣٨) ، الطبعة السلطانية (١٨/٨) .

القلب من الإيمان والتصديق والرحمة وحب العدل والحق وأمثاله . لهذا كثيراً ما يقرن القرآن العمل الصالح بالإيمان مثل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ الآيات [1] . إذاً مراده هنا أنه لم يعمل عملاً مما تقوم به الجوارح لا أنه لم يؤمن) [2] .

نلخص مما سبق أن هذا الرجل كان مسلماً موحداً وأدلة ذلك باختصار :

١- رواية أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ « **لَمْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا قَطُّ إِلاَّ التَّوْحِيدَ** » .

٢- إخبار الرجل بأنه فعل ما فعل من خشية الله ، والخشية لا تكون إلا للمؤمن لأن الخشية هي الخوف التابع للمعرفة ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨)

٣- إخبار الرجل لما أجاب الله عز وجل عن السبب الباعث له على وصية التحريق أن ذلك من خشية الله عز وجل وأنه أعلم بمقصده منه وذلك في قوله « **مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ** » وهذا يدل على إقراره لله عز وجل بأنه سبحانه وتعالى أعلم من هذا الرجل بنيته وما خفي في صدره والسبب الباعث له على هذا الفعل ، فكيف يظن بعد ذلك بهذا الرجل أنه شك أنه يخفى على علم الله عز وجل إذا غاب رماده في البر والبحر ؟!! وكيف يظن بعد ذلك أنه يشك في قدرة الله عز وجل على إعادته إذا حرق وذر ؟!!

٤- قول الرجل في رواية مسلم : « **وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي** » مما يدل أنه لم يكن شاكاً في قدرة الله تعالى .

٥- أن هذا الرجل دخل الجنة ولو كان كافراً لما دخلها لأن الله عز وجل قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨) .

٦- وأيضاً من ناحية منطقية فإن هذا الرجل من بني إسرائيل كان نباشاً ، وكان مسرفاً على نفسه ، ويسيء الظن بما فعله من معاصي ومن نبش للقبور ، أي أنه كان يعرف أن نبش القبور من المحرمات ، فكيف يعرف هذا ويجهل كمال قدرة الله تعالى وكمال علمه أو البعث ؟! أي كيف يعرف حرمة نبش القبور وهو من الفرعيات ويجهل أساس التوحيد الذي هو أصل الأصول أو أخص ما يقترن بالتوحيد من البعث ؟!

---

[1] انظر الآيات (البقرة: ٢٧٧) ، (يونس: ٩) ، (هود: ٢٣) ، (الكهف:٣٠) ، (الكهف: ١٠٧) ، (مريم: ٩٦) ، (لقمان: ٨) ، (فصلت: ٨) ، (البروج: ١١) ، (البينة: ٧) .

[2] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٤-١٤٦ .

الفصل الرابع : إن العلماء وإن اختلفوا في شرح الحديث فهم متفقون على حكم من شك في قدرة الله أو في علم الله سبحانه وتعالى

وقبل بيان توجيه العلماء لشرح مشكل هذا الحديث أحببنا أن نشير أن العلماء وإن اختلفوا في توجيه مشكل الحديث وفي فهم الحديث فهم متفقون على حكم من شك في قدرة الله أو في علم الله سبحانه وتعالى .

إذ أنه من الثابت المتقرر عند علماء الإسلام بل وجميع المسلمين الحنفاء أن المــرء لا يكــون مؤمنــاً موحداً بل لا يكون عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه إلا أن يؤمن إيماناً يقينياً جازمــاً لا شك فيه بوجه من الوجوه أن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم . بل ولا يصح إســلامه إلا بالتبرؤ من المشركين ومن ضمنهم الذين عطلوا صفات الله عز وجل عن كمالها [(١)] .

ولما كان هذا الأصل راسخاً عندهم ووجدوا في بعض روايات الحديث ألفاظــاً مــشكلة تــدل في ظاهرها أو في أحد معانيها على شك الرجل في قدرة الله وفي علمه ، سارعوا إلى تأويل الحديث تأويلاً يصرفه عن المعنى الذي يصادم هذا الأصل الثابت المتقرر عندهم . ولو كان هذا الأصل غــير متقــرراً عندهم لما احتاجوا إلى كل تلك التأويلات ، ولقالوا جميعاً إن الرجل شك في قدرة الله وفي علم الله و لم يكفر بذلك ، وكفوا أنفسهم مؤنة التأويل ، لأنهم لا يلجئون إلى التأويل إلا عند الضرورة .

بل قد نقل الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) في معرض شرحه لهذا الحــديث إجمــاع المسلمين على كفر من شك في قدرة الله عز وجل أو في علم الله عز وجل حيث قال : (**ولا يختلــف المسلمون في أن من جهل أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر**) [(٢)] .

كما قد نقل الإجماع على كفر من شك في قدرة الله عز وجل الإمام أبو الحسن السبتي الأمــوي في كتابه تتريه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص١١٩) حيث قال : (**وبالإجماع أنه من ظــن أن لا يقدر الله عز وجل عليه على وجه العجز عنه أو الفوت من قضائه وقدره فهو كافر**) . اهـ

فالعلماء رغم اختلافهم في شرح هذا الحديث إلا أنهم اتفقوا في معرض شرحهم لهذا الحديث علــى هذا الأصل الراسخ ، فالإشكال الحاصل عندهم أن هذا رجل دلت الروايات على إيمانه ، حيث أنه من أهل الجنة ، بالإضافة إلى الرواية التي أخرجها الإمام أحمد والصريحة في أن هذا الرجل كــان موحــداً ، فكيف يكون ظاهر بعض الروايات معناها أنه كان شاكاً في قدرة الله وفي علم الله عز وجل ، فــسبَّبَ

---

(١) هنا مسألة مهمة جداً وهي أن العلماء يسمون من نفي كمال صفة من صفات الله بأنه مشرك معطل ، وذلك أن الشرك كما أنه يكون بالإشراك فإنه يكون بالتعطيل أيضاً ، وهو شر أنواع الشرك كما سيأتي بيانه بحول الله تعالى .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٥٧/٧) .

هذا إشكالاً عندهم لأن من الأصول الراسخة عندهم أن الشاك في قدرة الله أو في علمه لا يكون موحداً وهذا رجل موحد ، ونتج من هذا الإشكال إشكالاً آخر وهو أنه إن كان هذا الرجل فعلاً شك في قدرة الله وفي علمه إذا لا يكون موحداً فكيف ذكر في رواية أحمد أنه موحد وكيف ذكر في جميع الروايات أنه يدخل الجنة وهو غير موحد ؟ فإليك طائفة من أقوال العلماء .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (وقد اعتُرِض على هذا الحديث فقيل : هذا رجل كافر ، لقوله : (**إِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ**) **ومن ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه فهو كافر** ، فكيف يقال : غفر الله له ، وتلقاه برحمته ؟) [1] .

قال الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) : (قيل : كيف غفر لهذا الذي أوصى بهذه الوصية وقد **جهل** قدرة الله على إحيائه ؟) [2] . وقال في موضع آخر : (قيل : إن كان مؤمناً فلم **شك** في قدرة الله وإن كان كافراً فكيف غفر له ؟) [3] .

قال شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) : (فإن قلت : إن كان مؤمناً فلم شك في قدرته تعالى وإن كان كافراً فكيف غفر له) [4] .

قال الإمام ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) : (قالوا: حديث يبطله القرآن ، قالوا: رويتم أن رجلاً قال لبنيه : (**إذا أنا مت فأحرقوني ثم اذروني في اليم لعلي أضل الله ، ففعلوا ذلك ، فجمعه الله ثم قال له : ما حملك – أو كلاما هذا معناه – على ما فعلت ؟ قال: مخافتك يا رب ، فغفر الله له**) [5] . قالوا: وهذا كافر ، والله لا يغفر للكافر ، وبذلك جاء القرآن) [6] .

قال الحافظ أبو بكر ابن فورك الإصبهاني الأشعري (ت: ٤٠٦هـ) : (فأما معنى قوله (**لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا**) فلا يصلح أن يكون محمولاً على معنى القدرة ، **لأن من توهم ذلك لم يكن مؤمناً بالله عز وجل ، ولا عارفاً به**) [7] .

قال الإمام المازِري (٤٥٣-٥٣٦هـ) في شرحه لصحيح مسلم : (لا يصح حمل هذا الحديث على أنه أراد بقوله (**قَدَرَ عَلَيَّ**) من القدرة ، لأنه **من شك في كون الباري سبحانه قادراً عليه فهو كافر**

---

[1] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٦/٣) .

[2] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٧٤/٢٣) .

[3] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦٢/٢٥) .

[4] صحيح البخاري بشرح الكرماني (١٩٣/٢٥) .

[5] لم أجده بهذا النسق ، ولعله روي بالمعنى إشارة للحديث كما هو واضح .

[6] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، ص ١١٩ .

[7] مشكل الحديث لابن فورك ، ص ١٦٤ .

غير عارف به ، وقد ذكر في آخر الحديث أن الله قال له : (**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ مَخَافَتُكَ**) فغفر له بذلك ، والكافر لا يخشى الله ولا يغفر الله له)[(١)] .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (إِنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِيهِ : (**فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) لَيْسَ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ **فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ** ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ **لَكَانَ كَافِرًا** ، وَلَمَا جَازَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ ، وَلاَ أَنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)[(٢)] .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (وَلاَ يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُذْرَى نِصْفُهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَ بِأَنَّ الْبَارِيَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إعَادَتِهِ مَعَ هَذَا الْفِعْلِ ؛ **لأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ كَفَرَ** ، وَالْكَافِرُ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨) ، وَقَوْلُهُ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ (الأعراف: ٤٠))[(٣)] .

قال الإمام النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) ناقلاً عن بعض العلماء : (لاَ يَصِحّ حَمْل هَذَا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ قُدْرَة اللَّه ، **فَإِنَّ الشَّاكّ فِي قُدْرَة اللَّه تَعَالَى كَافِر** ، وَقَدْ قَالَ فِي آخِر الْحَدِيث إِنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَالْكَافِر لاَ يَخْشَى اللَّه تَعَالَى ، وَلاَ يُغْفَر لَهُ)[(٤)] .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (قَوْلُهُ (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ**) ظَاهِرُهُ نَفْيُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إحْيَائِهِ وَإِعَادَتِهِ ، وَفِي الْقَوْلِ بِهِ إشْكَالٌ فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ **وَالشَّاكُّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَافِرٌ** مَعَ كَوْنِ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى إسْلاَمِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إخْبَارُهُ بِأَنَّهُ إنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْكَافِرُ لاَ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَالثَّانِي : إخْبَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُ وَالْكَافِرُ لاَ يُغْفَرُ لَهُ مَعَ مَا انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ مِنْ الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ الصَّرِيحَةِ فِي أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ)[(٥)] .

قال محمد تقي العثماني : (قوله : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ**) ظاهر هذا الكلام أنه **نفي لقدرة الله تعالى ، وهو كفر** ، والعياذ بالله العلي العظيم ، فكيف غفر له ؟)[(٦)] .

---

(١) الْمُعْلِمْ بفوائد مسلم للمازْري (٣٣٤/٣) .

(٢) شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢٩/٢) .

(٣) المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٣/١) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

(٥) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٦/٣) .

(٦) تكملة فتح الملهم (١٨/٦) .

قال عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) : (قد عد هذا الحديث قوم مشكلاً فإن ظاهره أن الرجل كان شاكاً في قدرة الله لأنه قال : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) وقد غفر له . **ومن شك في قدرة الله لم يكن مسلماً**. ومن لم يكن مسلماً لم يكن أهلاً لأن يغفر له. فالحديث من المشكلات)[1].

وهنا نكتة بديعة ندلك عليها بفضل الله عز وجل ، وهي أن العلماء في معرض شرحهم لحديث الرجل الذي أوصى أولاده بحرق جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً ، كانوا يقولون أن ظاهره يوهم الشك في قدرة الله مع أن قول الرجل المشكل ظاهره أو أحد معانيه يدل على الشك في جزئية معينة وليس الشك في القدرة جملة وتفصيلاً ، ومع هذا لم يقولوا ظاهره يوهم الشك في كمال قدرة الله ، لأن صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، فمن شك في كمال صفة من صفات الله يكون شاكاً في صفة الله نفسها ، وإذا كانت هذه الصفة من صفات الربوبية مثل صفة القدرة والعلم فإن الشك فيها حينئذ يعتبر شكاً في الله سبحانه وتعالى ، فتنبه إلى هذه النكتة تنزاح عنك شبهات كثيرة بإذن الله تعالى ، وبالله التوفيق .

---

[1] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٠ .

الفصل الخامس : بيان مذاهب العلماء في توجيه مشكل هذا الحديث [1]

إن العلماء الأعلام لما وقفوا على المشكل الوارد في هذا الحديث ورأوا أن ظاهره يصادم أصلاً من أصول التوحيد الأساسية سارعوا إلى إرجاع هذا المشكل والمتشابه للمحكم ، وهذه هي طريقة أهل الحق بخلاف أهل الزيغ والضلال . وإننا خلال عرضنا لتوجيه العلماء لمشكل هذا الحديث سنحاول بتوفيق الله عز وجل التعليق على كل تأويل وبيان أقرب هذه التأويلات إلى الحق حسب اجتهادنا ، ونحاول أن نقيِّم كل توجيه من توجيهات العلماء بمدى صلاحيته للجمع بين روايات الحديث ، إذ العمل بجميع روايات الحديث أولى من إلغاء أحدها كما هو مقرر في الأصول وذلك ما دام أمكن الجمع بينها بصورة مستساغة ، فالجمع بين الروايات مقدم على الترجيح فيما بينها . ومن الملاحظ أن ثلة قليلة من العلماء حاولت توجيه المشكل مع محاولة الجمع بين روايات الحديث ، ومعظمهم كان همه إعطاء توجيهات متعددة محتملة بعيدة عن مصادمة التوحيد الذي هو أصل الأصول مع عدم الجزم بصحة توجيههم . وهذا أوان الشروع في بيان مذاهب العلماء في توجيه مشكل الحديث ، وما توفيقي إلا بملك الملوك جل جلاله ، وفوق كل ذي علم عليم .

المذهب الأول : أن الرجل قال ما قاله عند ذهاب عقله

إن العلماء الذين ذهبوا هذا المذهب قالوا أن قول هذا الرجل لبنيه (**فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا**) من القدرة ، و لم يستطيعوا تأويل (قَدَرَ) هنا بغير القدرة لأجل رواية معاوية بن حيدة رضي الله عنه والتي فيها قول الرجل (**لَعَلِّي أضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) والتي تفيد في ظاهر اللفظ شك الرجل في علم الله عز وجل وظنه أنه ممكن يخفى على الله عز وجل إذا فُعِلَ به ما أمر به ، لذا لم يجدوا لأنفسهم طريقاً لتأويل الحديث إلا أن يقولوا أن هذا الرجل قال ما قاله عند ذهاب عقله من شدة الخوف ولذلك لم يكفر لأن المجنون رفع عنه التكليف ، وقال بعضهم أن ما قاله كان خطئًا لسانياً لم يقصده القلب ، كمن يريد أن يقول شيئًا فيخطأ لسانه فيقول شيئًا آخر ، ومثل هذا قالوه عن هذا الرجل أن ما قاله كان خطئًا لسانياً بسبب شدة خوفه فلم يعقل حقيقة قوله .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) بعد أن ذكر الحديث : (فهذا الرجل قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة من يصل إلى الحالة التي أمر أهله أن يفعلوها به ، وإن من

---

[1] ولقد ذكرنا ضمن هذا القسم وبعض الأقسام الأخرى شروح بعض المعاصرين ممن لا نعتقد إسلامهم من باب أن يقف القارئ على تلك الشروح ، وهي عموماً قليلة ، فتنبه .

أحرق وذري لا يقدر الله أن يعيده ويحشره إذا فعل به ذلك ، وأنه ظن ذلك ظناً ولـم يجزم به . وهذان أصلان عظيمان :

أحدهما : متعلق بالله وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير .

والثاني : متعلق باليوم الآخر وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ولو صار إلى ما يقدر صيرورته إليه مهما كان فلا بد أن الله يحييه ويجزيه بأعماله .

فهذا الرجل لما كان مؤمناً بالله في الجملة ، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، فهذا عمل صالح ، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على تفريطه ، غفر له بما كان من الإيمان بالله واليوم الآخر ، **وإنما أخطأ من شدة خوفه كما أن الذي وجد راحلته بعد إياسه منها أخطأ من شدة فرحه**) [(١)] .

وذهب إلى هذا الرأي الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب حيث قال : (فهذا الرجل لما كان مؤمناً بالله في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت فهذا عمل صالح ، فغفر الله له بما معه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإنما **أخطأ من شدة خوفه** وقد وقع الخطأ في كثير من الخلق من هذه الأمة واتفقوا على عدم تكفير من أخطأ) [(٢)] .

قال الإمام النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) ناقلاً هذا المذهب : (وَقَالَتْ طَائِفَة : اللَّفْظ عَلَى ظَاهِره ، وَلَكِنْ قَالَهُ هَذَا الرَّجُل وَهُوَ غَيْر ضَابِط لِكَلَامِهِ ، وَلاَ قَاصِد لِحَقِيقَة مَعْنَاهُ ، وَمُعْتَقِد لَهَا ، بَلْ قَالَهُ فِي حَالَة غَلَبَ عَلَيْهِ فِيهَا الدَّهْش وَالْخَوْف وَشِدَّة الْجَزَع ، بِحَيْثُ ذَهَبَ تَيَقُّظه وَتَدَبُّر مَا يَقُولهُ ، فَصَارَ فِي مَعْنَى الْغَافِل وَالنَّاسِي ، وَهَذِهِ الْحَالَة لاَ يُؤَاخَذ فِيهَا ، وَهُوَ نَحْو قَوْل الْقَائِل الآخَر الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَح حِين وَجَدَ رَاحِلَته : « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبّك** » [(٣)] ، فَلَمْ يَكْفُر بِذَلِكَ الدَّهْش وَالْغَلَبَة وَالسَّهْو . وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْحَدِيث فِي غَيْر مُسْلِم (**فَلَعَلِّي أَضِلّ اللَّه**) [(٤)] أَيْ : أَغِيب عَنْهُ ، وَهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ قَوْله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ**) عَلَى ظَاهِره) [(٥)].

ونقل هذا التوجه عن الإمام النووي الإمام شهاب الدين القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ) وحسنه حيث قال : (وأحسن الأقوال قول النووي أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه بحيث

---

(١) مجموع الرسائل والمسائل (٣٤٦/٣) .

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢٤٦/١) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة ، ط. المكتر (حديث رقم ٧١٣٦ ، ص ١٤١١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٨) .

(٤) اللفظ الثابت في كتب الحديث (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) بدون الفاء ، وهي رواية أحمد .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

ذهب تدبره فيما يقوله فصار كالغافل والناسي الذي لا يؤاخذ بما صدر منه ، ولم يقله قاصداً لحقيقة معناه) [(١)] .

ونسب هذا القول إلى الإمام النووي أيضاً شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٢٦هـ) رحمه الله وسوغه حيث قال : (أو هو على ظاهره لكن قاله كما قال النووي وهو غير ضابط لنفسه ولا قاصد معناه لكن للدهشة وشدة الخوف بحيث ذهب تدبره فيما يقول فصار كالغافل والناسي) [(٢)] .

ونقله عن الإمام النووي الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) فقال : (وقال النووي قيل أيضاً إنه على ظاهره ولكن قاله غير ضابط لنفسه وقاصد لمعناه بل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف بحيث ذهب تدبره فيما يقوله فصار كالغافل والناسي لا يؤاخذ عليهما) [(٣)] .

ونقله عن الإمام النووي الإمام شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) أيضاً فقال : (النووي : وقيل أيضاً إنه على ظاهره لكنه قاله وهو غير ضابط لنفسه وقاصد لحقيقة معناه بل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف بحيث ذهب تدبيره فيما يقوله فصار كالغافل والناسي لا يؤاخذ عليها) [(٤)] .

وقال الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) في موضع آخر ناقلاً هذا المذهب عن غير الإمام النووي فقال : (وقيل : إنما غفر له لأنه غلب على فهمه من الجزع الذي كان لحقه من خوف الله وعذابه ، فيعذر ، ومثل هذا إنما يكون كفراً ممن يقصد به الكفر وهو يعقل ما يقول) [(٥)] ، وحكاه أيضاً في موضع آخر فقال : (وقيل أيضاً على ظاهره ولكنه قاله وهو غير ضابط لنفسه بل قاله في حال دخول الدهش والخوف عليه فصار كالغافل لا يؤاخذ به) [(٦)] .

وحكا هذا المذهب الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) حيث قال : (القسم الثاني : قالوا إنه لم يكن جاهلاً بصفة من صفات الله تعالى ، ولا شاكاً في شيء منها ، وتأولوا الحديث تأويلات :

أحدها : أن الرجل صدر عنه ما صدر حالة خوف غالب عليه ، فَغَلِطَ ، فلم يُؤَاخذ بقوله ذلك ، كما لم يؤاخذ القائل : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [(٧)]) [(٨)] .

[(١)] إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري للقسطلاني (٤٣٨/٥-٤٣٩) .

[(٢)] تحفة الباري بشرح صحيح البخاري (١٣٥/٤) ، صحيح البخاري وبهامشه حاشية السندي بتمامها وتقريرات من شرحي القسطلاني وشيخ الإسلام (١٦٢/٢) .

[(٣)] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٦٢/١٦) .

[(٤)] صحيح البخاري بشرح الكرماني : (١٠٨/١٤) و (١٩٣/٢٥) .

[(٥)] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٧٤/٢٣) .

[(٦)] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦٣/٢٥) .

[(٧)] صحيح مسلم ، كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة ، ط. المكنز (حديث رقم ٧١٣٦ ، ص ١٤١١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٨) .

[(٨)] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٦/٧-٧٧) .

وحكا هذا المذهب الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) وعزاه للإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) حيث قال : (والثالث : أن هذا رجل غلب عليه الخوف والجزع ، فقال هذا الكلام وهو لا يدري ما يقول ، كما قال ذلك الرجل : « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [١] . ذكرهما ابن جرير الطبري في كتاب تهذيب الآثار) [٢] .

وحكا هذا المذهب الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) حيث قال : (وقيل إنه غلب عليه الجزع من شدة خوفه فدهش فلم يتأمل ما يقول) [٣] .

ونقل هذا المذهب الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) بقوله : (وَأَمَّا قَوْله (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) فَمَعْنَاهُ لَعَلِّي أَفُوتهُ ، يُقَال ضَلَّ الشَّيْء إِذَا فَاتَ وَذَهَبَ ، وَهُوَ كَقَوْله : ﴿ **لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى** ۝ ﴾ (طه: ٥٢) ، وَلَعَلَّ هَذَا الرَّجُل قَالَ ذَلِكَ مِنْ شِدَّة جَزَعه وَخَوْفه كَمَا غَلِطَ ذَلِكَ الآخَر فَقَالَ : « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [٤]) [٥] ، وانتصر له حيث قال في موضع آخر : (وَأَظْهَر الأَقْوَال أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي حَال دَهْشَته وَغَلَبَة الْخَوْف عَلَيْهِ حَتَّى ذَهَبَ بِعَقْلِهِ لِمَا يَقُول ، وَلَمْ يَقُلْهُ قَاصِدًا لِحَقِيقَةِ مَعْنَاهُ بَلْ فِي حَالَة كَانَ فِيهَا كَالْغَافِلِ وَالذَّاهِل وَالنَّاسِي الَّذِي لاَ يُؤَاخَذ بِمَا يَصْدُر مِنْهُ) [٦] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي المحدث ابن الملقن الشافعي [٧] (٧٢٣-٨٠٤هـ) ، وهو شيخ الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) حيث قال الحافظ ابن حجر عنه : (وَمِنَ اللَّطَائِف أَنَّ مِنْ جُمْلَة الأَجْوِبَة عَنْ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ شَيْخنَا ابْنُ الْمُلَقِّن فِي شَرْحه أَنَّ الرَّجُل قَالَ ذَلِكَ لِمَا غَلَبَهُ مِنْ الْخَوْف ، وَغَطَّى عَلَى فَهْمه مِنْ الْجَزَع فَيُعْذَر فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ نَظِير الْخَبَر الْمَرْوِيّ فِي قِصَّة الَّذِي يَدْخُل الْجَنَّة آخر مَنْ يَدْخُلهَا فَيُقَال : (إِنَّ لَك مِثْل الدُّنْيَا وَعَشَرَة أَمْثَالهَا) [٨] ، فَيَقُول لِلْفَرَحِ الَّذِي دَخَلَهُ : « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [٩] ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّة الْفَرَحِ .

---

[١] سبق تخريجه .

[٢] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٧/٣) .

[٣] التوشيح شرح الجامع الصحيح للسيوطي ، ص ٢٢٤٥ .

[٤] سبق تخريجه .

[٥] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[٦] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[٧] من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال ، أصله من وادي آش بالأندلس ومولده ووفاته في القاهرة . انظر الأعلام للزركلي (٥٧/٥) .

[٨] صحيح مسلم ، ولفظه : « **فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا** » ، أخرجه في كتاب الإيمان / باب آخر أهل النار خروجاً ، ط. المكتر (حديث رقم: ٤٧٩ ، ص ١١٢) ، الطبعة السلطانية (١١٨/١) .

[٩] سبق تخريجه .

قُلْت : وَتَمَام هَذَا أَنَّ أَبَا عَوَانَة أَخْرَجَ فِي حَدِيث حُذَيْفَة عَنْ أَبِي بَكْر الصِّدِّيق أَنَّ الرَّجُل الْمَذْكُور فِي حَدِيث الْبَاب هُوَ آخِر أَهْل الْجَنَّة دُخُولاً الْجَنَّة ، فَعَلَى هَذَا يَكُون وَقَعَ لَهُ مِنْ الْخَطَإِ بَعْد دُخُول الْجَنَّة نَظِير مَا وَقَعَ لَهُ مِنْ الْخَطَإِ عِنْد حُضُور الْمَوْت ، لَكِنْ أَحَدهمَا مِنْ غَلَبَة الْخَوْف وَالآخَر مِنْ غَلَبَة الْفَرَح .

قُلْت : وَالْمَحْفُوظ أَنَّ الَّذِي قَالَ (أَنْتَ عَبْدِي) هُوَ الَّذِي وَجَدَ رَاحِلَته بَعْد أَنْ ضَلَّتْ ، وَقَدْ نَبَّهْت عَلَيْهِ فِيمَا مَضَى) [١] .

وانتصر لهذا المذهب محمد تقي العثماني حيث قال : (وأحسن الأجوبة عندي أن اللفظ على ظاهره ، ولكنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه حتى ذهب بعقله ، و لم يقله قاصداً لحقيقة معناه ، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه . وهذا ما يسميه بعض الصوفية " غلبة الحال " ، أو يقال : مثله كمثل رجل ضعيف البنية حمل عليه أسد ، فإنه ربما يتقي بما تيسر له من الأسباب ، وإن كانت ضعيفة ، فإنه يعرف بيقين أن هذه الأسباب لا تنفعه أمام صولة الأسد ، ولكنه لغلبة دهشته يفعل ذلك . وإن شدة خشيته من الله تعالى هي التي سببت له المغفرة في المآل) [٢] .

وحكا هذا المذهب الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) حيث قال : (وقال آخرون: إنما غفر له ، وإن كان كفرًا ممن قصد قوله وهو يعقل ما يقول ؛ لأنه قاله وهو لا يعقل ما يقول . وغير جائز وصف من نطق بكلمة كفر وهو لا يعلمها كفرًا بالكفر ، وهذا قاله وقد غلب على فهمه من الجزع الذي كان لحقه لخوفه من عذاب الله تعالى ، وهذا نظير الخبر الذي روي عن النبي عليه السلام في الذي يدخل الجنة آخر من يدخلها فيقال له: « **إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها** » [٣] ، فيقول للفرح الذي يدخله : « **يا رب أنت عبدي وأنا ربك** » مرتين [٤] ، قالوا : فهذا القول لو قاله على فهم منه بما يقول كان كفرًا ، وإنما لم يكن منه كفرًا لأنه قاله وقد استخفه الفرح مريدًا به أن

---

[١] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٣٢١/١١) .

[٢] تكملة فتح الملهم (١٨/٦-١٩) .

[٣] صحيح مسلم ، ولفظه : « **فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا** » ، أخرجه في كتاب الإيمان / باب آخر أهل النار خروجاً ، ط. المكتر (حديث رقم: ٤٧٩ ، ص ١١٢) ، الطبعة السلطانية (١١٨/١) .

[٤] من أخطأ من شدة الفرح فقال (أنت عبدي وأنا ربك) المحفوظ أنه من فقد راحلته بعد الإياس وليس آخر من يدخل الجنة ، وقد وقع هذا الوهم لابن أبي جمرة شيخ الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) وقد نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٣١٤/١١) وعلق عليه قائلاً : (قُلْت : وَالْمَحْفُوظ أَنَّ الَّذِي قَالَ أَنْتَ عَبْدِي هُوَ الَّذِي وَجَدَ رَاحِلَته بَعْد أَنْ ضَلَّتْ ، وَقَدْ نَبَّهْت عَلَيْهِ فِيمَا مَضَى) .

يقول : (أنت ربي وأنا عبدك) ، فلم يكن مأخوذًا بما قال من ذلك . ويشهد لصحة هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ (الأحزاب: ٥)) [١] .

وحكا هذا المذهب الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) حيث قال : (وقال آخرون : بل غفر له وإن كان كفرًا من قوله ، من أجل أنه قاله على جهل منه بخطئه ؛ فظن أن ذلك صواب . قالوا : وغير جائز في عدل الله وحكمته أن يسّوى بين من **أخطأ وهو يقصد الصواب** ، وبين من تعمّد الخطأ والعناد للحق في العقاب) [٢] .

وحكا هذا المذهب القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) حيث قال : (وقيل : بل قال ما قاله وهو غير ضابط لكلامه ولا معتقده لظاهره ، بل لما اعتراه من الخوف أو من الجزع الذي استولى عليه ، فلذلك لم يؤاخذه به ، ولم يضبط قوله كما لم يضبط الآخر في الحديث المتقدم من شدة الفرح ودهش بغتة السرور ، وقوله « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [٣] ، وقد قال في غير مسلم : (**فَلَعَلِّي أَضِلُّ اللَّه**) [٤] : أي أغيب عنه . وهذا يشعر أن قوله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) هناك على ظاهره المنكر لا على ما تأول قبل ، لكن العذر عنه ما ذكرناه) [٥] .

وحكا هذا المذهب القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) حيث قال : (وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَذَكَرُوا لَهُ تَأْوِيلاَت : (أَحَدُهَا) أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَالَ هَذَا الْكَلاَمَ وَهُوَ غَيْرُ ضَابِطٍ لِكَلاَمِهِ وَلاَ قَاصِدٍ لِحَقِيقَةِ مَعْنَاهُ وَمُعْتَقِدٍ لَهَا ، بَلْ قَالَهُ فِي حَالَةٍ غَلَبَ عَلَيْهِ فِيهَا الدَّهَشُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ الشَّدِيدُ بِحَيْثُ ذَهَبَ تَيَقُّظُهُ وَتَدَبُّرُهُ مَا يَقُولُهُ فَصَارَ فِي مَعْنَى الْغَافِلِ وَالنَّاسِي ، وَهَذِهِ الْحَالَةُ لاَ يُؤَاخَذُ فِيهَا وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِ الْقَائِلِ الآخَرَ الَّذِي غَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ حِينَ وَجَدَ رَاحِلَتَهُ « **أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [٦] ، فَلَمْ يَكْفُرْ بِذَلِكَ لِلدَّهَشِ وَالْغَلَبَةِ وَالسَّهْوِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي رِوَايَةٍ فِي غَيْرِ الصَّحِيحَيْنِ (**فَلَعَلِّي أَضِلُّ اللَّه**) [٧] أَيْ أَغِيبُ عَنْهُ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ**) عَلَى ظَاهِرِهِ كَمَا ذَكَرْنَا) [٨] .

---

[١] شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٩٢-١٩٣) .

[٢] شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٩٢) .

[٣] سبق تخريجه .

[٤] اللفظ الثابت في كتب الحديث (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) بدون الفاء ، وهي رواية أحمد .

[٥] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٨/٢٥٥) .

[٦] سبق تخريجه .

[٧] اللفظ الثابت في كتب الحديث (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) بدون الفاء ، وهي رواية أحمد .

[٨] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٦٧) .

وحكا هذا المذهب الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) حيث قال : (وقيل قاله في حالة غلب عليه فيها الدهش والخوف وشدة الوجع فلم يضبط ما يقوله فصار في معنى الغافل وهذه الحالة لا يؤاخذ فيها) [١] .

وحكا هذا المذهب نور الدين السندي [٢] (ت. ١١٣٨هـ) حيث قال : (كأنه فعله كما يفعل العاجز ويتمسك بكل ما يرى من غير تفكر في أنه ينفعه أو لا ، لأنه لغاية الحيرة يطير عقله فلا يدري ماذا يفعل ، لا أنه فعله إنكاراً لقدرة الله على جمعه وتعجيز إلهه ، والله تعالى أعلم) [٣] . وحكاه في موضع آخر حيث قال : (وَيَحْتَمِل أَنَّ شِدَّة الْخَوْف طَيَّرَتْ عَقْلَهُ فَمَا الْتَفَتَ إِلَى مَا يَقُول وَمَا يَفْعَل وَأَنَّهُ هَلْ يَنْفَعهُ أَمْ لاَ كَمَا هُوَ الْمُشَاهَد فِي الْوَاقِع فِي مَهْلَكَةٍ فَإِنَّهُ قَدْ يَتَمَسَّكُ بِأَدْنَى شَيْءٍ لاحْتِمَالِ أَنَّهُ لَعَلَّهُ يَنْفَعُهُ فَهُوَ فِيمَا قَالَ وَفَعَلَ فِي حُكْمِ الْمَجْنُونِ) [٤] .

فإن قلت : فما توجيه هؤلاء للرواية التي فيها كلام الرجل (**وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّه يُعَذِّبْهُ**) والذي ظاهره يفيد الشك في البعث ؟

قلت : فإن هؤلاء أجروا هذا الحديث على ظاهره أيضاً وأن معنى كلامه أنه إن يقدم على الله على هيئته تلك يعذبه ، ولكنه إذا صار رماداً مبثوثاً في الماء والريح لعله يخفى على الله عز وجل فلا يستطيع أن يعيده . لكن كان عذره ما ذكروه .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (قَوْله (**وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّه يُعَذِّبْهُ**) كَذَا هُنَا بِفَتْحِ الدَّال وَسُكُون الْقَاف مِنْ الْقُدُوم وَهُوَ بِالْجَزْمِ عَلَى الشَّرْطِيَّة ، وَكَذَا (**يُعَذِّبْهُ**) بِالْجَزْمِ عَلَى الْجَزَاء ، وَالْمَعْنَى إِنْ بُعِثَ يَوْم الْقِيَامَة عَلَى هَيْئَته يَعْرِفهُ كُلّ أَحَد فَإِذَا صَارَ رَمَادًا مَبْثُوثًا فِي الْمَاء وَالرِّيح لَعَلَّهُ يَخْفَى) [٥] .

فإن قلت : فما جواب هؤلاء عن رواية الإمام مسلم والتي جزم فيها الرجل بقدرة الله عز وجل حيث قال (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ؟

قلت : إن هؤلاء أجابوا عن هذه الرواية بهذا اللفظ بإجابتين :

---

[١] الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي (٩٩/٦) .

[٢] هو أبو الحسن نور الدين محمد بن عبد الهادي التتوي السندي ، فقيه حنفي ، عالم بالحديث والتفسير والعربية ، أصله من السند ومولده فيها ، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي . انظر الأعلام للزركلي (٢٥٣/٦) .

[٣] صحيح البخاري وبهامشه حاشية السندي بتمامها وتقريرات من شرحي القسطلاني وشيخ الإسلام (١٥٨/٢) .

[٤] سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٤١٨/٤) .

[٥] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٣٢١/١١) .

الأولى : أن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يرد في جميع نسخ صحيح الإمام مسلم ، حيث أن هناك نسخة معتمدة سقط فيها (إن) الثانية في قول الرجل ، فبذلك يكون كلام الرجل (**وَإِن اللَّهَ يَقْدرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْني**) مما يعني شكاً في قدرة الله عز وجل .

الثانية : أن هذا الحديث صحيح بهذا اللفظ لكن فيه محذوف مقدر ، فجعلوا تقدير كلام الرجل هو (إن الله يقدر على أن يعذبني إن دفنتموني بهيئتي لكن إن حرقتموني وذريتموني لا يقدر على أن يعذبني) فبذلك ألحقوا هذه الرواية إلى الروايات التي ظاهرها يفيد الشك في قدرة الله عز وجل .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وقوله في حديث معاذ هذا : (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) كذا الرواية عند جميعهم ، وفي الكلام تلفيف ، فإن أخذ على ظاهره ونصب الاسم العزيز ، وكان (يقدر) موضع خبر (إن) استقام اللفظ وصحَّ المعنى ، لكنه مخالف لما تقدم من قوله قبل في صورة شك في ذلك وتردده . قال بعض المشايخ : صواب الكلام بإسقاط (إن) الآخرة ، وتخفيف (إن) الأولى ، ورفع الاسم ، وكذلك قيدناه عن بعضهم ، فيكون : (وإن الله يقدرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْني) ، وتوافق قوله في سائر الروايات : (فإن قدر الله علي عذبني) [1]) [2] .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (قَوْله : (**وَإِنَّ اللَّه يَقْدرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبني**) هَكَذَا هُوَ فِي مُعْظَم النُّسَخ بِبِلَادِنَا ، وَنَقَلَ اتِّفَاق الرُّوَاة وَالنُّسَخ عَلَيْهِ هَكَذَا بِتَكْرِيرِ (إن) وَسَقَطَتْ لَفْظَة (إن) الثَّانِيَة فِي بَعْض النُّسَخ الْمُعْتَمَدَة ، فَعَلَى هَذَا تَكُون (إِنْ) الْأُولَى شَرْطِيَّة وَتَقْدِيره : إِنْ قَدَرَ اللَّه عَلَيَّ عَذَّبَنِي ، وَهُوَ مُوَافِق لِلرِّوَايَةِ السَّابِقَة ، وَأَمَّا عَلَى رِوَايَة الْجُمْهُور وَهِيَ إِثْبَات (إن) الثَّانِيَة مَعَ الْأُولَى فَاخْتُلِفَ فِي تَقْدِيره :

فَقَالَ الْقَاضِي : هَذَا الْكَلَام فِيهِ تَلْفِيق ، قَالَ : فَإِنْ أَخَذَ عَلَى ظَاهِره وَنَصَبَ اِسْم اللَّه ، وَجَعَلَ تَقْدِير فِي مَوْضِع خَبَر (إِنْ) اِسْتَقَامَ اللَّفْظ ، وَصَحَّ الْمَعْنَى ، لَكِنَّهُ يَصِير مُخَالِفًا لِمَا سَبَقَ مِنْ كَلَامه الَّذِي ظَاهِره الشَّكّ فِي الْقُدْرَة ، قَالَ : وَقَالَ بَعْضهمْ : صَوَابه حَذْف (إن) الثَّانِيَة وَتَخْفِيف الْأُولَى ، وَرَفْع اِسْم اللَّه تَعَالَى ، قَالَ : وَكَذَا ضَبَطْنَاهُ عَنْ بَعْضهمْ ، هَذَا كَلَام الْقَاضِي ، وَقِيلَ : هُوَ عَلَى ظَاهِره بِإِثْبَات (إِنْ) فِي الْمَوْضِعَيْنِ ، وَالْأُولَى مُشَدَّدَة وَمَعْنَاهُ : إِنَّ اللَّه قَادِر عَلَى أَنْ يُعَذِّبنِي ، وَيَكُون هَذَا عَلَى قَوْل مَنْ تَأَوَّلَ الرِّوَايَة الْأُولَى عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِـ (قَدَرَ) : ضَيَّقَ ، أَوْ غَيْره مِمَّا لَيْسَ فِيهِ نَفْي حَقِيقَة الْقُدْرَة ، وَيَجُوز أَنْ يَكُون عَلَى ظَاهِره كَمَا ذَكَرَ هَذَا الْقَائِل ، لَكِنْ يَكُون قَوْله هُنَا مَعْنَاهُ : إِنَّ اللَّه قَادِر عَلَى أَنْ

---

[1] لا يوجد رواية بهذا اللفظ وإنما يوجد بهذا المعنى وهو قوله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي**) .

[2] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٨/٨) .

يُعَذِّبني إنْ دَفَنْتُمُوني بِهَيْئَتِي ، فَأَمَّا إنْ سَحَقْتُمُوني وَذَرَّيْتُمُونِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْر فَلاَ يَقْدِر عَلَيَّ وَيَكُون جَوَابه كَمَا سَبَقَ ، وَبِهَذَا تَجْتَمِع الرِّوَايَات . وَاَللَّه أَعْلَم) [١] .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) : (وقوله : (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) وجدنا الروايات والنسخ تختلف في ضبط هذه الكلمات ، وحاصله يرجع إلى تقييدين :

أحدهما : تشديد إن مكسورة ونصب الاسم المعظم بها ، ويقدر مرفوعاً فعل مضارع ، وهو خبر إنَّ ، على أن يعذبني متعلق به ، وهذا خبر محقق عن الرجل ، أخبر به عن نفسه أن الله يقدر على تعذيبه ، وهي رواية صحيحة لقول من قال : لم يكن جاهلاً ولا شاكاً ، وإنما كان خائفاً .

وثانيهما : تخفيف (إن) المكسورة ، ورفع اسم الله تعالى بعدها ، وجزم (يقدر) بها (علي) مشددة الياء ، و(يعذبني) مجزوم على جواب الشرط . وهذه الرواية مصححة لقول من قال : إن الرجل كان شاكاً على ما ذكرناه . **والأول** [٢] **أشبه ما اخترناه** ، والله تعالى أعلم) [٣] .

قال الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) : ("وَإِنِ الله يَقْدِرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْنِي" كذا في نسخة معتمدة فـ (إن) شرطية و (يعذبني) جواب الشرط ، **وفي أكثر الأصول** زيادة (إن) قبل (يعذبني) ، فعلى هذا (إن) الأولى مشددة وهنا محذوف أي إن دفنتموني فإن حرقتموني) [٤] .

قال صفي الرحمن المباركفوري : (« **وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي** » هذه الفقرة رويت من وجهين : الأولى (إِنِ الله يَقْدِرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْنِي) أي بـ (إن) الشرطية في البداية ، وبحذف (أن) قبل (يعذبني) وهذا مطابق تماماً لما سبق من استبعاده قدرة الله عليه بعد السحق والذرو ، والوجه الثاني : بإثبات (أن) في الموضعين على أن الأولى مشددة النون للإثبات والتحقيق ، وظاهره يخالف ما سبق ، لأن هذا يفيد اليقين بقدرة الله عليه ، وقد وجه بأن مراده أنكم إن دفنتموني على الهيئة التي أموت عليها فإن الله يقدر علي أن يعذبني) [٥] .

قلت بحول الله تعالى : إن هذا المذهب في تأويل الحديث يدل بجلاء على اعتبار هؤلاء العلماء الإيمان بقدرة الله على كل شيء ، والإيمان بعلم الله عز وجل بكل شيء من أصل التوحيد ، لأنهم لو كانوا يعذرون الشاك في قدرة الله وفي علمه بالجهل أو بالتأويل لقالوا ذلك ، وكفوا أنفسهم مؤنة التأويل ، فإن التأويل دليل على مخالفة النص الجزئي لقاعدة كلية كما هو مقرر في علم الأصول .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٧٣-٧٤) .

[٢] أي أنه لم يكن جاهلاً ولا شاكاً ، وأنه أخبر عن نفسه أن الله قادر على تعذيبه ، وأن ما قاله من الكلام الذي ظاهره الإشكال العذر فيه أنه قاله عند شدة خوفه التي جعلته لا يعقل ما يقوله .

[٣] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٨-٧٩) .

[٤] الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي (٦/١٠٠) .

[٥] منة المنعم في شرح صحيح مسلم (٤/٢٧٠) .

وكنت فيما مضى أنتصر لهذا المذهب ، إلا أني بعد التأمل والتفكر والنظر في روايات الحديث وجدت أن هذا التأويل غير مناسب لقصة الرجل وفيه علل عديدة .

الأولى : أننا إذا تأملنا في قصة هذا الرجل وجمعه بنيه وأخذه المواثيق عليهم نجده رجلاً مخططاً لما يفعله ورجلاً بكامل قوته العقلية فمن البعيد عن سياق قصة هذا الرجل أن يكون تفوه بما لم يرده أو أن ما قاله كان غلطاً لسانياً لم يقصده القلب .

قال الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (ت: ١٣٥٣هـ) حيث قال : (وقالت طائفة : إنه قال ذلك القول في حالة وجل وخوف وغيبوبة فغلط لسانه ، وتفوه بما لم يرده . وهذا كالرجل الذي قال « **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [1] من شدة الفرح والأعمال بالنيات . والله لا يؤاخذ إلا بما قد عقد عليه القلب ، لا بما سها به اللسان . ولا يقرب من الصواب أن يكون مقام هذا الرجل مقام من يغلط لسانه ، ومن يقول ما لا يريده جنانه . ومن البعيد الذي يضاف إلى المستحيل أن يكون ذلك القول غلطاً لسانياً لم يقصده القلب) [2] .

الثانية : أن قياس حالة هذا الرجل بقصة الرجل الذي وجد راحلته بعد الإياس فأخطأ من شدة فرحه قياس مع الفارق ، إذ أنه قد ذكر في قصة من وجد راحلته بعد الإياس أنه أخطأ من شدة الفرح ، ولم يذكر في حديث هذا الرجل الموصي أنه أخطأ من شدة الخوف .

الثالثة : أن الرجل لو كان في حالة وجل وخوف أذهبت عقله لما درى بما يفعله ولكانت كل وصيته وصية من ذهب عقله ولا يتذكر ما يفعل ، ولكن من سؤال الله عز وجل له عن سبب فعله هذا ، ومن جواب الرجل لله عز وجل يتبين لنا أن هذا الرجل كان يعقل وصيته ويعقل السبب الذي أدى به إلى أن أوصى بهذه الوصية وهي خشية الله عز وجل وخوفه .

الرابعة : أن هذا الرجل موحد ، ولو كان في حالة وجل وخوف أذهبت عقله ، وكان ما نطق به الرجل شكاً في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه لنبهه أولاده على ذلك إن كانوا موحدين ، وعلى فرض أنهم غير موحدين لتعجبوا من قول أبيهم الموحد هذا . وهذه العلة وإن لم تكن قطعية ولكن يستأنس بها .

الخامسة : هذا المذهب في التأويل يصادم رواية الإمام مسلم في صحيحه والتي يقول فيها الرجل (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) مما يعني جزماً من الرجل بقدرة الله عز وجل عليه ، فإن قلت : فإنهم أجابوا عن هذه الرواية بجوابين اثنين ، قلت : فأما جوابهم الأول فهو ضعيف جداً ، لأنه تقديم ما ورد في نسخة واحدة على نسخ الجمهور ، وترجيح نسخة سقط فيها لفظ قد يكون سقط سهواً على نسخ

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة ، ط. المكتر (حديث رقم ٧١٣٦ ، ص ١٤١١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٨) .

[2] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٢ .

كثيرة جداً ورد فيها إثبات (إن) في الموضعين لهو ترجيح مرجوح ، لأن احتمال سهو رجل واحد عن إثبات (إن) مقدم على خطأ جم غفير من النساخ في إثبات (إن) زائدة في لفظ الحديث . وأما جوابهم الثاني : فضعيف أيضاً لأن فيه تكلفاً لا يخفى .

قلت بحول الله تعالى : وكذلك فإن الإمام مسلم أورد الحديث في صحيحه في نفس الباب ، بالرواية التي فيها قول الرجل : (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ، وبالرواية التي فيها قول الرجل : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) وفي نفس المكان ، فهل نقول أن الإمام مسلم رحمه الله المشهور بدقة روايته وضبطه لألفاظ الحديث أنه أورد روايتين بلفظين متناقضين ؟! بل نستطيع الجمع بين الروايتين ولا تناقض بإذن الله تعالى .

فنقول بتوفيق الله عز وجل : لنتمعن في الروايات التي أوردها الإمام مسلم في صحيحه ، فهو أخرج قصة هذا الرجل من رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، ومن رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، فأما رواية أبي هريرة فقد ذكر فيها قصة الرجل مختصراً وفيها قول الرجل : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) ، وأما رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ففيها تفصيل أكثر للحوار الذي دار بين ذلك الرجل وأبنائه ، حيث قال لهم : « **لَتَفْعَلُنَّ مَا آمُرُكُمْ بِهِ أَوْ لأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ** » ، وقال لهم موضحاً سبب هذه الوصية : « **فَإِنِّي لَمْ أَبْتَهِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا** » ، وكذلك فيها قوله لهم : (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ، وكذلك فيها أنه أخذه على أبناءه ميثاقاً على أن يقوموا بوصيته . إذاً لا تعارض بين الروايتين أصلاً ، بل في رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه زيادات لا توجد في رواية أبي هريرة رضي الله عنه ، ولا تعارض بين قول الرجل (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) وبين قوله : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) ، فاجمع بين الروايتين رحمك الله لترى أنه لا يوجد إلا الخير ، فالرجل جمع أبناءه وهدَّدهم بأنهم إن لم يفعلوا وصيته سيترك ميراثه لغيرهم ، ومن ثم يبين لهم سبب الوصية من أنه لم يعمل خيراً ، ويبين لهم وصيته بأن يحرقوه ويذروه ، ولكي لا يظن أبناءه فيه سوءًا يبين لهم أنه لا يعتقد بهذه الوصية أن الله غير قادر على بعثه من هذا الرماد ، فيقول (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ، ويبين سبب أمره أولاده بهذه الوصية فيقول : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) ، و (قَدَرَ) قد تكون من القدرة ، وقد تكون من التقدير والقضاء ، وقد تكون من التضييق كما سيأتي بيانه بحول الله تعالى ، وكلها معان صحيحة في اللغة . وهذا الرجل هو من بني إسرائيل ولغتهم العبرانية ، ولا شك أن هذه الاختلاف في معنى (قدر) أغلب الظن أنه لم يكن موجوداً عندهم ، وإنما عبر لهم صراحة المعنى الذي اختلف فيه العلماء في معنى كلمة (قدر) ، ومن رواية الإمام مسلم علمنا أنه لم يقصد من كلمة (قدر) القدرة

فلم يبق إلا أنه قصد التقدير والقضاء أو التضييق كما سيأتي بيانه بحول الله تعالى ، والله تعالى أعلم وأحكم .

السادسة : هذا المذهب في التأويل يصادم رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي أخرجها الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) في مشكله وفيها قول الرجل (**فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْه**) فلو كان قدر في الحديث من القدرة لن يستقيم المعنى هنا ، فما وجه تعليل عدم القدرة بمعاقبة نفسه في الدنيا ؟؟! هذا والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم .

فإن قلت : ما تقول في قول العلماء الذين قالوا أن هناك رواية ورد فيها قول الرجل : (**لَعَلِّي أَضِلّ اللَّه**) فقالوا : أن معنى هذا : أَغِيب عَنْ الله عز وجل ، بمعنى أن الرجل ظن أنه سيخفى على الله عز وجل بحيث لا يعلم الله عز وجل مكانه ، وذلك بعد أن يصير رماداً مبثوثاً في البر والبحر ، واستدلوا بذلك على أن قوله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ**) عَلَى ظَاهِره الذي هو الشك في قدرة الله عز وجل ؟

قلت بحول الله تعالى : قول الرجل (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) ليس بالضرورة أن يعني ما ذهبوا إليه ، فهناك علماء وجدوا تأويلاً وجيهاً لهذا القول سيأتي التنبيه عليه قريباً إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني : أن (قَدَرَ) في الحديث ليس من القدرة والقوة والاستطاعة

ومن ذهب هذا المذهب من العلماء احتج برواية مسلم والتي يقول فيها الرجل (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ورأى أن اللفظ المشكل الوارد في روايات الحديث الأخرى وهو قول الرجل (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي**) قد تصرف على معان أخرى غير القدرة . وفسروها بتفسيرين اثنين :

الأول : أن كلمة (قَدَرَ) هنا بمعنى قَضَى وقَدَّر وحكم .

الثاني : أن كلمة (قَدَرَ) هنا بمعنى ضَيَّقَ .

وإليك أقوال العلماء في ذلك :

قال الإمام المازري (٤٥٣-٥٣٦هـ) : (لا يصح حمل هذا الحديث على أنه أراد بقوله (**قَدَرَ عَلَيَّ**) من القدرة ، لأنه **من شك في كون الباري سبحانه قادراً عليه فهو كافر غير عارف به** ، وقد ذكر في آخر الحديث أن الله قال له : (**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ مَخَافَتُكَ**) فغفر له بذلك ، والكافر لا يخشى الله ولا يغفر الله له ، فإذا ثبت أنه لا يصح حمل الحديث على هذا المعنى فيحمل على أحد وجهين : إما أن يكون المراد به (لئن قَدَرَ عَلَيَّ) بمعنى قدَّر عليَّ العذاب ، يقال : قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى واحد ، أو يكون أراد (قَدَرَ عليَّ) بمعنى ضَيَّقَ عليَّ ، قال الله تعالى : ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) ، وهكذا القول في قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧)) [(١)] .

قال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) : (وقال آخرون أراد بقوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) أي لئن كان قدَّر الله عليه ، والتخفيف في هذه اللفظة والتشديد سواء في اللغة ، فقَدَرَ هنا عند هؤلاء من القدر الذي هو الحكم ، وليس من باب القدرة والاستطاعة في شيء ، وهو مثل قوله عز وجل : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وللعلماء في تأويل هذه اللفظة في هذه الآية قولان : أحدهما : أنها من التقدير والقضاء ، والآخر : أنها من التقتير والتضييق ، وقد ذكرنا من شواهد الشعر العربي على الوجهين جميعاً في التمهيد ما فيه كفاية . والمعنى في قول هؤلاء والله أعلم لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي و لم يغفر لي وجازاني على ذنوبي ليكونن ما ذكر .

والوجه الآخر : كأنه قال (لئن كان قد سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني على ذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري) . وهذا منه خوف ويقين وإيمان وتوبيخ لنفسه وخشية لربه وتوبة على ما سلف من ذنوبه ، هذا كله لا يكون إلا لمؤمن مصدق مؤمن

---

(١) الْمُعْلِمْ بفوائد مسلم للمازري (٣٣٤/٣) .

بالبعث والجزاء ، وفي القدر لغتان مشهورتان (قَدَّرَ الله) بالتشديد و (قَدَرَ الله) بالتخفيف ، ذكره ابن قتيبة عن الكسائي وذكره ثعلب وغيره . وقد ذكرناه والشواهد عليه في التمهيد والحمد لله) [1] .

وقال الحافظ أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) في التمهيد : (وقال آخرون أراد بقوله : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ**) من القدر الذي هو القضاء ، وليس من باب القدرة والاستطاعة في شيء . قالوا : وهو مثل قول الله عز وجل في ذي النون : ﴿ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وللعلماء في تأويل هذه اللفظة قولان : أحدهما : أنها من التقدير والقضاء ، والآخر أنها من التقتير والتضييق ، وكل ما قاله العلماء في تأويل هذه الآية فهو جائز في تأويل هذا الحديث في قوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) فأحد الوجهين تقديره كأن الرجل قال : (لئن كان قد سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيري) ، والوجه الآخر تقديره : (والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك) ، ثم أمر بأن يحرق بعد موته من إفراط خوفه ، قال ابن قتيبة : (بلغني عن الكسائي أنه قال يقال هذا قدر الله وقدره ، قال : ولو قرئت ﴿ **أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا** ﴾ (الرعد: ١٧) مخففاً ، أو قرئت ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ (الأنعام: ٩١) مثقلاً جاز ، وأنشد :

وما صب رجلي في حديد مجاشع ... مع القدر إلا حاجة لي أريدها

أراد القدر، قال: ويقال هذا على قدر هذا وقدره ، قال الأصمعي: أنشدني عيسى بن عمر لبدوي :

كل شيء حتى أراك متاع ... وبقدر تفرق واجتماع

ومن هذا حديث ابن عمر عن النبي عليه السلام في الهلال : « **فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدِرُوا لَهُ** » [2] ، وقد ذكرته في بابه وموضعه من هذا الكتاب .

وقد روينا عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) قال هو من التقتير ليس من القدرة ، يقال منه : قَدَرَ الله لك الخير يقدره قدراً بمعنى قدَّر الله لك الخير ، وأنشد ثعلب :

ولاَ عَائِداً ذَاكَ الزَّمَانُ الذِّي مَضَى ... تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

يعني ما تقدره وتقضي به يقع ، يعني يترل وينفذ ويمضي .

قال أبو عمر : هذا البيت لأبي صخر الهذلي في قصيدة له أولها :

لليلى بذات الجيش دار عرفتها ... وأخرى بذات البين آياتها سطر

---

[1] الاستذكار لابن عبد البر (٣٦٨/٨-٣٧٠) .

[2] صحيح مسلم ، كتاب الصيام / باب وجوب صيام رمضان لرؤية الهلال ، ط. المكتر (حديث رقم : ٢٥٥٤ ، ص ٥١١) ، الطبعة السلطانية (١٢٢/٣) .

وفيها يقول :

وَلَيْسَ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِــرَوَاجِعٍ لَنَا أَبَــدًا مَا أَبْــرَمَ السَّلَمُ النَّضْرُ
ولاَ عَائِداً ذَاكَ الزَّمَانُ الذِّي مَضَى تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

السلم شجر من العضاه يدبغ به ، والنضر النضارة والتنعم ، وأبرم السلم أخرج برمتــه ، وأبرمــت الأمر أحكمته ، وقال غيره :

فما الناس أردوه ولكن أقاده يد الله والمستنصر الله غالب
فإنك ما يقدر لك الله تلقه كفاحا وتجلبه إليك الجوالب

وقال ابن قتيبة في قول الله عز وجل : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي لن نضيق عليه ، قال فلان مقدر عليه ومقتر عليه ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) أي ضَيَّقَ عليه في رزقه ، وقوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضُيِّق عليه في رزقه) [١] .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـــ) : (اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَأْوِيل هَذَا الْحَدِيث ، فَقَالَتْ طَائِفَة : لاَ يَصِحّ حَمْل هَذَا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ قُدْرَة اللَّه ، **فَإِنَّ الشَّاكّ فِي قُدْرَة اللَّه تَعَالَى كَافِر** ، وَقَدْ قَالَ فِي آخِر الْحَدِيث : إِنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَالْكَافِر لاَ يَخْشَى اللَّه تَعَالَى ، وَلاَ يُغْفَر لَهُ ، قَالَ هَــؤُلاَءِ : فَيَكُون لَهُ تَأْوِيلاَن أَحَدهمَا أَنَّ مَعْنَاهُ : لَئِنْ قَدَّرَ عَلَيَّ الْعَذَاب ، أَيْ : قَضَاهُ ، يُقَال مِنْهُ قَدَرَ بِالتَّخْفِيفِ ، وَقَدَّرَ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِد . وَالثَّانِي : إِنَّ قَدَرَ هُنَا بِمَعْنَى ضَيَّقَ عَلَيَّ ، قَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) ، وَهُوَ أَحَد الأَقْوَال فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧)) [٢] .

قال الإمام شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـــ) : (فإن قلت : إن كان مؤمناً فلم شك في قدرته تعالى وإن كان كافراً فكيف غفر له ، قلت : كان مؤمناً بدليل الخشية ومعنى (قَدَرَ) مخففاً ومشدداً حكم وقضى أو ضيق) [٣] .

قال الشيخ الفقيه أبو عبد الله ابن عبد الحق اليَفُرَنِّي التِّلْمِسَانِي (٥٣٦-٦٢٥هـــ) : (وقوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ**) قيل : أراد : لَئِنْ قَدَّرَ اللهُ عَلَيَّ ، والتخفيف والتشديد في هذه اللفظة سواءٌ في اللغة) [٤] .

قال الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـــ) : (فإن قلت : إن كان هذا الرجل مؤمناً فلم شك في قدرة الله تعالى حيث قال : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا**) على ما يأتي

---

[١] التمهيد لابن عبد البر (٤٢/١٨-٤٥) .

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

[٣] صحيح البخاري بشرح الكرماني ، (١٠٨/١٤) و (١٩٣/٢٥) .

[٤] الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب للتِّلْمِسَانِي (٢٧٤/١) .

عن قريب في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وإن لم يكن فكيف غفر له ، قلت : كان مؤمناً بدليل الخشية ومعنى (قدر) مخففاً ومشدداً حكم وقضى أو ضيق) [١] .

ونقل هذا المذهب في التأويل الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) عن الحافظ ابن عبد البر القرطبي (٣٦٨-٤٦٣هـ) حيث قال : (« **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » قال ابن عبد البر : هو من القدر الذي هو القضاء وليس من باب القدرة والاستطاعة كقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وقيل بمعنى ضيق كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧)) [٢] . ونقله أيضاً عن الإمام النووي حيث قال : (« **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » قال النووي هو بالتخفيف بمعنى قدَّر بالتشديد أي قضى ، أو هو بمعنى ضيَّق وليس شكاً في القدرة) [٣] .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي المالكي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ خَافَ تَفْرِيطَهُ ، فَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُحَرِّقُوهُ وَيَذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ وَنِصْفَهُ فِي الْبَرِّ ، وَذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : عَلَى وَجْهِ الْفِرَارِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ غَيْرُ فَائِت كَمَا يَفِرُّ الرَّجُلُ أَمَامَ الأَسَدِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ سَبْقًا وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ نِهَايَةَ مَا يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ [٤] ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنْ يَفْعَلَ هَذَا خَوْفًا مِنَ الْبَارِي تَعَالَى وَتَذَلُّلاً وَرَجَاءَ أَنْ يَكُونَ هَذَا سَبَبًا إِلَى رَحْمَتِهِ وَلَعَلَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِ [٥].

وَقَوْلُهُ (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ**) يُرِيدُ لَئِنْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَاقَبَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ يُقَالُ قَدَرَ عَلَيْهِ بِمَعْنَى ضَيَّقَ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وَقَالَ : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) ، **وَلاَ يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُذْرَى نِصْفُهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَ بِأَنَّ الْبَارِيَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِ مَعَ هَذَا الْفِعْلِ ؛ لأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ كَفَرَ** ، وَالْكَافِرُ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨) ، وَقَوْلُهُ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ (الأعراف: ٤٠) ، وَقَدْ قِيلَ مَعْنَاهُ (إِنْ قَدَرَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَنِي وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَغْفِرَ لِي ليعذبني عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) .

---

[١] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٦٢/١٦) .

[٢] تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك للسيوطي (٢٣٨/١-٢٣٩) .

[٣] الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج للسيوطي (٩٩/٦) .

[٤] هذا على تأويل من قال أن قَدَرَ في الحديث من التقدير بمعنى تقدير الإعادة .

[٥] هذا على تأويل من قال أن قَدَرَ في الحديث من التضييق أو على تأويل من قال أنه قدر في الحديث من التقدير بمعنى تقدير العذاب .

وَقَوْلُهُ (**فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيه ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيه**) يُرِيدُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَطَاعَ أَمْرَ اللَّهِ فَجَمَعَ مَا فِيهِ مِنْ هَذَا الإِنْسَانِ ، ثُمَّ أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ قَالَ : (**لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟**) ، يُرِيدُ مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ إِحْرَاقِهِ وَتَفْرِيقِ أَجْزَائِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَقَالَ : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ وَعِلْمِهِ بِصِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى **وَأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَقْصِدِهِ وَمُعْتَقَدِهِ فَكَيْفَ يظنّ مَعَ هَذَا أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِ ؟!**)[1] .

قال القاضي أبو زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ**) ظَاهِرُهُ نَفْيُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى إِحْيَائِهِ وَإِعَادَتِهِ ، وَفِي الْقَوْلِ بِهِ إِشْكَالٌ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ ، وَالشَّاكُّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى كَافِرٌ ، مَعَ كَوْنِ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى إِسْلَامِهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْكَافِرُ لاَ يَخْشَى اللَّهَ تَعَالَى ، وَالثَّانِي : إِخْبَارُهُ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بِأَنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَهُ وَالْكَافِرُ لاَ يُغْفَرُ لَهُ ، مَعَ مَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ مِنْ الرِّوَايَةِ الَّتِي فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ الصَّرِيحَةِ فِي أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : لاَ يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَيَكُونُ لَهُ تَأْوِيلاَنِ :

أَحَدُهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ (لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَي الْعَذَابِ) أَيْ قَضَاهُ ، يُقَالُ مِنْهُ : (قَدَرَ) بِالتَّخْفِيفِ وَ (قَدَّرَ) بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَالثَّانِي : أَنَّ قَدَرَ بِمَعْنَى ضَيَّقَ فَقَوْلُهُ : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) أَيْ لَئِنْ ضَيَّقَ ، وَمِنْهُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) ، وَهُوَ أَحَدُ الأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧))[2] .

قال الشيخ أحمد طارق : (بيد أنني أقطع بأن لفظ القدرة هنا لا يكون إلا بمعنى التضييق أو القضاء ، وذلك لقيام القرينة على بطلان معنى الاقتدار والقهر هنا ، وبيان ذلك : أن الذي ندين الله عز وجل به ونشهده عليه أن من جهل قدرة الله تعالى أو شك فيها أو تصور أن الله تعالى سبحانه يعجز عن جمع رفاته بعد موته ، فلا شك لدينا في أنه يعبد إلهاً آخر غير الذي خلقه من قبل و لم يك شيئًا مذكوراً ، وأنه لا يؤمن بالله العظيم جملة ومن حيث الأصل .

أقول : إن هذا الكافر الخاسر الذي يظن مثل هذا الظن ويشك مثل هذا الشك ، نحن لا نشك أنه يعبد إلهاً آخر غير الذي خلق السماوات السبع والأراضين وسخر الشمس والقمر والنجوم والكواكب والريح وينزل الغيث ويصرفه كيف يشاء ، وخلق الإنسان من نطفة من ماء مهين ، وموجد الخلق و لم يكن مثله شيئاً مذكوراً ، والذي يبعث الخلق يوم الفصل من لدن آدم إلى قيام الساعة بنداء واحد وصيحة واحدة ، فيخرجون من الأجداث بعد أن كانوا رماداً و رفاتاً ضالة في الأرض ، أليست هذه

[1] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٢/١-٣٣) .

[2] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٧/٣) .

كلها لازمات بديهية للعلم بقدرة الله تعالى ؟ فإن كان ثم من يشك في قدرة الله تعالى وما يــؤول إليــه هذا الفهم والتصور ، فنبؤوني – يرحمكم الله – أي إله هذا العاجز الذي يعبده ؟؟ وهل هنــاك كفــر وشرك بالله أفحش من هذا ؟؟؟) إلى أن قال : (ورحم الله ابن الجوزي حين قال : (**من جحد صــفة القدرة كفر اتفاقاً**) ، أقول : **هذا هو الحق** ، ولا يصح غير ذلك مطلقاً) [1] .

قال الزرقاني (١٠٥٥-١١٢٢هــ) : (« **فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْه** » بخفة الدال وشدها من القدر وهو القضاء لا من القدرة والاستطاعة كقوله : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، أو بمعنى ضيق ، كقوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧)) [2] .

وقد ذهب إلى هذا الرأي الإمام الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هــ) حيث ذكر اختلاف العلماء في تأويل قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وقال أن من فسر هذه الآية على معنى الشك في قدرة الله فإن تفسيره مردود ، ومن ثم ذكر أن (قَدَرَ) في الآية إما من التقدير أو التضييق ومن ثم قال : (وقد اختلف العلماء في تأويل الحديث الصحيح في قول الرجل الذي لم يعمل خيراً قط لأهله أن يحرقوه إذا مات ثــم قال : (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) الحديث ، كما اختلفوا في تأويل هذه الآية والكلام في هذا يطول وقد ذكرنا ها هنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره) [3] .

قلت بحول الله تعالى : قول الإمام الشوكاني : (وقد ذكرنا هاهنا ما لا يحتاج معه الناظر إلى غيره) يدل على أنه يرى أن الشك في قدرة الله كفر وتأويل الحديث على الشك في القدرة مردود ، وأن (قَدَرَ) في الحديث إنما هو من التضييق أو التقدير لا غير .

وقد نقل هذا المذهب في التأويل الإمام المفسر أبو عبد الله ابن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هــ) في معرض شرحه لقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فرد أن يكون (قَدَرَ) في الحديث من القدرة لأنه كفر ، وذكر من قال من العلماء أن (قَدَرَ) في الحديث بمعنى التقدير ومن ذكر من العلماء أنه من التضييق ومن ثم قال : (وهذان التأويلان تأولهما العلماء في قول الرجل الذي لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) الحديث ، فعلى التأويل الأول يكون تقديره : (والله لئن ضيق الله علي وبالغ في محاسبتي وجزائي على ذنوبي ليكونن ذلك) ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه ، وعلى التأويل الثاني : أي (لئن كان سبق في قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذي

---

[1] الإنذار بأن نقض أصل التوحيد بالجهل ليس من الأعذار ، الشبهة الثانية .

[2] شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، ط. دار المعرفة – بيروت (٨٦/٢) ، ط. مصطفى البابي الحلبي (٢٩٧/٢) بتحقيق إبراهيم عطوة عوض .

[3] تفسير الشوكاني (٤٠٧/٣) .

جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامي وذنوبي عذاباً لا يعذبه أحدا من العالمين غيري) ، وحديثه خرجه الأئمة في الموطأ وغيره) [١] .

قال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (ت: بعد ١٣٤٨هـ) : (« **فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » بخفة الدال وشدها من القدر وهو القضاء لا من القدرة والاستطاعة) [٢] .

قال الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي (١٢٩٩-١٣٨٨هـ) : (« **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » من القضاء ، لا من القدرة والاستطاعة ، كقوله : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، أو بمعنى ضيَّق ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧)) [٣] .

ومن سبق ذكرهم من العلماء لم يفصلوا كثيراً حول تقدير كل تأويل ، مع أن تقدير كل تأويل والمعنى الذي يؤول إليه مختلف عن الآخر ، لأن همهم الكبير كان في محاولة صرف الحديث إلى غير معنى القدرة ، وهذا هو إرجاع المتشابه إلى المحكم ، والجزئي إلى الكلي ، وتأويل حادثة العين المحتملة حسب القاعدة الكلية القطعية . وهذا أوان التفصيل في التأويلين :

التأويل الأول : من تأول (قَدَرَ) في الحديث بمعنى قضى وقدَّر .

اعلم أن من أول (قَدَرَ) في كلام الرجل وأرجعه إلى معنى التقدير والقضاء لا بد وأن يقدر كلام الرجل بتقديرين اثنين لا غير :

التقدير الأول : لئن قدَّر الله علي الإعادة وقضاه علي – وهو قادر على إعادتي – ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين .

وعلى هذا التقدير يكون الرجل مؤمناً بقدرة الله عز وجل على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وإعادته من جديد ، ولكنه ظن أنه إذا فعل بنفسه ما فعل لعل الله سبحانه وتعالى لا يبعثه ولا يعيده مع الجزم بقدرة الله عز وجل على ذلك .

وحاله في ذلك كما أشار إليه القاضي أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (عَلَى وَجْهِ الْفِرَارِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ غَيْرُ فَائِتٍ كَمَا يَفِرُّ الرَّجُلُ أَمَامَ الأَسَدِ مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ لاَ يَفُوتُهُ سَبْقًا وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ نِهَايَةَ مَا يُمْكِنُهُ فِعْلُهُ) [٤] .

وإليك طائفة من أقوال العلماء حول هذا :

---

[١] تفسير القرطبي (٢٧٢/١٤) .

[٢] أوجز المسالك إلى موطأ مالك لمحمد زكريا الكاندهلوي (٣٠١/٤) .

[٣] الموطأ بتحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي (٢٤٠/١) .

[٤] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٢/١-٣٣) .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (أو قدر عليه بعثه وحشره ، أو لعله لم يكن يرد حينئذ بالحشر شرع يقطع به ، فيكون بالشك فيه أو التكذيب كافراً ؛ إذ هو من مجوزات العقول ، **وإنما يعلم وجوبه ووجوده بالشرع**) [١] .

قال بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) : (أو معناه لئن قدر الله علي مجتمعاً صحيح الأعضاء ليعذبني ، وحسب أنه إذا قدر عليه محترقاً مفترقاً لا يعذبه) [٢] .

قال شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) : (أو معناه إن قدر الله علي مجتمعاً صحيح الأعضاء ليعذبني ، وحسب أنه إذا قدر عليه محترقاً مفترقاً لا يعذبه) [٣].

قال الإمام أبو سليمان الخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ) : (وقد يسأل عن هذا فيقال : كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحيائه وإنشاره ؟ فيقال : إنه ليس بمنكر للبعث ، إنما هو رجل جاهل ظن أنه إذا فُعل به هذا الصنيع ترك فلم ينشر و لم يعذب . ألا تراه يقول (**فَجَمَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ**) فقد تبين أنه رجل مؤمن بالله ، فعل ما فعل من خشية الله إذا بعثه ، إلا أنه جهل ، فحسب أن هذه الحيلة تنجيه مما يخافه) [٤] .

ونقل هذا التأويل عن الخطابي الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) حيث قال : (قَالَ الْخَطَّابِيُّ : قَدْ يُسْتَشْكَل هَذَا فَيُقَال كَيْف يُغْفَر لَهُ وَهُوَ مُنْكِر لِلْبَعْث وَالْقُدْرَة عَلَى إِحْيَاء الْمَوْتَى ؟ وَالْجَوَاب أَنَّهُ لَمْ يُنْكِر الْبَعْث وَإِنَّمَا جَهِلَ فَظَنَّ أَنَّهُ إِذَا فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ لاَ يُعَاد فَلاَ يُعَذَّب ، وَقَدْ ظَهَرَ إِيمَانه بِاعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَة اللَّه) [٥] .

ونقله عن الخطابي أيضاً الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) حيث قال : (قال الخطابي : قد يستشكل هذا فيقال : كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى ؟ فأجيب : بأنه لم ينكر البعث وإنما جهل فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد ولا يعذب) [٦] .

ونقله عن الخطابي أيضاً الإمام شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) حيث قال : (الخطابي : فإن قلت : كيف يغفر له وهو منكر للقدرة على الإحياء ، قلت : ليس بمنكر إنما هو رجل جاهل ظن أنه

---

[١] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٦/٨) .

[٢] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦٢/٢٥-١٦٣) .

[٣] صحيح البخاري بشرح الكرماني (١٩٣/٢٥) .

[٤] أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (١٥٦٥/٣) ، أعلام السنن في شرح صحيح البخاري للخطابي (٨٧٥/٢) .

[٥] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[٦] التوشيح شرح الجامع الصحيح للسيوطي ، ص ٢٢٤٥ .

إذا فعل به هذا الصنيع ترك فلم ينشر و لم يعذب ، وحيث قال (**مِنْ خَشْيَتِكَ**) علم أنه رجل مؤمن فعل ما فعله خشية من الله ، **وبجهله حسب أن هذه الحيلة تنجيه مما يخافه**)[1].

ونقله عنه كذلك الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) حيث قال : (وقال الخطابي : فإن قلت : كيف يغفر له وهو منكر للقدرة على الإحياء ؟ قلت ليس بمنكر إنما هو رجل جاهل ظن أنه إذا صنع به هذا الصنيع ترك فلم ينشر و لم يعذب ، وحيث قال (**مِنْ خَشْيَتِكَ**) علم أنه رجل مؤمن فعل ما فعل من خشية الله وبجهله حسب أن هذه الحيلة تنجيه)[2] .

قال الإمام عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) : (وقال الشيخ الكلابادي : (قدر) ههنا بمعنى قدَّر بالتشديد كما قرأ القراء في قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بالتشديد . المعنى " إن كان في تقدير الله أن يعذبني أشد العذاب فإنه يعذبني أشد العذاب ")[3] .

قال الشيخ محمد أنور الكشميري : (قوله : (ومن ألفاظه : **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) الخ ، قيل : إن هذا يؤذن تردده في قدرته تعالى ، **وهو كفر** ؛ قلت : لفظه هذا يحتمل معنيين : الأول : ما قلت ، وهو كفر ، كما قلت ، والثاني : أنه لا شك له في نفس القدرة ، ولكنه في إجرائها ، أي إن الله سبحانه وتعالى ، وإن كان قادراً ، لكنه إن تركني على هذا الحال ، و لم يجمعني ، فقد تمت حيلتي ، وأنقذت نفسي ، وإن لم يتركني حتى جمعني ، ونفذت قدرته ، فإنه يعذبني)[4] .

قلت بحول الله تعالى : وأصحاب هذا المذهب في التأويل وجدوا تأويلاً مستساغاً في اللغة لرواية معاوية بن حيدة رضي الله عنه والتي ورد فيها قول الرجل (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) ، وإليك أقوال العلماء في ذلك :

قال الحافظ أبو بكر ابن فورك الإصبهاني الأشعري (ت. ٤٠٦هـ) : (فأما معنى قوله (**أَضِلُّ اللَّهَ**) أي أنسيه ، كما قال تعالى : ﴿ **لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى** ﴾ (طه: ٥٢) ، وما ذكره في قوله تعالى : ﴿ **أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا** ﴾ (البقرة: ٢٨٢) أي تنسى ، وقيل في بعض الوجوه في تأويل قوله سبحانه : ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى** ﴾ (الضحى: ٧) أي ناسياً فذكرك ، والعرب تقول : ضللت كذا وأضللته أي نسيته .

وإذا كان ذلك معنى الضلال هاهنا ، **فمراده أن الله سبحانه يميتني ولا يبعثني فأستريح من عذابه** . والعرب تقول : (ضَلَّ الْمَاءُ فِي اللَّبَنِ) إذا غاب فيه و لم يتبين . ويكون تحقيق معنى قوله (**لَعَلِّي أَضِلُّ**

---

[1] صحيح البخاري بشرح الكرماني ، (١٤/١٠٨) .

[2] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٦/٦٢) .

[3] مبارق الأزهار شرح مشارق الأنوار (٣/٣٩) .

[4] فيض الباري على صحيح البخاري مع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري (٤/٤٧-٤٨) .

اللَّهَ) أي (**لعل الله تبارك وتعالى لا ينشرني ولا يبعثني فأستريح من عذابه**) . وهذا إظهار الجزع والخوف والخشية بأبلغ ما يكون في بابه ، **لا أنه كان يعتقد قائله أنه يجوز أن ينسى الله أحداً ولا شيئاً ، أو يـــمكن أن يفوته شيء**) [1] .

قلت بحول الله تعالى : استدل المصنف على توجيه معنى كلام الرجل (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) بـــما تقوله العرب (ضل الماء في اللبن) إذا غاب فيه ، فقدر كلام الرجل في الحديث على أن معناه (لعلي أغيب عن الله) ويكون تقدير الكلام محذوف أي معناه (لعلي أغيب عن لقاء الله) وهذا مستخدم شائع كقولك لعلي أغيب عنك أي عن لقاءك أو عن الالتقاء بك ، ويكون فعل الرجل ما فعل لكي لا يعاد مرة أخرى فلا يلقى الله عز وجل أي فعل ما فعل لعله يغيب عن الله سبحانه وتعالى أي عن لقائه أي عن عذابه .

قال الشيخ أحمد الشمني (ت: ٨٧٣هـــ) : (قوله (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) ، قال صـــاحب الـــصحاح : أضل عنه أي: أخفى عليه وأغيب، من قوله تعالى ﴿ **أَئِذَا ضَلَلْنَا فِـــي الأَرْضِ** ﴾ (الـــسجدة: ١٠) أي خفينا وغبنا ، وقال الإمام ابن الأثير : (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) أفوته ويخفى عليه مكاني ، وقيل: **لعلى أغيب عن عذاب الله**) [2] .

قال الإمام ابن منظور الأنصاري (٦٣٠-٧١١هـــ) في لسان العرب : (وضَلَّ الشيءُ خَفِيَ وغاب ، وفي الـــحديث (**ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) يريد أَضِلُّ عنه أَي أَفُوتُه ويَخْفَى عليه مكاني ، وقيل **لَعَلِّي أَغيب عن عذابه**) [3] .

قال المرتضى الحسيني الزبيدي (١١٤٥-١٢٠٥هـــ) صاحب تاج العروس : (وضَلَّ الشَّيْءُ : إذا خَفِيَ وغَابَ ، ومنهُ ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ وهو مَجازٌ ، ويُقالُ : ضَلَّ الكافِرُ إذا غَابَ عن الحُجَّةِ ، وضَلَّ النَّاسِي إذا غابَ عنهُ حفْظُهُ ، وفي الحديث : (**أَنَّ رَجُلاً أَوْصَى بَنِيه إِذا متُّ فاحْرِقُونِي فإِذا صَرْتُ حُمَماً فاسْهَكُونِي ثُمَّ ذُرُّونِي لَعَلِّي أَضِلُّ اللهَ**) [4] : **أي أَغِيبُ عن عَذَابِ الله**) [5] .

قال الإمام مجد الدين ابن الأثير (٥٤٤-٦٠٦هـــ) : (ومنه الحديث (**ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) أي أَفُوتُه ويَخْفَى عليه مَكَاني . وقيل : **لعَلِّي أغِيبُ عن عَذابِ اللّه تعالى**) [6] .

---

[1] مشكل الحديث لابن فورك ، ص ١٦٣ .

[2] مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء ضمن حاشية كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢٩٣/٢) .

[3] لسان العرب لابن منظور (٣٩٠/١١) .

[4] لم نجده روي بهذا النسق ، كأنه انتزع كل لفظة من رواية فجمعها ، ولعله أراد الإشارة إلى الحديث فذكره هكذا .

[5] تاج العروس لمرتضى الحسيني (٣٤٦/٢٩) .

[6] النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٠٦/٣) .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (في الحديث (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) أي لَعَلَّ مَوْضِعِي يَخْفَى عَلَيْهِ ، وقال الأزهري : **لعلي أَغِيبُ عَنْ عَذابِه**) [١] .

قال الإمام أبي سليمان الخطابي (٣١٩-٣٨٨هـ) : (وفي غير هذه الرواية (**فاذروني في الريح فلعلي أَضِلُّ اللَّهَ**) [٢] ، يريد : فلعلي أفوته ، يقال : ضل الشيء إذا فات وذهب ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ **قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى** ﴾ (طه: ٥٢) أي : لا يفوته .

وقد يسأل عن هذا فيقال : كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحيائه وإنشاره ؟ فيقال : إنه ليس بمنكر للبعث ، إنما هو رجل جاهل **ظن أنه إذا فُعل به هذا الصنيع ترك فلم ينشر ولم يعذب** . ألا تراه يقول (**فجمعه فقال : لم فعلت ذلك ؟ فقال : من خشيتك**) [٣] ، فقد تبين أنه رجل مؤمن بالله ، فعل ما فعل من خشية الله إذا بعثه ، **إلا أنه جهل فحسب أن هذه الحيلة تنجيه مما يخافه**) [٤] .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة : (أما قوله في الرواية الأخرى (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) **معناه النسيان الذي هو الترك** ، ولفظه (ضَلَّ) تستعمل بمعنى النسيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا** ﴾ (البقرة: ٢٨٢) ، ﴿ **لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى** ﴾ (طه: ٥٢) **فيصير معناه لعل الله يتركني بعد الموت ولا يبعثني فأستريح من عدالته** ، وكل ذلك خشية من عذاب الله وخوفاً منه لا أنه يعتقد أن الله ينسى شيئًا أو يضل عن شيء) [٥] .

قال الإمام عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) : (فإن قيل : قد جاء في بعض روايات هذا الحديث بعد قوله (**ثم اذروا نصفه في البحر فلعلي أضل الله**) [٦] أي أغيب عنه ولا يعرفني ، فهذا يدل على كفره فكيف غفر له . قلت : يجوز أن يكون ذلك الكلام غلطاً منه و لم يقصد معناه فلم يؤاخذ به لذهاب فطنته بغلبة الخوف عليه كما لم يؤاخذ من وجد راحلته فقال من شدة فرحه « **إلهي أنت عبدي وأنا ربك** » [٧] ، أو نقول يجوز أن يكون عرف أن الله يحشر الخلق فيثيب المحسن

---

[١] غريب الحديث لابن الجوزي (١٧/٢) .

[٢] لم نجده بهذه اللفظ ، وإنما وجدناه في مسند أحمد بلفظ قريب وهو : (**ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) .

[٣] وجدته بلفظ قريب جداً وهو : (**فَجَمَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ : لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مِنْ خَشْيَتِكَ**) .

[٤] أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للخطابي (١٥٦٥/٣) ، أعلام السنن في شرح صحيح البخاري للخطابي (٨٧٥/٢) .

[٥] إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، ص ٢٠١ .

[٦] لم نجده روي بهذا النسق ، كأنه انتزع كل لفظة من رواية فجمعها ، ولعله أراد الإشارة إلى الحديث فذكره هكذا .

[٧] أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » ، كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة ، ط. المكنز (حديث رقم ٧١٣٦ ، ص ١٤١١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٨) .

ويعاقب المسيء ، **فظن أنه يجوز أن لا يحييه الله إذا فعل ذلك بنفسه** ، فمعنى (**أَضِلُّ ربي**) [١] **يتركني تراباً ولا يبعثني** ، وهذا الظن لقلة علمه لا يخرجه عن الإيمان فغفر الله له من شدة خشيته منه لا بإحراق نفسه) [٢] .

قلت بحول الله تعالى : بداية اعلم أن ما تقدم في بعض النقول لمعنى كلمة « أَضِلُّ » لا يعبر عن توجيه العلماء للمعنى المراد من قول الرجل « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » فهم إنما أرادوا بداية الإشارة إلى الشرح اللغوي للمفردة ، ومن ثم وجهوا كلام الرجل على المعنى الذي يمكن أن يؤول إليه . وهناك قضية ينبغي التأكيد عليها مع أنها واضحة بفضل الله عز وجل ، وهو أن الجهل بأفعال الله عز وجل لا يعني الجهل بقدرة الله عز وجل ، ففرق كبير بين الفعل ، وبين القدرة على الفعل . فالذي يجهل مثلاً : خسوف القمر أو انشقاقه ، أو كسوف الشمس ، أو طغيان الماء وغمره اليابسة ...الخ ، ولكنه مؤمن بقدرة الله على كل ذلك فهو مؤمن بالله ولا يضره مجرد جهل الفعل في ذاته . ومثال من نفسك وهو أنك قد تكون قادراً على كثير من الأمور ولا تفعلها ، ولا يعني عدم فعلك لهذه الأمور عدم قدرتك أي عجزك عن فعلها . فالشك في الفعل هو تردد بين فعل شيء ما وعدم فعله ، أما الشك في القدرة فهو تردد بين القدرة على فعل شيء وعدم القدرة على فعله أي تردد بين القدرة والعجز ، فتنبه .

إذاً فليس في جهل الرجل المذكور بعث الله عز وجل له من جديد إذا صار في تلك الحالة جهل بقدرة الله عز وجل على بعثه ولو صار إلى تلك الحالة .

فإن قلت : فظن هذا الرجل أن الله ربما لا يبعثه إذا فعل بنفسه ما فعل ألا يخالف الإيمان بالبعث بعد الموت ؟

قلت : نعم ، ولكن الجهل بالبعث لا يعني الجهل بالتوحيد .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (وليس في وجوب التوحيد وجوب التعذيب على تركه **حتى يأتي نص بذلك** . وبالله تعالى التوفيق) . [٣]

فالإيمان بالبعث أساسه العلم بذلك ، لكن العلم بالبعث على الإجمال أي العلم بأصل البعث هو من المعلوم من الدين بالضرورة لأنه من أظهر ما يقترن بدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأما تفاصيل البعث فالناس يتفاوتون في معرفتها ، ولذلك قال العلماء عن هذا الرجل لعله لم يصله خبر بأن الإنسان لو فعل بنفسه ما فعل فإنه لا بد وأنه سيبعث من جديد ، لذا لم يضره الجهل بهذا التفصيل من تفاصيل

---

[١] اللفظ الوارد في الحديث (**أَضِلُّ اللَّهَ**) ، ولعله لم يقصد ذكر لفظ الرواية وإنما شرح معناه .

[٢] مبارق الأزهار شرح مشارق الأنوار (٣٩/٣) .

[٣] الأصول والفروع لابن حزم الأندلسي ، ص ١٣٢ .

البعث . وأما عن إيمانه بأصل البعث فهذا يدل عليه إرادته الفرار من البعث ليتفادى العذاب ، فنفس فراره من البعث أكبر دليل على إيمانه بأصل البعث .

قال الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) : (فإن قلت : ما قلت في كلمة القدرة لا بأس به إلا أن في الحديث إشكالاً آخر . وذلك أن صنعه هذا يدل على أنه كان شاكاً في بعثه وبعث من تفرقت أجزاؤه ، ولو لم يكن كذلك لما حرق نفسه وذراها ، وقوله (**لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ**) التي فسرها بالفعل يدل على شكـه أيضاً . وإذا كان شاكاً في البعث فكيف غفر الله له والشك في البعث كفران ؟ وهل الكافر يغفر له ؟

قلت : أغلب الناس لا يعرف دليل البعث إلا من الشرع ، ولا يعرفه من العقل . فالبعث عند هذا الصنف من الأمور السمعية النقلية لا الأمور العقلية . فلا تقوم الحجة عليه إلا بأن يطلع على السمعي القائل بذلك . أما إذا جهل السمعي ، وأنكره بناءً على جهله ، فلا تقوم عليه حجة . وهذا الرجل ما كان عالماً بدلائل البعث الشرعية ، و لم يعرفه بعقله ، فشك فيه جاهلاً ، فكان معذوراً . ومثل هذا من شك في بعض أحوال الآخرة ، وأهوال يوم القيامة ، وصفات الجنة والنار ، لأنه لم يعرف دليلها النقلي . فمن شك في عدد أبواب النار أعاذنا الله منها لأنه لم يعلم الآية التي ذكرت عددها ، أو شك في الصراط وفي صفته لم يكفر ، ولا خلاف في ذلك) [1] .

فإن قلت : فما توجيه هؤلاء للرواية التي فيها كلام الرجل (وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ) والذي ظاهره يفيد الشك في البعث ككل ؟

قلت بحول الله تعالى : هو لم يشك في البعث ككل ، فلندقق في تلك الرواية جيداً ، ستجد أنه جمع أولاده وسألهم أي أب كان لهم ، فشهدوا له بالخير ، ومن ثم أخبرهم عن حاله فقال أنه لم يعمل خيراً قط وأنه إن يقدم على الله يعذبه أي إذا قدم على الله عز وجل فإنه سيعذبه لأنه لم يعمل خيراً فـ (إن) هنا ليست شرطية بل هي بمعنى (إذا) الزمانية ، أي إذا قدم على الله سيعذبه ، وبعد شرحه لحالته يبدأ بالوصية ، فيقول (**وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ ، فَانْظُرُوا** ..) ، فيبدأ كلام بالفاء مما يدل أن ما سبق مقدمة للوصية ، أي يقول لهم أنا لم أعمل خيراً قط وإذا قدمت على الله عذبني لذلك إذا أنا مت فاعملوا بي كذا وكذا ، ويكون محذوف مقدر وهو (فإذا فعلتم بي ما فعلتم لعلي لا أقدم على الله عز وجل ولا يبعثني فلا يعذبني) فيكون حينها شاكاً في البعث في حالة مخصوصة وليس في البعث ككل . وكيف يكون شاكاً في البعث ككل وكل الروايات تدل على أنه فعل ما فعل خشية وخوفاً من عذاب الله عز وجل في الآخرة ؟!

---

[1] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٤ .

فإن قلت : إن كان (قدر) في الحديث بمعنى تقدير الإعادة فما جواب هؤلاء عن رواية الإمام مسلم والتي فيها قول الرجل (وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي) ؟

قلت بحول الله تعالى : فإنهم يستطيعون الإجابة بإجابتين بحيث يجمعوا بين هذه الرواية وبين ما سبق.

الإجابة الأولى : قد ينتصرون للنسخ التي سقطت فيها (إن) الثانية ، فيقولون هذه الرواية هي لفظها (**وَإِنِ اللَّهُ يَقْدِرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْنِي**) فيكون (يقدر) هنا بمعنى تقدير الإعادة فيجمعون بين هذه الرواية وبين ما سبق ، وهذا الجواب ضعيف وقد أشرنا إلى أن الجمهور على إثبات (إن) في الموضعين.

الإجابة الثانية : يجعلون هذا الكلام زيادة في الرواية ، فيجمعون بين الروايات فيقولون (قدر) في رواية مسلم هي من القدرة ، والرجل جزم بقدرة الله عز وجل على تعذيبه وعلى إعادته ، و (قدر) في الروايات الأخرى من تقدير الإعادة . فيكون الرجل بذلك نبه بنيه بعد وصيته أنه لم يوصي بما أوصى شكاً في قدرة الله عز وجل ، فنبههم على أنه يؤمن أن الله يقدر على أن يعذبه لكي لا يظنوا به سوءاً ، وهذا الجواب أقرب للصواب ، لأن معظم نساخ صحيح مسلم اتفقوا على تقييده بلفظ (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) كما تقدم بيانه .

أقول بحول الله تعالى : وهذا المذهب في التأويل وإن جمع بين روايات كثيرة فإنه عندي مرجوح وذلك لأسباب :

الأول : إن هذا المذهب في التأويل لا ينهض لتوجيه رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقول الرجل فيها (**فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا**) كما في رواية أحمد ، وقول الرجل (**فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ**) كما في رواية الإمام الطحاوي .

فلو كان (قَدَرَ) في الحديث بمعنى تقدير الإعادة لكان تقدير رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه حسب رواية الإمام أحمد جزماً من الرجل أن الله سبحانه وتعالى لن يُقَدِّرْ ولن يَقْضِي عليه الإعادة والبعث ، وأنى للرجل الجزم بذلك والتيقن به دون علم !

والتقول على الله عز وجل بغير علم من أعظم الذنوب وهو كفر مخرج من الملة . وقد أخرج أبو داوود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : « **كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ أَقْصِرْ ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ : أَقْصِرْ ، فَقَالَ : خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ! ، فَقَالَ : وَاللَّه لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ : ﴿ أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى**

مَا فِي يَدِي قَادِرًا ﴾ ، **وَقَالَ لِلْمُذْنِب : ﴿ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ﴾** ، **وَقَالَ لِلآخَرِ ﴿ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ ﴾** » ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ . [١]

قلت بحول الله تعالى : فالتقول على الله عز وجل بغير علم والتألي عليه سبحانه قول يوجب الكفر وحبوط العمل ونار الجحيم ، وليس الغفران وجنات النعيم .

الثاني : لو كان (قَدَرَ) في الحديث بمعنى تقدير الإعادة لكان تقدير رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه حسب رواية الإمام الطحاوي أن الرجل يحلف جازماً أن الله سبحانه وتعالى لن يعيده ولن يبعثه فيعاقبه بحجة أنه عاقب نفسه في الدنيا ، وبهذا يضطرب المعنى ولا بد .

التقدير الثاني : لئن قدَّر الله علي العذاب وقضاه علي ولم يقدِّر أن يغفر لي – وهو قادر على تعذيبي – ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين .

وعلى هذا التقدير يكون الرجل مؤمناً بقدرة الله عز وجل على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وإعادته من جديد ، ومؤمناً بأن الله سيعيده ويبعثه من جديد ، ولكنه ظن أنه إذا فعل بنفسه ما فعل لعل الله سبحانه وتعالى لا يقدِّر عليه العذاب ولعله يغفر له ولا يعذبه . ويكون سبب ما فعله هو كما أشار إليه القاضي أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (خَوْفًا مِنَ الْبَارِي تَعَالَى وَتَذَلُّلاً وَرَجَاءَ أَنْ يَكُونَ هَذَا سَبَبًا إِلَى رَحْمَتِهِ وَلَعَلَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِ) [٢] .

وإليك ذكر أقوال طائفة من العلماء حول ذلك :

قال الإمام المازري (٤٥٣-٥٣٦هـ) : (إما أن يكون المراد به (**لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ**) بمعنى قدَّر علي العذاب ، يقال : قَدَرَ وقَدَّرَ بمعنى واحد ...) [٣] .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (اخْتَلَفَ الْعُلَمَاء فِي تَأْوِيل هَذَا الْحَدِيث ، فَقَالَتْ طَائِفَة : لاَ يَصِحّ حَمْل هَذَا عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ نَفْيَ قُدْرَة اللَّه ، **فَإِنَّ الشَّاكّ فِي قُدْرَة اللَّه تَعَالَى كَافِر** ، وَقَدْ قَالَ فِي آخِر الْحَدِيث : إِنَّهُ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا مِنْ خَشْيَة اللَّه تَعَالَى ، وَالْكَافِر لاَ يَخْشَى اللَّه تَعَالَى ، وَلاَ يُغْفَر لَهُ ، قَالَ هَؤُلاَء : فَيَكُون لَهُ تَأْوِيلاَن أَحَدهمَا أَنَّ مَعْنَاهُ : لَئِنْ قَدَّرَ عَلَيَّ الْعَذَاب ، أَيْ : قَضَاهُ ، يُقَال مِنْهُ قَدَرَ بِالتَّخْفِيفِ ، وَقَدَّرَ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِد ...) [٤] .

---

[١] سنن أبي دواد ، كتاب الأدب / باب في النهي عن البغي ، ط. المكتر (حديث رقم ٤٩٠١ ، ص ٩٦١) ، صحيح سنن أبي داود باختصار السند للألباني (٢٠١/٣-٢٠٢) .

[٢] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٢/١-٣٣) .

[٣] الْمُعْلِمْ بفوائد مسلم للمازري (٣٣٤/٣) .

[٤] صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (وَقَدْ قِيلَ مَعْنَاهُ إنْ قَدَرَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَنِي وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَغْفِرَ لِي ليعذبني عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ) [(١)] .

قال الحافظ أبو بكر ابن فورك الإصبهاني الأشعري (ت. ٤٠٦هـ) : (فأما معنى قوله : (**لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا**) فلا يصلح أن يكون محمولاً على معنى القدرة ، لأن من توهم ذلك لم يكن مؤمناً بالله عز وجل ولا عارفاً به . وإنما ذلك على معنى قوله تعالى في قصة يونس عليه السلام : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وذلك يرجع إلى معنى التقدير ، لا إلى معنى القدرة ، لأنه لا يصلح أن يخفى على نبي معصوم ذلك . وقال الفراء في تأويل قوله ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي (لن نُقدِّر عليه ما قدَّرنا) ، ومثله ما قال أبو صخر الهُذَلي :

ولاَ عَائداً ذَاكَ الزَّمَانُ الذِّي مَضَى   تَبَارَكْتَ مَا تَقْدِرْ يَقَعْ وَلَكَ الشُّكْرُ

أراد (مَا تُقَدِّرْ يَكُون) فعلى ذلك يحمل قوله (**لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي**) ، أي : (إن كان قَدَّرَ وحكم عليَّ بالعقوبة ، فإنه يعاقبني) ، وإنما هذا كلام خائف جزع .

ولما قيل في الخبر إن الله تعالى يغفر له ، وقد علم أنه لا يغفر للكافرين ، وجب أن يُحمل لفظه على تأويل صحيح ، لا ينافي المعرفة بالله عز وجل ولا يؤدي إلى الكفر . وإذا حمل على ما ذكرنا بان الغرض وبان وجه الإشكال فيه ، فاعلمه إن شاء الله) [(٢)] .

قال الإمام النحوي ابن السيد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١هـ) : (ويجوز أن يكون من القدر الذي هو القضاء فيكون معناه (فوالله لئن قدَّر الله علي العذاب ليعذبني) ، فحذف المفعول اختصاراً كما قال النابغة الجعدي :

حَتَّى لَحِقْنَا بِهِم تُعْدِي فَوَارِسُنَا   كَأَنَّنَا رَعَنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلا

أراد تعدي فوارسنا الخيل) [(٣)] .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ لاَ يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَيَكُونُ لَهُ تَأْوِيلاَنِ أَحَدُهُمَا أَنَّ مَعْنَاهُ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَي الْعَذَابِ أَيْ قَضَاهُ يُقَالُ مِنْهُ قَدَرَ بِالتَّخْفِيفِ وَقَدَّرَ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنًى وَاحِدٍ) [(٤)] .

[(١)] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٢/١-٣٣) .

[(٢)] مشكل الحديث لابن فورك ، ص ١٦٤ .

[(٣)] الإنصاف للبطليوسي ، ص ١٠٢ .

[(٤)] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٢٦٧/٣) .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (والخامس : أنَّ يَقْدِر خفيفة بمعنى يُقَدِّرْ مشددة ، يقال : قَدَرْتُ وَقَدَّرْتُ بمعنى ، والمراد : إن قَدَّر وسبق قضاؤه أن يعذِّب كل ذي جرم ليعذبني عذاباً لا يعذبه أحداً . ذكرها أبو عمر بن عبد البر الحافظ) [(١)] .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة : (وقيل هو التقدير الذي هو سابق القضاء أي لئن كان الله قدر علي عذابي في سابق علمه) [(٢)] .

فإن قلت : فما توجيه هؤلاء لرواية معاوية بن حيدة رضي الله عنه والتي فيها كلام الرجل (لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ) ؟

قلت : قد سبق بيان أن هناك تأويل مستساغ في اللغة يكون بذلك معنى هذا الكلام لعلي أغيب عن عذاب الله ، أي طمع الرجل أنه إذا فعل بنفسه ما فعل لعل الله عز وجل لا يعذبه .

فإن قلت : فما توجيه هؤلاء للرواية التي فيها كلام الرجل (وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ) ؟

قلت بحول الله تعالى : سيقولون ولا شك أن (إن) في قول الرجل ليس للتشكيك بل للتحقيق ، فـــ (إن) هنا ليست شرطية بل هي بمعنى (إذا) الزمانية ، أي إذا قدم على الله سيعذبه ، أي يقول لأولاده : (أنا لم أعمل خيراً قط وإذا قدمت على الله عذبني لذلك إذا أنا مت فاعملوا بي كذا وكذا) ويكون محذوف مقدر وهو (فإذا فعلتم بي ما فعلتم لعل الله لا يعذبني) فيكون حينها شاكاً فيما إذا كان الله عز وجل سيعذبه أم لا .

فإن قلت : إن كان (قدر) في الحديث بمعنى تقدير العذاب فما جواب هؤلاء عن رواية الإمام مسلم والتي فيها قول الرجل (وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي) ؟

قلت بحول الله تعالى : فإنهم يستطيعون الإجابة بإجابتين بحيث يجمعوا بين هذه الرواية وبين ما سبق.

الإجابة الأولى : قد ينتصرون للنسخ التي سقطت فيها (إن) الثانية ، فيقولون هذه الرواية هي لفظها (**وَإِنِ اللَّهَ يَقْدِرْ عَلَيَّ يُعَذِّبْنِي**) فيكون (يقدر) هنا بمعنى تقدير العذاب فيجمعون بين هذه الرواية وبين ما سبق ، وهذا الجواب ضعيف وقد أشرنا إلى أن الجمهور على إثبات (إن) في الموضعين ، وبالإضافة لذلك فإنه لا يستقيم الكلام حينها فيكون معنى الكلام (وإن الله يقدِّر علي العذب يعذبني) وهذا يعني اتحاد الجزاء والشرط .

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٧/٣) .

(٢) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، ص ٢٠٠ .

الإجابة الثانية : يجعلون هذا الكلام زيادة في الرواية ، فيجمعون بين الروايات فيقولون (قدر) في رواية مسلم هي من القدرة ، والرجل جزم بقدرة الله عز وجل على تعذيبه وعلى إعادته ، و (قدر) في الروايات الأخرى من تقدير العذاب . فيكون الرجل بذلك نبه بنيه بعد وصيته أنه لم يوصي بما أوصى شكاً في قدرة الله عز وجل ، فنبههم أنه يؤمن أن الله يقدر على أن يعذبه ، ولكن يشك فيما إذا كان الله عز وجل سيقدِّر عليه العذاب ويقضي عليه به أم لا إن هم فعلوا وصيته .

فإن قلت : فما توجيه أصحاب هذا المذهب في التأويل لرواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقول الرجل فيها (فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا) كما في رواية أحمد ، وقول الرجل (فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ) كما في رواية الإمام الطحاوي ؟

قلت : إن من ذهب إلى تأويل (قدر) أن معناه تقدير العذاب يؤول قول الرجل (**فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا**) بمعنى فوالله لا يقدِّر رب العالمين علي العذاب أبداً بمعنى أنه يحلف جازماً أن الله عز وجل لن يعذبه ، ويكون معنى كلامه (**فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ**) أي فوالله لا يقدِّر رب العالمين علي العذاب أبداً فيعاقبني في الآخرة إذ عاقبت نفسي في الدنيا عليه .

فإن قلت : كيف جاز له أن يحلف جازماً أن الله عز وجل لن يعذبه ، أليس هذا تقوُّلٌ على الله عز وجل كالذي قال لأخيه : (**وَاللَّه لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ**) أو قال (**وَاللَّه لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ**) ؟

قلت بحول الله تعالى : فرق بين حالة الرجل هنا وبين الذي قال لأخيه (**وَاللَّه لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ**) أو قال (**وَاللَّه لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ**) ، فالذي قال لأخيه (**وَاللَّه لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ**) أو قال : (**وَاللَّه لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ**) قال ذلك رجماً بالغيب ، وأما الرجل هنا الذي قال (**فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا**) قال ذلك من باب الاجتهاد وحسن الظن بالله عز وجل وقد ذكر في رواية أخرى تعليل كلامه وسبب جزمه حيث قال (**فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ**) أي فوالله لا يقدِّر رب العالمين علي العذاب أبداً فيعاقبني في الآخرة إذ عاقبت نفسي في الدنيا عليه .

وشبيه كلام الرجل بكلام أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها حيث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما رجع من غار حراء بعد أن أتاه جبريل عليه السلام ورجع إلى بيته وأخبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بما حصل وقال لها : « **لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي** » ، فأجابته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها

وأرضاها : (**كَلاَّ ، أَبْشِرْ ، فَوَاللَّه لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، وَاللَّه إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ**) [1] .

فقَسَمُ خديجة رضي الله عنها هنا لما قالت (**فَوَاللَّه لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا**) لا يسمى تقوُّلاً على الله عز وجل ، بل اجتهدت وبينت سبب قولها هذا عقب كلامها مباشرة ، وكذلك فعل الرجل المذكور في الحديث .

قلت بحول الله تعالى : وهذا التأويل شبيه بالمآل بتأويل من قال أن (قَدَرَ) في الحديث بمعنى ضَيَّقَ ، وهو ما سيأتي بيانه بحول الله تعالى .

التأويل الثاني : من تأول (قَدَرَ) في الحديث بمعنى ضَيَّقَ .

وعلى هذا التأويل يكون معنى كلام الرجل : لئن ضيق الله علي الحساب وطرق الخلاص أو لئن ضيق الله علي عفوه ورحمته و لم يغفر لي – وهو قادر على التضييق علي وعلى عذابي – ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين .

وعلى هذا التأويل يكون الرجل مؤمناً بقدرة الله عز وجل ، ومؤمناً بأنه سيبعث حتى ولو حرِّق جسده وصار رماده متفرقاً في البر والبحر ، ولكنه ظن أنه إذا فعل بنفسه ما فعل لعل الله سبحانه وتعالى لا يضيق عليه في الحساب فيغفر له ذنوبه ، أو أنه ربما كان هذا من شرعهم لتصحيح التوبة كما أشار لذلك الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) حيث قال : (قَالَ ابْن أَبِي جَمْرَة : كَانَ الرَّجُل مُؤْمِنًا لأَنَّهُ قَدْ أَيْقَنَ بِالْحِسَاب وَأَنَّ السَّيِّئَات يُعَاقَب عَلَيْهَا . وَأَمَّا مَا أَوْصَى بِهِ فَلَعَلَّهُ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعهمْ ذَلِكَ لِتَصْحِيحِ التَّوْبَة ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي شَرْع بَنِي إِسْرَائِيل قَتْلُهُمْ أَنْفُسَهُمْ لِصِحَّة التَّوْبَة) [2] .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (وَقِيلَ : إِنَّمَا وَصَّى بِذَلِكَ تَحْقِيرًا لِنَفْسِهِ ، وَعُقُوبَة لَهَا لِعِصْيَانِهَا ، وَإِسْرَافهَا ، رَجَاء أَنْ يَرْحَمهُ اللَّه تَعَالَى) [3] .

وإليك ذكر أقوال العلماء الذين ذهبوا هذا المذهب بالتحديد أو نقلوه عمن ذهب إليه :

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (فَتَأَمَّلْنَا مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ وَصِيَّةِ هَذَا الْمُوصِي بَنِيهِ بِإِحْرَاقِهِمْ إيَّاهُ بِالنَّارِ وَبِطَحْنِهِمْ إيَّاهُ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْكُحْلِ وَبِتَذْرِيهِمْ إيَّاهُ فِي الْبَحْرِ فِي الرِّيحِ وَمِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ « **فَوَاَللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا** » فَوَجَدْنَا ذَلِكَ مُحْتَمِلاً أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ شَرِيعَةِ ذَلِكَ الْقَرْنِ الَّذِي كَانَ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْهُ الْقُرْبَةُ بِمِثْلِ هَذَا إلَى رَبِّهِمْ جَلَّ وَعَزَّ

[1] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ط. المكتر (حديث رقم ٤٢٢ ، ص ٩٢-٩٣) ، ط. السلطانية (٩٧/١) .

[2] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٣٢٢/١١) .

[3] صحيح مسلم بشرح النووي (٧٢/١٧) .

خَوْفَ عَذَابِهِ إِيَّاهُمْ فِي الآخِرَةِ وَرَجَاءَ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ فِيهَا بِتَعْجِيلِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا كَمَا يَفْعَلُ مِنْ أُمَّتِنَا مَنْ يُوصِي مِنْهُمْ بِوَضْعِ خَدِّهِ إِلَى الأَرْضِ فِي لَحْدِهِ [1] رَجَاءَ رَحْمَةِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِيَّاهُ بِذَلِكَ .

فَقَالَ قَائِلٌ : وَكَيْفَ جَازَ لَكَ أَنْ تَحْمِلَ تَأْوِيلَ هَذَا الْحَدِيثِ عَلَى مَا تَأَوَّلْتَهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصِيَّةِ ذَلِكَ الْمُوصِي مَا يَنْفِي عَنْهُ الإِيمَانَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، لأَنَّ فِيهِ : « **فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا** » ، **وَمَنْ نَفَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى الْقُدْرَةَ فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ ، كَانَ بِذَلِكَ كَافِرًا** .

وَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِيهِ : « **فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ** » **لَيْسَ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَكَانَ كَافِرًا** ، وَلَمَا جَازَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ ، وَلاَ أَنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ : « **فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا** » هُوَ عِنْدَنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ عَلَى التَّضْيِيقِ ، أَيْ : لاَ يُضَيِّقُ اللَّهُ عَلَيَّ أَبَدًا ، فَيُعَذِّبَنِي بِتَضْيِيقِهِ عَلَيَّ لِمَا قَدْ قَدَّمْت فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِي نَفْسِي الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ فِيهَا ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ** ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٥-١٦) أَيْ : فَضَيَّقَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، وقَوْله تعالى فِي نَبِيِّهِ ذِي النُّونِ ، وَهُوَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فِي مَعْنَى : أَنْ لَنْ نُضَيِّقَ عَلَيْهِ ، وقَوْله تَعَالَى ﴿ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦) فَكَانَ الْبَسْطُ هُوَ التَّوْسِعَةَ ، وَكَانَ قَوْلُهُ : (وَيَقْدِرُ) هُوَ التَّضْيِيقَ ، فَكَانَ مِثْلَ ذَلِكَ قَوْلُ ذَلِكَ الْمُوصِي : « **فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا** » ، أَيْ : لاَ يُضَيِّقُ عَلَيَّ أَبَدًا ، لِمَا قَدْ فَعَلْتُهُ بِنَفْسِي رَجَاءَ رَحْمَتِهِ وَطَلَبِ غُفْرَانِهِ ، ثِقَةً مِنْهُ بِهِ ، وَمَعْرِفَةً مِنْهُ بِرَحْمَتِهِ وَعَفْوِهِ وَصَفْحِهِ بِأَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ) [2] .

وذكر الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) هذا التأويل في شرحه لصحيح البخاري عن الإمام الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) حيث قال : (قال الطبري : قيل : قد اختلف الناس في تأويل هذا الحديث ، فقال بعضهم : أما ما كان من عفو الله عما كان منه في أيام صحّته من المعاصي ؛ فلندمه عليها وتوبته منها عند موته ، ولذلك أمر ولده بإحراقه وذروه في البر والبحر خشية من عقاب ربه ، والندم توبة ، ومعنى رواية من روى : « **فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » ، أي إن ضيَّق عليه ، كقوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) ، وقوله : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) ، لم يرد بذلك وصف بارئه بالعجز عن إعادته حيًا ، ويبين ذلك قوله في الحديث حين أحياه ربه ،

---

[1] لم أجد دليلاً على أن هذا أمر مشروع في شريعتنا ، فالله تعالى أعلم وأحكم .

[2] شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢/٢٨-٢٩) .

قال : ﴿ **مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟** ﴾ ، قال: (**مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ**) . وبالخوف والتوبة نجا من عذابه عز وجل) [١] .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وفعله ما فعله من الخوف بنفسه عند الآخرين ، ليس لأنه اعتقد أنه يخفى بذلك عن الله ويعجزه ، بل إزراء على نفسه ومعاقبته لها لما قدر عليه بعصيانها وإسرافها ، ورجاء أن ذلك ينفعه عند الله إن ضيق عليه وعاقبه على أحد التأويلين) [٢] .

قال الإمام شهاب الدين القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ) : (« **فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي** » بتخفيف الدال ، ولأبي ذر عن الحموي والمستملي « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » أي ضيَّق الله عليَّ ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْه رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضُيِّق عليه ، وليس شكاً في القدرة على إحيائه وإعادته ، ولا إنكاراً لبعثه ، كيف وقد أظهر إيمانه باعترافه بأنه فعل ذلك من خشية الله تعالى) [٣] .

قال الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) : (وقيل معنى قَدَرَ ضَيَّقَ) [٤] .

ونقله عن السيوطي نور الدين السندي (ت: ١١٣٨هـ) حيث قال : (وقال السيوطي : معنى « **لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي** » أي ضَيَّقَ ، كقوله تعالى : ﴿ **فظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي نُضَيِّق) [٥] .

ونقله عن السيوطي أيضاً الشيخ علي بن سليمان البجمعوي الدمنتي المغربي في اختصاره لتعليق السيوطي على سنن ابن ماجة حيث قال : (« **فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي** » كضرب أي ضيق ، كقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي نضيق) . [٦]

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (٨٢٣-٩٢٦هـ) : (قوله « **لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي** » في نسخة « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » ، وليس ذلك شكاً في قدرته تعالى بل بمعنى ضيَّق عليَّ) [٧] .

قال الإمام شهاب الدين القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ) : (« **وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ** » يُضَيِّقِ اللَّهُ) [٨] .

---

[١] شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٩١-١٩٢) .

[٢] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٨/٢٥٦) .

[٣] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٥/٤٣٨) .

[٤] التوشيح شرح الجامع الصحيح للسيوطي ، ص ٢٢٤٥ .

[٥] شرح سنن ابن ماجة للسندي (٢/٥٦٤) .

[٦] نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة ، ص ٨٩ .

[٧] تحفة الباري بشرح صحيح البخاري (٤/١٣٥) ، صحيح البخاري وبهامشه حاشية السندي بتمامها وتقريرات من شرحي القسطلاني وشيخ الإسلام (٢/١٦٢) .

[٨] إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري للقسطلاني (١٠/٤٣٧) .

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) عن الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) أنه قال : (**جَحْده صِفَة الْقُدْرَة كُفْر اتِّفَاقًا** ، وَإِنَّمَا قِيلَ إِنَّ مَعْنَى قَوْله « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » أَيْ ضَيَّقَ وَهِيَ كَقَوْله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أَيْ ضُيِّقَ) [١] .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (والرابع : أن يكون بمعنى التضييق ، من قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضُيِّق ، فالمعنى : إنْ يُضيِّق علي ويبالغ في محاسبتي) [٢] .

قال أبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦) : (ولما كان كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق . قد يقدر على المؤمن ليعظم أجره ، ويبسط للكافر إملاء لازدياد آثامه . و (يقدر) مقابل (يبسط) وهو التضييق من قوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) وعليه يحمل ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وقول ذلك الذي أحرق وذري في البحر: « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » أي لئن ضيَّق) [٣] .

قال الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) : (وقيل : معنى « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » إن ضيق علي ، كقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضيق ، ولم يرد بذلك وصف خالقه بالعجز عن إعادته) [٤] .

قال الإمام النحوي ابن السيد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١هـ) : (وأما قوله (فوالله لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً شديداً) [٥] فمعناه فوالله لئن ضيق الله علي طرق الخلاص ليعذبني ، **وليس يشك في قدرة الله تعالى ، ولو شك في قدرة الله لكان كافراً** ، وإنما هو كقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، وقوله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي ضُيِّقَ) [٦] .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة : (أما قوله « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » ليس هو من القدرة بل هو من التقدير الذي هو التضييق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦) أي يضيق فمعناه : لئن ضيق الله علي عفوه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ**

---

[١] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[٢] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٧/٣) .

[٣] تفسير البحر المحيط (٣٧٩/٥) .

[٤] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٧٤/٢٣) .

[٥] اللفظ الثابت هو : « **فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ** » ، ولعله رواه بالمعنى .

[٦] الإنصاف للبطليوسي ، ص ١٠١-١٠٢ .

﴾ (الأنبياء: ٨٧) أي نضيق ، لأن النبي لا يجهل صفة من صفات الله تعالى وهي قدرة الله تعالى عليه) [١] .

قال الإمام عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) : (اختلف العلماء في معنى قوله : « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ** » . قال بعض (قدر) ليس من القدرة لأن الشاك في قدرة الله كافر فكيف يغفر له ؟! بل معناه لئن ضيق الله عليه وناقشه في الحساب كما قال الله تعالى : ﴿ **فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ** ﴾ (الفجر: ١٦) أي ضَيَّقه) [٢] .

قال الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي (ت: بعد ١٣٤٨هـ) : (والأوجه عندي أنه حسب أن الله عز وجل لو وجده في حاله لعذبه شديداً لكنه إذا وجده محترقاً مفترقاً فلعله رحمه ، لتحمله تلك المشاق والشدائد كما هو دأب الموالي الكرماء فإنهم إذا وجد أحدهم عبده المسيء في مرض أو شدة رحم عليه وإن كان قبل ذلك غضبان عليه ، ثم رأيت أن الطحاوي ذكر نحوه في مشكله وكذا النووي في شرح مسلم) [٣] .

فإن قلت : فما تقول في الاعتراض الذي ذكره الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) حيث قال : (وثالثها : أن (قدر) معناه : (ضيق) ، يعني أن الله تعالى إن ناقشه الحساب وضيقه عليه ليعذبنه أشد العذاب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أي : ضيق عليه ، وهذا التأويل حسن ، لكنه يخص لفظ (قَدَرَ) ، والتأويل الأول أولى لأنه يعم (**قَدَرَ**) و (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) ويشهد لكون هذا الحديث مؤولاً ، وليس على ظاهره قوله في آخر الحديث حين قال الله له : « **مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ** » . فلو كان جاهلاً بالله ، أو بصفاته ، لما خافه ، ولما عمل شيئًا لله ، والله تعالى أعلم) [٤] .

فهو قد حسن هذا التأويل إلا أنه اعترض عليه بأنه يخص الروايات التي وردت بلفظ « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » ، وأن هذا التأويل لا يسعف الروايات التي وردت بلفظ « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » لذلك فهو رجَّح التأويل الأول الذي ذكره وهو : (أن الرجل صدر عنه ما صدر حالة خوف غالب عليه ، فَغَلِطَ ، فلم يُؤَاخذ بقوله ذلك ، كما لم يؤاخذ القائل : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ** » [٥]) [٦] .

---

[١] إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، ص ٢٠٠ .

[٢] مبارق الأزهار شرح "مشارق الأنوار للصنعاني" لابن الملك (٣٩/٣) .

[٣] أوجز المسالك إلى موطأ مالك لمحمد زكريا الكاندهلوي (٣٠٢/٤) .

[٤] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٧/٧) .

[٥] صحيح مسلم ، كتاب التوبة / باب في الحض على التوبة ، ط. المكتز (حديث رقم ٧١٣٦ ، ص ١٤١١) ، الطبعة السلطانية (٩٣/٨) .

[٦] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٦/٧-٧٧) .

أقول بحول الله تعالى : أما ترجيح الإمام أبو العباس القرطبي تأويل من قال أن هذا الرجل قال ما قاله وهو في حالة خوف غالب عليه فإننا قد ذكرنا علل هذا التأويل فراجعه .

وأما كون تأويل (قدر) بمعنى (ضيق) لا يعم جميع الروايات أو أنه يعم جميع الروايات خلا رواية معاوية بن حيدة رضي الله عنه والذي رواه بلفظ « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » فليس بصحيح ، فإن ثلة من العلماء وجدت تأويلاً مستساغاً في اللغة لهذه الرواية والتي قد ذكرنا أنها قد تأتي بمعنى (لعلي أغيب عن عذاب الله) ، فيوافق هذا التأويل تأويل (قدر) أنه من التضييق .

ولا أعرف أحداً من العلماء حسب علمي القاصر وصل إلى الجمع بين روايات الحديث كلها كالإمام الطحاوي ، فلما واجهته هذه العلة حكم على رواية بهز بن حكيم بالتفرد وأن المقصود بالحديث هو روايات الحديث الأخرى .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) بعد أن ساق روايات كثيرة للحديث ومن ثم أتى إلى رواية معاوية بن حيدة رضي الله فعلق على ذلك قائلاً : (فَكَانَ مَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ مَكَانَ الَّذِي فِي الأَحَادِيثِ الأُوَلِ مِمَّا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِيهَا مِنْ قَوْلِ ذَلِكَ الْمُوصِي : (**فَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيَّ**) [(١)] ، (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) وَلَمْ نَجِدْ هَذَا فِي شَيْءٍ مِمَّا قَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْبَابِ إلاَّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ فَإِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَهُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَيْدَةَ جَدُّ بَهْزٍ ، وَقَدْ خَالَفَهُ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَحُذَيْفَةُ ، وَأَبُو مَسْعُودٍ ، وَأَبُو سَعِيدٍ ، وَسَلْمَانُ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، وَإِنَّمَا جَعَلْنَا مَا رَوَى حُذَيْفَةُ فِي ذَلِكَ غَيْرَ مَا رَوَى أَبُو بَكْرٍ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ وَالآنَ هُوَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ؛ لأَنَّ حُذَيْفَةَ فِي حَدِيثِ رِبْعِيٍّ قَدْ قَالَ فِيهِ إنَّهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَلَّنَا ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي حَمَلَهُ مَعَ سَمَاعِهِ إيَّاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمَاعُهُ إيَّاهُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ، إنَّمَا كَانَ لِمَعْنًى زَادَهُ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ ، فَأَخَذَهُ عَنْهُ لِزِيَادَتِهِ الَّتِي فِيهِ عَلَيْهِ ، وَسِتَّةٌ أَوْلَى بِالْحِفْظِ مِنْ وَاحِدٍ) [(٢)]

.

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (وَقَدْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي سَمِعَهُ السِّتَّةُ الأَوَّلُونَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُعَاوِيَةُ بْنُ حَيْدَةَ هُوَ اللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَهُ السِّتَّةُ الأَوَّلُونَ ، وَلاَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إلاَّ كَذَلِكَ ؛ لأَنَّهُمْ حَدَّثُوا بِهِ عَنْهُ فِي أَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ بِأَلْفَاظٍ مُؤْتَلِفَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إلاَّ بِحِفْظِهِمْ إيَّاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِتِلْكَ الأَلْفَاظِ ، وَسَمِعَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَيْدَةَ مِنْهُ كَذَلِكَ فَوَقَعَ بِقَلْبِهِ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : (**إنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيَّ**)

---

(١) وجدناه بلفظ (**وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ**) ، وهو قريب ، ولعله أشار إليه بالمعنى .

(٢) شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢/٣٧-٣٨) .

[1] أَرَادَ به الْقُدْرَةَ ، فَكَانَ ضِدُّهَا عِنْدَهُ أَنْ يَضِلَّهُ ، وَهُوَ أَنْ يَفُوتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مُرَادُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَقْدِرَةِ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّضْيِيقُ ، وَكَانَ الَّذِي أَتَى فِيهِ مُعَاوِيَةُ هُوَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَكَانَ مَا حَدَّثَ بِهِ السِّتَّةُ الأَوَّلُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى مِنْ ذَلِكَ ، لاَ سِيَّمَا وَمِنْهُمْ الصِّدِّيقُ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الاثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِالاقْتِدَاءِ بِهِمَا بَعْدَهُ [2] ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ) [3] .

أقول بحول الله تعالى : وتأويل قول الرجل (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) لتجتمع بذلك روايات الحديث ، أولى من الحكم على تلك الرواية بالتفرد ، ويبعد عن الصحابي معاوية بن حيدة رضي الله عنه أنه فهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن قول الرجل من القدرة ، ولو كان فهم قول الرجل أنه شك في قدرة الله عز وجل لاستشكل عليه الأمر ولسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف دخل هذا الرجل الجنة مع هذا الشك في قدرة الله عز وجل وفي علمه سبحانه وتعالى ، بل إن الحديث حدث به ابنه حكيم ، وحكيم حدث به ابنه بهز ، فهو حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده ، و لم يقع استشكال من أحد منهم لهذا اللفظ . فما دام هناك مجال لتأويل رواية ظاهرها المخالفة لروايات أخرى فهذا أولى من الحكم عليها بأنها مرجوحة . وقد تقدم توجيه قول الرجل (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) بما هو مستساغ في اللغة ، خصوصاً أن الرجل لم يذكر هذا القول مجرداً وإنما ذكر هذا القول مع تتريه الله عز وجل عن كل نقص وعيب ، فقد ورد بلفظ : « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَعَالَى** » ، وفي روايتين ورد بلفظ : « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** » فالرجل نفسه يتره الله عن وجه عن كل نقص بقوله (**تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) ، فلا يعقل أن يكون يقصد في نفس الجملة أنه قد يخفى على علم الله عز وجل أو قدرته سبحانه وتعالى ، أضف إلى ذلك ما في رواية مسلم الصريحة بأن الرجل قال (**وَإِنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَذِّبَنِي**) ، وما في رواية أحمد الصريحة بأن الرجل كان موحداً ، كل ذلك ليدلك بجلاء أن قول الرجل « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** » ليس على ظاهره المنكر وإنما معناه (لعل الله تبارك وتعالى لا يعذبني) .

فإن قلت : فما تقول في اعتراض من يقول أن تأويل (قَدَرَ) على التضييق يعارض طبيعة وصية الرجل وأمره بنيه بأن يحرقوه ويذروا رماده في البر والبحر ؟ وقد ذكر هذا الاعتراض محمد تقي العثماني فقال : (قال بعض العلماء : إن (قَدَرَ) ههنا بمعنى (ضَيَّقَ) كما في قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ**

---

[1] وجدناه بلفظ (**وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْه**) ، وهو قريب ، ولعله أشار إليه بالمعنى .

[2] قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَاهْتَدُوا بِهَدْيِ عَمَّارٍ وَتَمَسَّكُوا بِعَهْدِ ابْنِ مَسْعُودٍ** » ، أخرجه الترمذي في سننه وقال : « قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ » (سنن الترمذي ، كتاب المناقب / باب مناقب عبد الله بن مسعود ، ط. المكتر (حديث رقم ٤١٧٥ ، ص ١١٤٢) ، ط. أحمد محمد شاكر (٦٧٢/٥)) .

[3] شرح مشكل الآثار للطحاوي (٣٨/٢) .

عَلَيْهِ ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، والمعنى " لئن ضيق الله علي " فليس فيه نفي القدرة ، ولكنه جواب ضعيف عندي ، لأن أمره بتحريقه وسحق رماده في البر والبحر يدل على أنه أراد معنى القدرة ، ويدل على ذلك أيضاً ما ورد في بعض الروايات أنه قال : (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) [١] .

قلت بحول الله تعالى : لا معارضة بإذن الله عز وجل ، أما احتجاجه برواية (**لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ**) فقد ذكرنا وجه تأويله ، وأما احتجاجه بأمره بتحريقه وسحق رماده فقد ذكر العلماء أنه يكون أوصى أولاده بالتحريق لسببين :

أولاً: لعله كان جائزاً في شرعهم لتصحيح التوبة كما صحَّ عن بني إسرائيل قتلهم أنفسهم كنوع من أنواع التوبة ، وهذا عندي مرجوح لأنه لا دليل عليه .

ثانياً : أنه فعل ذلك عقوبة لنفسه على عصيانها ورجاء أن يرحمه الله عز وجل بذلك كآخر ما يستطيع عمله قبل الموت لأن هذه الوصية كانت قريباً من وفاته ، وهذا ما تدل عليه روايات الحديث كلها لأنه فعل ذلك خشية من الله وخوفاً .

قال الشيخ أحمد طارق : (أما اعتراضهم بإنكار توافق معنى القضاء والتضييق بنية أن يحرقوا جلده ويذروا بعضه في البر وبعضه في البحر ، فهذا اعتراض غير فقيه ولا بصير ، ولو نصحوا للعلم والفقه لعلموا أن في الشرائع التي كانت هناك صور مختلفة للتكفير عن السيئات والذنوب والتوبة إلى الله ، قال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ۝ ﴾ (البقرة: ٥٤)

روى النسائي [٢] ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم [٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن** ﴾ ... انظر (ابن كثير: ج١ ، ص٩٢) [٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** ۝ ﴾ (النساء: ٦٦) .

---

[١] تكملة فتح الملهم (١٨/٦) .

[٢] كتاب السنن الكبرى للنسائي ، كتاب التفسير / قوله عز وجل : ﴿ **وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ﴾ (طه: ٤٠) – باب حديث الفتون (١٨٢/١٠) بلفظ : (**إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ، لا يبالي من قتل في ذلك الموطن**) .

[٣] تفسير ابن أبي حاتم (١١٠/١) .

[٤] تفسير ابن كثير (٥٩٢/٥) .

روى ابن أبي حاتم بسنده إلى شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ** ... ﴾ أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وقال : (**لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل**) [1] .

فظاهر الفهم الصحيح للنص أن هذا الرجل فعل ذلك ليكفِّر عما قصَّر في جنب الله ، وعمل الصالحات كما ورد في النص (**لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ**) وفي رواية (**لَمْ يَبْتَئِرْ**) بمعنى لم يدخر عملاً صالحاً يلقى به الله توبة منه إلى الله ، وإنابة إليه ، فغفر الله له ما قصر من عمل الصالحات) [2] .

قلت بحول الله تعالى : وأما اعتراض البعض على أن (قَدَرَ) بمعنى (ضَيَّقَ) لا أصل له في اللغة ، فإنما هو اعتراض جاهل بكلام العرب ، فإن هذا المعنى مروي عن حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعن سعيد بن جبير والحسن البصري من التابعين ، وجمال الدين ابن منظور الأنصاري (٦٣٠-٧١١هـ) ، والفيروز أبادي ، ومرتضى الزبيدي وغيرهم من أئمة اللغة ، واعتمده من العلماء الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) ، والإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) ، والإمام المفسر أبو عبد الله بن فرح القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ) ، والحافظ عماد الدين ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) ، والشيخ بدر الدين الكناني الحموي (٦٣٩-٧٣٣هـ) ، وعضد الدين الإيجي (ت: ٧٥٦هـ) . وقد سبق ذكر أقوالهم في الباب الثالث في تنزيه نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام فراجعه .

وكذا أشار إلى هذا المعنى كثير من العلماء قد ذكرنا أقوالهم آنفاً منهم الإمام المازري (٤٥٣-٥٣٦هـ) ، والحافظ أبو عمر ابن عبد البر القرطبي الأندلسي (٣٦٨-٤٦٣هـ) ، والقاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي المالكي (٤٠٣-٤٩٤هـ) ، والإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) ، والإمام شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) ، والإمام عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) ، والقاضي أبو زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) ، والإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) وغيرهم ، ولا يقول أن (قدر) بمعنى (ضيَّق) لا أصل له في اللغة إلا الجاهل بكلام العرب كما أشار لذلك الإمام اللغوي ابن منظور الأنصاري (٦٣٠-٧١١هـ) ، وبالله تعالى التوفيق .

أقول بحول الله تعالى : بقي اعتراض أخير على هذا التأويل ذكره الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) حيث قال : (فأجابت طائفة قالت : إن (قَدَرَ) هنا بمعنى ضيق كقوله تعالى :

---

[1] تفسير ابن أبي حاتم (٩٩٥/٣) .

[2] الإنذار بأن نقض أصل التوحيد بالجهل ليس من الأعذار .

﴿ **يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ (الرعد: ٢٦) وقوله : ﴿ **وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ** ﴾ (الفجر: ١٦) ، وقوله في ذي النون : ﴿ **إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) ، كل ذلك صائر إلى معنى ضيق .

وهذا القول ضعيف لأن تقدير الكلام عليه (لئن ضيق علي ليعذبني) ، وهذا يقرب من اتحاد الجزاء والشرط ، لأن التضييق ها هنا هو التعذيب ، فيرجع تقدير الكلام إلى (لئن عذبني ليعذبني) وأيضاً إن التضييق لا يعبر به في الكلام الفصيح عما في الآخرة ، وعما بعد الموت . وإنما يستعمل في الدنيا وضيقها وفقرها وبؤسها . وأما الآخرة ففيها العذاب والآلام والنيران الحامية . فما معنى التضييق في الآخرة . على كل حال سياق الكلام يأبى هذا القول) [1] .

قلت بحول الله تعالى : وهذا اعتراض ضعيف ، فلو راجع هذا المعترض رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي أخرجها الإمام أحمد في مسنده والإمام الطحاوي في مشكله لعلم أن قدر في تلك الروايتين من التضييق . وأما قوله التضييق هو التعذيب فليس بشرط ، فإننا قد ذكرنا أن التضييق هو بخصوص الحساب ، أي لئن ضيق علي الحساب وطرق المغفرة ليعذبني ، وقد يكون معناه لئن ضيق الله علي عفوه ورحمته ومغفرته ، فبذلك لا يقرب اتحاد الجزاء والشرط كما اعترض علينا ، وبالله تعالى التوفيق .

أقول بحول الله تعالى : هذا التأويل جامع لروايات الحديث المختلفة بفضل الله عز وجل ، فهذا رجل قد آتاه الله مالاً وولداً ، ورجل أسرف على نفسه من المعاصي فكان ينبش القبور — غفر الله له — وهو رجل لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد ، فلما ذهب منه عمر وأحس أن موته قد اقترب – ولعله كان على فراش الموت – جمع بنيه ، وأفهمهم أنه رجل لم يعمل خيراً قط ، وأنه لهذا السبب إذا قدم على الله عز وجل سيعذبه ، فأمرهم بأن يحرقوا جسده بعد الموت ومن ثم يطحنوه حتى يصير رماداً فيذروه في البر والبحر في يوم عاصف حتى يتفرق أعظم تفرق ، وأن الله عز وجل إذا ضيق عليه الحساب وطرق الخلاص وضيق عليه عفوه ورحمته ومغفرته سيعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين لأنه حسب نفسه أكثر أهل الأرض معصية تعظيماً لتقصيره ولمعاصيه في أيامه الغابرة ، فقال لهم أن يفعلوا وصيته لعل الله عز وجل يرحمه ويغفر له فيغيب عن عذابه سبحانه وتعالى ، ولكي لا يفهموا وصيته خطئًا يقول لبنيه أن الله قادر عليه أن يعذبه ، ومن ثم يؤمل في عفو الله عز وجل ويرجوه فيقول والله لا يضيق الله تعالى علي الحساب ولا طرق الخلاص ولا عفوه ولا رحمته ومغفرته فيعاقبني لأنني عاقبت نفسي في الدنيا على ذنوبي بهذه الوصية ، فيموت ، فيعمل أبناءه بوصيته كما أمرهم أبوهم فهو كان قد أخذ مواثيقهم على ذلك وهددهم أنهم إن لم يفعلوا بوصيته سيعطي الميراث لغيرهم ، ومن ثم ينقلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما سيحدث ، فيخبرنا أن الله عز وجل وهو العالم بمكان ذراته المتفرقة في البر والبحر

---

[1] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤١-١٤٢ .

الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو القادر على كل شيء ، يجمع ذراته ويحييه من جديد ، فيسأل الله عز وجل الرجل – وهو العالم بكل شيء – عن السبب الذي حمله إلى أن أوصى بما أوصى فيجيب الرجل أنه إنما فعل ذلك خشية من الله وخوفاً وفرقاً منه ، بل ويضيف قائلاً (**وأنت أعلم**) أي أنت يا ربي أعلم مني بما أخفيته في نفسي ، وأنت يا ربي أعلم مني بنيتي والسبب الباعث على هذه الوصية ألا وهي خشيتك ومخافتك ، ولا يكذبه الله عز وجل ، بل يتلقاه برحمته وعفوه على ما بدر منه من المعاصي بتلك الخشية والخوف فيتلقاه الله عز وجل بحسن ظن هذا العبد بربه حيث ظن أن الله سبحانه وتعالى لن يضيق عليه الحساب ولا طرق الخلاص ولا عفوه ولا رحمته ومغفرته لأنه عاقب نفسه في الدنيا على هذه المعاصي ، بل يعامله الله عز وجل أكثر من الرحمة وهو أنه يرزقه الله عز وجل مثل ملك أعظم ملك وعشرة أمثاله .

ويبقى سؤال محير علمه عند الله عز وجل ، وهو : هل هذه الوصية والطريقة التي عاقب بها الرجل نفسه كانت من شرعهم لتصحيح التوبة كما ثبت في شرع بني إسرائيل قتلهم أنفسهم لصحة التوبة ؟ أم أن هذه الوصية كانت اجتهاداً من الرجل ليظهر لله عز وجل تذلُّله ، رجاء أن يرحمه ملك الملوك جل جلاله كما أمر الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بأن يضع خده في التراب [1] ليظهر بذلك التذلل لله سبحانه وتعالى رجاء أن يرحمه الله عز وجل ؟

فالجواب : إننا لا نستطيع إلا أن نقف عند النص فنقول أن الرجل اعتبر هذه الوصية وما فُعِل به من التحريق عقوبة له ، والله سبحانه وتعالى أعلم هل هذه العقوبة كانت موجودة في شرعهم ، أم هي محض اجتهاد اجتهد بها الرجل ، ولكن الشيء المؤكد هو أن الرجل عدَّ ما أمر به بنيه من وصيته بأن يحرقوا جسده ويذروا رماده من أعمال الخير ، ولعله كان في عرفهم تكريم الميت بعكس ذلك فهو بهذا التحريق أهان نفسه [2] حسب عرف قومه وعاداتهم وبذلك اعتبرها عقوبة كبيرة في حقه رجا بها عفو الله عز وجل ورحمته وعدَّها من أعمال الخير . فالله تعالى أعلم وأحكم .

---

[1] قال عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما : كان رأس عمر في حجري ، فقال : (ضع خدي على الأرض) ، فوضعته فقال : (ويل لي وويل أمي إن لم يرحمني ربي) . تاريخ الإسلام للذهبي (٣/٢٨٢) .

[2] فلقد ورد عن بعض ملوك النصارى أن هذا الأمر نوع من العقاب ، فقد نقل الحافظ الضياء المقدسي (ت ٦٤٣هـ) في كتابه (النهي عن سب الأصحاب ، ص ٩٦) ، حواراً جرى بين رجل وبين ملك مدينة صور النصراني حيث قال الرجل لملك مدينة صور : (أيُّها الملك ، أليس قد كان لعيسى اثنا عشر حواريًّا ؟) ، فقال له الملك : (بلى) ، فقال له الرجل : (فلو بلغك عن أحد أنه يَسُبُّ أحداً من الحواريين ما كنت تصنع به ؟) فقال له الملك : (**كنتُ أقتله وأُحَرِّقه وأسحقه وأذريه في الهواء**) اهـ ، فقارن بين عقوبة هذا الملك النصراني وبين وصية الرجل المذكور في الحديث لترى العجب ، والله تبارك وتعالى أعلم وأحكم .

فصل : الانتصار لهذا المذهب وبيان أنه موافق لفقه الصحابة والتابعين وأهل الحديث

وإن مما يدل على أن هذا الحديث مؤول على غير القدرة موافقته لفقه الصحابة والتابعين وتابعيهم وأهل الحديث رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

وبيان ذلك أن هذا الحديث قد روي عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم ، وقد كان الصحابة يستشكل عليهم بعض قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيستفسرون منه بأبي هو وأمي . لكن لم يذكر لنا من أحدهم أي استشكال لهذا الحديث ، فلو فهم الصحابة من الحديث أن الرجل هذا كان شاكاً في قدرة الله عز وجل ومع هذا دخل الجنة لاستشكل عليهم الأمر ولسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الأمر .

ومن الملاحظ أن هذا الحديث لم يشكل على الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو أحد رواة هذا الحديث ، وخصصناه بالذكر لأن الإمام مسلم أخرج عنه في صحيحه أنه قَالَ : (اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتُرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ ؟ وَقَالَ الآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا ، وَقَالَ الآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُوَ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ** ﴾ الآيَة)[1] . وهذه الآية التي نزلت فيمن شك في علم الله عز وجل تمامها : ﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞** ﴾ (فصلت: ٢٢-٢٣)

فهذا الصحابي الجليل كغيره من سائر الصحابة وسائر الموحدين الحنفاء يعرف أن هذا الظن بالله عز وجل ظن يردي ويجعل صاحبه من الخاسرين وليس من أهل جنة النعيم ، ومع ذلك فقد روى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو كان فهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل شك في قدرة الله عز وجل وفي علمه سبحانه لاستفسر ولا بد عن هذا الإشكال .

ومن جملة اللطائف أن هذا الصحابي الجليل هو من رواة الحديث الذي ذكر فيه أن هذا الرجل موحد أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده . ومن اللطائف أيضاً أن رواية ابن مسعود رضي الله عنه للحديث لم يرد فيه كلام الرجل المشكل .

وحتى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان الصحابة يستفسر بعضهم من بعض ، فهذا معاوية رضي الله عنه لما أشكل عليه فهم قوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فزع

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، الطبعة السلطانية (١٢١/٨) ، ط. المكتر (ص١٤٣٦ ، رقم:٧٢٠٥) .

إلى حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ، ولو كان عندهم من المسلمات اعتقاد معتقدات تخالف أصل دينهم لوسعه الاجتهاد في الفهم ولاكتفى بأي تفسير يخطر على باله بل لتركها جانبا ولغض عنها الطرف ، لكن ليس هذا هو دأب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فإنهم حملة هذا الدين وحماته ، فلو أشكل على أي منهم فهم هذا الحديث لفزعوا إلى علماء الصحابة لكشف هذا الإشكال .

و هذا إن دل على شيء فإنما يدل على محض الإيمان وصريحه حيث أن استعظام مثل هذا الأمر دليل عليه ، وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلُوهُ : إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ . قَالَ « **وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ** ». قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ « **ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ** » [1] .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) في شرحه لأحاديث الباب : (أما معاني الأحاديث وفقهها : فقوله صلى الله عليه وسلم « **ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ** » و « **مَحْضُ الإِيمَان** » [2] معناه استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان ، فان استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالاً محققاً وانتفت عنه الريبة والشكوك .

و قيل : معناه أن الشيطان إنما يوسوس لمن أيس من إغوائه فينكد عليه بالوسوسة لعجزه عن إغوائه ، و أما الكافر فإنه يأتيه من حيث شاء ولا يقتصر في حقه على الوسوسة بل يتلاعب به كيف أراد . فعلى هذا معنى الحديث : سبب الوسوسة محض الإيمان ، أو الوسوسة علامة محض الإيمان . و هذا القول اختيار القاضي عياض) [3] .

قلت بحول الله تعالى : فاستشكال الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما واستعظامه لذلك هو محض الإيمان وهو ما كان عليه جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

وكذلك فإن الصحابة كانوا يشرحون بعض ما قد يستشكل على الناس من كتاب الله عز وجل ، فهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أوضحت عن الحواريين أنهم مؤمنون وأنهم لم يشكوا في قدرة الله عز وجل ، وكذا أوضح ذلك التابعي الجليل سعيد بن جبير ، كما سبق بيانه ، ولكن لم يصلنا شرح لأي صحابي لكلام الرجل المشكل في الحديث مما يعني أن هذا الحديث لم يشكل عليهم أصلاً .

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ، ط. المكنز (حديث رقم : ٣٥٧ ، ص ٧٩-٨٠) ، الطبعة السلطانية (٨٣/١) .

[2] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ، ط. المكنز (حديث رقم : ٣٥٩ ، ص ٨٠) ، الطبعة السلطانية (٨٣/١) .

[3] صحيح مسلم بشرح النووي (١٥٤/٢) .

وكذا فإن التابعين أخذوا العلم عن الصحابة وتابعي التابعين أخذوا العلم عن التابعين ، ولم يثبت أيضاً لا عن التابعين ولا عن تابعيهم استشكالاً لهذا الحديث ، مع أنه كان يستشكل عليهم كثيراً من الأمور ، كما ثبت عن الرجل الذي استشكل عليه قول الشعبي .

أخرج الإمام عبد الله عن أبيه الإمام أحمد بن حنبل في كتاب الزهد حيث قال : حدثنا أبي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جميع بن عمير عن مجالد عن الشعبي قال : قال رجل عنده : (مكث عليه السلام في بطن الحوت أربعين يوماً) ، فقال الشعبي : (ما مكث إلا أقل من يوم ؛ التقمه ضحى ، فلما كان بعد العصر ، وقاربت الشمس الغروب ، تثاوب الحوت ، فرأى يونس عليه السلام ضوء الشمس ، فقال : « **لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ») . قال : (فنبذه وقد صار كأنه فرخ) . فقال رجل للشعبي : (أتنكر قدرة الله عز وجل ؟) ، قال : (ما أنكر قدرة الله عز وجل ، ولو أراد الله عز وجل أن يجعل في بطنها سوقاً لفعل) [(١)] .

فلو كان هذا الأمر مستشكلاً على التابعين أو تابعيهم لاستفسروا من علمائهم عن هذا الإشـــكال ، مما يدل على أنهم فهموا من كلام الرجل المشكل غير معنى القدرة .

وكذلك فإن هناك روايات عديدة للحديث لم يرد فيها اللفظ المشكل الذي فهم منه أهـــل الزيـــغ والضلال ما فهموا ، مما يدل على أن قول الرجل المشكل في الحديث لا يترتب على نقصه في التحديث والرواية أثراً كبيراً ، ولا يخل بالمعنى ، وبالتالي يدل على أن معنى كلام الرجل الذي استـــشكل علـــى المتأخرين أنه ليس من القدرة في شيء ، فافهم هذا جيداً .

ولو ألقينا نظرة متفحصة فيما إن وجد من الصحابة أو التابعين من شرح هذا الحديث ، وكيف فهموه ، وماذا استفادوا من هذا الحديث ، لوجدنا أن الزهري حدث بهذا الحديث ، وأتبعه بحديث المرأة مع الهرة ، وإليك بيان ذلك :

أخرج الإمام مسلم في صحيحه قال : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ عَبْدٌ أَخْبَرَنَا وقَالَ ابْنُ رَافِعٍ وَاللَّفْظُ لَهُ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : قَالَ لِيَ الزُّهْرِيُّ : أَلاَ أُحَدِّثُكَ بِحَدِيثَيْنِ عَجِيبَيْنِ ؟ قَالَ الزُّهْرِيُّ : أَخْبَرَنِي حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (**أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ بِهِ أَحَدًا**) قَالَ : (**فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ ، فَقَالَ لِلأَرْضِ : أَدِّي مَا أَخَذْتِ ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : خَشْيَتُكَ يَا رَبِّ أَوْ قَالَ مَخَافَتُكَ ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**) [(٢)] .

---

(١) الزهد لأحمد ابن حنبل ، ص ٤٥ .

(٢) صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٨/٩٧-٩٨) ، ط. المكنز (٢/١١٥٩) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٧) .

قَالَ الزُّهْرِيُّ وَحَدَّثَنِي حُمَيْدٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « **دَخَلَت امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً** » قَالَ الزُّهْرِىُّ : (ذَلِكَ لِئَلاَّ يَتَّكِلَ رَجُلٌ وَلاَ يَيْأَسَ رَجُلٌ) [1] .

فالزهري إنما سمى الحديثين بحديثين عجيبين لما في الأول من سعة رحمة الله عز وجل وأنه لا ييئس العبد من رحمة الله عز وجل ، ولما في الحديث الثاني تحذير من عقاب الله عز وجل وأنه لا يتكل أحد على رحمة الله عز وجل ، ولذلك فإن الزهري بعد أن حدث بهذين الحديثين لمعمر قال له : (ذَلِكَ لِئَلاَّ يَتَّكِلَ رَجُلٌ وَلاَ يَيْأَسَ رَجُلٌ) . فالزهري استفاد من الحديث عدم الإياس من رحمة الله عز وجل ، ومعمر فهم الحديث من الزهري جيداً و لم يستشكل عليه الحديث ، و لم يقل للزهري كيف غُفِر لهذا الرجل الذي شك في قدرة الله ؟ وكيف دخل الجنة مع أنه شك في قدرة الله عز وجل ؟ لأنه لم يفهم من الحديث أن (قدر) من القدرة .

ولعل تحديث الزهري بهذين الحديثين بشكل متعاقب إنما استفاده من حميد بن عبد الرحمن ، ولعل حميد بن عبد الرحمن استفاد ذلك من أبي هريرة رضي الله عنه ، فإن التابعين كانوا يتعلمون من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

وأما أهل الحديث أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد أولئك الجبال العوالي والقمم الرواسي الذين حفظ الله عز وجل لنا بهم سنة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، نستطيع أن نعرف فهمهم للحديث من خلال وضعهم الحديث في بابه مما يدل على فقههم لذلك الحديث . فإننا نرى إجماعاً عند أئمة الحديث على فقه هذا الحديث ، فهم استفادوا منه أنه حديث في التوبة وفضيلة الخوف من الله عز وجل وسعة رحمة الله عز وجل .

فالإمام البخاري أخرجه في كتاب بدء الخلق في باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، وفي كتاب أحاديث الأنبياء ، وفي كتاب الرقاق في باب الخوف من الله ، والإمام مسلم أخرجه في كتاب التوبة في باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ، والإمام النسائي أخرجه في كتاب الجنائز في باب أرواح المؤمنين ، والإمام ابن ماجة أخرجه في كتاب الزهد في باب ذكر التوبة ، والإمام الدارمي أخرجه في كتاب الرقاق.

فإن اعترض معترض فقال : فالإمام البخاري أخرجه أيضاً في كتاب التوحيد مما يدل على علاقة الحديث بالتوحيد وربما فهم من الحديث عكس ما تقول ؟

فنقول له بحول الله تعالى : معاذ الله أن يفهم الإمام البخاري كما فهمه أهل الزيغ والضلال ، فالإمام البخاري ذكر روايات هذا الحديث متفرقة في ثنايا الجامع الصحيح ، و لم يورده في كتاب التوحيد

---

[1] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٨/٩٧-٩٨) ، ط. المكنز (٢/١١٥٩) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٨) .

لوحده ، وأما سبب إيراده هذا الحديث في كتاب التوحيد ، فهو إنما أورده في باب قـول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ** ﴾ (الفتح: ١٥) ، فما علاقة الحديث يا ترى بهذه الآية ؟

الجواب : قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (« قوله : باب قول الله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ** ﴾ (الفتح: ١٥) » كذا للجميع زاد أبو ذر الآية ، قال ابن بطال : أراد بهذه الترجمة وأحاديثها ما أراد في الأبواب قبلها أن كلام الله تعالى صفة قائمة به ، وأنه لم يزل متكلماً ولا يزال ، ثم أخذ في ذكر سبب نزول الآية ، والذي يظهر أن غرضه أن كلام الله لا يختص بالقرآن ، فإنه ليس نوعاً واحداً كما تقدم نقله عمن قاله ، وأنه وإن كان غير مخلوق وهو صفة قائمة به ، فإنه يلقيه على من يشاء من عباده بحسب حاجتهم في الأحكام الشرعية وغيرها من مصالحهم ، **وأحاديث الباب كالمصرحة بهذا المراد**) [(١)] .

قلت بحول الله تعالى : إذاً فمراد الإمام البخاري الاستدلال بهذا الحديث على صفة الكلام لله عز وجل ، وأن الله عز وجل سيكلم هذا الرجل بعد أن يجمعه ويسأله عن السبب الباعث له على هـذا الفعل ، وأن كلام الله لا يختص بالقرآن الكريم ، وليس كما توهمه أهل الزيغ والضلال .

ومن البديع أن الإمام النسائي أورد قبل حديث الرجل المسرف على نفسه الحديث القدسي الآتي : أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ اللَّيْثِ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ ابْنِ عَجْلاَنَ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ الأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ** : (**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي ، وَشَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِي ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ إِنِّي لاَ أُعِيدُهُ كَمَا بَدَأْتُهُ وَلَيْسَ آخرُ الْخَلْقِ بِأَعَزَّ عَلَيَّ مِنْ أَوَّلِه ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا اللَّهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ**) [(٢)] .

أقول بحول الله تعالى : فتأمل عبقرية هذا الإمام ، كيف وكأنه يريد أن يشير إلى أن الشاك في قدرة الله عز وجل ليس بمؤمن ، لأن مصنف الحديث وظيفته جمع الأحاديث وليس شرحها ، فهو أورد قبل هذا الحديث حديثاً كأنه يشير للقارئ ويقول له (إياك أن تفهم من الحديث أن الرجل شك في قدرة الله عز وجل لأن آخر الخلق ليس بأعز على الله عز وجل من أوله) ، وبالله التوفيق .

فإن قلت : إن كل ما سبق مما ذكرته يدل على أن الصحابة والتابعين ومن تبعهم فهموا مـن قـول الرجل في الحديث (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) على غير القدرة ، ولكن هل لك أن تعرف فيمـا إذا فهمـوا قول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) على معنى تقدير الإعادة أو على معنى التضييق وتقدير العذاب ؟

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٤٧٥/١٣) .

(٢) سنن النسائي، ط. المكتر : ص ٤٠٨ ، حديث رقم ٢٠٧٨ ، صحيح سنن النسائي باختصار السند للألباني : (٤٤٧/٢) حديث رقم ١٩٦٥ .

قلت بحول الله تعالى : يمكننا أن نستدل على أن الصحابة فهموا قول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) على معنى التضييق أو تقدير العذاب (الذي هو بنفس معنى التضييق في المآل) بعدة أمور :

الأول : إن تأويل قول الرجل على معنى تقدير الإعادة له علل ، ولا يرقى إلى الجمع بين الروايات ، ولكن تأويل قول الرجل على معنى التضييق أو تقدير العذاب (الذي هو بنفس معنى التضييق في المآل) ، هو جامع لجميع روايات الحديث بفضل الله عز وجل لذا فهو الأشبه بفهم الصحابة والتابعين وتابعيهم .

الثاني : ومما يدل على أن المقصود من (قدر) في الحديث هو التضييق أو تقدير العذاب أن هناك روايات لم يرد فيها اللفظ المشكل الذي فهم منه أهل الزيغ والضلال ما فهموا ، مما يدل على أن معنى كلام الرجل المشكل في الحديث لا يترتب على نقصه في التحديث أثراً كبيراً ، ولا يخل بالمعنى العام للحديث ، وبالتالي فلو فسر هذا اللفظ المشكل على معنى تقدير الإعادة لأعطى معنى زائداً مختلفاً نوعاً ما عن الروايات الأخرى التي لم يرد فيها قول الرجل المشكل ، ولكن لو فُسِّر على معنى التضييق أو تقدير العذاب لم يضف إلى الحديث إلا معنى زائداً موافقاً لعموم قصة الرجل ، فتأمل .

الثالث : إن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ، أول إشكالاً شبيها بقول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) على معنى التضييق . فمعاوية رضي الله عنه لما أشكل عليه قول الله عز وجل : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) فزع إلى الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما وسأله عن معنى هذه الآية حيث قال له : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك . قال : وما هي يا معاوية ؟ فقرأ الآية فقال : أو يظن نبي الله أن لا يُقْدَرَ عليه ؟ قال : (هذا من القَدْرْ لا من القدرة) [(١)] .

والقدر هو التضييق ، وإشكال معاوية رضي الله عنه ظاهر الشبه بالإشكال الحاصل في قول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) ، وقد تبع ابن عباس في هذا التأويل الحسن البصري وسعيد بن جبير من التابعين ، ومن هذا ممكن أن نستأنس أن تأويل قول الرجل (قَدَرَ) في قول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) أنه على التضييق أشبه بفهم الصحابة والتابعين للحديث وتأويلهم له . والله تعالى أعلم وأحكم .

[(١)] روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما جمع من أهل التفسير منهم الإمام النسفي وفخر الدين الرازي في تفسيرهما لقوله تعالى : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٨)

المذهب الثالث : أن (قَدَرَ) في قول الرجل من القدرة بالمعنى المجازي أي بمعنى الفعل لا القدرة على الفعل

وهذا التأويل شبيه بالمآل مع تأويل من أوَّل (قَدَرَ) أنه من تقدير الإعادة ولكن مخالف في الطريقة . وخلاصة هذا المذهب أن العرب قد تستخدم أفعال القدرة في بعض السياقات (وليس مطلقاً) [(١)] للتدليل على الفعل ، مثل قول الواحد لصاحبه هل تقدر أن تأتي معي بمعنى هل تأتي معي ، وهذا الاستخدام شائع في العرف حتى في يومنا هذا .

وقد سبق تأويل العلماء لقول الله تعالى في وصف حال يونس عليه السلام ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بمعنى (فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه) ، وقد نقلنا هذا التأويل عن شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) ، وشهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) ، والقاضي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) ، والنيسابوري (ت: ٢٨٦هـ) ، والقاضي أبي السعود الحنفي (٩٠٠-٩٨٢هـ) ، وأبو الحسن السبتي الأموي ، وفخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) ، وابن عادل الدمشقي (ت: بعد ٨٨٠هـ) .

وكذلك ذكر العلماء في تأويل قول الحواريين لما قالوا لعيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ﴿ **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ** ﴾ (المائدة: ١١٢) قالوا أن قولهم هذا بمعنى هل يفعل ، ولقد كنا نقلنا هذا التأويل عن جمع من أهل العلم منهم الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) ، ومحيي السنة أبو الحسين البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) ، وأبو عبد الله ابن فرح القرطبي الأنصاري (ت: ٦٧١هـ) ، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) ، والحافظ شيخ الإسلام زكريا الأنصاري الشافعي (٨٢٣-٩٢٦هـ) ، وشهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) ، وأبو حيان الأندلسي (٦٥٤-٧٤٥هـ) ، وابن عطية الغرناطي (٤٤١-٥١٨هـ) ، وأبو الفرج ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) ، وأبو البقاء الحسيني الكفومي (ت: ١٠٩٤هـ) ، وشهاب الدين الخفاجي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) ، وسليمان بن عمر العجيلي الشافعي (٩٧٧-١٠٦٩هـ) ، وجمال الدين أبو محمد الأنصاري ، وجمال الدين القاسمي (١٢٨٣-١٣٣٢هـ) .

فعلى ضوء ما سبق أوَّل أصحاب هذا المذهب قول الرجل المسرف على نفسه في الحديث (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي**) بمعنى (لئن أعمل الله قدرته فيَّ ليعذبني) أي معناه (لئن أعادني الله عز وجل ليعذبني) .

[(١)] لذا فانتبه جيداً على أن تأويل أفعال القدرة بمعنى الفعل مجازاً ليست على الإطلاق ، فلكل حادث حديث ، ولكل مقام مقال ، ولكل سياق معنى ، فافهم هذا جيداً .

قلت بحول الله تعالى : ومع هذا فإنني أرى مناسبة هذا التأويل لحقيقة كلام الرجل في الحديث بعيداً ، بالإضافة إلى أن هذا المذهب له نفس علل من تأول قول الرجل أنه بمعنى تقدير الإعادة ، والله تعالى أعلم وأحكم .

وقد أشار إلى هذا التأويل الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) حيث قال : (والجواب الصحيح أن الكلام فيه شيء من المجاز ، وأنه قد وضع اللازم فيه موضع الملزوم ، أو وضع السبب موضع الفعل ، لأن الفعل تلازمه القدرة ، ولا يمكن أن يكون فعل بلا قدرة . فإذا كان فعل علمنا أن هناك قدرة . وإذا علمنا أن هناك قدرة علمنا أنه يجوز أن يكون فعل ، وإذا امتنعت القدرة امتنع الفعل ، **وإذا امتنع الفعل فليس بلازم أن تمتنع القدرة** . ومثل هذا التوسع في الكلام مألوف معروف عند العرب ، شائع في مخاطباتهم ، بل هو موجود في كلام الناس اليوم ، فهم يقولون : هل تقدر أن تذهب معي ؟ وهل تقدر أن تذهب إلى مكان كذا ؟ وأن تفعل كذا ؟ وهل تقدر أن تقول لفلان وأن تكلم فلاناً ؟ ويقولون : إنك لا تقدر أن تقول لي مقالة كذا ، ولا تقدر أن تكتب في موضوع كذا . وأمثال هذا الكلام الشائع . يقولون ذلك لمن يستطيع أن يفعل وأن يعمل ، وهم يريدون بالقدرة هنا الفعل ، وإنما عبروا بها عنه لأنها لازمة له وسابقة ولا يكون إلا بها . فكذلك معنى قوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي**) أي لئن جمعني وحاسبني ليعذبني . وقد جاء في القرآن آية مثل هذا الحديث تماماً ، قال الله في آخر سورة المائدة : ﴿ **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ (المائدة: ١١٢) وما كان الحواريون شاكين في أن الله يستطيع أن يفعل ذلك ، وإنما أرادوا بـ (يستطيع) يفعل ، ولا خلاف .

وقد حسب هذا الرجل أنه إذا فرق نفسه ذرات في القفار والبحار كان أهون على الله من أن يجمعه وأن يحاسبه ، وكان أقل في نظر نفسه من أن يعبأ الله من أن يجمعه وأن يحاسبه ، وكان أقل في نظر نفسه من أن يعبأ الله بجمع تلك الأجزاء الحقيرة الضائعة المبعثرة . هذا ما كان حسب ، وما كان قدر في عقله . ولا يمكن أن يكون شاكاً في قدرة الله ، والحديث يدل على أنه مؤمن به خائف منه ومن عقابه ، مؤمن بعذابه وحسابه ، حتى إن القصة يتبادر منها أنه كان ملياً بسيطاً ليس بالفيلسوف الباحث . ومثل هذا لا يكاد يصح أن يكون منكراً لقدرة الله . هذا تحقيق كلمة القدرة هنا)[1] .

وقد ذكر هذا التأويل محمد بدر عالم الميرتهي حيث قال : (فالجواب على ما ذكره الشيخ[2] في رسالته "إكفار الملحدين" ص : ٤٨ ما نصه : (قلت : والمراد بقوله : « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي** » لئن وافاني وأنا جميع ، وأدركني قبل التوبة ، وذلك بأن أراد ذلك وقضاه علي ، لا التردد في نفس

---

[1] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٣-١٤٤ .

[2] يقصد المحدث محمد أنور شاه الكشميري المتوفي سنة ١٣٥٢هـ .

القدرة ، فقد ذم الله تعالى شأنه ، ونعى على اليهود في قوله : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ (الزمر: ٦٧) إلى قوله : ﴿ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (الزمر: ٦٧) ففي بعض الروايات أنها نزلت في ذلك ، ولعل الإشراك على هذا ، هو إحصاء قدرة الله تعالى بمكيال عقولهم السقيمة ، وقياسها بما في أذهانهم وخيالهم) . اهـ .

ومحصل جوابه على فهمته أن الرجل ظن أنه لما يذرى نصفه في الهواء ، ونصفه في قاموس الماء ، فالله تعالى ، وإن كان قادراً بجمعه ، ولكنه يحتاج [1] إلى اهتمام بشأنه ، فلعله لا يهتم له بذلك ، فالتردد في إجراء قدرته لأجله ، لا في نفس القدرة ، وكثيراً من الأشياء تكون تحت قدرتك ، ثم لا تفعله لمصالح تسنح لك ، أو لعدم المبالاة بها ، كذلك يمكن أن لا يبالي الله له مبالاة ، فلا يجمعه من الهواء والماء ، فيبقى كذلك منتشر الأجزاء ، غير محاسب ، ولا مناقش ، فهذا نحو حيلة يحتال بها الإنسان عند الإياس ، وشدة الخوف ، على نحو قولهم ، الغريق يتشبث بكل حشيش ، فافهم ، وتشكر ، فإن الناس قد تحيروا في جوابه ، ولم يأتوا بما يعلق بالقلب ؛ وبعبارة أخرى : ليس المراد من القدرة ما هي عند المتكلمين ، بل المراد منها ما عند أهل العرف ، فيقولون : هل تقدر على ذلك ؟ أي تريد أن تفعله ، فإرادة الفعل هي التي يعنون بالقدرة عليه في مجارى محاوراتهم ، وإذن معناه لئن أراد الله أن يحشرني ، وأنا جميع ، والله تعالى أعلم) [2] .

---

[1] أي أن الرجل يحتاج أن يهتم الله بشأنه .

[2] فيض الباري على صحيح البخاري مع حاشية البدر الساري إلى فيض الباري (٥٣٣/٤) .

المذهب الرابع : أن هذا من باب مزج الشك باليقين

لم أجد أحداً من العلماء تبنى هذه الطريقة في التأويل ، وإنما حكاه العلماء عن غيرهم إشارة إلى وجود من ذهب هذا المذهب دون ذكرهم لأسمائهم ، فقالوا أن الرجل لم يشك في قدرة الله تعالى ، وإنما استخدم أسلوباً من الأساليب الشائعة في لغة العرب يسميه البعض مزج الشك باليقين ، ومعناه إيهام السامع بالشك للوصول إلى اليقين ، مع كونه في الحقيقة موقنا ليس بشاك .

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) حاكياً هذا المذهب في التأويل : (وَقَالَتْ طَائِفَة : هَذَا مِنْ مَجَاز كَلَام الْعَرَب ، وَبَدِيع اِسْتِعْمَالهَا ، يُسَمُّونَهُ مَزْج الشَّكّ بِالْيَقِينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ۝ ﴾ (سبأ: ٢٤) فَصُورَته صُورَة شَكّ ، وَالْمُرَاد بِهِ الْيَقِين) [1] .

وحكا هذا المذهب الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) حيث قال : (وثانيها : أن هذا جار على نحو ما قد جرى في كلام العرب البليغ مما يسميه أهل النقد : تَجَاهُلِ العَارِف ، وسماه ابن المعتز : مزج الشك باليقين ، هو نحو قوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ۝ ﴾ (طه: ٤٤) ، وقوله : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ۝ ﴾ (سبأ: ٢٤) ، وكقول الشاعر :

أَيَا ظَبْيَةَ الوَعْسَاءِ بين جَلاَجِلٍ ... وَبَيْنَ النَّقَا أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

وقد علم أنها هي ، ومثله كثير) [2] .

وحكاه أيضاً القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) حيث قال : (وقيل : بل هذا نوع من مجاز كلام العرب وبديع بلاغتها ، سمي عند أهل النقد بتجاهل العارف ، وسماه ابن المعتز في (كتاب البديع) : مزج الشك باليقين ، كقوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ۝ ﴾ (طه: ٤٤) ، وقوله : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ۝ ﴾ (سبأ: ٢٤) ، وقول الشاعر :

أأنتِ أَمْ أُمُّ سَالِمِ

فصورته صورة الشك ، والمراد التحقيق) [3] .

وحكاه أيضاً القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) حيث قال : (وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَذَكَرُوا لَهُ تَأْوِيلَاتٍ : .... (الثَّانِي) أَنَّ هَذَا مِنْ مَجَازِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَبَدِيعِ اسْتِعْمَالِهَا يُسَمُّونَهُ

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (٧١/١٧) .

[2] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧٧/٧) .

[3] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٥/٨) .

مَزْجُ الشَّكِّ بِالْيَقِينِ وَسَمَّاهُ بَعْضُهُمْ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** ۝ ﴾ (سبأ: ٢٤) فَصُورَتُهُ صُورَةُ شَكٍّ وَالْمُرَادُ بِهِ الْيَقِينُ) [١] .

فإن قلت : فما وجه المناسبة بين أسلوب مزج الشك باليقين مع قول الرجل ؟

قلت : لم أدر وجه المناسبة بالضبط ، إلا إذا قلنا أن ظاهره يوهم الشك والمراد به اليقين ، بمعنى أن قول الرجل « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي** » يوهم الشك ، والمراد به اليقين أي المراد به (حين يقدر الله علي سيعذبني) على ما سيأتي بيانه في المذهب الخامس على تأويل (إن) بمعنى (إذا) الزمانية ، والله تعالى أعلم وأحكم .

---

[١] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٦٧-٢٦٨) .

المذهب الخامس : أن (إنْ) في قول الرجل (لئن قدر الله علي) ليست شرطية بل بمعنى (إذا) الزمانية

قال الإمام النحوي اللغوي أبي محمد ابن السيد البطليوسي (٤٤٤-٥٢١هـ) : (وقد يجوز أن يكون قوله (**فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) من القدرة على الشيء ، فإن قيل : كيف يصح هذا ودخول الشرط عليه قد جعله من حيز الممكن الذي يجوز أن يكون ويجوز ألا يكون ، وهذه خاصة الشرط ألا ترى أنك إذا قلت : إن جاءني زيد أكرمته ، فممكن أن يقع ذلك وممكن ألا يقع ، وهذا شك محض في قدرة الله تعالى .

فالجواب : أن العرب قد تستعمل (إن) التي للشرط بمعنى (إذا) ، كما تستعمل (إذا) بمعنى (إن) و(إذا) تقع على الشيء الذي لا يشك في كونه ، كقولك إذا كان الليل فأتني ، وكون الليل لا بد منه ، وكقوله تعالى : ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ** ﴾ (الإنفطار: ١) ، فمعناه على هذا : (فوالله إذا قدر الله علي ليعذبني عذابا شديداً) . وإنما جاز وقوع (إن) التي للشرط موقع (إذا) الزمانية لأن كل واحد منهما يحتاج إلى جواب ، والشيئان إذا تضارعا جاز أن يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ، فمما وقعت فيه (إن) موقع (إذا) قوله تعالى : ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ (الفتح: ٢٧)، وقول النبي عليه السلام حين وقف على القبور : « **إِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ** » (الحديث) [١] يريد (إذا شاء الله) ، ومنه قول الشاعر :

فَإِلاَّ يَكُنْ جِسْمِي طَوِيلاً فَإِنَّنِي ... لَهُ بْالْفِعَالِ الصَّالِحَاتِ وَصُولُ

معناه فإذا لم يكن جسمي طويلاً فإنني أطوِّله بالأفعال الحسان ، ولا يصح الشرط ههنا لأن قصر جسمه شيء قد كان وقع والشرط ههنا محال . ومثله قول الآخر :

فَإِنْ أَكُ قَدْ فَارَقْتُ نَجْداً وَأَهْلَهُ ... فَمَا عَهْدُ نَجْدٍ عِنْدَنَا بِذَمِيمُ

وأما وقوع (إذا) بمعنى (إن) فكقول أوس بن حجر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا ... أَصَبْتَ حَلِيمـــاً أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ

والإعراض عن الخنا ممكن أن يكون ، وممكن ألا يكون فليس هذا من مواضع (إذا) ، وإنما هو من مواضع (إن)) [٢] .

---

[١] أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : « **وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لاَحِقُونَ** » ، كتاب الجنائز / باب مَا يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقُبُورِ وَالدُّعَاءِ لأَهْلِهَا ، ط. المكنز (حديث رقم: ٢٢٩٩ ، ص ٤٥٤) ، الطبعة السلطانية (٦٣/٣)

[٢] الإنصاف للبطليوسي ، ص ١٠٢-١٠٤ .

وقال الإمام عبد اللطيف الحنفي المشهور بابن الْمَلَك (ت: ٨٠١هـ) : (وأقول : الأقرب أن قدر من القدرة وأنه لم يرد به الشك بل أراد تحقيق كونه معذباً كما يقال إن كان لي صديق فهو فلان لم يرد به التردد في ثبوت الصديق له بل أراد تحقيق كمال صداقة فلان) [1] .

أقول بحول الله تعالى : وهذا تأويل حسن ، لكنه لا ينهض إلى تأويل رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقول الرجل فيها (**فَوَاللَّه لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا**) كما في رواية أحمد ، وقول الرجل (**فَوَاَللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا فَيُعَاقِبَنِي إِذْ عَاقَبْت نَفْسِي فِي الدُّنْيَا عَلَيْهِ**) كما في رواية الإمام الطحاوي ، إذ ليس فيها (إن) فيقال هي زمانية وليست شرطية ، وبالله تعالى التوفيق .

---

[1] مبارق الأزهار شرح مشارق الأنوار (٣/٣٩) .

الفصل السادس :
بيان مذهب من قال أن هذا رجل كافر ومع هذا دخل الجنة

لقد ذكرنا سابقاً الأدلة على أن هذا رجل موحد ، ورواية الإمام أحمد الصريحة والتي ذكر فيها أن الرجل كان موحداً تكفي في الفصل في أمره ، والظاهر أن هذه الرواية لم تصل أصحاب هذا المذهب ، أو وصلتهم ولم يصححوها ، والأغلب أنها لم تصلهم أو لم يقفوا عليها ، لذا فلم يروا أنفسهم مضطرين إلى تأويل الكلام المشكل وحمله على وجه لا يناقض الشك في قدرة الله وفي علمه سبحانه ، فحكموا على هذا الرجل بأنه رجل كافر . لكن واجههم إشكال وهو : كيف أن هذا الكافر دخل الجنة . فأجابوا عن ذلك بإجابتين :

الإجابة الأولى : أن هذا الرجل من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة .

اعلم بداية أنه قد اتفق العلماء أن أصحاب الفترات الذين لم تبلغهم الرسالة ولم يحققوا التوحيد أنهم مشركون ولا يمكن أن يكونوا مسلمين وإن كانوا جهالاً ، لكن اختلف أهل العلم في حكمهم في الآخرة ، هل هم معذبين على شركهم أم لا ، على قولين للعلماء .

القول الأول : أنهم يمتحنون يوم القيامة واستدلوا عليه بحديث ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واستدلوا أيضاً بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ۝ ﴾ (الإسراء: ١٥)

القول الثاني : أنهم معذبين مطلقاً ، وضعفوا الحديث السابق ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ۝ ﴾ (الإسراء: ١٥) على العذاب في الدنيا .

وليس هذا موضع تحرير هذا النزاع ، إلا أن قياس هذا الرجل في الحديث على أهل الفترة مما يحتاج إلى دليل ، فإنه لم يرد في الخبر أنه امتحن يوم القيامة . فإن هذا التأويل من أبعد التأويلات ، لكن لجأ إليها من لجأ عندما لم يجد مخرجاً في تأويل قول الرجل على غير الشك في قدرة الله عز وجل ، وأظنه لم ينظر في علل هذا التأويل الذي ذهب إليه . وإليك أقوال العلماء الذين ذهبوا إلى هذا التأويل أو نقلوه عن غيرهم .

قال الإمام جلال الدين السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) : (قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ فِي جَامِع الْمَسَانيد : فَإِنْ قِيلَ هَذَا الَّذِي مَا عَمِلَ خَيْرًا قَطّ كَافِر فَكَيْف يُغْفَر لَهُ : فَالْجَوَاب : قَالَ اِبْن عُقَيْل : هَذَا رَجُل لَمْ تَبْلُغهُ الدَّعْوَة) [1] .

---

[1] سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٤/٤١٩) .

قال نور الدين السندي (ت. ١١٣٨هـ) في حاشيته على سنن النسائي : (وَأَجَابَ بَعْضٌ بِأَنَّ هَذَا رَجُلٌ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ وَهَذَا بَعِيدٌ وَاَللَّه تَعَالَى أَعْلَمُ) [١] .

الإجابة الثانية : أن هذا الرجل لعله كان في شرعهم جواز المغفرة للكافر

قال الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) : (وَقَالَتْ طَائِفَة : يَجُوز أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ شَرْعهمْ فِيهِ جَوَاز الْعَفْو عَنْ الْكَافِر ، بِخِلَاف شَرْعنَا ، وَذَلِكَ مِنْ مُجَوَّزَات الْعُقُول عِنْد أَهْل السُّنَّة ، وَإِنَّمَا مَنَعْنَاهُ فِي شَرْعنَا بِالشَّرْعِ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨) وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأَدِلَّة ، وَاَللَّه أَعْلَم) [٢] .

قال الإمام بدر الدين العيني (٧٦٢-٨٥٥هـ) : (وقيل : إن معنى قوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) [٣] القدرة التي هي (خلاف) [٤] العجز وإنه كان عنده أنه إذا أحرق وذري أعجز ربه عن إحيائه فهو على أنه غفر له جهله بالقدرة لأنه لم يكن تقدم في ذلك الزمان أنه لا يغفر الشرك به ، وليس في العقل دليل على أن ذلك غير جائز في حكمة الله تعالى ، وإنما نقول لا يجوز أن يغفر الشرك بعد نزول قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨) ، وأما جواز غفران الله ذلك فلفضله الأعم وغناه الأتم ، لأنه لا يضره كفر كافر ، ولا ينفعه إيمان مؤمن) [٥] ، وأشار إلى هذا المذهب إشارة مختصرة في موضعين آخرين في نفس الكتاب فقال : (أو كان في شرعهم جواز العفو عن الكافر) [٦] .

ونقل الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) هذا المذهب في شرحه لصحيح البخاري حيث قال : (وقال آخرون في معنى قوله : « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » : معناه القدرة التي هي خلاف العجز ، وكان عنده أنه إذا أحرق وذري في البر والبحر أعجز ربه عن إحيائه ، قالوا : وإنما غفر له جهله بالقدرة ؛ لأنه لم يكن تقدم من الله تعالى في ذلك الزمان بأنه لا يغفر الشرك به ، وليس في العقل دليل على أن ذلك غير جائز في حكمة الله ؛ بل الدليل فيه على أنه ذو الفضل ، والإحسان ، والعفو عن أهل الآثام ، وإنما نقول : لا يجوز أن يغفر الشرك بعد قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ**

---

[١] سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٤/٤١٨) .

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٧٢) .

[٣] اللفظ الثابت : (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) باللام .

[٤] في الأصل المطبوع بياض ، ولكن به يستقيم الكلام ، فلعلها سقطت من الناسخ أو من المحقق .

[٥] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٢٣/٧٤) .

[٦] عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ، (١٦/٦٢) و (٢٥/١٦٢) .

به ﴾ (النساء: ٤٨) ، فأما جواز غفران الله ذلك لولا الخبر في كتابه فهو كان الأولى بفضله ، والأشبه بإحسانه ، لأنه لا يضره كفر كافر ، ولا ينفعه إيمان مؤمن) [(١)] .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وقيل : قد يحتمل أن زمنهم كان حينئذ وشرعهم فيه جواز عفو الله عن الكافر ، بخلاف شرعنا ؛ إذ ذلك من مجوزات العقول عن أهل الحق ، وإنما منعنا ذلك بالشرع ، وقوله : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ** ... ﴾ الآية (النساء:٤٨)) [(٢)] .

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (والثاني : أنه جهل صفة من صفات الله عز وجل فكفر بذلك ، إلا أن الكفر قد كان يغفر في ذلك الزمان إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨)) [(٣)] .

ونقل هذا المذهب الإمام شمس الدين الكرماني (٧١٧-٧٨٦هـ) قائلاً : (أو كان في شرعهم جواز العفو عن الكافر) [(٤)].

وقد ضعَّف الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) هذا التأويل حيث قال : (وَأَبْعَد الأَقْوَال قَوْل مَنْ قَالَ إِنَّهُ كَانَ فِي شَرْعهمْ جَوَاز الْمَغْفِرَة لِلْكَافِرِ) [(٥)] .

وقد نقل الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) هذا القول وردَّ عليه حيث قال : (وقالت طائفة ثالثة : يجوز أن تكون شريعة أولئك القوم أن الكافر يغفر له ، فإن هذا جائز عقلاً ، فلا يبعد أن يكون ذلك شرعاً مع القطع بأن ذلك لا يصح في شرعنا ، ومن شك فيه فهو كافر .

قلت : وهذا يتطلب أيضاً أحاديث الشفاعة المتقدمة في الإيمان ، فإنها تقتضي أن أهل التوحيد المعذَّبين في النار إذا شفع فيهم أنبياؤهم ، وشفع نبينا صلى الله عليه وسلم حتى لا يبقى أحد من أمته في النار ، قال حينئذ نبينا : « **يَا رَبِّ ! ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** » ، فيقول الله له : ﴿ **لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ** ﴾ ، فحينئذ يقول الله : ﴿ **وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي ! لأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله** ﴾ [(٦)] ، وعمومات القرآن تدل على أن من مات كافراً ، كائناً من كان ، لا يخرج من النار ، ولا تناله شفاعة شافع) [(١)] .

[(١)] شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٩٢/١٠) .

[(٢)] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٦/٨) .

[(٣)] كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١٥٧/٣) .

[(٤)] صحيح البخاري بشرح الكرماني ، (١٠٨/١٤) و (١٩٣/٢٥) .

[(٥)] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[(٦)] لعله رواه بالمعنى ، فقد أخرج هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه بلفظ : « **فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، فَيَقُولُ : ﴿ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾** » . (صحيح البخاري ، كتاب التوحيد / باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، ط. المكنز (حديث رقم : ٧٥١٠ ، ص ٢٠٣٢) ، الطبعة السلطانية (١٤٧/٩) . وأخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : « **فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، قَالَ : ﴿ لَيْسَ ذَاكَ لَكَ – أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ – ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي لأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ**

وحكا الإمام النووي (٦٣١-٦٧٦هـ) هذا المذهب عن طائفة لم يحددها فقال : (وقالت طائفة : يجوز أنه كان في زمن شرعهم فيه جواز العفو عن الكافر بخلاف شرعنا . وذلك من مجوزات العقول عند أهل السنة وإنما منعناه في شرعنا بالشرع وهو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨) وغير ذلك من الأدلة والله أعلم) [٢] .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَذَكَرُوا لَهُ تَأْوِيلاَت : .... (الْخَامِسُ) أَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ مُتَمَسِّكًا بِشَرِيعَةٍ فِيهَا جَوَازُ الْعَفْوِ عَنْ الْكَافِرِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي شَرْعِنَا فَإِنَّهُ مِنْ مُجَوِّزَات الْعُقُولِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّة ، وَإِنَّمَا مَنَعْنَاهُ فِي شَرْعِنَا بِالشَّرْعِ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨)) [٣] .

وكذلك رد على هذا المذهب في التأويل الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) حيث قال : (وقالت طائفة : كان جائزاً في الشرائع الأول أن يغفر لمن كفر . وهذا الرجل الذي شك في قدرة الله كان من بني إسرائيل . وهذا قول لا يلتفت إليه) [٤] .

أقول بحول الله تعالى : واعلم أن من ذهب هذا التأويل يدل بجلاء على عقيدته الراسخة أن الشاك في قدرة الله أو في علمه كافر ، وإن كان قد أخطأ فيما ذهب إليه ، ولم يصب في اجتهاده ، لأن عمومات القرآن الكريم وأحاديث الشفاعة ترده ، ولعل هؤلاء العلماء الذين نقلوه لم يتفطنوا لهذا الأمر ، ولما تفطن الإمام أبو العباس القرطبي لهذا الأمر رد عليه ووضح مناقضة هذا المذهب لحديث الشفاعة مناقضة صريحة .

واعلم أن من ذهب هذا المذهب في التأويل احتج بأننا عرفنا دخول الكافر في النار بقولـه تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ (النساء: ٤٨) ، وقالوا يحتمل أنه لم يرد في شرعهم هذه الآية ، ولكن هذا الاحتمال باطل من وجهين :

الأول : عمومات القرآن الكريم ، وأحاديث الشفاعة .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (الزمر: ٦٥) .

ولعل من ذهب هذا المذهب في التأويل أو سوَّغه لم يتفطن لهذه الأدلة ، والله تعالى أعلم وأحكم .

إِلاَّ اللَّهُ ﴾ » . (صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة ، ط. المكنز (حديث رقم: ٥٠٠ ، ص ١١٩) ، الطبعة السلطانية (١/١٢٥)) .

[١] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٦) .

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٧٢) .

[٣] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٦٧-٢٦٨) .

[٤] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٢ .

الفصل السابع :
بيان مذاهب أهل الزيغ والضلال في تأويل هذا الحديث

إن أهل الزيغ والضلال اتبعوا ما ورد من مشكل في بعض روايات هذا الحديث وزعموا أن هذا الرجل شك في قدرة الله تعالى وفي علمه عز وجل ، وأنه مع هذا الشك كان مؤمناً موحداً . فهم كعادة أسلافهم من أهل الزيغ والضلال اتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة والإضلال وتحريف التوحيد الذي هو أصل الأصول .

وهذا الرجل لا يمكن أن يكون شاكاً في علم الله عز وجل بمكان تواجد ذراته المتفرقة في البر والبحر ، ولا يمكن أن يكون شاكاً كذلك في قدرة الله عز وجل على جمع ذراته المتفرقة في البر والبحر ، وإحيائه بعد أن صار رماداً متفرقاً في البر والبحر ، وذلك للأسباب التالية :

الأول : إن هذا رجل موحد كما دلت عليه رواية أحمد في مسنده ، وكما دلت عليه الروايات بمجموعها أنه رجل من أهل الجنة . والإنسان لا يكون موحداً لله بل ولا عارفاً بالله إلا بالإيمان الجازم واليقيني أنه على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ، وهذا بإجماع المسلمين الموحدين خلا أدعياء التوحيد .

الثاني : إن الله عز وجل وبَّخ أشد ما توبيخ من استبعد قدرته على النشأة الثانية في غير ما آية في كتاب الله عز وجل منها قوله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞** ﴾ (يس: ٧٧-٨٣) حيث اكتفى الله عز وجل بقدرته على خلق الإنسان من العدم كدليل على قدرته على خلقه من جديد حتى ولو صار عظاماً بالية متفتتة ، واستدل على قدرته على خلق الإنسان من العظام البالية بإخراج النار من الشجر الأخضر ، وبقدرته على خلق السماوات والأرض .

وقد اعتبر الله عز وجل استبعاد قدرته على إعادة الإنسان بعد أن أصبح تراباً (أي كالعدم) قولاً عجباً ، وتوعد القائلين به ، وذلك في قوله عز وجل : ﴿ **وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞** ﴾ (الرعد: ٥) فلو كان هذا الرجل شاكاً في قدرة الله عز وجل لوبخه الله عز وجل على ذلك .

وكذا فإن الله عز وجل قد اكتفى بدليل الخلق على علم الخالق سبحانه لما خَلَقَهُ ، حيث قال : ﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۞** ﴾ (الملك: ١٣-١٤) ، فلو كان هذا الرجل شاكاً في علم الله عز وجل لوبخه الله عز وجل على شكه في علمه سبحانه . لكن الرجل لم يشك في قدرة الله عز وجل ولا في علمه سبحانه وتعالى طرفة عين ولذلك لم يحتج إلى هذا التوبيخ .

الثالث : إنه لم يثبت عن أحد من الصحابة وخاصة رواة الحديث أنهم نفروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند سماعهم للحديث مستوضحين ما اضطربت فيه أقوال المتأخرين ، فإنهم كثيراً ما كانوا يستوضحون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أشكل عليهم ، فلو فهموا من هذا الحديث أن هذا الرجل كان شاكاً في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه ومع هذا دخل الجنة لاستشكل عليهم الأمر ، ولسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنه . ولم يثبت كذلك لا عن التابعين ولا عن تابعيهم أي استشكال لهذا الحديث ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سلامة فهمهم واتفاقهم على تأويله بعيداً عن المعنى الكفري .

الرابع : إن الرجل صدَّر قوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) بتعظيم الله عز وجل ، كما اتفقت عليه كل روايات الحديث ، حيث قال « **فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ** » وأنت إذا تأملت تصدير كلامه بتعظيم الله عز وجل ألا وهو الحلف باسم الله عز وجل ، لدلَّك ذلك على أن كلام هذا الرجل كلام معظم لله عز وجل ، لا كلام من يظن به سوءاً ونقصاً في صفاته سبحانه .

الخامس : إن الرجل أوصى بما أوصى من شدة خشيته لله والخوف من أليم عقابه كما اتفقت عليه كل روايات الحديث ، وهذا دليل على تعظيمه لله وتكبيره في نفسه لا على ظنه بالله ظن السوء كما يدعي أهل السوء من أهل الزيغ والضلال .

السادس : إن هذا الرجل قد ذكر وصيته وعدَّها من أفعال الخير ، وذلك في رواية أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل ، فلو كانت وصيته سببها شكه المزعوم في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه لما عدَّ ما فعله من أعمال الخير .

السابع : إن هذا الرجل قال جواباً على سؤال الله عز وجل له عن السبب الباعث له على وصية التحريق : (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) [1] ، وإن الله عز وجل لم يكذبه ، مما يدل على أنه إنما أوصى بما أوصى من خشية الله عز وجل وليس شكاً في قدرة الله عز وجل أو في علمه سبحانه ، ويدل قول الرجل (**وَأَنْتَ أَعْلَمُ**) على أن هذا الرجل يؤمن بأن الله عز وجل يعلم ما يخفيه في صدره ،

---

[1] صحيح مسلم ، ط. المطبعة العامرة (٩٧/٨) ، ط. المكتز (١١٥٩/٢) أو (ص ١٤١٥ ، حديث رقم ٧١٥٦) .

ويؤمن بأن الله عز وجل يعلم السر الذي غيَّبه في صدره عن السبب الباعث له على وصية التحريق ألا وهي خشية الله عز وجل وخوفه سبحانه وتعالى ، فكيف يقال بعد ذلك أنه طمع أن يخفى على علم الله عز وجل إذا غاب رماده في البر والبحر ؟!! وكيف يقال مع إقراره لله عز وجل بالعلم بأن هذا الرجل يشك في قدرة الله عز وجل على خلقه من جديد بعد أن يصبح رماداً مبثوثاً في البر والبحر ؟!!

الثامن : هذا الرجل تحديداً لا يمكن أن يكون شاكاً في قدرة الله عز وجل على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وإحيائه من جديد . لأنه يعلم يقيناً أن المقبور سيكون بعد فترة عدماً لأنه كان نباشاً ينبش القبور فلا بد أنه يعرف أكثر من غيره أن الإنسان بعد فترة يبلى ويتحول إلى تراب ولا يبقى من جسده شيئًا . فلو كان شاكاً في قدرة الله عز وجل لما أمر بحرقه وذري رماده في البر والبحر لأنه كما أنه بذري رماده في البر والبحر يكون كالعدم فإن المقبور أيضاً بعد فترة بتحوله إلى تراب يكون كالعدم فلا فرق . إلا أنه أراد من التحريق وذري الرماد معنى آخر أشرنا إليه في شرح الحديث ، وبالله ملك الملوك جل جلاله توفيقنا .

ولأدعياء التوحيد مذاهب شتى في تأويل هذا الحديث ابتغاء الفتنة والإضلال ، وتحريف التوحيد الذي هو أصل الأصول ، وظناً منهم أنهم يستطيعون أن يطفئوا بذلك نور الله عز وجل ، ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ۝﴾ (الصف: ٨) ، وإننا فيما يلي سنكشف الستار عن هذه المذاهب الشركية بفضل الله عز وجل ، وننقضها بمعونة ملك الملوك جل جلاله ، وبالله التوفيق .

المذهب الأول : قولهم : أن هذا الرجل جهل صفة من صفات الله وهي القدرة وقد اختلف العلماء في تكفير جاهل الصفات

وهذا المذهب مذهب قديم جديد ، ونخاطب القائلين به ونقول لهم ، عبارة (جاهل الصفات) هي عبارة مجملة لم تبين الصفات المقصودة ، أهي صفات الربوبية ، أم صفات أخرى ، فربما كان العلماء يقولون هذه العبارة عن المسلمين ولا يصح أن يكون إلا هذا ، فلو قلنا مسلم جاهل بالصفات ، لتبين أن الصفات المقصودة هنا هي ما كانت خارجة عن الصفات الواجبة على كل موحد وموحدة معرفتها ابتداءً .

فإن قالوا : بل هي صفات الربوبية لأنه لا خلاف بين العلماء حول عذر من جهل الصفات الخبرية مثل اليد والاستواء .

قلنا لهم بحول الله تعالى : من فهمتم عنهم من العلماء أنهم لا يكفرون جاهل صفات الربوبية ، وهل لا يكفِّرون جاهل كل صفات الربوبية أم بعضها ؟ فإن قلتم بعضها فهلاَّ حددتموها لنا بأدلتها الشرعية !

فانظر حينها كيف سيتخبطون بالإجابة تخبطاً عجيباً ، فقبحاً لمن يجعل طريق الإيمان برب العالمين هو طريق الجهل بصفات ربوبيته ! فشبهتهم أوهى من بيت العنكبوت لمن وفقه الله عز وجل .

لتعلم بداية أن الخلاف الحاصل بين العلماء والذي سمي خلافاً في تكفير جاهل الصفة المقصود منه الخلاف الحاصل في تكفير من قال : أنا أقر أن الله عالم ولكن ليس بصفة العلم بل بذاته ، ففرقوا بين الصفة والوصف .

فمِمَّن كفرهم بذلك الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) والإمام الأشعري في رأيه الأول ، ولم يقبلوا من هؤلاء هذا التأويل وقالوا لا يوصف بعالم إلا من كان له علم ، لكن الإمام أبي الحسن الأشعري تراجع عن تكفيرهم في آخر حياته وقال أن الاختلاف هو في العبارات فقط كما فصلنا في هذه المسألة في الباب الثاني من هذه الرسالة .

فإن قلت : فما علاقة هذا الخلاف بحديث الرجل هذا ؟ فمسألة الحديث تدور على جهل حقيقة القدرة وليس على القدرة كصفة معللة ومبينة .

قلت : نعم ، لا علاقة لهذا الخلاف بحديث الرجل هذا ، لكن جاءت طائفة فهمت هذا الخلاف فهماً خاطئًا وظنوه خلافاً في من جهل حقيقة الصفة . وإليك أقوال العلماء في بيان ذلك .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) في معرض شرحه لحديث الرجل المسرف على نفسه الموصي أولاده بحرق جسده بعد موته خشية من الله وخوفاً : (القسم الأول : طائفة حملت ذلك على ظاهره ، وقالوا : إن هذا الرجل جهل صفتين من صفات الله تعالى وهما : العلم والقدرة ، ومن

جهل ذلك لم يخرج من اسم الإيمان ، بخلاف من جحدها ، وإليه رجع أبو الحسن الأشعري ، مع أنه قد كان تقدم له قول آخر بأنه مكفِّر . وهو مذهب الطبري .

قلت : **وهذه الطائفة انصرفت عن معنى الحديث إلى معنى آخر** ، **اختلف فيه المتكلمون ، وهو تكفير من اعترف بأن الله قادر بلا قدرة ، وعالم بلا علم ، ومريد بلا إرادة ، فهل يكفَّر أم لا يكفَّر ؟ على اختلاف القولين المتقدمين . ولا يختلف المسلمون في أن من جهل أو شكَّ في كون الباري تعالى عالماً به وقادراً على إعادته كافر** ، حلال الدم في الدنيا ، مخلد في النار في الآخرة ؛ لأن ذلك معلومٌ من الدين بالضرورة ، وجحده أو الشك فيه تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً . فمقتضى الحديث بظاهره أن الرجل كافرٌ على مقتضى شريعتنا . ولذلك قالت طائفة : فلعل شرع ذلك الرجل لم يكن فيه الحكم بتكفير من جهل ذلك ، أو شكَّ فيه ، والتكفير حكم من الأحكام الشرعية فيجوز أن تختلف الشرائع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ (المائدة: ٤٨)

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأن هاتين القاعدتين من ضروريات الشرائع ، إذ **لا تصح شريعة مع الجهل**[١] ، فإن الله عالم ، قادر ، مريد ، **ولا مع الشك فيها** ، **فلا بد أن تنص الرسل لقومهم على هذه الصفات** ، **مع أن العقول تدل عليها** ، **فيكون العلم بها ضرورياً من كل الشرائع** ، كما كان ذلك ضرورياً في شرعنا ، فيكون جاحد ذلك والشاك فيه مكذباً لرسوله ، وتكذيب الرسل كفر في كل شرع بالضرورة)[٢] .

وهذا الإمام أبو عبد الله محمد بن خليفة الوَشتاني الأُبِّي (ت ٧٢٧ هـــ) بعد أن نقل قول عدة تأويلات لشرح الحديث السابق ومن ضمنها تأويل الطائفة التي فهمت الخلاف بين الإمام أبي الحسن الأشعري والإمام الطبري فهماً خاطئاً قال معلقاً : (قلت : الصفة التي اختلف في كفر من نفاها أو جهلها هي كالعلم والقدرة في قول المعتزلة : هو عالم لا بعلم بل بذاته ، قادر لا بقدرة بل بذاته ، **وأما كونه عالماً وهي المسماة بالحال عند المتكلمين فلا خلاف في كفر من نفاه** ، والرجل إنما شك في كونه قادراً[٣] ، وقد دل الحديث على أنه كان مؤمناً من قوله (**مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ**) **فأولى التأويلات الأخر**)[٤] .

---

[١] وهذه عبارة مهمة جداً ، فلا تصح شريعة مع الجهل بأصل الدين ، فالكافر لا يقبل منه عمل ولو أتى بكل الشرائع ما دام أنه لم يحقق أصل الدين ، فلا تصح شريعة مع الجهل ولا مع الشك فيها ، فتأمل .

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٥-٧٦) .

[٣] أي على مقتضى من فهم أن (قدر) في الحديث من القدرة يكون الرجل على مقتضى هذا الفهم شاكاً في كون الله تعالى قادراً وهذا الأمر مختلف عن مسألة الخلاف حول تكفير المعتزلة ، فتأمل .

[٤] إكمال إكمال المعلم للأُبِّي (٩/١٦٦) .

قلت بحول الله تعالى : انظر بالله عليك إلى هذا القول الواضح الصريح من أن هؤلاء فهموا الخلاف فهماً خاطئاً فضلوا عن سواء السبيل ، لأنه لا خلاف بين المسلمين أن من جهل أو شك في قدرة الله أو في علمه أنه كافر ، وبالله التوفيق .

قال الشيخ عبد الله بن علي النجدي القصيمي (١٣٥٣هـ) : (وقالت طائفة : إن الجاهل قد يعذر بجهله ، وإن جاء كفراً ، ما دام غير متعمد وهذا الرجل كان جاهلاً . فهو معذور غير مأخوذ . وهذا القول كالأول لا يعتد به . ولو صح لنجا اليهود والنصارى وطوائف الكفر الذين كفروا بجهالة وما كانوا عالمين) [1] .

قال الإمام شهاب الدين القسطلاني (٨٥١-٩٢٣هـ) : (**ولا يقال إن جحد بعض الصفات لا يكون كفراً لأن الاتفاق على جحد صفة القدرة كفر بلا ريب**) [2] .

وقد نقل هذا الإجماع الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) ، حيث نقل ذلك عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) قوله : (**جَحْده صِفَة الْقُدْرَة كُفْر اتِّفَاقًا** ، وَإِنَّمَا قِيلَ إِنَّ مَعْنَى قَوْله « **لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ** » أَيْ ضَيَّقَ ، وَهِيَ كَقَوْله : ﴿ **وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ** ﴾ (الطلاق: ٧) أَيْ ضُيِّقَ) [3] .

---

[1] مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها للقصيمي ، ص ١٤٢ .

[2] إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري للقسطلاني (٤٣٨/٥) .

[3] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

المذهب الثاني : قولهم : أن الرجل المذكور في الحديث كان يؤمن بقدرة الله جملة وإنما جهل وشك في جزئية من جزئيات القدرة وفي صورة دقيقة من صور القدرة ولـذلك لم يكفر

إن القائلين بهذه الشبهة لا يستطيعون شرح هذه العبارة شرحاً يتفقون عليه ، فإننا لو سألناهم مثلاً : كيف يكون الإيمان بقدرة الله تعالى إيماناً مجملاً ، فإن قدرة الله سبحانه وتعالى غير متناهية كما نتفـق نحن وأنتم ؟ وما هي جزئيات القدرة والصور الدقيقة من صور القدرة التي لا يكفر جاهلها أو الـشاك فيها قبل بلوغ الحجة ؟ لتخبطوا بالإجابة تخبطاً لا يدرون معه كيف يجيبون .

فنقول لهم : إن هناك صوراً عديدة ينفرد بها كل معطل عن غيره كأن يقول أحدهم إن الله لا يقدر أن يقبض الناس في آن واحد ، ويقول الآخر إن الله لا يقدر أن يجعل الماء هواء ولا العكس ، ويقـول ثالث إن الله لا يقدر على جعل الإنسان يطير ، ورابع يقول لا يقدر الله أن يجعل الناس كلهم مـسلمين ... وخامس وعاشر وسبعين كل منهم يقول بغير ما يقول به الآخر فهل إذا اجتمعت في شخص نسميه مشركاً معطلاً أم مسلماً موحداً كحال من قال بالمقالة الواحدة فقط ؟ و ما هـو الـضابط في كلتـا الإجابتين ؟

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾

(الأنعام: ١٤٨)

فهذه الشبهة مع عدم معرفتهم لكيفية شرحها فإن مرجعهم في إثباتها ثلاثة أمور :

الأول : فهمهم الخاطئ لبعض الآيات والأحاديث والتي قد تم شرح جلها في هذه الرسالة .

الثاني : فهمهم الخاطئ لنصوص مشكلة ولكن محتملة وغير صريحة لأهل العلم والتي قـد تم شـرح بعضها وسيأتي شرح مزيد من هذه النصوص فيما سيأتي بحول الله تعالى .

الثالث : احتجاجهم بنصوص صريحة ولكن لا تصح نسبتها إلى أهل العلم ، وحتى إن ثبتت علـيهم فهي ليست هي حجة في دين الله عز وجل ، والتي سيأتي بيان فساد نسبتها بالدليل والبرهان في الجـزء الثاني من هذه الرسالة بحول الله تعالى .

فنرد عليهم رداً مجملاً على شبهتهم بأن نرجعهم إلى تأصيل هذه المسألة فنقول وبالله التوفيق ومنـه نستمد الإعانة :

إن الإنسان لكي يكون مؤمناً موحداً ، عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه أليس من الواجب عليه أن يؤمن بسائر صفات الله عز وجل التي يكون مفهوم الربوبية قائماً عليها ، ولا يتصور إلا بها [1] ، ومن ضمنها إيمانه بصفة القدرة ؟ فلا بد أن يجيبوا بنعم .

فنقول لهم : أليس من الواجب عليه أيضاً أن يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في كل صفاته ، وأنه متره عن النقص مطلقاً ، ومتره أن تكون صفاته ناقصة ؟

فإن أجابوا بـ لا يعني ذلك أنهم يجيزون إيمان من لم يقدر الله حق قدره و ينسب لله النقصان في ذاته أو في صفاته أو في أفعاله . فنحصر النقاش معهم في تقرير هذا الأصل بأدلته من الكتاب والسنة وهو أن من لم يؤمن إيماناً جازماً بأن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق وبأنه متره عن النقائص مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله أنه لا يعد مؤمناً ولا موحداً ولا عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه سبحانه ، وقد سبق في المقدمة الثالثة ذكر الأدلة على ذلك .

وإن أجابوا بنعم ، نقول لهم : إن من أخرج شيئاً من عموم قدرة الله عز وجل ولو في جزئية يكون ببساطة :

١- لم يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في صفة القدرة أي لم يؤمن بأن الله على كل شيء قدير ، وبذلك يكون لم يحقق التوحيد بعد بل لا يعد عارفاً بالله عز وجل .

٢- نسب لله النقص في صفة من صفاته وهي صفة القدرة ، ونسبة النقص لله في أي صفة من صفاته هي كفر باتفاق .

٣- نسب لله العجز حيث إن نفي القدرة على شيء هو عين إثبات العجز عن هذا الشيء لا محالة باتفاق العقلاء ، ونسبة العجز لله كفر باتفاق ولو كان في جزئية .

أقول بحول الله تعالى : وما أشبه الليلة بالبارحة فقد نقل الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) كلاماً مشابهاً لهذه الشبهة فرد على أصحابها قائلاً : (فنقول لهم وبالله تعالى التوفيق : أتفضل عندكم قدرة الله تعالى على قسمة الجبل على قدرته على قسمة الخردلة ؟ وهل تأتي حال يكون الله فيها قادراً على قسمة أجزاء الجبل غير قادر على قسمة أجزاء الخردلة أم لا ؟ فإن قالوا : بل قدرة الله تعالى على قسمة الجبل أتم من قدرته على قسمة الخردلة وأقروا بأنه تأتي حال يكون الله تعالى فيها قادراً على قسمة أجزاء الجبل غير قادر على قسمة أجزاء الخردلة كفروا وعجزوا ربهم وجعلوا قدرته محدثة متفاضلة متناهية وهذا كفر مجرد ، وإن أبو من هذا وقالوا أن قدرة الله تعالى على قسمة الجبل والخردلة سواء ، وأنه لا سبيل إلى وجود حال يقدر الله تعالى فيها على تجزئة أجزاء الجبل ولا يقدر على تجزئة

---

[1] ولله در الإمام ابن أبي العز الحنفي حينما في شرحه للطحاوية (١١٧/١) : (وَلاَ يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) اهـ .

أجزاء الخردلة ، صدقوا ، ورجعوا إلى قولنا الذي هو الحق وما عداه ضلال وباطل ، والحمـــد لله رب العالمين) [1] .

أقول بحول الله تعالى : ومن الملاحظ المهم مما سبق من أقوال العلماء أنهم كانوا يقولـــون أن ظـــاهر الحديث يدل على الشك في قدرة الله عز وجل مع أن الرجل حسب ظاهر الحديث كان يـــؤمن أن الله يقدر على إعادته إذا لم يحرق و لم يذر رماده في البر والبحر ، وكان ظاهر قول الرجل إنما يدل علـــى شكه في صورة واحدة من صور القدرة ، ومع علم العلماء بذلك وفهمهم للحديث فهما جيداً قالوا أن ظاهر الحديث يدل على أنه كان يشك في قدرة الله تعالى ، و لم يقولوا أن ظاهره يدل على الـــشك في جزئية من جزئيات القدرة ، لأن صفات الله تعالى صفات كمال لا نقص فيها ، وقدرة الله تعالى قـــدرة تامة لا نقص فيها لأنها غير متناهية ، والإيمان بقدرة الله تعالى يكون بالإيمان بأن الله على كل شيء قدير وأن صفة القدرة صفة كمال لا نقص فيها كسائر صفات الله سبحانه وتعالى ، فمن شك في أي صورة من صور القدرة ولو آمن بقدرة الله تعالى على باقي الأشياء فإنه يعتبر شاكاً في قدرة الله تعـــالى ، إذ أن قدرة الله تعالى لا تتجزأ ، ومن جعل قدرة الله عز وجل متناهية فقد نسب إليه ما لا يليق به من النقص سبحانه وتعالى عما يصفون .

ومن السذاجة ما يقوله البعض متلاعباً بالألفاظ مدلساً على نفسه وعلى أتباعه أن الرجل كان يؤمن بأن الله على كل شيء قدير ، ولكن جهل صورة دقيقة من صور القدرة ، مع أن من أخرج شيئاً مـــن عموم قدرة الله عز وجل لا يكون مؤمناً بقدرة الله على كل شيء . ويمررون هذا الكلام بلف ودوران على مقلديهم ، ويصورون الأمر على أنه أمر يسير ، ومقلديهم وللأسف يتبعونهم عن جهل وعمى فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قلت بحول الله تعالى : ومن نصوص أهل العلم الذي فهموه فهماً فاسداً كلام الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـــ) ، ولا عجب ممن فهم كلام النبي المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بفهمه الفاسد ، أن يفهم كلام غيره من البشر بفهمه الفاسد أيضاً ، فهؤلاء فهموا من كلام الإمام الطحاوي أنه يعذر من جهل جزءًا من قدرة الله عز وجل ، فاحتجوا بقوله في معرض شرحه للحديث حيث قال :

(... غَيْرَ أَنَّ قَوْمًا أَخْرَجُوا لِحَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ مَعْنًى ، وَهُوَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا قَوْلَهُ « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » جَهْلاً مِنْهُ بِلَطِيفِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ إِيمَانِهِ بِهِ جَلَّ وَعَزَّ ، فَجَعَلُوهُ بِخَشْيَتِهِ عُقُوبَتَهُ مُؤْمِنًا ، وَبِطَمَعِهِ أَنْ يَضِلَّهُ جَاهِلاً ، فَكَانَ الْغُفْرَانُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِيمَانِهِ ، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ بِجَهْلِهِ الَّذِي لَمْ يُخْرِجْهُ مِنْ الإِيمَانِ بِهِ إِلَى الْكُفْرِ بِهِ تَعَالَى) [2] .

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٢٢٨/٥) .

[2] شرح مشكل الآثار للطحاوي (٣٨/٢) .

أقول بحول الله تعالى : فهؤلاء أهل الزيغ والضلال قد أخطئوا في العنوان جداً ، فإن الإمام أبو جعفر الطحاوي من أصرح العلماء في هذه القضية ، حيث قرر قبل هذه الكلمات التي احتج بها أهل الزيغ والضلال أن من نفى قدرة الله عز وجل في أي حال من الأحوال أنه كافر ، حيث قال :

(وَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِيهِ : (**فَوَاَللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) **لَيْسَ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَكَانَ كَافِرًا ، وَلَمَا جَازَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ ، وَلاَ أَنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**) [(١)] .

فإن قلت : فما توجيه كلام الإمام الطحاوي السابق ، وما يقصد بلطيف قدرة الله عز وجل .

قلت بحول الله تعالى : ينقل الإمام أبو جعفر الطحاوي في قوله السابق أن هناك أناساً أخرجوا لحديث معاوية بن حيدة معنى ، أي معنى غير ظاهره المنكر ، فجعلوا كلام الرجل « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » جهلاً منه بلطيف قدرة الله تعالى ، ولم يقل جهلاً منه بقدرة الله تعالى . فهنا أتى بمصطلح خاص ، ولو كان يقصد القدرة لقال القدرة ولم يقل لطيف قدرة الله عز وجل . والمعنى الذي أخرجه بعض الناس لرواية معاوية بن حيدة رضي الله عنها قد نقلناها سابقاً في معرض شرح الحديث ، وهو أنهم قالوا أن قول الرجل « **لَعَلِّي أَضِلُّ اللَّهَ** » معناه لعلي أغيب عن عذاب الله أو لعلي أغيب عن لقاء الله عز وجل بمعنى لعل الله لا يبعثني إذا صرت رماداً مبثوثاً في البر والبحار ، أو لعل الله لا يبعثني إذا رآني فعلت بنفسي هذا الفعل فيرحمني فلا يبعثني . فسمى الإمام أبو جعفر الطحاوي هنا جهل الرجل بالبعث إذا صار رماداً مبثوثاً في البر والبحر جهلاً بلطيف قدرة الله عز وجل ، وهذه تسمية تفرد بها هو .

أما قول الإمام الطحاوي : (فَجَعَلُوهُ بِخَشْيَتِهِ عُقُوبَتَهُ مُؤْمِنًا ، وَبِطَمَعِهِ أَنْ يَضِلَّهُ جَاهِلاً) فمعناه : أي بطمعه أن لا يبعثه الله عز وجل إذا فعل بنفسه ما فعل جاهلاً .

وقال قائلون من أهل الزيغ والضلال : إن الإمام الطحاوي إنما قصد من قوله (لطيف قدرة الله عز وجل) ، جزءاً من قدرة الله عز وجل ، فهذا الرجل جهل جزءاً من قدرة الله عز وجل ، ولم يجهل قدرة الله عز وجل جملة وتفصيلاً .

فنقول لهم بحول الله تعالى : فهل تظنون أن العلماء الذين وضحوا حكم جاهل القدرة في معرض شرحهم للحديث لم يكونوا يفهمون المسألة ، فالمسألة ليست فيمن جهل قدرة الله جملة وتفصيلاً ، وإنما فيمن جهل مسألة معينة ، ومع ذلك قالوا ما قالوا ، ومن أروع ما قيل هو القول السابق للإمام الطحاوي لمن تدبره وفهمه ووعاه بقلبه .

وهنا نكرر مسألة مهمة ، وهو أن ما قاله العلماء من أقوال صريحة كثيرة في تكفير جاهل قدرة الله عز وجل في معرض تناولهم لشرح هذا الحديث يدل بجلاء أنهم يحكمون على من شك في مسألة ما

---

(١) شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢/٢٩) .

حول قدرة الله عز وجل ، أو في جزء من قدرة الله عز وجل بنفس حكم من شك في قدرة الله عز وجل جملة وتفصيلاً .

فلمَّا يقال (قدرة الله عز وجل) يقصد بها قدرة كاملة تامة ، لا يتخللها عجز ، ولا تعتريها آفة . فمن شك في كمالها أو في جزء منها فإنه لا يقال عنه أنه شك في جزئية ما ، أو في مسألة ما ، وإنما يقال عنه أنه شك في قدرة الله عز وجل .

أقول بحول الله تعالى : وكذا فإن أهل الزيغ والضلال ، أعرضوا عن فهم كلام الله عز وجل ، وعن سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وكذلك أعرضوا عن الواضح من كلام أهل العلم الموافق للكتاب والسنة والذي هو كثير جداً ، فاحتجوا بنصوص أخرى نسبت للعلماء زوراً وبهتاناً ، وهي قليلة جداً ، ومخالفة للكتاب والسنة ، بل مخالفة لكلام العلماء في مواضع أخرى من كتبهم ، فتمسكوا بها وجعلوها أثبت وأدل من المحكم ، وردوا بها المحكم الصريح من كلام الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي بيان ذلك في الجزء الثاني من هذه الرسالة بحول الله تبارك وتعالى وقوته وواسع فضله ، والله ولي التوفيق .

المذهب الثالث : قولهم : أن الرجل المذكور في الحديث لم يكفر وإن شك في قدرة الله على إعادته من رماده المتفرق في البر والبحر لأنه كان يظن جمع الرفات المتفرق في البر والبحر من المستحيلات

وهذا مذهب خبيث ، نخر في عظم كثير من المنتسبين إلى التوحيد زوراً وبهتاناً ، بسبب طاعتهم لسادتهم وكبراءهم فأضلوهم السبيل ، وبسبب تقديمهم لكلام العلماء المنسوب إليهم أو المفهوم على غير مرادهم على كلام الله عز وجل وكلام رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . وكنا قد شرحنا في مقدمات هذه الرسالة أنواع المحال فراجعها قبل قراءة الرد على هذا المذهب المنحرف عن جادة الصراط ، فالله سبحانه وتعالى المسئول أن يهدينا وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، إنه على كل شيء قدير .

أقول بحول الله تعالى : قبل كل شيء وقبل الخوض معهم في تفاصيل شبهتهم التي هي أشبه بكلام أهل الفلسفة أَرْجِعِ المسألة إلى أصولها ، فاسألهم : هل هذا الرجل كان يؤمن بأن الله قادر على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وأنه قادر على أن يخلقه من جديد من رماده المتفرق في البر والبحر ؟

فإن هم أجابوك : إن هذا الرجل كان يؤمن بأن الله قادر على إعادته وخلقه من جديد .

أعد عليهم السؤال مرة أخرى لأنهم قوم مموهون فيهم نوع من الحيدة ، وقل لهم : لا تحيدوا عن جوابي إلى جواب سؤال آخر لم أسأله ، فأنا إنما أسألكم عن إيمانه في قدرة الله في حالة مخصوصة وهي في حالة كونه حرِّق وذُرِيَ رماده في البر والبحر ، ولا أسألكم عن إيمان الرجل في قدرة الله على إعادته في حالة دفن مقبوراً ، فالسؤال هو : هل كان هذا الرجل يؤمن بأن الله قادر على إحيائه وإعادته من جديد بعد أن يصير رماداً متفرقاً في البر والبحر أم لا ؟ وهل كان يؤمن بأن الله يعلم مكان جميع رماده المتفرق في البر والبحر وأن الله عز وجل قادر على جمع هذا الرماد الذي تفرق أيما تفرق أم لا ؟

فإنهم سيحاولون التهرب والحيدة عن الجواب فألزمهم الجواب على سؤالك فعندها سيقولون لك : لا ، ولو كان يؤمن بأن الله قادر على جمع رماده المتفرق في البر والبحر لما أوصى أولاده أن يحرقوه ويفعلوا به ما فعلوا . عندها اجعل الكلام معهم حول الاتفاق على أحد أصول التوحيد وهو الإيمان بكمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وهل هذا الإيمان شرط في صحة التوحيد أم لا . فإن كان من تحاوره من المخلصين في طلب الحق فإنه سيشعر بنفسه أنه يتناقض وسيبقى حائراً ، وقد حاورت أحد العوام المبتلين بهذا المرض وألزمته بهذا السؤال فبقي حائراً لا يدري بم يجيب ، وما زال يكرر الشبهة دون أن يفهمها وإنما التقليد الأعمى يفعل بأهله الأعاجيب حتى يرددون شبهة لا يفهمون هم أنفسهم شرحها وإنما يجيدون تكرارها دونما وعي وتفكير . ولكي تزيل حيرة مثل هذا اذكر له الأدلة من الكتاب والسنة على أن الإنسان لا يكون مؤمناً ولا عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بالله إلا بمعرفة كمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

ولكن اعلم أنني لما حاورت رأساً من رؤوس هذه الضلالة – ولعله يعتبر نفسه الوحيد الذي فصَّل شرح هذه الشبهة الشيطانية والخزعبلات الكفرية – فإنه يوافق في أمور مجملة فيموه بها على من لا يعرف حقيقة معتقده وينقضها عند التفصيل ، فيهيم من وادٍ إلى واد تائهاً حائراً إرادة التلبيس — نسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة – فلذلك كان خطر هؤلاء عظيماً ، فاسمع وعِ ما أقوله لك جيداً ولا تستهونه فإن الخطب جلل ليس بالهزل . حيث إنهم يقولون أن الإيمان بأن الله على كل شيء قدير شرط لصحة التوحيد . ومن ثم ينقضون ما يقولونه عند التفصيل في الأمر .

فيقولون مثلاً : هذا الرجل كان يؤمن بأن الله على كل شيء قدير ، ولكن استبعد جمع الرماد المتفرق في البر والبحر ، وظن جمع الرماد المتفرق في البر والبحر من المستحيلات ، والمستحيلات لا تتعلق بها قدرة الله عز وجل .

أقول بحول الله تعالى : بداية اعلم أن هؤلاء أهل خداع وتمويه وحيدة : فهم يقولون أنه كان يؤمن بأن الله على كل شيء قدير ، ومن ثم يقولون أنه لم يكن يؤمن بقدرة الله على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وخلقه من جديد ؟! أليس هذا الأمر شيئًا من الأشياء ، إذاً فكلامهم متناقض وحقيقته أن الرجل – حسب اعتقادهم – كان يؤمن بأن الله على كل شيء قدير إلا شيئًا واحداً وهو جمع الرماد المتفرق في البر والبحر وخلقه من جديد من هذا الرماد المتفرق في البر والبحر . فاكشف كذبهم وألزمهم الإقرار بهذا التناقض .

وقد يقولون فراراً من التناقض : إن عدم إيمان الرجل بقدرة الله عز وجل على هذا الشيء لا يناقض إيمانه بأن الله على كل شيء قدير ، لأنه ظن هذا الشيء محالاً ليس بشيء .

فقل لهم : حقائق الأشياء لا يحكم عليها من خلال تصور الأشخاص لها ، وإنما من خلال ذات تصورهم ، فهذا الرجل على فهمكم ظن هذا الشيء محالاً ليس بشيء ، وبذلك بقي يؤمن بأن الله على كل شيء قدير . لكن هذا الشيء الذي ظنه محالاً ليس بشيء ، هو شيء في الحقيقة ، وإذا أخرج هذا الشيء من قدرة الله عز وجل أصبح عندها في الحقيقة لا يؤمن بقدرة الله عز وجل على كل شيء .

ومن ثم قل لهم : وضِّحوا لنا معنى قولكم ، كيف كان يظن جمعه مستحيلاً ؟

فسيقولون لك : أليس وجود شريك للبارئ مستحيلاً وهو ما يسمى بالمحال المطلق ، واجتماع الضدين معاً في آن من المستحيلات وهو ما يسمى بالمحال لذاته ، وهذا الرجل حسب أنه إذا أصبح رماداً متفرقاً في البر والبحر فإن جمعه يكون مستحيلاً كاستحالة وجود شريك للبارئ عز وجل وكاستحالة اجتماع الضدين معاً في آن واحد .

فقل لهم : هذه الأمور عبارة عن تناقضات في ذاتها ، وليس هناك وجه للقياس بين الأمثلة التي ذكرتم وبين حالة الرجل . فهذا قياس مع الفارق بل قياس شيطاني خبيث . لكن نرجعكم إلى الشرع بدلاً من السفسطة الكلامية فنسألكم : ما الدليل على أن الإنسان إذا لم يؤمن بقدرة الله على شيء ما بحجة ظنه

إياه مستحيلاً كما أسلفتم أنه يعذر بهذا ؟ فإن من أوَّل الحديث على أن الرجل قال ما قالــه في حالــة الجنون ، أتى بدليل على أن المجنون لا تكليف عليه ، ومن أوَّل الحديث على أن ما قاله الرجل كان سبق لسان أتى أيضاً بدليل على عذر من كان حاله كذلك ، فلم يتكلم العلماء في دين الله عز وجــل بغــير علم ولا أتوا بعذر ليس عليه دليل وما أنزل الله به من سلطان كما فعلتم أنتم .

﴿ **قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّــنَّ وَإِنْ أَنْــتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُــونَ** ﴾ (الأنعام: ١٤٨)

فإن قلتم : إن الحديث هو دليلنا ، قلنا لكم : الحديث ليس لكم فيه حجة فإنه محتمل وما تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال . بل إن هذا الحديث هو مما نتنازع في تأويله نحن وأنتم ، فكيف جعلــتم من المتنازع فيه حجة وبيِّنة لكم في فض النزاع ؟!

قال الإمام أبو إسحق الشاطبي الأندلسي (ت: ٧٩٠هــ) : (وقد علم العلماء أن كل دليــل فيــه اشتباه وإشكال ليس بدليل في الحقيقة حتى يتبين معناه ويظهر المراد منه ، **ويــشترط في ذلــك أن لا يعارضه أصل قطعي** ، فإذا لم يظهر معناه لإجمال أو اشتراك أو عارضه قطعي كظهور تــشبيه فلــيس بدليل لأن حقيقة الدليل أن يكون ظاهراً في نفسه ودالاً على غيره وإلا احتيج إلى دليل فإن دل الــدليل على عدم صحته فأحرى أن لا يكون دليلاً) [1] .

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هــ) في نيل الأوطار (٧٣/١) : (والمحتمل لا يكون حجــة علــى الخصم) .

أقول بحول الله تعالى وتوفيقه : ما عندكم من دليل على قولكم وعلى هــذا العــذر إلا السفــسطة الكلامية والشبه الجنونية ، أما نحن فسنذكر لكم الدليل على أن هذا ليس بعذر فنقول بقدر ملك الملوك جل جلاله : إن كثيراً ممن شكوا في قدرة الله عز وجل وأنكروا بعض صور القدرة كانــت حجتــهم استبعاد ذلك ، وظنه من المستحيلات ، و لم يعذرهم الله عز وجل بذلك ، وإليكم تفصيل ذلك .

قال الله عز وجل في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۞ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۞ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۞** ﴾ (ق: ١-٤)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هــ) في تفسير الآية السابقة : (﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًــا ذَلِــكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ أي: يقولون: أإذا متنا وبلينا ، وتقطعت الأوصال منا ، وصرنا تراباً ، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ **ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ** ﴾ أي : **بعيد الوقوع ، ومعنى هــذا : أنهــم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه .**

---

[1] الاعتصام للشاطبي (٤٢/٢) .

قال الله تعالى رادًا عليهم : ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ** ﴾ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ؟ وأين ذهبت ؟ وإلى أين صارت ؟ ﴿ **وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ** ﴾ أي: حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة) [(١)] .

أقول بحول الله تعالى : فهؤلاء الذين أنكروا قدرة الله عز وجل على إعادتهم بعد أن صاروا تراباً أي ضلوا في التراب واختفوا فيه ، كاختفاء رماد الرجل الذي ذري في البر والبحر ، حجتهم في هذا الإنكار أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه ويرونه بعيد الوقوع . ومع ظنهم هذا لم يعذرهم ملك الملوك جل جلاله بهذا التأويل . فليخش كل واحد على نفسه ترك كلام الله عز وجل لكلام رجل كائناً من كان . وإن الله عز وجل كما أنه لم يقبل هذا العذر لم يكتف بذلك بل رد على من أنكر قدرته بعد أن صار عظاماً بالية بأنه رجل نسي أن الله سبحانه وتعالى خلقه من العدم .

قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۞ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞** ﴾ (يس: ٧٧-٨٣)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ أي: **استبعد** إعادة الله تعالى - ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض- للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما **استبعده** وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ أي: يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت) [(٢)] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة **واكتفى بالاستبعاد** وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال : ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (السجدة: ١٠) ، ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾ (الصافات: ١٦) ، ﴿ **أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ۞** ﴾ (الصافات: ٥٢-٥٣) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال : ﴿ **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ على طريق الاستبعاد **فبدأ أولاً بإبطال**

---

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٥/٧) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٩٤/٦) .

استبعادهم بقوله : ﴿ **وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام ، وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي بهما استحقوا الإكرام ، **فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه** ، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في الْمُعَادِ من التفتت والتفرق حيث قالوا : ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت ، **والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال :** ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ **أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب** ، ومنهم من ذكر شبهة وإن كانت في آخرها تعود إلى مجرد الاستبعاد وهي على وجهين أحدهما : أنه بعد العدم لم يبق شيئاً فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ، وأجاب عن هذه الشبهة . بقوله تعالى : ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً كذلك يعيده وإن لم يبق شيئاً مذكوراً ، **وثانيها : أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه في أبدان السباع وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنساناً إذا أكل إنساناً وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإن أعيد فأجزاء المأكول ، إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه ، وإما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء . فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة :** ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ ، ووجهه هو أن في الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية ، وفي المأكول كذلك ، فإذا أكل إنسان إنساناً صار الأصلي من أجزاء المأكول فضلياً من أجزاء الآكل والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل . ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الأجزاء الأصلية للمأكول وينفخ فيها روحه ، **وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع ، المبددة في الأصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة**)[1].

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته ، فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

أحدها : **اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص .**

---

[1] تفسير الرازي (٢٦/١٠٩-١١٠) .

الثاني : **أن القدرة لا تتعلق بذلك** [(١)] .

الثالث : أن ذلك أمر لا فائدة فيه أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئا بعد شيء هكذا أبداً كلما مات جيل خلفه جيل آخر فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحيه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك . فجاءت براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول :

أحدها : تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال : ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ۝﴾ (يس: ٧٨) : ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ۝﴾ (يس: ٧٩) ، وقال : ﴿ **وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ۝﴾ (الحجر: ٨٥-٨٦) ، وقال : ﴿ **قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ** ﴾ (ق: ٤).

والثاني : تقرير كمال قدرته كقوله : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** ﴾ (يس: ٨١) ، وقوله : ﴿ **بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ** ۝﴾ (القيامة: ٤) ، وقوله : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ۝﴾ (الحج: ٦) ، ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** ۝﴾ (يس: ٨١)

الثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ** ۝﴾ (الدخان: ٣٨) ، وقوله : ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً** ۝﴾ (ص: ٢٧) ، وقوله : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى** ۝﴾ (القيامة: ٣٦) ، وقوله : ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ (المؤمنون: ١١٥-١١٦) ، وقوله : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ۝﴾ (الجاثية: ٢١) ، ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه ، وأنه متره عما يقوله منكروه ، كما يتره كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿ **فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** ۝﴾ (ق: ٥) مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي ، وبنائه ، وارتفاعه ، واستوائه ، وحسنه ، والتئامه ، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض ، وكيف بسطها ، وهيأها بالبسط لما يراد منها ، وثبتها بالجبال ، وأودع فيها المنافع ، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات

---

(١) وهؤلاء أصحاب الزيغ والضلال ، وأصحاب الحيدة وتمييع الدين ، يقولون أن الرجل لم يجهل القدرة وإنما جهل تعلق القدرة حتى يملحوا كفرهم ، يلبسون على الناس جهلهم وكفرهم بزي أهل العلم ، والجاهل قد ينخدع بما قالوا ، فها هو ابن القيم رحمه الله وكأنه يرد عليهم فتأمل .

على اختلاف أشكاله ، وألوانه ، ومقاديره ، ومنافعه ، وصفاته ، وأن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب ، وتبصَّر بها ، تذكِّر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ثم يتذكر ثانياً ، وإن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه ، ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم ، وأقواتهم ، وملابسهم ، ومراكبهم ، وجناتهم وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض وبين ذلك مع اختلاف منابعها وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها ، ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل وأحيى به الأرض بعد موتها ،ثم قال ﴿ **كَذَلِكَ الْخُرُوجُ** ﴾ (ق: ١١) أي مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها) [١] .

قال الشوكاني (١١٧٣-١٢٥٠هـ) : (﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا** ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من **دفع استبعادهم** فنبه سبحانه على وحدانيته ودل على قدرته على إحياء الأموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران) [٢] .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ** ۝ ﴾ (السجدة: ١٠) : (يقول تعالى مخبرًا عن المشركين في **استبعادهم** المعاد حيث قالوا : ﴿ **أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ** ﴾ أي: تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ، ﴿ **أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ ؟ أي: أئنا لَنَعُودُ بعد تلك الحال؟! **يستبعدون ذلك** ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قُدْرَتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قُدْرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [٣] .

وانظر كيف أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالرد عليهم :

﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا** ۝ ﴾ (الإسراء: ٤٩-٥١)

---

[١] الفوائد لابن القيم ، ص ٦-٩ .

[٢] تفسير الشوكاني (٣٧٢/٤) .

[٣] تفسير ابن كثير (٣٦٠/٦) .

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسيره لهذه الآيات : (يقول تعالى مخبرًا عن الكفار **المستبعدين** وقوع المعاد ، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك : ﴿ **أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا** ﴾ أي: ترابًا. قاله مجاهد . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (**غبارًا**) .

﴿ **أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ** ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ **خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ أي: **بعد ما بلينا وصرنا عدمًا لا يذكر** . كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: ﴿ **يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۞ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۞ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۞**﴾ (النازعات: ١٠-١٢) قال تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۞**﴾ (يس: ٧٨-٧٩)

وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: ﴿ **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ﴾ وهما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿ **أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ** ﴾ قال ابن إسحاق عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد : سألت ابن عباس عن ذلك فقال : (هو الموت) .

وروى عطية عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية : (لو كنتم موتى لأحييتكم) . وكذا قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك.

ومعنى ذلك : أنكم لو فرضتم أنكم لو صِرْتُم مَوْتًا الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء ، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده) [١] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) في تفسير الآيات السابقة : (أما تقرير شبهة القوم : فهي أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم . أما الأجزاء المائية في البدن فتختلط بمياه العالم ، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم ، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم ، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعيانها مرة أخرى . وكيف يعقل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى ، فهذا هو تقرير الشبهة .

والجواب عنها : أن **هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته** . أما إذا سلما كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله تعالى ولما سلمنا كونه تعالى قادراً على كل الممكنات كان قادراً على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها ، **فثبت أنا متى سلمنا كمال علم الله وكمال قدرته زالت هذه الشبهة بالكلية** .

---

[١] تفسير ابن كثير (٥/٨٤-٨٦) .

أما قوله تعالى : ﴿ **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ﴾ ، فالمعنى أن القوم **استبعدوا** أن يردهم إلى حال الحياة بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً . وهي وإن كانت صفة منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قَدِّرُوا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلى صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاماً ورفاتاً مثل أن تصير حجارة أو حديداً ، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة ، وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي . أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة ، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت ، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حياً عاقلاً كما كان ، والدليل على صحة ذلك أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل إذ لو لم يكن هذا القبول حاصلاً لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر . وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بأجزاء بدن عمرو العاصي . وقادر على كل الممكنات ، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه وثبت أن إله العالم عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات ، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكناً قطعاً ، سواء صارت عظاماً ورفاتاً أو صارت شيئاً أبعد من العظم في قبول الحياة وهي أن تصير حجارة أو حديداً ، فهذا تقرير هذا الكلام بالدليل العقلي القاطع ، وقوله : ﴿ **كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** ﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى عن الإعادة ، وذلك كقول القائل للرجل : أتطمع في وأنا فلان فيقول : كن من شئت كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حقي) [١] .

وقد توعد الله سبحانه وتعالى هؤلاء المستبعدين قدرته فقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ۞** ﴾ (الإسراء: ٩٧-٩٩)

قال الحافظ ابن كثير (٧٠٠-٧٧٤هـ) في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذبوا ﴿ **بِآيَاتِنَا** ﴾ أي بأدلتنا وحججنا ، **واستبعدوا** وقوع البعث ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا** ﴾ بالية نخرة ﴿ **أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك ، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ **فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات**

---

[١] تفسير الرازي (٢٠/٢٢٦-٢٢٧) .

والأرض ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك [١] كما قال : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ (غافر: ٥٧) وقال ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الأحقاف: ٣٣) وقال : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞** ﴾ (يس: ٨١-٨٣) .

وقال هاهنا : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ** ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى ، ويعيدهم كما بدأهم) [٢] .

قلت بحول الله تعالى : وهؤلاء المستبعدون لقدرة الله على البعث ملبوس عليهم ، لأنهم يعترفون بأن الله خلقهم من لا شيء وفي نفس الوقت يستبعدون قدرته على الخلق من شيء ، قال تعالى : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞** ﴾ (ق: ٥)

قال الإمام ابن الجوزي (٥٠٨-٥٩٧هـ) : (﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ** ﴾ هذا جواب لقولهم : ذلك رَجْعٌ بَعيدٌ . والمعنى : أعَجَزْنا عن ابتداء الخَلْق ، وهو الخَلْق الأَوَّل ، فنعيا بالبعث وهو الخلق الثاني؟! وهذا تقرير لهم ، لأنهم اعترفوا أنه الخالق ، وأنكروا البعث ﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ** ﴾ أي : في شَكٍّ ﴿ **مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ وهو البعث) [٣] .

قال الإمام أبو البركات النسفي (ت: ٧١٠هـ) : (﴿ **أَفَعَيِينَا** ﴾ عيي بالأمر إذا لم يهتد لوجه عمله والهمزة للإنكار ﴿ **بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ** ﴾ **أي أنا لم نعجز عن الخلق الأول فكيف نعجز عن الثاني ، والاعتراف بذلك اعتراف بالإعادة** ﴿ **بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ** ﴾ **في خلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان ، وحيَّرهم ، وذلك تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح وهو أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر** ﴿ **مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ بعد الموت) [٤]

.

---

[١] أي أن إعادة الإنسان من العظام المتفتتة أسهل من خلق السماوات والأرض من العدم وهذا في تصورنا نحن ، وبالنسبة إلينا ، ولكن الله عز وجل ليس شيء أسهل عليه من شيء ، بل الأشياء كلها بالنسبة إلى دخولها تحت قدرته كشيء واحد ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞** ﴾ (يس: ٨٢)

[٢] تفسير ابن كثير (١٢٣/٥) .

[٣] تفسير ابن الجوزي (٨/٨) .

[٤] تفسير النسفي (١٧١/٤) .

فإن قالوا لك : ما تقدمت به لا يسعفك لأن الأدلة التي أتيت بها إنما هي ردٌّ على من أنكر على الأنبياء أخبارهم ، ونحن لا نختلف معكم في كفر المنكر ، وقضيتنا خاصة بالجهال الذين لم يصلهم النص الشرعي ، فاعتقدوا استحالته ، ولو اعتقدوا استحالته بعد وصول الدليل إليهم لما عذروا بذلك .

فقل لهم : هذه الأدلة التي سبقت لو فهمتوها جيداً لكفتكم ، فحري بكم أن تتدبروا كلام الله عز وجل جيداً ، فإنه الهدى والفرقان . فإذا أردتم الأدلة على كفر من جهل كمال الله عز وجل في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو بمعنى آخر الأدلة على كفر من جهل تنزه الله عز وجل مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهي كثيرة [1] ، وأنتم تزعمون أنكم توافقونا في ذلك ، ولكنكم في الحقيقة تخالفوننا لأنكم تنقضونه عند التفصيل ، فأنتم تعذرون الجاهل الذي يَعدُّ الأمر الذي شك في قدرة الله عليه محالاً لذاته ، ولذا أتيناكم بهذه الأدلة . فالآيات السابقة وإن كانت فيمن رد على الأنبياء أخبارهم فإن الله عز وجل ذكر عللاً أخرى في كفرهم .

ففي سورة يس هذا الكافر الذي ضرب لله مثلاً وعدَّ إحياء العظام البالية المتفتتة محالاً ، صحيحٌ أنه كفر من باب تكذيب خبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن ليست تلك العلة الوحيدة في كفره ، بل هناك أسباب أخرى كما وصفه الله عز وجل أنه :

أولاً : ضرب لله مثلاً ، وثانياً : نسي خلقه الأول من العدم .

فلو ضرب هذا المشرك هذا المثل لله قبل وصول النص إليه لكان كافراً أيضاً لأنه لا يجوز أن يضرب لله مثلاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — لأن فيه من الكفر ما فيه من تحديدٍ لقدرة الله عز وجل وقياسها على قدرة خلقه ، وهذا كفر مجرد قبل الخبر وبعده ، ولأن كلام هذا المشرك كلام من نسي خلقه الأول من العدم . لذلك لما ردَّ الله عز وجل عليه لم يردَّ عليه من باب أنه أنكر النص فقط ، بل ردَّ عليه بتذكيره بخلقه الأول ، وأن من قدر على الخلق الأول قدر على الخلق الثاني في آيات جليلة القدر عظيمة المعنى لمن تدبرها .

وأما قوله تعالى : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ فينبغي التوقف عندها وتدبرها جيداً ، فإليك تفسير العلماء لهذه الآية :

قال الإمام ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (وقوله : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ ، يقول: ومثَّل لنا شبها بقوله ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ إذ كان لا يقدر على إحياء ذلك أحد، يقول: **فجعلنا كمن لا يقدر على إحياء ذلك من الخلق** ﴿ **وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ يقول: ونسي خَلْقَنا إياه كيف خلقناه ، وأنه لم يكن إلا نطفة ، فجعلناها خلقا سَوِيًّا ناطقاً ، يقول : فلم يفكر في خلقناه ،

---

[1] وقد ذكرناها في المقدمة الثالثة فانظرها وتدبر كلام الله عز وجل وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم جيداً .

فيعلم أن من خلقه من نطفة حتى صار بشراً سوياً ناطقاً متصرفاً ، لا يعْجز أن يعيد الأموات أحيــاء ، والعظام الرَّميم بشَراً كهيئتهم التي كانوا بها قبل الفناء) [١] .

قال شهاب الدين الألوسي (١٢١٧-١٢٧٠هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ معطوف حينئذٍ على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار ، وأما على الأول فهو عطف على الجملة الفجائية ، والمعنى ففاجــأ خصومتنا وضرب لنا مثلاً أي أورد في شأننا قصة عجيبة في نفس الأمر هي في الغرابة كالمثل وهي إنكار إحيائنا العظام أو قصة عجيبة في زعمه **واستبعدها** وعدَّها من قبيل المثل وأنكرها أشد الإنكــار وهــي إحياؤنا إياها أو **جعل لنا مثلاً ونظيراً من الخلق وقاس قدرتنا على قدرهم** ونفى الكل على العمــوم) [٢] .

قال فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ **أي جعل قدرتنا كقــدرهم**) [٣] .

قال الإمام برهان الدين البقاعي (٨٠٩-٨٨٥هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ** ﴾ أي هذا الإنــسان ؛ وســبب النزول أبي بن خلف الجمحي الذي قتله النبي صلى الله عليه وسلم بأُحُد مبارزة ، فهــو المــراد بهــذا التبكيت بالذات وبالقصد الأول ﴿ **لَنَا** ﴾ أي على ما يعلم من عظمتنا ﴿ **مَثَلاً** ﴾ أي آلهته التي عبــدها لكونها لا تقدر على شيء مكابراً لعقله في أنه لا شيء يشبهنا ﴿ **وَنَسِيَ** ﴾ أي هذا الذي تصدى علــى نهاية أصله لمخاصمة الجبار ، وأبرز صفحته لمجادلته ، والنسيان هنا يحتمل أن يكون بمعنى الذهول ، وأن يكون بمعنى الترك ﴿ **خَلْقَهُ** ﴾ أي **خلقنا لهذا المخاصم الدال على كمال قدرتنا** ، وأن آلهته التي أشرك بها لا تقدر على شيء فافترق الحال الذي جمعه بالمثل أيَّ افتراق وصــارا مقولاً له : يــا قليل الفطنة ! ﴿ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ ؟! أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟!** ﴾ (النحل: ١٧) ، ثم استأنف الإخبار عن هذا المثل **بالإخبار عن استحالته** لأن يقدر أحد على إحياء الميت كما أن معبوداته لا تقدر على ذلك فــــقال : ﴿ **قَالَ** ﴾ أي على سبيل الإنكار : ﴿ **مَنْ يُحْيِي** ﴾) [٤] .

قال القاضي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ أمراً عجيباً وهو نفــي القــدرة على إحياء الموتى ، **أو تشبيهه بخلقه بوصفه بالعجز عما عجزوا عنه** ، ﴿ **وَنَسِيَ خَلْقَهُ** ﴾ خلقنا إياه . ﴿ **قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ منكراً إياه **مستبعداً له**) [٥] .

---

[١] تفسير الطبري (٥٥٥/٢٠) .
[٢] تفسير الألوسي (٥٤/٢٣) .
[٣] تفسير الرازي (١٠٩/٢٦) .
[٤] تفسير البقاعي (١٧٨/١٦-١٧٩) .
[٥] تفسير البيضاوي ، ص٤٤٢.

قال محمد الطاهر ابن عاشور (١٢٩٦-١٣٩٣هـ) : (وضرب المثل : إيجاده ، كما يقال : ضَرب خيمة ، وضَرب ديناراً ، وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا** ﴾ (البقرة: ٢٦) ، في سورة البقرة . والمَثل : تمثيل الحالة ، فالمعنى : وأظهر للناس **وأتى لهم بتشبيه حال قدرتنا بحال عجز الناس إذ أحال إحياءنا العظام بعد أن أرَمَّت** ، فهو كقوله تعالى : ﴿ **فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ** ﴾ (النحل: ٧٤) ، أي لا تُشَبِّهوه بخلقه فتجعلوا له شركاء لوقوعه بعد ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا** ﴾ (النحل: ٧٣)) [١] .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي (١٣٠٧-١٣٧٦هـ) : (﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً** ﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه ، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق ، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق) [٢] .

أقول بحول الله تعالى : فهذا وصْفُ الله عز وجل لمن جعل إحياء العظام الرميم محالاً أن هذا ضربُ مثلٍ لله بمعنى تشبيه الخالق بالمخلوق ، وكذلك وصف الله عز وجل هذا الذي جعل إحياء العظام الرميم محالاً بأنه نسي خلقه الأول ، فالأمر الذي نسيه وهو خلقه الأول من العدم أعظم من الأمر الذي جعله محالاً وهو خلقه من العظام الرميم .

وفي سورة ق ، ردَّ الله عز وجل على الكفار الذين جعلوا إحياءهم من جديد بعد أن صاروا تراباً أمراً محالاً ، وإذا تأملت في ردِّ الله عز وجل عليهم وبيانه سبحانه وتعالى سبب كفرهم ، ترى كيف بين أنهم كذبوا بالحق ، ومن ثم ذكَّرهم بخلق السماء والأرض والنباتات ، وإنزال المطر من السماء وكيف أن الله عز وجل أنبت به الثمار ، وكيف أن الله عز وجل أحيا بهذا المطر بلدة ميتاً ، ومن ثم وصفهم أنهم في لبس من خلق جديد ، فسمى هذا الأمر الذي جعلوه محالاً خلقاً جديداً ، فإذا كانوا يؤمنون بأن الله عز وجل لم يعجز عن الخلق الأول فكيف يجعلون الخلق الجديد محالاً ؟!

مما سبق تبين لنا وبكل وضوح وبفضل الله عز وجل أن الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عز وجل على إحياء العظام البالية المتفتتة **بحجة أن ذلك محالاً** ، بين الله عز وجل كفْرهم من عدة جوانب :

الأول : ضربهم الأمثال لله عز وجل ، وتشبيهه بخلقه ، وقياسهم قدرة الله سبحانه وتعالى على قدرة المخلوقين . ﴿ **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ۞﴾ (الحج: ٧٤) ، ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ۞﴾ (الزمر: ٦٧)

---

[١] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣/٧٤-٧٥) .

[٢] تفسير السعدي (١/٦٩٩) .

الثاني : مناقضتهم وقدحهم في إيمانهم بخلق الله تعالى لهم من العدم ، قال الله عز وجل : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ۝ ﴾ (ق: ١٥)

الثالث : مناقضتهم وقدحهم في إيمانهم بخلق الله تعالى لما في هذا الكون ، من السماوت والأرض ، وإنزله المطر من السماء حيث أنبت به الثمر ، وأحيا به بلاد كانت ميتة ، وجعله من الشجر الأخضر ناراً . قال الله عز وجل : ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ۝ ﴾ (غافر: ٥٧)

الرابع : تكذيبهم بالحق الذي جاءهم . قال الله عز وجل : ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ** ۝ ﴾ (ق: ١-٥)

فمن لم يؤمن بقدرة الله عز وجل على إحياء الإنسان من جديد بعد أن يصير عظاماً بالية أو بعد أن يصير تراباً أو عدماً محضاً **بحجة أن هذا الأمر محالٌ عنده** ، فهذا الإنسان حتى ولو كان جاهلاً لم يصله النص الشرعي يكفر لأن هذا :

أولاً : ضربُ مثلٍ لله عز وجل ، وتشبيهه بخلقه في جعل قدرته محدودة متناهية .

ثانياً : قدحٌ في الإيمان بالله عز وجل والإيمان بأن الله عز وجل هو الخالق القادر على الخلق الأول والقادر على الخلق الجديد .

ومن ثم نقول لكم : إن جاهل كمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله أو جاهل تتره الله عن النقائص والمعائب مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله لا يعد مؤمناً بالله عز وجل ، أي من جهل قدرة الله عز وجل في مسألة ما أو بمعنى آخر من جهل عدم عجز الله في مسألة ما يعتبر أنه لم يحقق الإيمان ابتداءً ، فإن كنتم توافقونا في ذلك كما تدَّعون فكيف جاز لكم وصفه بالإيمان إذا كان سبب جهله أنه عدَّ هذا الأمر محالاً ؟!

لذا نكرر عليكم السؤال ونقول لكم : كيف جاز لكم عذر الجاهل الذي لا يؤمن بقدرة الله في مسألة ما إذا ظنها محالاً لذاته ، أو بمعنى آخر ما دليلكم على أن كل من اعتبر الممكن محالاً لذاته يعذر بجهله في قضيتنا وما يتعلق بها ؟

﴿ **نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ۝ ﴾ (الأنعام: ١٤٣)

فإن قالوا دليلنا : أن الرجل لم يكفر بظنه هذا الأمر محالاً لأن قدرته العقلية كانت كذلك ولذلك عذر .

فقل لهم : هل تعنون أنه خرج من التكليف فصار فيما يقوله في حكم المجنون ؟ لأن مناط التكليف هو العقل والناس مع العقل صنفان لا ثالث لهما ، صنف لا تكليف عليه وهم المجانين والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم ، وصنف عاقل بالغ وقع التكليف عليهم ، فلا تكليف عند عدم الأهلية .

فإن قالوا : نعم ، فقل لهم : فلماذا كل هذه الفلسفة والتنطع ، فلماذا لم تقولوا منذ البداية أنه قال ما قاله من شدة خوفه بحيث ذهب تدبره فيما يقول فصار كالمجنون لا يؤاخذ بما يقول ، وحينها الدليل معكم على عذر من كانت حاله هكذا ، لأن القلم مرفوع عن المجنون حتى يعقل كما ثبت في الحديث الصحيح .

فإن قالوا : لا ، هو ليس في حكم المجنون ، ولو كنا نعده مجنوناً لذكرنا ذلك ، ولكنه رجل بسيط ضيق العقل والأفق والتصور فتصور هذا من المستحيلات كما بينا .

فقل لهم : والله إن هذا من العجب ، جعلتم الرجل ملياً بسيطاً وألصقتم عليه اعتقاد شبهة شبيهة بشبهات الفلاسفة (هل هذا الأمر ممكن أم مستحيل أم ...الخ) . ومن ثم فإن أقل رجل من أهل التمييز سواء بلغ حديثاً أو كان شخصاً عجوزاً ملياً بسيطاً يستطيع أن يؤمن بقدرة الله على كل شيء ، فالإيمان بقدرة الله عز وجل ليس له علاقة بسعة عقل المكلف ، لأن طريق الإيمان بقدرة الله عز وجل ليس عن طريق وزنه بالعقل ، بل العقل أداة لمعرفة ذلك ، وليس العقل مكيال توزن به قدرة الله عز وجل . وعلى كل حال فيلزمكم الدليل على أن كل مكلف يؤمن بقدرة الله حسب سعة عقله ! وهل هذا إلا جعل طريق الإيمان بقدرة الله عن طريق كيله بالعقول الناقصة ؟!

ويلزمكم حينها أن تعذروا كل من يقول في ذات الله أو صفاته أو أفعاله ما لا يليق به سبحانه وتعالى بناء على قصور في التصور وتفاوت في قوى الأذهان لضرورة تفاوت الناس في قوى التفكر والأبدان .

ومن ثم قل لهم : أنتم تظنون أنكم عن طريق التكلم بمصطلحات غريبة على العامة تستطيعون التمويه أو تغيير الحقائق ، فأنتم وصفتم حال الرجل بأنه عدَّ هذا الممكن (أي جمع ذراته المتفرقة في البر والبحار وإعادتها من جديد) محالاً لذاته (مثل استحالة وجود شريك لله عز وجل) ، وقلتم أنه كان يشك في قدرة الله عز وجل أو كان يجهل قدرته سبحانه في هذه الجزئية (أي كان يجهل قدرة الله سبحانه وتعالى على جمع ذراته المتفرقة في البر والبحار وإعادتها من جديد) ، ونحن نقول لكم : إن من لم يؤمن بقدرة الله عز وجل في جزئية ما لا شك أنه ينسب لله العجز في هذه الجزئية أو لا شك أنه لا يؤمن بعدم عجز الله في هذه الجزئية لأن القدرة والعجز من الأضداد اللذان لا يرتفعان معاً في آن ، وفي النهاية فخلاصة وصفكم لحال الرجل هو أنه رجل ينسب لله العجز في هذه الجزئية (أي ينسب لله العجز عن جمع ذراته المتفرقة في البر والبحار وإعادتها من جديد) أو رجل لا يؤمن بعدم عجز الله في هذه الجزئية (أي لا

يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى غير عاجز عن إعادة ذراته المتفرقة في البر والبحار وإعادتها من جديد متى ما شاء) .

فإن قالوا : نعم هذا الرجل نسب لله العجز ولكن ظناً منه أنه لم ينسب لله العجز ، ولذلك عذر .

فقل لهم : قال رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۞ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۞** ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٧)

قال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) : (إن الله عزَّ وجلَّ عنى بقوله ﴿ **هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً** ﴾ كل عامل عملاً يحسبه فيه مصيبًا وأنه لله بفعله ذلك مطيع مُرضٍ ، وهو بفعله ذلك لله مسخط ، وعن طريق أهل الإيمان به جائر ، كالرهابنة والشمامسة **وأمثالهم من أهل الاجتهاد في ضلالتهم** ، وهم مع ذلك من فعلهم واجتهادهم بالله كفرة ، من أهل أيِّ دين كانوا) [1] ... إلى أن قال :

(وقوله : ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ يقول: هم الذين لم يكن عملهم الذي عملوه في حياتهم الدنيا على هدى واستقامة ، بل كان على جور وضلالة ، وذلك أنهم عملوا بغير ما أمرهم الله به بل على كفر منهم به ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، يقول : وهم يظنون أنهم بفعلهم ذلك لله مطيعون ، وفيما ندب عباده إليه مجتهدون ، **وهذا من أدَل الدلائل على خطأ قول من زعم أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يقصد إلى الكفر بعد العلم بوحدانيته** ، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية ، أن سعيهم الذي سعوا في الدنيا ذهب ضلالاً وقد كانوا يحسبون أنهم محسنون في صنعهم ذلك ، وأخبر عنهم أنهم هم الذين كفروا بآيات ربهم . ولو كان القول كما قال الذين زعموا أنه لا يكفر بالله أحد إلا من حيث يعلم ، لوجب أن يكون هؤلاء القوم في عملهم الذي أخبر الله عنهم أنهم كانوا يحسبون فيه أنهم يحسنون صنعه ، كانوا مثابين مأجورين عليها ، ولكن القول بخلاف ما قالوا ، فأخبر جل ثناؤه عنهم أنهم بالله كفرة ، وأن أعمالهم حابطة . وعنى بقوله: ﴿ **أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ عملاً) [2] .

أقول بحول الله تعالى : فهؤلاء الكافرين الخاسرين الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم مع كل هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ومع ذلك كان جزاؤهم جهنم بما كفروا ، فالعبرة

---

[1] تفسير الطبري (١٨/١٢٧-١٢٨) .

[2] تفسير الطبري (١٨/١٢٨) .

بعمل الإنسان وليس فيما يظنه هو فيه من أنه حسن أو قبيح ، بل إن الشيطان يزين للإنسان فعل الشر فيظنه حسناً ولا يكون هذا عذراً له ، وإليك بعض الآيات في ذلك :

قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ۝ ﴾ (التوبة : ٣٧)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ۝ ﴾ (الرعد: ٣٣)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ** ۝ ﴾ (غافر: ٣٦-٣٧)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ۝ ﴾ (الأنعام: ١٢٢)

فإن من نسب لله العجز ولو ظن أنه لم ينسب لله العجز بل لو ظن بذلك أنه يعبد الله عز وجل ويتقرب إليه لا يكون هذا عذراً له ، كما لم يكن إشراك قريش أصنامهم في الدعاء بحجة تقربهم إلى الله عز وجل عذراً لهم ، قال تعالى عنهم : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ (الزمر: ٣)

فلم يعذرهم الله عز وجل بذلك ، بل أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بقتالهم . فإذا تبين لك كل ما سبق علمت أنه الكافر لا يعذر بظنه أن ما يفعله خير وحسن ، وبالله التوفيق .

فإن قالوا : إن هذا الرجل وإن لم يؤمن بقدرة الله عز وجل على إعادته إذا حرق وذري لأنه عد ذلك مستحيلاً فلا يعني أن كان يعتقد بعجز الله عز وجل ، والكفر هو الثاني لا الأول .

فقل لهم : كيف يجتمع الإيمان بعدم قدرة الله عز وجل والإيمان بعدم عجزه سبحانه وتعالى في مسألة ما في قلب رجل واحد ؟؟

فإن قالوا : إن الرجل المذكور في الحديث نفى القدرة ولكن لم يثبت لله العجز ، ونفي القدرة لا يستلزم منه إثبات العجز دائماً .

فقل لهم : وكيف ذلك ؟ فإن نفي القدرة هو عين إثبات العجز ، ونفي القدرة يستلزم إثبات العجز ولا بد باتفاق العقلاء .

وانظر إلى هذا اللعب اللغوي ، والتمويه الفلسفي ، وما ذلك إلا لكي يملحوا كفرهم على الجهلة من الناس ، وما أشبههم بهؤلاء الذين وصفهم الإمام ابن القيم رحمه الله حيث قال : (ومن أنواع الشرك : سجود المريد للشيخ فإنه شرك من الساجد والمسجود له ، والعجب : أنهم يقولون : ليس هذا سجود وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً . فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ما سميتموه فحقيقة السجود ، وضع الرأس لمن يسجد له ، وكذلك السجود للصنم وللشمس وللنجم وللحجر كله وضع الرأس قدامه) [1] .

ولتعلم أنهم يقولون : إن نفي القدرة لا يستلزم إثبات العجز دائماً ، وهذا الأمر ممكن نتصوره نحن وكذا كثير من المعتزلة ممن اعتمدوا على العقل كثيراً .

فقل لهم : قبحاً لعقل مريض يناقض صريح العقل ، وصحيح النقل .

أما مناقضة هذه العقول المريضة لصريح العقل ، فإنا نقول إن القدرة والعجز من الأضداد ، والأضداد لا يجتمعان معاً في آن ، ولا يرتفعان معاً في آن .

قال أبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا في كتابه مقاييس اللغة (٢٨٢/٣) : (والمتضادّان: الشَّيئان لا يجوز اجتماعهما في وقتٍ واحد ، كالليل والنَّهار) .

وقال صاحب كتاب الفروق اللغوية (١٤٤/١) : (وحد الضدين هو ما تنافيا في الوجود) .

وقال صاحب كتاب معجم لغة الفقهاء (٢٨٣/١) : (والمتضادان: اللذان يستحيل اجتماعهما في شئ واحد في زمن واحد) .

فعدم العجز وعدم القدرة لا يجتمعان معاً في آن واحد . فلا يكون شخص مثلاً غير قادر على فعل شيء ما وفي نفس الوقت غير عاجز على فعل نفس الشيء .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (... لم أعلم امتناع الموت عليه إلا لوجوب حياته ، ولم أعلم امتناع الجهل والعجز عليه إلا لوجوب علمه وقدرته ، ولم أعلم امتناع العدم عليه إلا لوجوب وجوده ، فإن نازعني منازع فيما أثبته وقال ليس بمجتمع أو ليس بعالم أو ليس بحي ولا قادر أو ليس بموجود وطلب مني أن أوافقه على أنه لا يجوز عليه الافتراق والعدم والموت والجهل والعجز ونحو ذلك كان **قد طلب مني موافقته على امتناع أحد الضدين دون ثبوت الآخر** الذي هو من صفات الكمال أو الذي ليس هو من صفات النقص أو الذي ليس هو عندي من صفات النقص ، وكان حينئذ من جنس **الملاحدة الذي يطلبون أن أوافقهم على أنه ليس بميت ولا عاجز ولا جاهل مع منازعتهم**

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٢٨٩/١-٢٩٠) .

لنا في أنه حي عالم قادر ، ومن طلب الموافقة على ثبوت الشيء بدون لازمه ليحتج بذلك على نفي اللازم لم يكن علينا أن نوافقه بل لم يكن لنا أن نوافقه فإن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم) [١] .

قال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ) : (ورأيت للباقلاني[٢] في فصل من كلامه أن الناس ليسوا عاجزين عن مثل هذا القرآن ولا قادرين عليه ، ولا هم عاجزون عن الصعود إلى السماء ولا عن إحياء الموتى ولا عن خلق الأجسام ولا اختراعها ولا قادرين على ذلك ، هذا نص كلامه دون تأويل منا عليه ثم قال إن القدرة لا تقع إلا حيث يقع العجز .

قال أبو محمد: وكل هذا هوس لا يأتي به إلا الممرور ، وأطم من ذلك احتجاجه بأن العجز لا يقع إلا حيث تقع القدرة ، ولا ندري في أي لغة وجد هذا الكذب أم في أي عقل وجد هذا السخف ، **وما شك ذو علم باللغة من الخاصة والعامة في بطلان قوله وفي أن العجز ضد القدرة ، وأن ما قدر الإنسان عليه فلم يعجز عنه في حين قدرته عليه ، وأن ما عجز عنه فلم يقدر عليه في حين عجزه عنه ، وإن نفي القدرة إثبات للعجز وأن نفي العجز إثبات للقدرة ، ما يجهل هذا عامي ولا خاصي أصلاً وهو أيضاً معروف بأول العقل ، والعجب أن يأتي بمثل هذه الدعاوي السخيفة بغير دليل أصلاً لكن حماقات وضلالات يطلقها هذا الجاهل وأمثاله من الفساق في دين الله تعالى فيتلقفها عنهم من أضله الله تعالى ونعوذ بالله من الخذلان** ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٢) ، فاقتضى هذا أنهم مقدور عليهم لله تعالى ، وقال تعالى ﴿ **فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ** ﴾ (الأحقاف: ٣٢) ، فوجب أنه مقدور عليه ، وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ۞ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) ، فصح أنه غير عاجز ، وبالله تعالى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين) [٣] .

قال أبو إسحاق الشيرازي (ت: ٤٧٦هـ) : (ثم يعتقدون أن الله تعالى عالم بعلم واحد قديم أزلي يتعلق بجميع المخلوقات فلا يخرج مخلوق عن علمه ؛ لأنه **لو لم يكن موصوفاً بالعلم لكان موصوفاً بضده وهو الجهل**) [٤] ، إلى أن قال : (ثم يعتقدون أن الله عز وجل قادر بقدرة واحدة قديمة أزلية تتعلق بجميع المقدورات ، فلا يخرج مقدور عن مقدوراته ، **لأن ضد القدرة العجز** ، **فلو لم يكن في الأزل موصوفاً بالقدرة لكان موصوفاً بضدها وهو العجز**) [٥] .

---

[١] بيان تلبيس الجهمية لابن القيم (٢/٢٤٩) .

[٢] لا ننسب الكذب للإمام ابن حزم أنه رأى هذا الكلام منسوباً للباقلاني ، لكن الباقلاني يتنزه عن هذه الأباطيل ، فلا شك أن نسبة هذا القول إلى الباقلاني غير صحيحة وأنها لفقت عليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم .

[٣] الفصل في الملل لابن حزم (٥/١٠٩-١١٠) .

[٤] الإشارة إلى مذهب أهل الحق لأبي إسحاق الشيرازي ، ص ٣٧٥ .

[٥] الإشارة إلى مذهب أهل الحق لأبي إسحاق الشيرازي ، ص ٣٧٦ .

وأما مناقضة هذه العقول السقيمة لصحيح النقل ، فذلك لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا** ۞﴾ (فاطر: ٤٤)

قال الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي الدمشقي (٧٣١-٧٩٢هـ) في تفسير الآية السابقة : (فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الآيَةِ عَلَى **دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ** ، وَهُوَ : **كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ** ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَقَدْ عُلِمَ ببديهة الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ ، **فَانْتَفَى الْعَجْزُ** ، **لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ** ، وَلأَنَّ الْعَاجِزَ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا) [1] .

فإن قالوا : عندنا دليل على أن نفي القدرة لا يلزم منه إثبات العجز ، وأن عدم القدرة لا يعني العجز دائماً.

فقل لهم : وما هو ؟ واحذر جوابهم لأنهم سيجيبونك بشبهة شيطانية خبيثة ولولا أن ناقل الكفر ليس بكافر وأن هذه الشبهة انتشرت كثيراً لم أكن لأنقل هذا الكلام الخبيث .

فإنهم سيقولون : نريد أن نسألكم : هل يقدر الله عز وجل على خلق إله مثله ؟

وأما أنت فإن وعيت مقدمات هذه الرسالة جيداً ، وعرفت أن هذا السؤال سؤال شيطاني وسائله كافر ، وأن الإجابة عليه بنعم كفر كما أن الإجابة عليه بلا كفر ، وأن هذا ليس بسؤال مستقيم ، بل كلام فاسد لا يجاب عليه لا بنعم ولا بلا وإنما يجاب عليه ببيان وجه فساده لا غير ، إذا علمت هذا فعليك الفرح والاستبشار بفضل الله عز وجل ورحمته عليك وشكر الله وحمده على ذلك كثيراً فإن هذا موضع زلت فيه أقدام الكثير ممن كنا نحسبهم موحدين فضلوا بسبب طاعتهم سادتهم وكبراؤهم فأضلوهم السبيل .

وبيان وجه زللهم أنهم لما سئلوا عن هذا السؤال بادروا مجيبين بنعم دون فهمهم لحقيقة السؤال الذي هو سؤال فاسد متناقض ، فلم يفهموا من السؤال إلا بدايته أي هل يقدر الله ؟ ومن الطبيعي أنهم يؤمنون بأن الله على كل شيء قدير ، ولذلك أجابوا بنعم لأنهم لم يفهموا حقيقة فساد السؤال ولا وعوه .

فلما أجابوا بنعم ثار عليهم سائلهم ، وقال لهم : لقد كفرتم لأنكم إذا قلتم أن الله يقدر على خلق إله مثله أثبتم إمكان أن يكون لله مثيلاً وهو كفر . فحار المسئول وكان كالمتحير المضطرب في تحيره المتململ في تقلبه وتغيره ، فإذا أجاب على السؤال بنعم بنية إثبات قدرة الله على كل شيء ، قيل له لقد أثبت لله شريكاً – تعالى الله عن ذلك – ، وإن فكر أن يجيب بلا فسيقال له لقد نسبت لله العجز –

---

[1] شرح العقيدة الطحاوية (٧٢/١) .

تعالى الله عن ذلك – ، وإذ بولي إبليس يقبل عليه قائلاً : يجب أن تجيب بلا فتقول أنه لا يقدر الله على خلق إله مثله لأن الله سبحانه وتعالى ليس له مثيل ، ونفي القدرة هنا لا يعني إثبات العجز ، وهذا دليلي على أن نفي القدرة لا يعني إثبات العجز . فقولي في هذا الرجل المذكور في الحديث أنه ظن أن جمع رماده المتفرق في البر والبحر من المستحيلات مثل استحالة وجود مثيل لله عز وجل ، وهو نفى القدرة على هذا لأنه ظنه مستحيلاً ، ونفي القدرة عن الله على المستحيل لا يعني إثبات العجز لله تعالى بحال . اهـ

قلت بحول الله تعالى : وكذب والله فإن نفي القدرة هنا إثبات للعجز أيضاً ، وهذا معلوم لكل ذي عقل وتفكير سليم إلا من شوه الشيطان فطرته مثل هذا الملبس على عباد الله دينهم يصور لهم هذا الباطل والشبهة الشيطانية على أنه علم وأنه عقيدة أهل السنة والجماعة ، وما هو بشيء .

وكل يدعي وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

فانظر إلى هذه الألاعيب الشيطانية الجديدة القديمة ، والتمويهات الفلسفية ، والطرق الملتوية لإضلال عباد الله عز وجل . ولعلك الآن تفهم تحذيرنا من الفلسلفة وأهل الكلام وجعله من مقدمات هذه الرسالة ، فالله المستعان وعليه التكلان .

ونقول لهم أيضاً رداً على آخر شبهة لهم مستمدين من الله الإعانة والتوفيق مستعيذين به من شرور شياطين الإنس والجن ، راجين منه أن يجيرنا من الفتن والشبهات ما ظهر منها وما بطن : أن المستحيل كاستحالة وجود شريك لله عز وجل أو كاستحالة وجود مثيل لله سبحانه وتعالى لا يوصف الله بالقدرة عليه ولا بعدم القدرة عليه ، ولا بالعجز عنه ، لأنه ليس بشيء باتفاق العقلاء ، ولا بكلام مستقيم ، وإنما عبارة عن ألاعيب شيطانية أصلها مغالطات لغوية كنا قد بينا وجه فسادها في المقدمة السادسة من هذه الرسالة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وكذلك الممتنعات مثل شريك البارئ وولده ، فإن الله يعلم أنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ويعلم أنه ليس له شريك في الملك ولا ولي من الذل ، ويعلم أنه حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويعلم أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهذه المعدومات الممتنعة ليست شيئًا باتفاق العقلاء) [1] .

وليس كما قال من تشوهت فطرته وضل عن سواء السبيل أنه يوصف الله بعدم القدرة عليه وأنه لا يعني نفي القدرة هنا إثبات العجز .

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٥٥/٢) .

قال الإمام أبو عبد الله ابن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (فإن المستحيل لا يوصف الباري تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه لاستحالة شرط تعلق القدرة ، وهذا إنما يعرفه من يعرف حقيقة الواجب والممكن والمستحيل [1]) [2] .

واعلم أنه لا مشابهة بين كلام هؤلاء وبين كلام السيوطي لما عبر بعبارة موهمة من أن الله لا يقدر على المحال لذاته . فهذه العبارة مستكرهة جداً ومموهة بالعجز ، ولولا أنه استخدمها في معرض الحديث عن المحال لذاته لقلنا أنه ينفي القدرة ، لكن السيوطي لم يكن يعني بهذا الكلام نفي القدرة بحال من الأحوال ، وإنما عنى بذلك أن المحال لذاته لا تتعلق به قدرة الله عز وجل بمعنى أن المحال لذاته لا يمكن أن يكون موضع بحث في القدرة فلا يسأل عنه بالقدرة لأنه ليس بشيء ، ولا بكلام مستقيم ، ولم يعني السيوطي أبداً نفي القدرة بحال كما بينه الشيخ أبو بطين فراجع المقدمة السادسة فإنه مهم جداً .

وأما هؤلاء أصحاب الشبهة الفلسفية والتمويه الشيطاني صرَّحوا بأنهم يعنون بكلامهم أنهم يعنون نفي القدرة ، ومن ثم أتوا بمضحكة فقالوا : (إن نفي القدرة في تلك الحالة لا يعني إثبات العجز) ليتوصلوا من هذا الأصل الفاسد إلى بنيان فاسد آخر ، وهل هذا إلا عين المحال ! فإن اجتماع عدم القدرة وعدم العجز في آن هو عين المحال الذي لا يأتي به إلا فلسفي مجنون ؟!

فهذا هو أصلهم الفاسد الذي بنوا عليه معتقدهم الكفري ، فكل ما بني على باطل فهو باطل . وعلى هذا التأويل الفاسد والتوجيه البارد لهذا الحديث يلزمهم إعذار كل من نفى قدرة الله عز وجل على شيء ما إذا ظنه محالاً ، لأنه إذا كان عُذْرُ هذا الرجل في نفيهِ قدرة الله عز وجل على خلقه من

---

[1] وحقيقة الواجب والممكن والمستحيل مما يجب الوقوف على فهمه جيداً ، فهذه الثلاثة هي التي يقال عنها أحكام العقل . ومن لم يفهم حقيقة هذه المصطلحات الثلاثة سيبقى متخبطاً لا يدري كيف يفهم كلام العلماء رحمهم الله تعالى .

فأما الواجب : فيقصدون به الحقائق البديهية التي لا تقبل النفي ، مثل وجود خالق للكون ، وكون الواحد نصف الإثنين ونحوه ، فهو ما لا يتصور في العقل عدمه .

وأما المستحيل : فيقصدون به :

١-المحال عادة ، أو ٢- المحال لذاته ، وهو العدم المحض ، أي الحقائق البديهية التي لا تقبل الوجود ، مثل استحالة وجود شريك لله عز وجل ، واستحالة أن يكون الثلاثة نصف الإثنين ، وأن يكون القصير أطول من الطويل ونحوه . أو ٣- المحال شرعاً : وهو ما لا يفعله الله عز وجل لنصه على أنه لا يفعله .

وأما الممكن : يقصدون به "الشيء" ، أي ما يقبل الوجود والنفي ، كما قال أبو حيان الأندلسي **في تفسيره البحر المحيط ص٣٣** حيث قال : (وإذا كان جميع ما في العالم ملكه ، وكان قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات ، غنياً عن جميع الحاجات ، منزهاً عن النقائص والآفات ، وبكونه قادراً على الممكنات كان قادراً على إنزال العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة ، وقادراً على تأييد رسوله بالدلائل وإعلاء دينه ، فبطل الاستهزاء والتعجيز) . اهـ

ويقصدون به أحياناً المخلوقات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ويقال لمبدع الممكنات وهى المخلوقات) . (مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥٠/١)) ، وانظر في المقدمة السادسة حول شرح أنواع المحال بتفصيل أكثر ، وبالله التوفيق .

[2] الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ، ص ١٥١ .

جديد إذا حرق وذر لظنه هذا الأمر الممكن محالاً ، فهذا العذر لن يكون مختصاً بهذا الرجل وحده بل سيكون عذراً عاماً لكل من اشترك بنفس العلة .

وأما فرحهم بعقولهم المناقضة لصريح العقل وصحيح النقل ، واستبشارهم بموافقة عقول المعتزلة لهم فلا أدري من أين أتوا بهذه الموافقة ، بل الصحيح أن عقول المعتزلة في هذه الجزئية أسلم حالاً منهم وهم أي المعتزلة في هذه الجزئية يوافقوننا نحن لا هم ، فالمعتزلة بداية وإن سموا المحال لذاته شيئًا فإنهم يعدونه من الأشياء غير المستقيمة ، وهم يوافقوننا أن المحال لذاته لا يوصف الله عز وجل بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه ، وأما هؤلاء فقد وصفوا الله عز وجل بعدم القدرة ، ووضحوا كلامهم أن هذا نفي للقدرة ، ومن ثم أضحكونا عليهم بل أذهلونا نحن والمعتزلة وجميع العقلاء بقولهم أن نفي القدرة لا يعني إثبات العجز ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قال الزمخشري المعتزلي في تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ (مريم: ٣٥) : (كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه ، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه ، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد) [١] .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ **لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ (الزمر: ٤) : (يعني : لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح ، لكونه محالاً ؛ ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضهم ويختصهم ويقربهم) [٢] .

وقال في موضع آخر : (وأما المحال الذي لا مجال فيه للقدرة ، ولا مدخل لها فيه كثاني القديم ، فلا يقال للفاعل : قد عجز عنه) [٣] .

وقال في موضع آخر مبينا أنه إذا لم يوصف الله بالقدرة على شيء فهذا يعني وصفه بالعجز عن هذا الشيء : (فإن قلت : لم سمى قوله : ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ (يس: ٧٨) مَثَلاً [٤] ؟ قلت : لما دلَّ عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، أو لما فيه من التشبيه ، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى [٥] ، **فإذا قيل** ﴿ **مَنْ**

---

[١] الكشاف للزمخشري (٢٠/٤) .

[٢] الكشاف للزمخشري (٢٨٧/٥) .

[٣] الكشاف للزمخشري (٥٥١/٣) .

[٤] قال الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ (يس: ٧٨-٧٩)

[٥] أي أن قدرة الله عز وجل على إحياء العظام البالية الرميم هو مما يعرف بدليل النشأة الأولى أي الخلق الأول من العدم ، فمن يخلق من لا شيء لا بد أن يكون بكل بساطة قادراً على الخلق من شيء .

يُحْيِي الْعِظَامَ ﴾ على طريق الإنكار لأن يكون ذلك مما يوصف الله تعالى بكونه قادراً عليه ، كان تعجيزاً لله وتشبيهاً له بخلقه في أنهم غير موصوفين بالقدرة عليه) [1] .

أقول بحول الله تعالى : وكثرة الجدال مع هؤلاء يميت القلب ، فإن رأس مالهم المكابرة وقلب الحقائق ، وكلامهم هو عين المحال الذي لا يقول به إلا أهل السفسطة والجنون ، وإلا فتسمية حقيقة الجدال الذي بيننا وبينهم كما يسميه الله عز وجل هو مجادلتهم حول جاهل قدرة الله على الخلق الآخر ، فبعث الأجساد سماه الله عز وجل خلقاً جديداً ، فقال عز من قائل : ﴿ **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** ۝ ﴾ (ق: ١٥) ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وهؤلاء الناطقين بالمحال الذين يظنون أنفسهم يتكلمون بكلام مستقيم إنما ينطقون بالباطل ويضلون عن سواء السبيل ، وقد رد الله عز وجل على الذين هم في لَبْسٍ من خلق جديد ، ولم يعذرهم بالجهل ولا بظنهم ذلك محالاً ، وقبحهم ، وتوعد القائلين بذلك كما سبق بيانه ، فهل يبقى بعد بيان الله سبحانه وتعالى بيان ، وهل يبقى لأحد كلام بعد ردِّ الله عز وجل ، فالله لا معقب لحكمه ولا رادَّ لأمره ، لا إله إلا هو ، له الملك وله الحمد ، وله الحكم وله الأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أقول بحول الله تعالى : ولقد اضطررنا إلى الرد على هؤلاء الذين يقلبون الحقائق ويتكلمون بالخزعبلات ، لأنهم أضلوا عباد الله ، واغتر بهم الجهال فظنوا أنهم يتكلمون بعلم وفي الحقيقة إن هم إلا يخرصون ، وإلا فالأفضل إرجاعهم إلى الأصل وحصر النقاش معهم حول الأصل الأصيل وهو أن الإيمان بأن الله له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله هو شرط لصحة التوحيد . وأن هذا الرجل إن كان لا يؤمن بأن الله قادر على جمعه وخلقه من جديد حتى بعد أن يصبح رماداً نصفه في البر ونصفه في البحر فإنه لا يكون مؤمناً بكمال صفة من صفات الله ألا وهي القدرة بعيداً عن التأويلات التي تترك في صدر المؤمن آثاراً وخيمة كالضيق والظلمة والكدر والحيرة . فإذا لاحت الحقائق بالأدلة الباهرة ، وظهرت الدقائق بالحجج القاطعة فلا التفات عندها إلى شَغَبِ الْمُشَنِّعِ الْمُتَحَذْلِقْ ، فإن ذلك مما لا ينهض دليلاً ، ولا يشفي غليلاً ، فالله الله في توحيدك أيها المسلم .

ولتعلم أن منشأ الغلط في شبهتهم هو من اشتراك لفظ المستحيل أو الممتنع ، وهي الطريقة التي أردت بالكثيرين إلى الانحراف في كثير من المسائل عند حملهم الألفاظ المستعملة المشتبهة على غير محملها ، ومن لم يفهم أنواع المحال سيظل متخبطاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فأساءوا الفهم لبعض أقوال أهل العلم ممن قالوا أن هذا الرجل ظن جمع الرماد المتفرق في البر والبحر محالاً وممتنعاً ، وإنما كان أهل العلم يقصدون المحال أو الممتنع الشرعي ، يدل عليه ما أوضحوه من أن الرجل كان يؤمن بأن الله على كل شيء قدير وأن الله قادر على خلقه من جديد من رماده المتفرق في البر والبحر ، ولكن ظن

---

[1] الكشاف للزمخشري (٥/١٩٦) .

إعادته من رماده المتفرق في البر والبحر محالاً ، أي يقصدون أن الرجل ظن جمع الرماد المتفرق في البر والبحر محالاً وممتنعاً لا يفعله الله عز وجل ، لا أنه لا يقدر عليه إذا أراد أن يفعله . أي جعلوا شكه في البعث وليس في قدرة الله عز وجل على جمع رماده المتفرق في البر والبحر وخلقه من جديد .

فإن الله عز وجل قادر على كل شيء ، ولكن لا يعني قدرة الله على كل شيء أنه يفعل كل شيء ، فهناك أمور لا يفعلها الله عز وجل لأنه نص على أنه لا يفعلها مثل إدخال أبي لهب الجنة ونحوه ، وهناك أمور لا يفعلها الله عز وجل لمنافاتها حكمته ، وقد أشرنا لذلك في شرح المحال شرعاً ضمن المقدمة السادسة من هذه الرسالة فراجعها غير مأمور .

قال الإمام السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) رحمه الله : (وقد ظهر لي جواب آخر في وجه عدم كفر هذا الرجل وهو قريب مناسب للفظ الحديث وذلك أن نقول : إن الرجل **لم يشك في ثبوت قدرة الله تعالى ولا في كونه قادراً** ، لكن لما كانت القدرة إنما تتعلق بالممكن لا بالواجب والمستحيل [(١)] شك في جمعه وعوده كما كان بعد أن يصير على تلك الهيئة التي أمر أن تفعل به ، هل هو ممكن فتتعلق به قدرة الله تعالى أم مستحيل فلا تتعلق به القدرة. ويدل على شكه إدخال حرف (إن) في قوله (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) فصار شكه إنما هو في ثبوت شرط تعلق القدرة [(٢)] لهذه الحالة ومثل هذا الشك باعتبار المتعلق الظاهر أنه لا يقدح . فإن قلت : يرده أنه لو شك إنسان اليوم في بعث الله تعالى للموتى بعد أن افترقوا هذا الافتراق الذي وجد في حق هذا الرجل أو بعد أن انعدموا عدماً محضاً لكونه لم يتحقق إمكانه ، لكنا نحكم بكفره ولا نعذره بجهل الإمكان ، إذ لا يتم الإيمان إلا بالتصديق بالبعث الآخر [(٣)] كما تقرر في أحاديث الإيمان ، قلت : أما من أنكر اليوم البعث رأساً فإنا نحكم بكفره لتكذيبه الكتاب والسنة وما علم من الدين ضرورة ، وليس هو نظير مسألتنا . وأما إن أقر به إلا أنه فهمه على حالة

---

(١) فالمستحيل هنا يقصد به المحال لذاته أو المحال الشرعي فهما لا يتعلقان بهما القدرة .

(٢) ثبوت شرط تعلق القدرة يعني به ثبوت الإرادة ، أي شك فيما إذا كان الله عز وجل سيريد أن يبعثه بعد أن يصير إلى الحالة التي أوصى أهله أن يصيروه إليها .

(٣) وهذه العبارة وما قبلها بقليل وما بعدها بقليل تدل على أن هذا العالم لا يتحدث عن مسألة الإيمان بقدرة الله عز وجل وإنما يتحدث عن أحد أصول الإيمان وهو الإيمان بالبعث الآخر ، والإيمان بالبعث الآخر كما سبق وبينا فيه العذر بالجهل والتأويل ، فالكفر المتعلق حول الإيمان بالبعث هو التكذيب والجحد فقط لا الجهل ، وإن كان من الناحية العملية الواقعية يبعد على الإنسان جهل أصل البعث لاقترانه بدعوة الأنبياء ، وأما تفصيل البعث فيتفاوت الناس في معرفته حسب علومهم لذا يعذرون فيه بالجهل والتأويل . والرجل الذي في الحديث ما شك في أصل البعث بل الحديث يدل على أنه مؤمن بالبعث ، ولكن لم يكن عنده علم يقطع به أن الإنسان لو فعل بنفسه ما فعل لا محالة أنه مبعوث ، فرجا بهذه الوصية أن لا يعيده الله عز وجل إذا فعل به أولاده ما أوصاهم به .

مخصوصة وشك في ثبوته على غيرها لعدم تحققه إمكانها لا عقلاً ولا شرعاً فهذا هو نظير مسألتنا ، والظاهر أنه لا يجزم بكفره والله تعالى أعلم) [1] .

أقول بحول الله تعالى : فانظر إلى هذا الكلام الجلي الواضح من أنه يقصد من المحال هنا المحال الشرعي ، وبيان ذلك أنه قال أنه ظهر له جواب في وجه عدم كفر هذا الرجل وهو قريب مناسب للفظ الحديث ، وهذا التأويل القريب المناسب للفظ الحديث هو تأويل (قَدَرَ) في الحديث من القدرة بمعناه المجازي أي بمعنى الفعل لا القدرة على الفعل أي عبر بالقدرة هنا مجازاً والمقصود إعمالها ، أي أوَّل قول الرجل (**لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ**) بمعنى (لئن أعمل الله قدرته فيَّ) ، كما سبق أن بينا تأويل بعض العلماء لقوله تعالى : ﴿ **فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأنبياء: ٨٧) بمعنى (فظن أن لن نعمل قدرتنا فيه).

ومن ثم وضح الإمام السنوسي أن هذا التأويل الذي ظهر له في وجه عدم كفر هذا الرجل أنه ليس الشك في القدرة ولا في كون الله تعالى قادراً أي قادراً على كل شيء ، ولو كان يقصد أن الرجل ظن هذا الأمر محالاً لذاته لكان الرجل عنده شاكاً في قدرة الله عز وجل ، بل الأمر كما وضح هذا العالم بنفسه وهو أن الرجل إنما (شك في جمعه وعوده كما كان بعد أن يصير على تلك الهيئة التي أمر أن تفعل به ، هل هو ممكن فتتعلق به قدرة الله تعالى أم مستحيل فلا تتعلق به القدرة) أي أن الرجل شك في جمعه وعوده كما كان بعد أن يصير على تلك الهيئة التي أمر أن تفعل به هل هذا الأمر ممكن يفعله الله أم أن الله لا يفعله لسبب ما . فعبر هذا العالم عن شرح كلمة (قَدَرَ) على أنها من القدرة بمعناه المجازي أي بمعنى الفعل وليس القدرة على الفعل ، أو أنها من القدرة مجازاً بمعنى إعمال القدرة بعبارات ومصطلحات أخرى ، ولا شك أنه كان الأولى لهذا العالم ولكل من شرح الحديث على هذا النحو أن يبتعد عن التكلف في شرح هذا الحديث الذي هو مشكل أصلاً على الكثيرين حتى يقطع الطريق على الملبسين من المتصدرين للدعوة والإفتاء ويتسنى للعوام فهمه بسهولة ويسر فيقول أن (قَدَرَ) في الحديث من القدرة بمعناه المجازي أي بمعنى الفعل وليس القدرة على الفعل أو بمعنى إعمال القدرة ، وأن الرجل لم يشك في القدرة وإنما شك في بعثه إذا صار إلى تلك الحالة التي أمر أن تفعل به ، والله تعالى أعلم وأحكم .

وأما أصحاب هذه الشبهة فلا يستدلون بقول الإمام السنوسي الحسني (٨٣٢-٨٩٥هـ) لأنه إذا أخذ بمجموعه يتضح جلياً أنه يقصد المحال الشرعي ، وإنما يستدلون بكلام أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي المعروف بشاه ولي الله الدهلوي الهندي الحنفي (١١١٠-١١٧٦هـ) حيث يقول : (وكل إنسان مكلف بما عنده من الاستطاعة وهذا تأويل ما حكاه الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من نجاة مسرف على نفسه أمر أهله بحرقه وتذرية رماده حذراً من أن يبعثه الله ويقدر عليه ، **فهذا الرجل**

---

[1] مكمل إكمال الإكمال للسنوسي (١٦٦/٩) .

استيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة ، لكن القدرة إنما هي في الممكنات لا في الممتنعات ، وكان يظن أن جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع فلم يجعل ذلك نقصاً فأخذ بقدر ما عنده من العلم و لم يعد كافراً) [1] .

وكلام الدهلوي لا شك أنه مشكل ، ولكن إذا أخذ بمجموعه على أساس القواعد العلمية والمصطلحات التي اصطلح عليها أهل العلم يتبين أنه ممكن تأويله ، فقوله (وكل إنسان مكلف بما عنده من الاستطاعة) لا يقصد الاستطاعة الذهنية بل الاستطاعة العلمية لأنه قال في آخر كلامه (فأخذ بقدر ما عنده من العلم) . والدليل على أنه يقصد بالممتنع هنا الممتنع الشرعي أو المحال الشرعي قوله : (فهذا الرجل استيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة) ، ووصفه للرجل أنه (مسرف على نفسه) و لم يقل رجل شاك في قدرة الله ، وأما قوله : (نجاة مسرف على نفسه أمر أهله بحرقه وتذرية رماده حذراً من أن يبعثه الله ويقدر عليه) أي حذراً من أن يبعثه الله ويقدر عليه بمعنى يعمل فيه قدرته ، وأما قوله : (وكان يظن أن جمع الرماد المتفرق نصفه في البر ونصفه في البحر ممتنع فلم يجعل ذلك نقصاً فأخذ بقدر ما عنده من العلم و لم يعد كافراً) أي كان يظن أن فعلته تلك قد تخرجه من الممكن إلى الممتنع أو المستحيل بمعنى أن الله لا يجمعه وبالتالي لا يحاسبه بمعنى أنه ظن إن فعل بنفسه ذلك أن الله لا يقضي عليه الإعادة ولا يبالي له مبالاة فلا يبعثه ، (فأخذ بقدر ما عنده من العلم و لم يعد كافراً) أي فهذا كان مبلغ علمه فلو كان وصله الخبر أن الله يبعث حتى من حرق وذر كما يبعث من يدفن مقبوراً لم يوص بهذه الوصية ، و لم يعد كافراً لأنه أخذ بقدر ما عنده من العلم فلم يصله علم أنه حتى الذين يحرقون ويذرون في الريح لا محالة مبعثون ، أو أن هذا ما كان قد فهمه من أدلة البعث ، ولذلك لم يعد كافراً .

قلت بحول الله تعالى : لا شك أن جنوح الدهلوي وهو من متأخري العجم إلى هذه الطريقة في الشرح فيه ما فيه ، ولكنه وضح كلامه فقال : (فهذا الرجل استيقن بأن الله متصف بالقدرة التامة) ، مما يجعل القارئ لكلامه في حيرة ، والعامي يظن كلامه متناقضاً حينها ، ولكن بعد أن يفهم أن العلماء يقصدون بالممتنع أحياناً الممتنع الشرعي سيزول عنده هذا التناقض والإشكال .

وليس هذا دفاعاً عن الدهلوي ، فهو ليس بحجة في دين الله عز وجل لا هو ولا من هو أجل شأناً منه حاشا النبي المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما لإحقاق الحق وبيان أن هذا النص الذي استشهد به أهل الزيغ والضلال لا يعني بالضرورة ما ذهبوا إليه وأنه محتمل ، وأنه إلى التأويل الذي ذكرناه أقرب إذا أخذ الكلام بمجموعه وانتبه إلى وجود قرائن في نفس الكلام قد أشرنا إليها مما يدعم التأويل الذي ذكرنا .

---

[1] حجة الله البالغة للدهلوي ، ص ١٢٦.

وقد تبع أعجمي آخر من المتأخرين طريقة الدهلوي في شرح هذا الحديث بأسلوب أشد إشكالاً ولكن نشير هنا إلى إمكانية تأويل كلامه أيضاً وإن كنا نبغض طريقته في الشرح ، لكن هذا ليس بمسوغ لتكفيره على كلام محتمل يمكن تأويله ، فهذا نص كلامه حيث قال نور الدين السندي (ت. ١١٣٨هـ) في حاشيته على سنن النسائي : (« **ثُمَّ أَذْرُونِي** » مِنْ أَذْرَاهُ أَيْ أَطَارَهُ « **فِي الرِّيحِ فِي الْبَحْرِ** » لِتَتَفَرَّقَ الأَجْزَاءُ بِحَيْثُ لاَ يَكُونُ هُنَاكَ سَبِيلٌ إِلَى جَمْعِهَا فَيَحْتَمِل أَنَّهُ رَأَى أَنَّ جَمْعَهُ يَكُون حِينَئِذٍ مُسْتَحِيلاً وَالْقُدْرَة لاَ تَتَعَلَّق بِالْمُسْتَحِيلِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ « **فَوَاللَّه لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ** » لاَ يَلْزَم أَنَّهُ نَفَى الْقُدْرَةَ فَصَارَ بِذَلِكَ كَافِرًا فَكَيْف يُغْفَرُ لَهُ وَذَلِكَ لأَنَّهُ مَا نَفَى الْقُدْرَة عَلَى مُمْكِنٍ وَإِنَّمَا فَرَضَ غَيْرَ الْمُسْتَحِيلِ مُسْتَحِيلاً فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ عِنْده أَنَّهُ مُمْكِنٌ مِنْ الدِّين بِالضَّرُورَة وَالْكُفْر هُوَ الأَوَّلُ لاَ الثَّانِي) [1]
.

قلت بحول الله تعالى : (لِتَتَفَرَّقَ الأَجْزَاءُ بِحَيْثُ لاَ يَكُونُ هُنَاكَ سَبِيلٌ إِلَى جَمْعِهَا) هذا كلام مشكل جداً ، فإن كان يقصد أنه لا يكون هناك سبيل إلى جمعها بمعنى ظن عدم قدرة الله على جمعها فهو الكفر الصراح ، أما إن كان يقصد بكلامه أنه لا يكون هناك سبيل إلى جمعها بمعنى ظنه أن الله لا يجمعها لعدم إرادته ذلك ، فممكن هذا التأويل لأنه قال في نهاية قوله : (وَإِنَّمَا فَرَضَ غَيْرَ الْمُسْتَحِيلِ مُسْتَحِيلاً فِيمَا لَمْ يَثْبُتْ عِنْده أَنَّهُ مُمْكِنٌ مِنْ الدِّين بِالضَّرُورَة) مما يدل على أنه يقصد المحال الشرعي ، ولو كان يقصد المحال العقلي كما يصوره أصحاب هذا المذهب لقال : (وإنما فرض غير المستحيل مستحيلاً فيما لم يستطع تصوره في عقله) وما شابهه .

قلت بحول الله تعالى : ولا ننكر أن كلام الدهلوي والسندي مشكل جداً ، ولكنك إذا نظرت في كلام الإمام السنوسي الواضح لرأيته كأنه جاء لتوضيح كلاً من كلام الدهلوي والسندي . واعلم أنه ما دام هناك إمكانية تأويل كلام أهل العلم بوجه مستساغ فالواجب إحسان الظن .

فإن قلت : وما الحاجة إلى هذه الطريقة في شرح الأحاديث الذي فيه فلسفة وتكلف لا حاجة إليهما ، فهذه ليست بطريقة العلماء ، إذ أن وظيفتهم البيان والتوضيح ، لا تعقيد المشكل والشرح بعبارات أهل الكلام والفلسفة .

قلت بحول الله تعالى : إن هذه المصطلحات كانت شائعة بين أهل العلم ، استخدموها للرد على أهل الفلسفة ، وبقيت معروفة بينهم . لذا لعلنا نجد لهم العذر بأنهم أرادوا بهذه المصنفات خطاب طلاب العلم ممن يعرفون مرادهم بهذه المصطلحات . لكن ننكر بلا شك على من يستخدم هذه المصطلحات فيما يصنفه للعامة ، فلا يجوز بحال أن تأتي بكلام يفهمه العامي على مجرى كفري فتنقله له وأنت على

---

[1] سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٤١٨/٤) .

علم ويقين أنه سيفهم منه المعنى الكفري ، فهذا هو الإضلال الذي لا عذر فيه ، كما أشار إلى ذلك السبكي حيث قال :

(وَالْفَقِيهُ الْمُصَنِّفُ قَدْ يَسْتَعْمِلُ مِنْ الأَلْفَاظِ مَا فِيهِ مَجَازٌ لِمَعْرِفَتِهِ أَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْرِفُونَ مُرَادَهُ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْفُقَهَاءِ ، وَأَمَّا الْمُفْتِي فَغَالِبُ مُخَاطَبَتِهِ لِلْعَوَامِّ فَلاَ يُعْذَرُ فِي ذَلِكَ وَعَلَيْهِ أَنْ لاَ يَتَكَلَّمَ بِالْمَجَازِ وَلاَ بِمَا يُفْهَمُ مِنْهُ غَيْرُ ظَاهِرِهِ) [1] .

فحذار أيها الموحد أن تنقل كلاماً يفهمه العامة في زماننا على محمل كفري بحجة أن أهل العلم ذكروه في مصنفاتهم ، فهم لم يترخصوا بهذا إلا لظنهم أن المخاطبين بمصنفاتهم يحررون معنى كلامهم ويفهمونه ، فلا تنقل إلى أي أحد كلاماً توقن منه أنه سيفهمه على معنى كفري لأنك بذلك ستكون داعية إلى الكفر ، فالله المستعان وعليه التكلان . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

---

[1] فتاوى السبكي (٤/٤٩٢) .

المذهب الرابع : قولهم : لعل الشك في قدرة الله في شرع هذا الرجل لم يكن كفراً

ذكر هذه الشبهة الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) رحمه الله ورد على من قال بها حيث ذكر في معرض شرحه لهذا الحديث : (قالت طائفة : فلعل شرع ذلك الرجل لم يكن فيه الحكم بتكفير من جهل ذلك ، أو شكَّ فيه ، والتكفير حكم من الأحكام الشرعية فيجوز أن تختلف الشرائع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ (المائدة: ٤٨)

قلت : وهذا فيه نظر ؛ لأن هاتين القاعدتين من ضروريات الشرائع ، إذ **لا تصح شريعة مع الجهل**[1] ، **فإن الله عالم ، قادر ، مريد ، ولا مع الشك فيها ، فلا بد أن تنص الرسل لقومهم على هذه الصفات ، مع أن العقول تدل عليها** ، فيكون العلم بها ضرورياً من كل الشرائع ، كما كان ذلك ضرورياً في شرعنا ، فيكون جاحد ذلك والشاك فيه مكذباً لرسوله ، وتكذيب الرسل كفر في كل شرع بالضرورة)[2] .

أقول بحول الله تعالى : إن رد الإمام أبي العباس القرطبي من أروع الردود وينبغي التوقف والتأمل في عباراته جيداً ، حيث قال بداية أن هاتين القاعدتين أي الإيمان بأن الله على كل شيء قدير وأن الله بكل شيء عليم من ضروريات الشرائع لأن معرفة الله سبحانه وتعالى لا تصح بدون هاتين القاعدتين .

وقوله (لا تصح شريعة مع الجهل) عبارة ينبغي التوقف عندها وتأملها جيداً فهي عبارة مهمة جداً ، فلا تصح شريعة مع الجهل بأصل الدين ، فالكافر لا يقبل منه عمل ولو أتى بكل الشرائع ما دام أنه لم يحقق أصل الدين ، فلا تصح شريعة مع الجهل ولا مع الشك فيها ، فتأمل .

وقوله (فلا بد أن تنص الرسل لقومهم على هذه الصفات ، مع أن العقول تدل عليها) ، لأنه من أصل الدين الذي لا يتحقق توحيد العبد إلا به ، والرسل عليهم الصلاة والسلام يبينون ذلك لمن وجد عنده خلل في ذلك لأن العقول تدل على الإيمان بكمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله كما قد ذكرنا سابقاً في ثنايا هذه الرسالة .

قال الإمام أبو عبد الله بن فرح القرطبي (ت: ٦٧١هـ) : (ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاؤوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم)[3] .

---

[1] وهذه عبارة مهمة جداً ، فلا تصح شريعة مع الجهل بأصل الدين ، فالكافر لا يقبل منه عمل ولو أتى بكل الشرائع ما دام أنه لم يحقق أصل الدين ، فلا تصح شريعة مع الجهل ولا مع الشك فيها ، فتأمل .

[2] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٥-٧٦) .

[3] تفسير القرطبي (٨/٢٨٦-٢٨٧) .

ولقد أشار الإمام الكبير شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) في كلام رائع على الأصول التي اتفقت عليها الشرائع حيث قال :

(جميع النبوات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول .

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ، ولا شافع إلا من بعد إذنه .

الثاني : أنه لا والد له ولا ولد ، ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه ، ولا زوجة .

الثالث : أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه .

الرابع : أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك .

الخامس : أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته ، بل ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

السادس : أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته ، ولا يحل في ذاته شيء منها ، بل هو بائن عن خلقه بذاته ، والخلق بائنون عنه .

السابع : أنه أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل شيء ، وفوق كل شيء ، وعال على كل شيء ، وليس فوقه شيء البتة .

الثامن : أنه قادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء يريده ، بل هو الفعال لما يريد .

التاسع : أنه عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وما تسقط من ورقة إلا بعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته .

العاشر : أنه سميع بصير ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات ، وبصره بجميع المبصرات ، وعلمه بجميع المعلومات ، وقدرته بجميع المقدورات ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، وعمت رحمته جميع المخلوقات ، ووسع كرسيه الأرض والسموات .

الحادي عشر : أنه الشاهد الذي لا يغيب ، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه ، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم .

الثاني عشر : أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت .

الثالث عشر : أنه المتكلم الآمر الناهي ، قائل الحق ، وهادي السبيل ، ومرسل الرسل ، ومنزل الكتب ، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

الرابع عشر : أنه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلاً ولا أصدق منه حديثاً ، وهو لا يخلف الميعاد .

الخامس عشر : أنه تعالى صمد بجميع الصمدية ، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته .

السادس عشر : أنه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص .

السابع عشر : أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

الثامن عشر : أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم ولا يخاف عباده منه ظلماً .

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل ، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً . فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله وتمسكوا بالمتشابه من المعاني ، والمجمل من الألفاظ ، وأقوال من ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفة وتباينه أعظم المباينة) [١] .

قلت بحول الله تعالى : إنها السُّنن [٢] ، وما أشبه الليلة بالبارحة ، فأصل دين الذين يعذرون بالجهل ويعطون وصف الإسلام لمن جهل رب العالمين يخالف هذه الأصول أشد المخالفة ويباينه أشد المباينة ، فأصل دين هؤلاء المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين هو التلفظ بالشهادتين مجرد تلفظ ولو كان يعبد الواحد غير الله عز وجل جاهلاً أو متأولاً ، والإقرار بأن الله هو الخالق الرازق ولو كان هذا الإقرار يصاحبه القدح والشك في كمال الله عز وجل في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . وسبب ضلال هؤلاء تمسكهم بالمتشابه من المعاني كما في هذا الحديث ، وبعض الأقوال المنسوبة للأئمة الأعلام مما سيأتي مزيد بيان حولها في الجزء الثاني من هذه الرسالة بحول الله تعالى . فتركوا المحكم إلى المتشابه من المعاني ، وتركوا نصوص الوحي والتنزيل إلى نصوص من لم يتعبدنا الله عز وجل باتباعهم ، ومن هم ليسوا معصومين من الخطأ والزلل ، فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، فنسأل الله السلامة .

---

[١] هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى ، ص ٢١٦-٢١٧ .

[٢] أخرج الإمام مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « **لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ** ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ آلْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ « **فَمَنْ** » . « صحيح مسلم ، كتاب العلم / باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، ط. المكنز (حديث رقم ٦٩٥٢ ، ص ١٣٧٥-١٣٧٦) ، الطبعة السلطانية (٥٧/٨) .

المذهب الخامس : قولهم : أن هذا الرجل وإن كان شاكاً في قدرة الله فهو لم يرتكب شركاً

وهذا هو مذهب كثير من أدعياء السلفية وأدعياء التوحيد ، حيث يقولون أن المسألة ليست لها علاقة بالشرك بل هي مسألة في الصفات وهي صفة القدرة ويقولون أن فيه العذر بخلاف الشرك بالله عز وجل . وقبل بيان بطلانه أريد سرد أقوال العلماء خلال شرح هذا الحديث واعتبارهم نفي القدرة عن الله بأي حال من الأحوال من الشرك بالله عز وجل .

قال الإمام أبو جعفر الطحاوي (٢٣٩-٣٢١هـ) : (وَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْمُوصِي مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِيهِ : (**فَوَاللَّهِ لاَ يَقْدِرُ عَلَيَّ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) لَيْسَ عَلَى نَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ فِي حَالٍ مِنْ الأَحْوَالِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَكَانَ كَافِرًا ، وَلَمَا جَازَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ ، وَلاَ أَنْ يُدْخِلَهُ جَنَّتَهُ ؛ لأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)[1] .

قال القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣-٤٩٤هـ) : (وَلاَ يَصِحُّ أَنْ يُرِيدَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُذْرَى نِصْفُهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُ فِي الْبَحْرِ أَنَّهُ رَجَاءَ أَنْ يُعْجِزَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَاعْتَقَدَ بِأَنَّ الْبَارِيَ لاَ يَقْدِرُ عَلَى إعَادَتِهِ مَعَ هَذَا الْفِعْلِ ؛ **لأَنَّ مَنْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ كَفَرَ** وَالْكَافِرُ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨) ، وَقَوْلُهُ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ (الأعراف: ٤٠))[2] .

ونحوه كثير من أقوال العلماء الذين استدلوا بآيات عدم غفران الشرك على حادثة هذا الرجل ، لأن إخراج أي شيء من عموم قدرة الله عز وجل أو من عموم علمه سبحانه وتعالى من الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل .

وسبب ضلال القوم – هداهم الله – ظنهم أن ما لا يعذر فيه بالجهل هو الشرك في العبادة فقط ، وظنهم أن الشرك هو إشراك غير الله معه أو دونه في العبادة أو بصفة من صفات الربوبية فقط . وعلى هذا الفهم سيخرجون بعض ما يخالف توحيد الربوبية والألوهية من مسمى الشرك أو أصل الدين ، فإن ما يخالف توحيد الربوبية ليس إشراك (وهذا الإشراك إما يكون بالتمثيل وإما يكون بالتشبيه) غير الله معه في صفة من صفات الربوبية فقط بل تعطيل (أي نفي) هذه الصفات أيضاً ، وإن ما يخالف توحيد الألوهية ليس إشراك غير الله معه في العبادة فقط بل الإعراض عن عبادة الله عز وجل أيضاً . وقد أشار

---

[1] شرح مشكل الآثار للطحاوي (٢٩/٢) .

[2] المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد الباجي (٣٣/١) .

الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) إلى أنواع المخالفين في التوحيد بكلام رائع حيث قال :

(فالتوحيد العلمي الخبري له ضدان : التعطيل ، والتشبيه ، والتمثيل . فمن نفى صفات الرب عز وجل وعطلها كذب تعطيله توحيده ، ومن شبهه بخلقه ومثله بهم كذب تشبيهه وتمثيله توحيده .

والتوحيد الإرادي العملي له ضدان : الإعراض عن محبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والإشراك به في ذلك ، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه) [1] .

فمن العلماء من جعل التعطيل أحد أنواع الشرك لمخالفته التوحيد ، ومن العلماء من جعل التعطيل من أنواع الكفر وجعلوا الشرك لفظاً عاماً يشمل جميع أنواع الكفر ، واتفقوا جميعهم على أن المعطل شر من المشرك في العبادة المقر بصفات الرب جل وعلا .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (وأصل الشرك إما **التعطيل** مثل تعطيل فرعون موسى ، والذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم ، والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهدى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، وإما **الإشراك** وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل وأهله خصوم جمهور الأنبياء ، وفي خصوم إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم معطلة ومشركة ، لكن التعطيل المحض للذات قليل ، **وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال ، وهو مستلزم لتعطيل الذات**) [2] .

قال الإمام تقي الدين المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ) : (الشرك شركان : شرك متعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله . وشرك في عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ... وأما الشرك الأول : فهو نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون في قوله : ﴿ **وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الشعراء: ٢٣) ... وهو ثلاثة أقسام :

أحدها : تعطيل المصنوع عن صانعه .

الثاني : تعطيل الصانع عن كماله الثابت له .

الثالث : تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .

ومن هذا شرك أهل الوحدة ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها العقول والنفوس ، ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة .

---

[1] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ، ص ٤٣ .

[2] منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢٩٢/٣) .

النوع الثاني : **شرك التمثيل** : وهو شرك من جعل معه تعالى إلها آخر ، كالنصارى في المسيح ، واليهود في عزير ، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى "النور" وحوادث الشر إلى "الظلمة" . وشرك القدرية المجوسية مختصر منه ...) [1] .

وقد شرح ابن دقيق العيد حديث أبي بكرة رضي الله عنه وبين من خلاله أن الشرك لفظ عام يشمل كل كفر وأقبحه التعطيل ، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ** » ثَلاَثًا . قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « **الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** » ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : « **أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ** » ، قَالَ : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) [2] ، فقال ابن دقيق العيد في معرض شرحه لهذا الحديث :

(قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ « **الإِشْرَاكُ بِاللَّه** » يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ : مُطْلَقُ الْكُفْرِ ، فَيَكُونُ تَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لِغَلَبَتِهِ فِي الْوُجُودِ ، لاَ سِيَّمَا فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ ، فَذُكِرَ تَنْبِيهًا عَلَى غَيْرِهِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ : خُصُوصُهُ ، إلاَّ أَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى هَذَا الاحْتِمَالِ : أَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ قُبْحًا مِنْ الإِشْرَاكِ ، وَهُوَ كُفْرُ التَّعْطِيلِ ، فَبِهَذَا يَتَرَجَّحُ الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ) [3] .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما أن من أقر لملك بالملك و لم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الْمُلك لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور تقرباً إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكاً ، هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول . **فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً ؟!**) [4] .

وقال في موضع آخر : (فالمعطل شر من المشرك ، فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو والتشريك بينه وبين غيره في الملك ، **فالمعطلون أعداء الرسل بالذات** ، **بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل** ، فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه ، وظن السوء به لما أشرك به ، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه : ﴿ **أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۞ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِين ۞** ﴾ (الصافات: ٨٦-٨٧) أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ، وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان ، أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من

---

[1] تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ، ص ٦٠-٦١ .

[2] صحيح البخاري ، كتاب الشهادات / باب ما قبل في شهادة الزور ، ط. المكتز (ص٧٢٢ ، حديث رقم: ٢٦٥٤) ، الطبعة السلطانية (١٧٢/٣) .

[3] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، باب القضاء ، ص ٩١٩ .

[4] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ، ص ١٥٥ .

أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك ، أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ، أم هو قاسٍ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده ، أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة ، أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ، والمقصود أن **التعطيل مبدأ الشرك وأساسه** فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله فمستقل ومستكثر) [1] .

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٢/٤٨٦) .

المذهب السادس : قولهم : أن هذا الرجل أخطأ في توحيد الربوبية وفيه العذر بخلاف توحيد الألوهية

ويقول بهذا المذهب بعض المنتسبين للسلفية ، وقد مضى بيان أن المخالفة في توحيد الربوبية أفحش من المخالفة في توحيد الألوهية ، وأن المعطل شر من المشرك المقر بربوبية الله عز وجل .

فاعلم أن توحيد الربوبية أو توحيد العلم والمعرفة هو أصل التوحيد شرعاً وعقلاً كما أشار لذلك شيخ الإسلام محمد ابن عبد الوهاب حين قال : (فأما توحيد الربوبية فهو الأصل ولا يغلط في الإلهية إلا من لم يعطه حقه ، كما قال تعالى فيمن أقر **بمسألة منه** : ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ (الزخرف: ٨٧))[1] .

فإن كان القوم يوافقوننا على عدم عذر المخالف في توحيد الألوهية فإنهم لا بد أن يوافقوننا على عدم عذر المخالف في توحيد الربوبية أيضاً ، لأن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ولا بد ، كما أشار لذلك الإمام القاضي ابن أبي العز الحنفي الدمشقي (٧٣١-٧٩٢هـ) في شرحه للطحاوية حيث قال : (وَتَوْحِيدُ الإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ ، فَمَنْ لاَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا ، وَالْعَاجِزُ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٩١) ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النحل: ١٧) ، وقال تَعَالَى : ﴿ **قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٤٢))[2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية ونفى الربوبية يوجب نفى الإلهية إذ الإلهية هي الغاية وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية ، وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية وإن كان معلوماً بالفطرة الضرورية البديهية وبالشريعة النبوية الإلهية فهو أيضاً معلوم بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية)[3] . وقال رحمه الله في موضع آخر : (وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذ يكون موحداً لله)[4] .

---

[1] الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٦٤/٢) .

[2] شرح العقيدة الطحاوية (٤١/١) .

[3] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٧/٢) .

[4] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢٥/١٠) .

وقال رحمه الله في موضع آخر : (الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد وهما إثبات صفات الكمال رداً على أهل التعطيل ، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو رداً على المشركين) [(١)] .

وقال رحمه الله في موضع آخر : (والقرآن يذكر فيه الرد على المعطلة تارة ، كالرد على فرعون وأمثاله ، ويذكر فيه الرد على المشركين ، وهذا أكثر ، لأن القرآن شفاء لما في الصدور ، ومرض الإشراك أكثر في الناس من مرض التعطيل) [(٢)] .

لا كما فهمه بعض من اقتصر على بعض أقوال أهل العلم من أن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءت خصيصاً لتوحيد العبادة ففهموا من هذا إهمال إبطال التعطيل ، فلا يعني تركيز دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام عموماً على توحيد العبادة إهمال إبطال التعطيل بحال من الأحوال ، بل هذا لا يعني إلا شيئًا واحداً وهو أن مرض الإشراك كان منتشراً في أقوامهم أكثر من التعطيل ولذلك ركزوا على دواء المرض المنتشر أكثر ، بالإضافة إلى أن الدعوة إلى توحيد الألوهية كان يقارنه الدعوة إلى توحيد الربوبية ، وهذا واضح في كتاب الله عز وجل .

قال الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞** ﴾ (النمل: ٥٩-٦٤)

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) : (نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع ، ولم يولد فيكون له أصل ، ولم يكن له كفواً أحد فيكون له نظير ، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال) [(٣)] .

فالتوحيدين لا ينفك أحدهما عن الآخر ودعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى ألوهية الله عز وجل تتضمن في طياتها الدعوة إلى ربوبيته سبحانه وتعالى . فمن السذاجة الجمود على بعض الأقوال

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/٨٣) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/٨٣) .

(٣) بدائع الفوائد لابن القيم (١/٢٤٣-٢٤٤) .

والاكتفاء بظاهر ما دلت عليه دون الوقوف على مناسبة ورودها أو حقيقة مراد أصحابها . لذا لا يصح بحال أن نقرر وجوب دعوة الناس إلى إفراده سبحانه بالعبادة وقبول الإسلام منهم مع ما يلحقونه من نقص في ذات الله أو صفاته أو أفعاله ، فهذه ليست حقيقة دعوة الأنبياء والمرسلين ، ولا يقوله عاقل فضلاً عن مسلم ، والله المستعان وعليه التكلان .

الفصل الثامن : مذهب الرافضة في هذا الحديث خير من مذهب أهل الزيغ والضلال من أدعياء التوحيد وأدعياء السلفية ، فيا لله العجب !

إن من الغريب العجيب ، أن يكون مذهب أهل الزيغ والضلال من المنتسبين للتوحيد وللسلفية زوراً وبهتاناً في شرح هذا الحديث أضل من مذهب الرافضة في ذلك . وإليك ما قاله أحد الرافضة حول هذا الحديث مما يشتمل على حق وباطل .

قال جعفر السبحاني الرافضي : (وفي الرواية تساؤلات :

أولاً: الظاهر أنَّ الموصي أوصى بما أوصى لئلا يُحشر ويعذب ، وزعم أنَّه سبحانه لا يقدر على حشره إذا أحرق بدنه وذُرَّ رماد بدنه في الريح ، كما هو ظاهر قوله على ما نقل أبو هريرة « **فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا** » ، وهذا اعتقاد بعجزه سبحانه من حشره إذا حرق وذُرَّ .

وهذا النوع من العقيدة جهل بقدرته سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧) وهو موجب للعقاب لا للغفران ، ولما وقف ابن حجر على ذلك اعتذر بأنَّ الرجل قال ذلك في حالة دهشته وغلبة الخوف عليه ، حتى ذهب بعقله لما يقول ، و لم يقله قاصداً لحقيقة معناه ، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه .

وأنت خبير بأنَّ تلك الوصية بالنحو الوارد في الرواية كاشفة عن أنَّه أوصى بذلك وهو في سلامة عقله، فكيف يحمل على أنّه أوصى ذاهلاً وناسياً ؟) إلى أن قال : (فنخلص إلى القول: بأنَّ الرواية تخالف الذكر الحكيم ، مضافاً إلى أنّها أشبه بالإسرائيليات التي روَّج لها مستسلمة أهل الكتاب [١] ، ثمَّ نشرها السُّذَّج في أوساط المسلمين دون وعي) [٢] .

أقول بحول الله تعالى : فمن الغريب أن يدافع رافضي عن حقيقة إيمانية ثابتة وهو أن من لم يؤمن بقدرة الله سبحانه وتعالى على حشر شخص إذا حرق وذر أنه ممن لم يقدر الله حق قدره ، أي لم يعرف الله بعد ، ويأتي بعد ذلك أدعياء التوحيد والسلفية ليقولوا أن الشك في بعض أجزاء القدرة جهلاً لا يكفر به المرء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

[١] الحديث لا يناقض كلام الله عز وجل كما قد بينا ، ولا يقال أن المسلمين كانوا يروجون للكفر .

[٢] الحديث النبوي بين الرواية والدراية ، ص ١٧٣-١٧٤ .

الفصل التاسع : فوائد أخرى في الحديث

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) ناقلا قول ابن أبي جمرة : (قَالَ : وَفِي الْحَدِيث جَوَاز تَسْمِيَة الشَّيْء بِمَا قَرُبَ مِنْهُ ؛ لأَنَّهُ قَالَ حَضَرَهُ الْمَوْت وَإِنَّمَا الَّذِي حَضَرَهُ فِي تِلْكَ الْحَالَة عَلامَاتُهُ ، وَفِيهِ فَضْل الأُمَّة الْمُحَمَّدِيَّة لِمَا خُفِّفَ عَنْهُمْ مِنْ وَضْع مِثْل هَذِهِ الآصَار ، وَمَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْحَنِيفِيَّة السَّمْحَة ، وَفِيهِ عِظَم قُدْرَة اللَّه تَعَالَى أَنْ جَمَعَ جَسَدَ الْمَذْكُور بَعْد أَنْ تَفَرَّقَ ذَلِكَ التَّفْرِيق الشَّدِيد . قُلْت وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ ذَلِكَ إِخْبَار عَمَّا يَكُون يَوْم الْقِيَامَة ، وَتَقْرِير ذَلِكَ مُسْتَوْفًى) [١] .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) : (قَوْله : « **فَأَمَرَ اللَّهُ الأَرْضَ فَقَالَ : اجْمَعِي مَا فِيك مِنْهُ ، فَفَعَلَتْ** » ، وَفِي حَدِيث سَلْمَان الْفَارِسِيِّ عِنْد أَبِي عَوَانَة فِي صَحِيحه : « **فَقَالَ اللَّه لَهُ كُنْ فَكَانَ كَأَسْرَع مِنْ طَرْفَة الْعَيْن** » وَهَذَا جَمِيعه كَمَا قَالَ اِبْن عَقِيل إِخْبَار عَمَّا سَيَقَعُ لَهُ يَوْم الْقِيَامَة ، وَلَيْسَ كَمَا قَالَ بَعْضهمْ إِنَّهُ خَاطَبَ رُوحه ، فَإِنَّ ذَلِكَ لاَ يُنَاسِب قَوْله : « **فَجَمَعَهُ اللَّه** » لأَنَّ التَّحْرِيق وَالتَّفْرِيق إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى الْجَسَد وَهُوَ الَّذِي يُجْمَع وَيُعَاد عِنْد الْبَعْث) [٢] .

قال القاضي عياض الأندلسي (٤٧٦-٥٤٤هـ) : (وفيه فضيلة الخوف والخشية ، وأنها من مقامات الإيمان وأركان الإسلام ، وهي التي نفعت آخراً هذا المسرف وغفر له بسببها) [٣] .

قال الإمام أبو الحسن ابن بطال القرطبي (ت: ٤٤٩هـ) : (فغفر الله له بشدة مخافته ، وأقرب الوسائل إلى الله خوفه وأن لا يأمن المؤمن مَكْرَهُ ، قال خالد الربعي : وجدت فاتحة زبور داود : (رأس الحكمة خشية الربِّ) . وكان السلف الصالح قد أشرب الخوف من الله قلوبهم ، واستقلوا أعمالهم ، ويخافون ألا يقبل منهم مع مجانبتهم الكبائر ، فروي عن عائشة أنها سألت النبي عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ (المؤمنون: ٦٠) ، قال : « **يا ابنة الصديِّق ، هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، ويخافون ألا يقبل منهم** » [٤] .

---

[١] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٣٢٢/١١) .

[٢] فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٦٠٤/٦) .

[٣] إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض (٢٥٦/٨) .

[٤] لم أجده بهذا اللفظ ، والحديث أخرجه الترمذي في سننه أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم قالت : (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم عَنْ هَذِهِ الآيَة : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ (المؤمنون: ٦٠) ، قَالَتْ عَائِشَةُ : (أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ ؟) قَالَ : « **لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ** » (سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن / باب ومن سورة المؤمنون ، ط. المكنز (حديث رقم: ٣٤٧٥، ص ٩٦١)) ، وكذلك أخرجه ابن ماجة في سننه (ط. المكنز ، حديث رقم: ٤١٩٨ ، ص ٧٣٨) بلفظ قريب .

وقال مطرف بن عبد الله : (كاد خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة) . وقال بكر لما نظر إلى أهل عرفات : (ظننت أنه قد غفر لهم لولا أني كنت معهم) .

فهذه صفة العلماء بالله الخائفين له ، يعدون أنفسهم من الظالمين الخاطئين وهم أنزاه برآء ، أو مع المقصرين وهم أكياس مجتهدون ، لا يدلون عليه بالأعمال فهم مروّعون خاشعون وجلون .

وقال عبد الله بن مسعود : (وددت أني انفلقت عن روثة لا أنتسب إلا إليها ، فيقال : عبد الله بن روثة ، وأن الله قد غفر لي ذنبًا واحدًا) .

وقال الحسن البصري : (يخرج من النار رجل بعد ألف عام ، وليتني كنت ذلك الرجل ، لقد شهدت أقوامًا كانوا أزهد فيما أحل لهم منكم فيما حرم عليكم ، ولهم كانوا أبصر بقلوبهم منكم بأبصاركم ، ولهم كانوا أشفق أن لا تقبل حسناتهم منكم ألا تؤخذوا بسيئاتكم) .

وقال حكيم من الحكماء : (إذا أردت أن تعلم قدرك عند الله فاعلم قدر طاعة الله في قلبك) .

وقال ميمون بن مهران : (ما فينا خير إلا أنا نظرنا إلى قوم ركبوا الجرائم وعففنا عنها ، فظننا أن فينا خيرًا وليس فينا خير)) [١] .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) : (ومعظم فوائد هذا الحديث أن المسرف على نفسه لا ييأس من رحمة الله تعالى ومغفرته ، وفيه ما يدل على أنه كان من شرائع من قبلنا أن للرجل أن يورث ماله من يشاء من الناس ، فنسخ ذلك شرعنا) [٢] .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (التَّاسِعَةُ : فِي هَذَا الْحَدِيث فَضِيلَةُ خَوْف اللَّه تَعَالَى وَغَلَبَتُهَا عَلَى الْعَبْد وَأَنَّهَا مِنْ مَقَامَاتِ الإِيمَانِ وَأَرْكَانِ الإِسْلاَمِ وَبِهَا انْتَفَعَ هَذَا الْمُسْرِفُ وَحَصَلَتْ لَهُ الْمَغْفِرَةُ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لاَ ضَرَرَ فِي غَلَبَةِ الْخَوْفِ وَإِنْ كَانَتْ بِقُرْبِ الْوَفَاةِ وَإِنْ كَانَ الْعُلَمَاءُ رَجَّحُوا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ تَغْلِيبَ جَانِبِ الرَّجَاءِ عَلَى جَانِبِ الْخَوْف) [٣] .

قال القاضي أبي زرعة العراقي (٧٦٢-٨٢٦هـ) : (الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : وَفِيهِ بَيَانُ سَعَة رَحْمَة اللَّه تَعَالَى وَمَغْفِرَته وَأَنَّ الْمُسْرِفَ عَلَى نَفْسِه لاَ يَيْأَسُ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّه إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ۞﴾ (الزمر: ٥٣) وَقِيلَ إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَاب اللَّهِ تَعَالَى) [٤] .

---

[١] شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٩٠-١٩١) .

[٢] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/٧٩) .

[٣] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٦٩-٢٧٠) .

[٤] طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي (٣/٢٧٠) .

قال محمد تقي العثماني : (وأما قصة الرجل الذي أوصى بتحريقه ، فإنها تنفي اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى ، فليكن الإنسان دائراً بين الخوف والرجاء ، ولذلك أتبع الإمام الزهري رحمه الله حديث الرجل بحديث الهرة ليستوي الطرفان) [١] .

قال محمد تقي العثماني : (قوله : « **لَأُوَلِّيَنَّ مِيرَاثِي غَيْرَكُمْ** » إما أن يكون ذلك جائزاً في شريعتهم ، أو قال ذلك وهو لا يعرف الحكم الشرعي ، والحكم الثابت في شريعتنا أنه لا يجوز لمورث أن يحرم وارثاً من ورثته) [٢] .

---

[١] تكملة فتح الملهم (٦/٢٠) .

[٢] تكملة فتح الملهم (٦/٢٠-٢١) .

خاتمة

الحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا يرضى ، والصلاة والسلام على نبي الهدى ، وعلى آله وصحبه الذين اجتبى ، وبعد ،

أريد في ختام هذا الجزء من هذه الرسالة توجيه نصيحة لصنفين من الناس هم المتبوعين والأتباع .

أقول للمتبوعين : تذكروا يهدينا وإياكم الله ، أن الحق أحق بالإتباع ، ولو جاءكم من أبغض الرجال إليكم ، أو من تظنون أنهم دونكم في العلم والفضل والعمل ، فإن مرارة قبول الحق منهم أقل مرارة من عذاب السعير ، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بأصل التوحيد ، فإما إلى روح وريحان وجنة نعيم وإما إلى خسران ونيران ودار جحيم .

وإن الله سائلكم غداً عن ما استرعاكم ، فماذا أنتم قائلون ؟!

وأما لمن تبعوا شيوخهم الأحياء على غير ما بصيرة ، أو تبعوا ما أشكل عليهم من أقوال العلماء ، أو المنسوب إليهم و لم يقولوه ، نقول لهم : قال الله عز وجل في كتابه الكريم :

﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ۞ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ۞﴾ (البقرة: ١٦٥-١٦٧)

فشيوخكم وعلمائكم لن ينقذوكم من عذاب السعير بل سيتبرأون منكم .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۞﴾ (الشعراء: ٨٨-٨٩)

فأعدوا - يهدينا الله وإياكم - ليوم يقول الله عز وجل عنه :

﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۞﴾ (الزخرف: ٦٧)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) : (فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئاً مما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو تردَّه لأجل هواك ، أو انتصاراً لمذهبك ، أو لشيخك ، أو لأجل اشتغالك بالشهوات ، أو بالدنيا ، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والأخذ بما جاء به ، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق ، واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ما سأله الله عن مخالفة أحد ، فإن من يطاع إنما يطاع تبعاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم ما أطيع ، فاعلم ذلك ، واسمع وأطع ، واتبع ولا تبتدع ، تكن أبتراً مردوداً عليك عملك ، بل لا خير في عمل أبتر من الإتباع ، ولا خير في عامله ،

والله أعلم) [1] .

اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين نصر الحجة التي ندحض بها باطلهم ، ونصر الأسنة التي نعلي بها راية التوحيد ، إنك لطيف لما تشاء ، أنت مولانا فاهدنا ووفقنا وسددنا وأصلحنا ، لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك ، وأنت على كل شيء قدير . وصل اللهم وسلم على حبيبنا وإمامنا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

ورحم الله الإمام الصنعاني حين قال :

فَـمِنْهُ تَعَـالَى فَيْضُ كُلِّ هِـدَايَةٍ وَمِنْهُ يُـرْجَى كُـلُّ مَا هُـوَ نَـافِعُ
إِلهي ! وَهَـذَا جَهْدُ مَنْ هُوَ نَاصِحٌ عَسَى وَعَسَى فِي النَّاسِ لِلنُّصْحِ سَامِعُ

تم الجزء الأول بتوفيق الله عز وجل ومنِّه وكرمه ، ويليه الجزء الثاني بإذن الله تعالى ، وفيه بيان النصوص المشكلة التي وردت في ثنايا كتب أهل العلم مما يتعلق بالشبهات التي ذكرت في هذا الجزء ، وتوجيه ما تصح نسبته بالتأويل المستساغ ، وتمييز ما لا تصح نسبته بالدليل والبرهان ، وبالله تعالى التوفيق .

وَإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الْخَلَلَ ... جَلَّ مَنْ لاَ عَيْبَ فِيه وَعَلاَ

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/٥٢٨-٥٢٩) .

فهرس المحتويات

الباب الثاني : الدحض المبين لبعض شبهات المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين وعن إسلام الشاكين في أصل دين الأنبياء والمرسلين

الباب الثالث : تنزيه الأنبياء والأولياء من مقالات الأغبياء والظالمين السفهاء

الباب الرابع : حديث الرجل الموحد المسرف على نفسه من المعاصي الموصي أولاده بحرق جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً